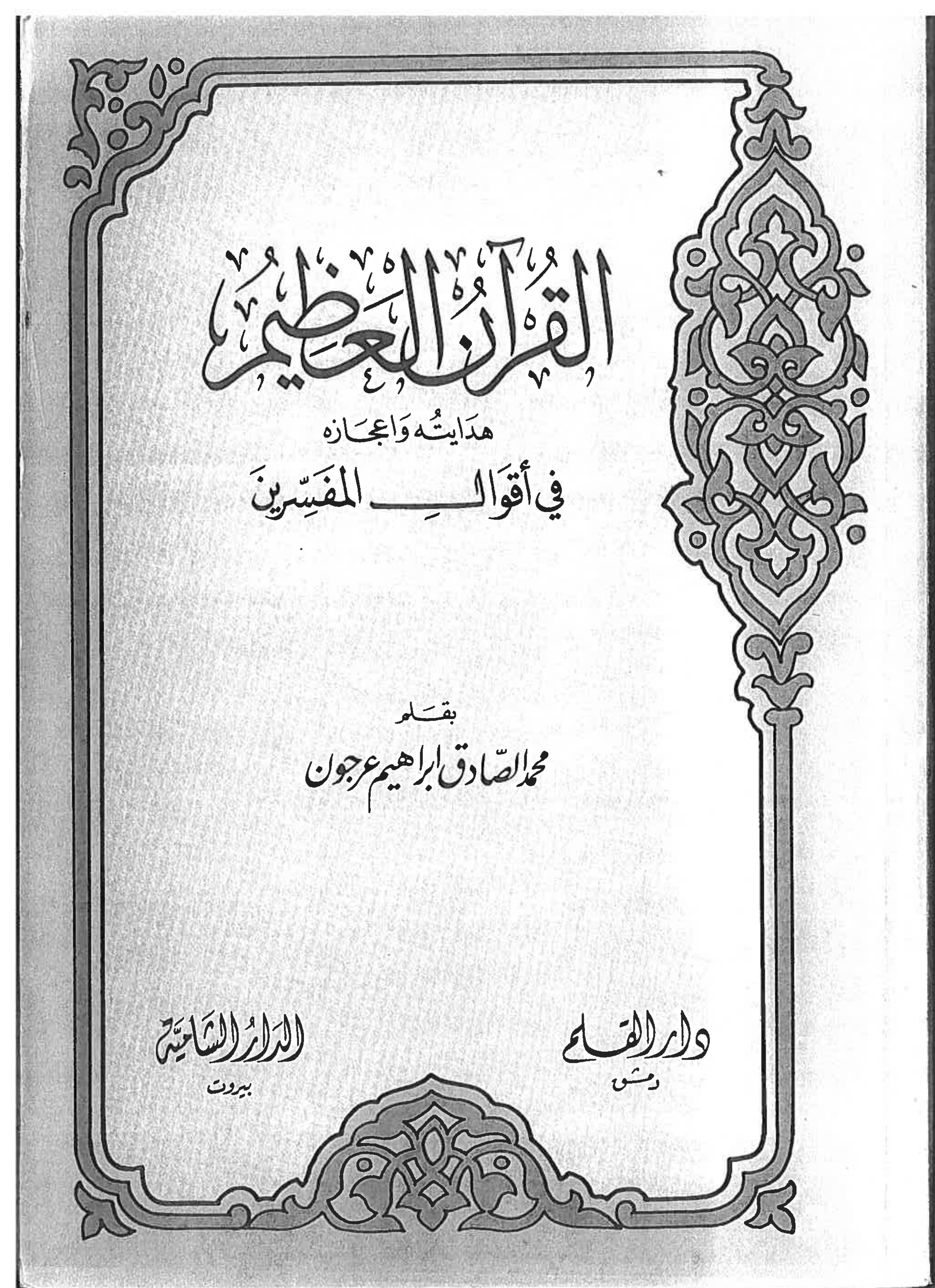
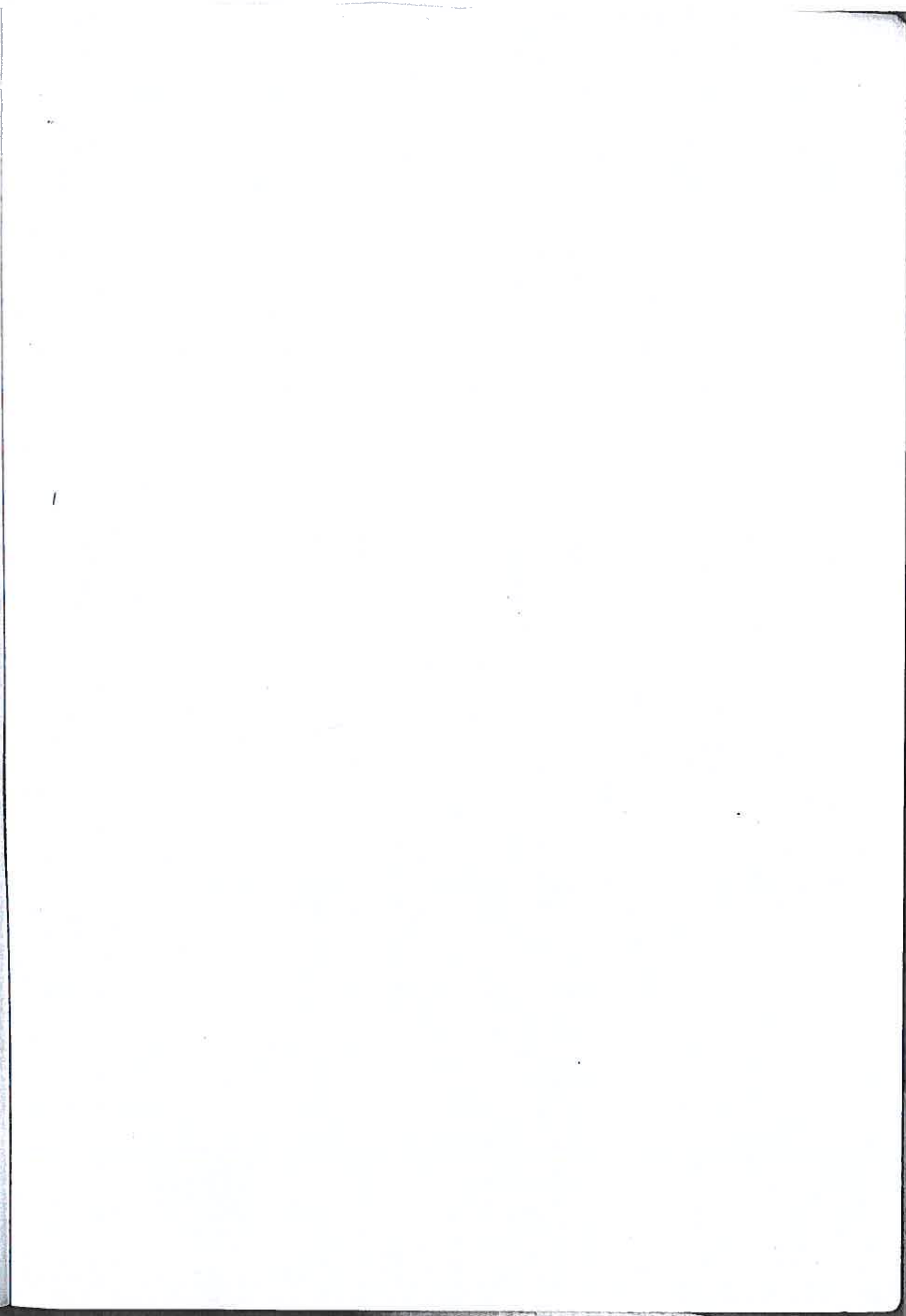


القرآن العظيم
هدايته وإعجازه
في أقوال المفسّرين
بقلم
محمد الصّادق ابراهيم عرجون
دار القلم
دمشق
الدار الشامية
بيروت

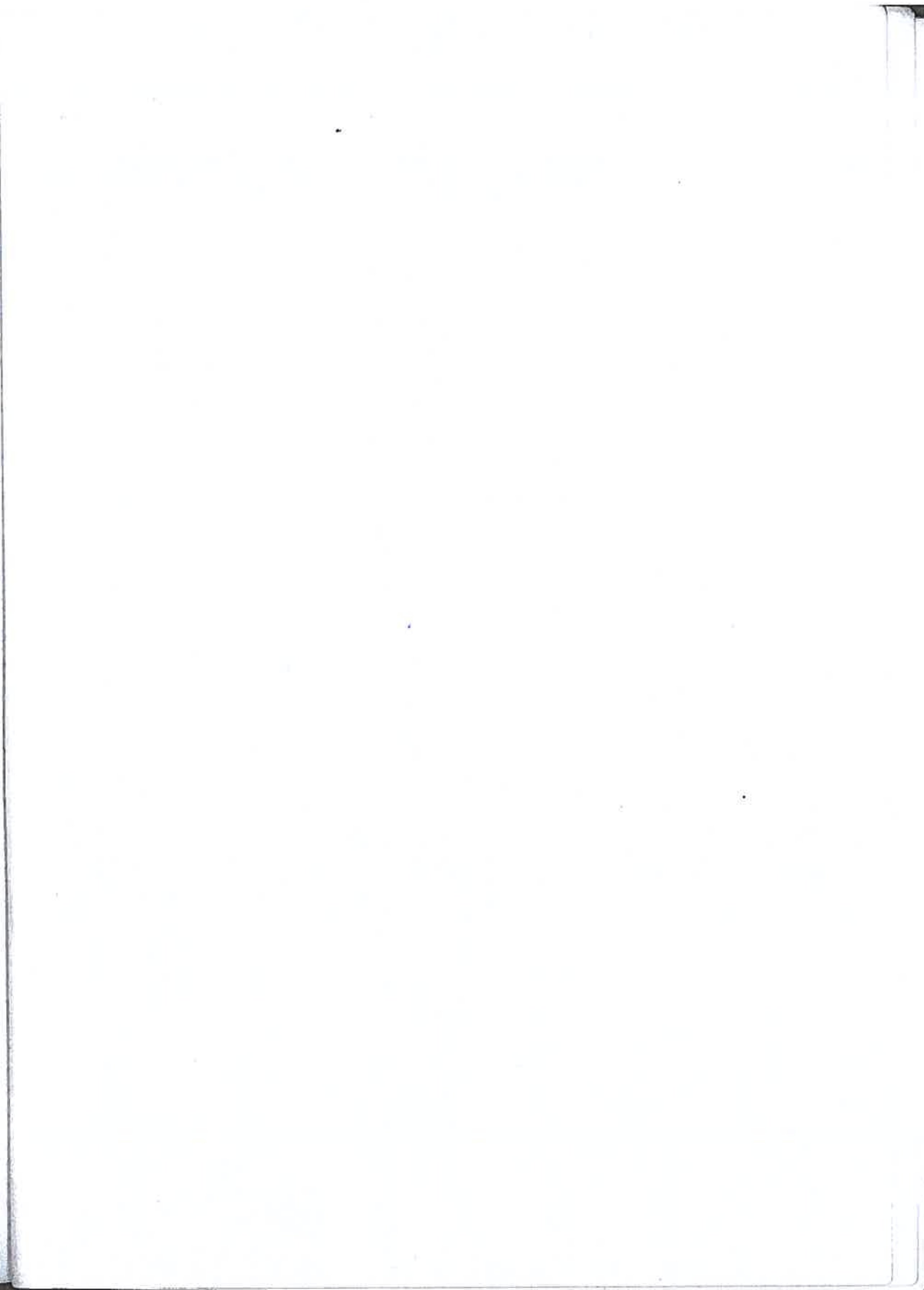


بسم الله الرحمن الرحيم

قالَ عزّ شأنه :

﴿ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَٰكَ سَبْعًا مِّنَ ٱلْمَثَانِي وَٱلْقُرْءَانَ ٱلْعَظِيمَ ﴾ .

[قرآن كريم]



افتتاح

اللهم إني أحمدك ـ استزادةً لفضلك ـ حمداً يوافي نعمك، ويكافىء مزيدك.

وأحمدك حمد عبد مغمور بعطائك، مشمول بحلمك، يحيا برحمتك، ويعيش في ظل عفوك.

وأحمدك ـ استدراراً لرضاك ـ قياماً بحق شكرك، فلك الحمد في الأولى، ولك الحمد في الأخرى.

وأحمدك حمداً يليق بجلال وجهك وعظيم سلطانك.

وأسألك غيث فواضلك، وأستمطرك سحائب جودك، فإنك واسع الفضل، عظيم الجود، غامر الإحسان.

سبحانك أعطيت تفضلاً من غير سؤال، ومننت بأجزل النوال، وطلبت منا تعطفاً أن نتعبّد إليك ببذل السؤال، أداءً لحق عظمتك وكبريائك، يا كبير، يا أكبر، يا متكبر، يا عظيم، يا أعظم، سبحانك أنت. أنت، لا يعلم قدرك غيرك، ولا يحيط بوصفك الواصفون، ولا يحصي ثناء عليك المُثنون من الأنبياء والمرسلين وصادقي عبادك المؤمنين، فأنت في جلالك كما أثنيت على نفسك، ومنتهى علم الخلائق بك الوقوف على سُدَّة العجز عن الاقتحام إلى حمى عظمتك.

فلك الحمد على نعمة التوفيق للاستظلال بوارف ظل أكمل كتبك

المنزلة لهداية خلقك من خزائن حكمتك، ومكنون علمك، الذي أنزلته على خاتم أنبيائك: ﴿قُرْآناً عَرَبِيّاً لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾.

ذلك الكتاب لا ريب، أحكمت آياته، ثم فصلت بالهدى والحق، بشيراً ونذيراً، وسراجاً منيراً، يهدي للتي هي أقوم، مصدقاً لما بين يديه من الكتاب ومهيمناً عليه.

من ابتغى الهدى في غيره أضلّه الله، ومن عانده أكبَّه الله، هو الحق الذي أضاء الله به الوجود بعد ما وقبت ظلمات الجهالة، واستحكمت أسداف الضلالة.

وهو الصراط المستقيم الذي من حاد عنه في متائه الخسران المبين.

وهو حبل الله المتين، من استمسك به فقد اعتصم بالعروة الوثقى، ومن تنكّب طريقه ارتكس وغوى، ومن تأمّمه فاز في الآخرة والدنيا.

وأسألك اللهم أن تصلي على عبدك ونبيك خاتم رسلك محمد المجتبى من خير أرومات البشرية الحسنى، أفضل وأزكى ما صليت على أحد من خلقك، وأن تزكّينا بالصلاة عليه أفضل ما زكّيت أحداً من أمته بالصلاة عليه، والسلام عليه ورحمة الله وبركاته.

كما أسألك أن تشمل برضوانك الأكبر الغرّ الميامين، آله الطاهرين، وأصحابه المخلصين، فتدخلهم في ساحة صلواتك عليه، فهم الذين عقلوا عنه رسالة ربه، فقهاً في الدين، وغوصاً في بحار اليقين، وعروجاً في معارج العلوم والمعارف حتى بلغوا ذروة الفضائل، على بصيرة من أمرهم، وهدى من ربهم، بأوفى ما بلغت إليه الطاقة البشرية في حياتهم ومجتمعهم، ووراثة عن النبوة الخاتمة، متفاوتين في درجات معارفهم تفاوت درجات قرب أرواحهم من إشراق روحه

الأشرف الأكرم، وتفاوت أقدارهم فيما منح الله كلًّا منهم من الاستعداد للقبس من مشكاة أنواره.

يقول أحد كبار تلاميذهم (مسروق بن الأجدع): شاممتُ[١] أصحاب محمد ﷺ فوجدتهم أشبه بالإخاذ[٢]، تكفي الإخاذة الراكب، وتكفي الإخاذة الراكبين، وتكفي الإخاذة الفئام[٣] من الناس، والإخاذة لو صدر عنها الناس جميعاً لكفتهم.

وهم ــ رضوان الله عليهم ــ الذين بلّغوا عنه ما ورّثهم من الهدى والعلم لم يكتموا الناس شيئاً مما علموا من الدين، ولكن الناس اختلفوا في مقادير أنصبائهم من مواريث العلم والمعرفة على قدر ما اتسعت له خزائن عقولهم، وإشراق أرواحهم، وعلى قدر ما أعطاهم الله من أسباب تنمية تلك المواريث في ظل أطوار المجتمع الإسلامي الجياش بالأفكار ومحصول العقول.

فهداهم الله وهدى بهم، وكانوا هم الأصل الذي يُرجع إليه في الأصول، والنبع الذي تتفجر منه عيون الإيمان واليقين، ضرب الله لهم مثلاً في كتابه المبين: ﴿كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْأَهُ فَآزَرَهُ فَاسْتَغْلَظَ فَاسْتَوَى عَلَى سُوقِهِ يُعجِبُ الزُّرَّاعَ لِيَغِيظَ بِهِمُ الْكُفَّارَ، وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنْهُمْ مَغْفِرَةً وَأَجراً عَظِيماً﴾[٤].

أرغم الله بهم أنوف شانئيهم، ورفع بحبهم شأن محبيهم الذين اتبعوهم بإيمان فألحقهم الله بهم، فهم دوحة الأبوة الروحية للمؤمنين، والمؤمنون ذريتهم في مواليد الإيمان والهدى: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَاتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُمْ بِإِيْمانٍ أَلْحَقْنَا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ﴾.

---

(١) قوله: شاممت: قاربت للتعرف والاختبار.
(٢) الإخاذ، جمع مفرده إخاذة، وهي غدير الماء.
(٣) الفئام: الجماعة من الناس.
(٤) خاتمة سورة الفتح.

أولئك الذين هداهم الله، وأولئك الذين أخرج الله بهم الناس من الظلمات إلى النور، فلهم في عنق كل مؤمن ومؤمنة مِنّة، ولهم بكل نعمة بمسلم ومسلمة أجرٌ وفضل يستوجب الشكر مقروناً بالحمد وفاءً لحق النعمة.

ونسأله سبحانه أن يُلحِقنا بالمستظلين بظل لوائهم، يوم يكون لواء الحمد بيد إمامهم، إمام المتقين، وسيد المرسلين، خاتم النبيين محمد الأمين، صلى الله وسلم عليه وعليهم أجمعين.

* * *

أمّا بعد:

فهذا بحث حول تفسير القرآن الحكيم، قصدت به إلى عرض صورة مجملة للمنهج الذي نهجه أئمتنا من السلف والخلف في كتبهم ومؤلّفاتهم في هذا الفن من علوم الإسلام ومعارفه، مع بيان أنهم رحمهم الله بذلوا أقصى جهدهم في بلوغ الغاية التي مكّنتهم من الوصول إليها علومهم ومعارفهم وأحوال مجتمعاتهم، وخصائص بيئاتهم التي عاشوا فيها، واستلهموا أعرافها.

وهم بهذا الجهد قد أدّوا واجبهم في حدود طاقتهم، وما ملكت أيديهم من وسائل الدراسة والبحث نحو تفسير كتاب الله العربي المبين، الذي أنزله نوراً وهدى للناس، ودستوراً مرشداً إلى الحق، وداعياً إلى الرشد، وموصلاً إلى سعادة الدارين: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحاً مِنْ أَمْرِنَا، مَا كُنْتَ تَدْرِي مَا ٱلْكِتَابُ وَلَا ٱلْإِيمَانُ وَلَٰكِنْ جَعَلْنَاهُ نُوراً نَهْدِي بِهِ مَنْ نَشَاءُ مِنْ عِبَادِنَا، وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَىٰ صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ * صِرَاطِ ٱللَّهِ ٱلَّذِي لَهُ مَا فِي ٱلسَّمَاوَاتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ، أَلَا إِلَى ٱللَّهِ تَصِيرُ ٱلْأُمُورُ﴾[1].

---

(١) سورة الشورى: الآيتان (٥٢، ٥٣).

﴿... قَدْ جَاءَكُم مِنَ ٱللَّهِ نُورٌ وَكِتَابٌ مُبِينٌ * يَهْدِي بِهِ ٱللَّهُ مَنِ ٱتَّبَعَ رِضْوَانَهُ سُبُلَ ٱلسَّلَامِ وَيُخْرِجُهُم مِنَ ٱلظُّلُمَاتِ إِلَى ٱلنُّورِ بِإِذْنِهِ وَيَهْدِيهِمْ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾[1].

بيد أن هذا الجهد البالغ ـ على ضخامة آثاره في المكتبة الإسلامية، وكثرة ما تحوي مما أُلِّف من التفاسير المتفاوتة بين الإيجاز الموحي، والإطناب المسهِب ـ كان مبعث تساؤل يتردد اليوم في أنفس الكثيرين من المسلمين عامتهم وخاصتهم، ويتحدث به بعضهم إلى بعض، يقولون:

هَل فُسِّر القرآن؟

كان هذا التساؤل نتيجة لما يشعرون به من الفراغ العريض العميق في أرض الحياة الفكرية عند المسلمين في هذا العصر المتوثِّب بطفرات العقل الإنساني، والمفعَم بحصائل تجارب العلم والمعرفة التي كانت أثراً من آثار «التطور» الفكري في العالم، ونشوء مذاهب جديدة في الفلسفة والعقائد، وظهور آراء حديثة في ميادين العلوم والمعارف، وقيام أوضاع مبتدَعة في عالم السياسة ونُظم الحكم في الأمم والشعوب، وتأسيس قواعد جديدة في مجالات الاقتصاد الدولي والمعاملات القومية، وغير ذلك مما شهده ويشهده عصرنا الحاضر، وعالمنا الحديث، والذي يوشك أن تشهد أضعافه العصور المقبلة، وقد كان لهذا كله آثاره الخطيرة على سلوك الإنسان أفراداً وجماعات، وأمماً وشعوباً، فضعضع القيم الروحية والفضائل الخُلقية، ومال بموازين الحياة إلى جوانب تستمد سلطانها من الغرائز الحيوانية والقوى المادية التي تكفر بالروح وتجحد وجودها.

هذا الفراغ في حياة المسلمين الفكرية يحسه كل مسلم يهتم بأمر المسلمين، ويشغله حالهم.

---

(١) سورة المائدة: الآيتان (١٥، ١٦).

ولا سيما هذه الكثرة من المثقفين ثقافة غير إسلامية، أو ثقافة إسلامية في أصولها، ولكنها مأخوذة عن غير المسلمين، مصبوغة بصبغة غير إسلامية، وقد تدخلها عناصر غير إسلامية، تزوّر على الإسلام، ويعجز جهل آخذيها بالإسلام عن تمييزها.

هؤلاء المثقفون هم الذين يعيشون جواً منَ الإيمان الموروث بالمحاكاة والتقليد، وتأثير البيئة الخاصة في البيت، والمدرسة، والمعهد، والجامعة، وتأثير البيئة العامة في مجتمعات المسلمين في شتى أقطار الوطن الإسلامي.

ذلك التساؤل الذي قد يبدو غريباً بادىء الرأي، أو قاسياً متنكِّراً لآثار أئمة الإسلام وعلمائه الأعلام من السلف والخلف ـ وهي ملء السمع والبصر ـ هو كما يصوره الحائرون المتعطشون إلى تعرف الحقائق الإسلامية عن طريق العلم من مثقفي عصرنا الذين بقيت فيهم بقية باهتة من الحرص على الإسلام، تربطهم بالقرآن العظيم من وجهة نظرهم التقليدية الموروثة، باعتبار أن القرآن هو الأصل الأول لهذا الدين الذي لا تزال البيئات والمجتمعات الإسلامية تقدسه قداسة لم يُقتحَم حرمُها بعنف الجحود والتنكر، أو بشراسة النقد الغامز، أو الطعن الهامز لنصوصه وآياته إلا من كفّار عنيد، أو ملحد جَهول بليد:

هل فُسِّر القرآن؟ هو تساؤل غريب، بيد أنه حق، والحق في أكثر أحواله يغافص الناس في مشرقه غريباً، وطوبى للغرباء مع الحق.

ومَوضع الغرابة في هذا التساؤل أنه يجافي الواقع المنظور بعين البصر لأول وهلة، ويتنافى مع ما تَعالَم شهرةً عند جماهير المسلمين وغيرهم قديماً وحديثاً، وما يحدثنا به التاريخ، وما تحويه المكتبات العامة والخاصة في شرق الأرض وغربها من بلاد الإسلام وغيرها من فهارس الكتب الإسلامية التي يحار العقل في تقدير الزمن الذي أُلِّفت فيه المؤلفات والدواوين في فن التفسير، مما يدل دلالة قاطعة على أن

القـرآن العظيم لقي من العنـاية في تفسيـره ما لـم يقـع لكتـاب سواه في حياة العلم والمعرفة.

ذلك لأن القـرآن العظيم كان في نظر المسلمين الأولين هو النبـع الأصيل الذي فاضت منه روافـد جميـع علوم الإسلام ومعـارف العربيـة منذ شرّفها الله لساناً لدستوره الإلّهي وكتابه العربـي المبين.

ومن ثَمّ كان القرآن العظيم هو أصل تلك العلوم والمعارف، ونبعة فنـونها التي انشعبت منـه، وكانت هي فـروعه الـوارفـة الـظلال، وكـان هـو دوحتها العـظمى، منـه تفـرعت أغصـانهـا، وعنـه انبثقت أفنـانهـا، وبلقاحه أينعت ثمارها، وبتوجيهه وإرشـاده سطعت في شمس المعقـول والمنقول شمس هدايتها.

وليس هـذا بمستنكر، والمتسـائلون عن تفسير القـرآن لا ينكـرون ذلك، ولا يدفعون في صدره، وإنما يقصدون بتسـاؤلهم إلى القول بـأن هذه الكتب التي أُلِّفت في تفسير القـرآن، وأُفعِمت بها خـزائن المكتبات الإسـلامية وغيـرها، هـل هي نهايـة ما يمكن أن يفهم من معـاني آيـات القرآن، ولـم يبق وراء ذلك معنى تستطيـع العقول العالمة أن تصل إليه، وليس في الإمكان أبدع مما كان، وقد استوعب الأوائـل معاني القـرآن، ولم يتركوا للأواخر شيئاً؟!

وهـل في هذه التفـاسير غُنْيـة كـاملة لمن يتـطلب هـدايـة القـرآن الكريم باعتباره خاتم الكتب السمـاوية، وليس لله بعـده كتاب ينـزله من السماء، وباعتباره دستور شريعة هي خاتمة الشـرائـع الإلّهية، وليس لله بعدها شريعة يوحي بها إلى أحد من البشر؟.

وهكذا من خصائصه التي تحتم خلود سلطانه الدستوري، ويجب أن تحقق لـلإنسانيـة هدايـة تدفعهـا إلى آفاق من الـرقي المتواصـل في مجالات العلم والمعرفة، وتفتـح أمام العقل الإنساني منافذ الـولوج إلى مسارب الأسرار الكونية التي أودعها الله آياته الأنفسية والآفاقية استـدلالاً

على بالـغ حكمته، وباهر قدرته، وتعطي للحياة قدرات تزيد من توثّبهـا في طرائق الحضارة المهذبة، وتستثير بها طاقات من الـدوافـع المعنويـة والقوى العقلية والروحية، تتخذ منها طرائق للفضائل يقوم على دعـائمها السلوك التربوي في الأفراد والجماعات.

هـدايـة القـرآن

وهـداية القـرآن هـي عمـاد إعجـازه المعنـوي الأصيـل، الـذي لا يختلف عصراً عن عصر، ولا جيلاً عن جيل، ولا بيئة عن بيئة، وهذا اللون من الإعجاز هو مناط الحجة البالغة القائمة مع خلود هذا الكتـاب الحكيم، على أنه تنزيل من الحكيم الحميد.

وما الإعجاز الأسلوبـي في براعة البيان العربـي الـذي اختص بـه القرآن الكريم إلا ثوب من نسـج الحكمة العليا للقرآن كـلام الله الأزلي وجوداً وقـع بـه أكمل الاتساق والتناسب بين المعنى والأسلوب.

فـالإعجـاز المعنـوي الأصيـل في القـرآن هـو إعجـاز الهـدايـة، وهو وصف ذاتي للقرآن، لا ينفك عنه ولا يفـارقه أينمـا كان مـع أجناس البشرية.

والإعجاز الأسلوبـي هو إعجاز الفوق البياني المعبر عن المعنى المقصود أتم تعبير، والمؤدي إلى تصوير الهداية أكمل تصوير، وهو إعجاز يستند إلى عمـل الحكمـة العليـا في إبـلاغ الهـدايـة إلى مـدارك المخلوقين، وهو إعجاز ذاتي للقرآن الكريم كلام الله الأزلي تنزلاً.

وقـد تستطيـع العقـول أن تلمـح فرقـاً بين الإعجاز الأزلي وجـوداً والإعجاز الأزلي تنزلاً ـ ولا بد من فرق ـ وهو الفرق بين طريقة الخلود العام الشامل في التحدي لكافة العقلاء، عربـاً كانـوا أم غير عـرب بل أناسيّ وغير أناسيّ كما نطق بـه الكتاب المحكم في مـواجهة الـتحدي العـام الشامـل، وبين طريقـة اعتبار المـواجهة الأولى في تثبيت الحجـة العامة بأسلوب الخاصة.

وبذلك تبقى حجية القرآن منذ تنزلها هداية عامة في نسج من البراعة البلاغية والفوق البياني في الصياغة العربية قائمة، تتحدى مدارك الإنسانية وقدراتها وطاقاتها متظاهرة بقوى وقدرات وطاقات مَن يستطيع مظاهرتها من عوالم الأرض والسماء ﴿قُلْ لَئِنِ ٱجْتَمَعَتِ ٱلْإِنْسُ وَٱلْجِنُّ عَلَى أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا ٱلْقُرْآنِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيراً﴾[1].

وهداية القرآن وإعجازه في ضوء التصوير الإجمالي مودعة على التحقيق في كل آية من آياته، غير أن استقصاء موضوعات هذه الهداية وأفرادها وجزئياتها ومسائلها أمر تنفد دونه الأعمار، وتقصر عن الوفاء به حياة الناس في هذه الدنيا محدودة الأمد.

هكذا دل لهذا الأمر ... وهنا

وإلى هذا المدى من العجز الطبيعي دون تحد بما فيه من الإعجاز يشير قول الله تعالى: ﴿قُلْ لَوْ كَانَ ٱلْبَحْرُ مِدَاداً لِكَلِمَاتِ رَبِّي لَنَفِدَ ٱلْبَحْرُ قَبْلَ أَنْ تَنْفَدَ كَلِمَاتُ رَبِّي وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِ مَدَداً﴾[2]. وقوله عز شأنه: ﴿وَلَوْ أَنَّ مَا فِي ٱلْأَرْضِ مِنْ شَجَرَةٍ أَقْلَامٌ وَٱلْبَحْرُ يَمُدُّهُ مِنْ بَعْدِهِ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ مَا نَفِدَتْ كَلِمَاتُ ٱللَّهِ، إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾[3] لأن المفهوم للعقول من كلمات الله إنما هو ضروب الهداية وأنواعها المختلفة باختلاف حال الخلائق، وتقدير ما يُصلِحهم مقدَّراً بميزان الحكمة العليا، واستهداف ما يقيم حياتهم على نظام من الترابط بوشائج تلك الهداية الإلٰهية.

وإذا كانت قدرات المخلوقين وطاقاتِهم قاصرةً عن الإحاطة بضروب الهداية القرآنية أفراداً وجزئيات، فإنها لن تقصر عن رسم صورة لها في أصول تندرج تحتها سائر الأفراد والجزئيات بقدر الطاقة البشرية،

---

(١) سورة الإسراء: الآية (٨٨).
(٢) سورة الكهف: الآية (١٠٩).
(٣) سورة لقمان: الآية (٢٧).

وقد يفوت السابق من الباحثين ما يدركه اللاحق، ويكمل بعض البحوث بعضها الآخر، لكنها تبقى غير قادرة على الوصول إلى حد يمكن معه أن يقال إنه يجمع جزئيات الهداية القرآنية.

والقرآن العظيم لا يزال في هدايته جديداً، وسيظل كذلك أبداً، يجد فيه كل جيل، وكل عصر، معاقد هدايته بكل ما جمع الله له من خصائص عقلية وروحية واجتماعية.

* * *

والذي وفقنا الله تعالى إلى تمثّله من أصول الهداية القرآنية التي يجب أن يقوم على دعائمها تفسيره في كل زمان ومكان نُجمِله في عشرة أصول يتضح منها أن ما خلّفه لنا أئمة التفسير، وأعلام تأويل الكتاب المبين ـ على ما فيه من عمق في دراسة بعض المسائل، وتفصيل مسهب في بعض الموضوعات التي أوحت بها البيئة العامة والخاصة ـ لم يستوف البحث في جميع جوانب الهداية القرآنية، بل ظل بعضها مكنوناً لم تنفلق عنه أصدافه، وإنما مُسَّ مسّاً رفيقاً بما يشبه الرمز أحياناً، والإشارة المعبرة أحياناً أخرى.

وقد جاء (التطور الفكري، والتقدم العلمي) بكثير من الأفكار والآراء، والمذاهب الجديدة التي لم يكن للسابقين عهد بها، وهي بآثارها الخطيرة أفكار المثقفين من الناشئة وعقائدهم وسلوكهم في الحياة تتطلب بإلحاح مخرج من دارسي القرآن، والقيمين على بيان هدايته، وإقامة منار حجيته أن يبينوا موقف القرآن في تفسيره من هذه الأفكار والآراء والمذاهب، وأن يبينوا مهيعه في الهداية بما يكشف عن وفائه بحاجة البشرية وفاء لا يعوزها إلى غيره من طريق الهدايات.

القاهرة: ١٣٨٦هـ
١٩٦٦م

محمد الصّادق ابراهيم عرجون

أُصُولُ الهِدَايَةِ فِي القُرْآن

الأصل الأول

العقيدة

(١)
تأسيس الإيمان بمعرفة الله تعالى بأسمائه الحسنى وصفاته العليا.

وهداية القرآن العظيم في العقيدة تستهدف تحقيق أقصى ما تصبو إليه البشرية من الحقائق الموصلة إلى مقطع الحق في تأسيس الإيمان بمعرفة جلال الله تعالى، وعظيم سلطانه، وباهر قدرته، وبالغ حكمته، ومحكَم تدبيره، وسعة رحمته، وجزيل إحسانه، وتفرّده بنعوت الربوبية، وصفات الألوهية، معرفة تطمئن بها القلوب، وتؤمن بها العقول، إيماناً لا يخالجه ريب الشبهة، ولا يعوزه قاهر البرهان، وإشراق الحجة إشراقاً يضيء الفطرة الإنسانية بنور الرضا واليقين.

(٢)
الطريق إلى هذه المعرفة النظر في الآيات الكونية التي تحدث عنها القرآن في آياته وسوره التي تسوق الوصف الإلّهي قضية واقعية.

وهذا اللون من أساليب هداية القرآن العظيم مبثوث في آياته الكونية التي سيقت في مواضعها من سوره لبيان عظمة الوجود الإلّهي، وعظمة الكون العالمي، بما يدل على تفرده تعالى بقدرة الإبداع والخلق، ويدل على وحدانية ربوبيته، ووحدانية إلّهيته، ويدل على محكَم تدبيره.

وقد بلغ بعض الناظرين في تفسير القرآن بهذه الآيات الكونية التي نزلت لتدعيم العقيدة إلى أكثر من خمسمائة آية، ولهذه الآيات الكونية الكريمة خصيصة تغلب في أسلوبها، ذلك أنها تسوق الوصف الإلّهي قضية إخبار عن واقع قطعي الوقوع، ثم تُلحقه بذكر البرهان على صدق هذا الوقوع من الآيات الكونية التي إذا تأملها الناظرون فاؤا منها إلى ظل ظليل من دوحة الإيمان، يتبوؤن بها ذروة اليقين.

النموذج الأول:

فالقرآن الكريم لا يضع الوجود الإلّهي موضع الاحتمال، واستدلاله بالآيات الكونية لا يقصد إلى نفي طرف في قضية ذات طرفين ليثبت الطرف الآخر، وإنما يقصد إلى توجيه المدارك العقلية والمشاعر الوجدانية وجهة مطالعة المشاهد في واقعها المشهود بالعقل والوجدان في عالم الإبداع وحكمة التدبير.

ومن شواهد ذلك قول الله تبارك وتعالى: ﴿وَإِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ لَّا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ الرَّحْمَٰنُ الرَّحِيمُ * إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَالْفُلْكِ الَّتِي تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِمَا يَنفَعُ النَّاسَ وَمَا أَنزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِن مَّاءٍ فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَابَّةٍ وَتَصْرِيفِ الرِّيَاحِ وَالسَّحَابِ الْمُسَخَّرِ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾[1].

(٣)
وجه الحكمة في تخصيص هذه الأشياء المذكورة في الآية بالذكر.

قال القاضي عبد الجبار ـ أحد أئمة المعتزلة ـ في تفسير هذه الآية: (إن سائر الأجسام والأعراض وإن كانت تدل على الصانع، فهو تعالى خص هذه الأشياء الثمانية بالذكر لأنها جامعة بين كونها دلائل وبين كونها نعماً على المكلّفين على أوفر حظ ونصيب، ومتى كانت الدلائل كذلك كانت أنجع في القلوب وأشد تأثيراً في الخواطر)[2].

وموضع اللطف في هذا التفسير توفيق القاضي عبد الجبار إلى التنبيه على مناط الهداية في تقريب الاستدلال إلى النفوس، وترغيبها في النظر في مجالاته وآثاره، ولكنه بقي في حاجة إلى بسط يضع كل نعمة من هذه النعم في مكانها من حياة الناس.

وقد تولى أمر هذا البسط الإمام فخر الدين الرازي في تفسيره،

---

(١) سورة البقرة: الآيتان (١٦٣، ١٦٤).
(٢) من كتابه تنزيه القرآن عن المطاعن.

فأطال النفس جداً، وذهب فيه مذاهب، وذكر كلاماً في بحوث فلكية مما قاله القدامى من الفلاسفة، وبحوث في كل أمر من هذه الأمور الثمانية بأسلوب الفلسفة القديمة واصطلاحاتها مما ذهب معه رواء الاستدلال وبهاء الإنعام بهذه النعم العظام، لكنه رحمه الله كانت تنِدُّ منه لمعات من بروق الحقيقة الفطرية في ثنايا الحديث سرعان ما تغطيها سحائب المنهج الفلسفي المعقد باصطلاحاته ونظرياته، وقد ملأ بذلك نحواً من ثلاثين صفحة من قطع الطبع الكبير.

(٤)
رأي الرازي في وجه دلالة ما ذكر في الآية.

غير أنه في نهاية المطاف قال: (واعلم أن النعم على قسمين، نعم دينية، ونعم دنيوية، وهذه الأمور الثمانية التي عدها الله تعالى نعم دنيوية في الظاهر، فإذا تفكر العاقل فيها، واستدل بها على معرفة الصانع صارت نعماً دينية، لكن الانتفاع بها من حيث إنها نعم دنيوية لا يكمل إلا عند سلامة الحواس وصحة المزاج، فكذا الانتفاع بها من حيث إنها نعم دينية لا يكمل إلا عند سلامة العقول وانفتاح بصر الباطن، ثم ساق كلمة القاضي عبد الجبار التي ذكرناها بعد معركة معه في أمور لا حاجة إليها في تفسير القرآن وإنما موضعها في غير هذا الفن من كتب الجدل في العقائد وما يتصل بها، وهذا اللون من التفكير اللصيق بالفلسفة والجدل مع الفرق الإسلامية، ولا سيما طوائف الاعتزال منها، من خصائص تفسير الإمام الرازي التي صرفت تفسير القرآن عن بيان هدايته وإعجازه في جانبَيْه المعنوي والأسلوبي، وقد كانت عند هذا الإمام طاقة من التفكير في الغوص على استخراج دقائق المعاني التي تعتمد عليها عناصر الهداية، لو خلص إليها لأدى للقرآن الكريم واجبه في بيان هدايته، ولقدم للمسلمين كثيراً مما يحتاجون إليه من التوجيه إلى مواطن الهداية في القرآن العظيم.

وسيأتي موضع الإشارة إلى لوامع التفكير في تفسيره عند الحديث عن تأثير العلوم المستحدثة والمنقولة في التفسير.

النموذج الثاني من الآيات الكونية:

ويجري على سنن هاتين الآيتين نظائرهما في الاستدلال على قاهر قدرة الله تعالى، وباهر إرادته، وبالغ حكمته، وعظيم سلطانه في تدبير ملكه ونظام ملكوته، وتفرده بالإبداع والخلق الإنشائي مثل قوله عز شأنه: ﴿وَلِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَـٰوَاتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ * إِنَّ فِي خَلْقِ ٱلسَّمَـٰوَاتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَافِ ٱللَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ لَآيَاتٍ لِّأُوْلِي ٱلْأَلْبَابِ * ٱلَّذِينَ يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ قِيَاماً وَقُعُوداً وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ ٱلسَّمَـٰوَاتِ وَٱلْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَـٰذَا بَاطِلاً سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ﴾(١).

النموذج الثالث:

وقوله جل جلاله: ﴿إِنَّ رَبَّكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلسَّمَـٰوَاتِ وَٱلْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ مَا مِن شَفِيعٍ إِلَّا مِنْ بَعْدِ إِذْنِهِ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ فَٱعْبُدُوهُ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ * إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعاً وَعْدَ ٱللَّهِ حَقّاً إِنَّهُ يَبْدَأُ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ لِيَجْزِيَ ٱلَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا ٱلصَّالِحَاتِ بِٱلْقِسْطِ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ شَرَابٌ مِنْ حَمِيمٍ وَعَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُوا يَكْفُرُونَ * هُوَ ٱلَّذِي جَعَلَ ٱلشَّمْسَ ضِيَاءً وَٱلْقَمَرَ نُوراً وَقَدَّرَهُ مَنَازِلَ لِتَعْلَمُوا عَدَدَ ٱلسِّنِينَ وَٱلْحِسَابَ مَا خَلَقَ ٱللَّهُ ذَٰلِكَ إِلَّا بِٱلْحَقِّ يُفَصِّلُ ٱلْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ * إِنَّ فِي ٱخْتِلَافِ ٱللَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَّقُونَ﴾(٢).

النموذج الرابع:

وقوله عز شأنه: ﴿إِنَّ فِي ٱلسَّمَـٰوَاتِ وَٱلْأَرْضِ لَآيَاتٍ لِلْمُؤْمِنِينَ * وَفِي خَلْقِكُمْ وَمَا يَبُثُّ مِنْ دَابَّةٍ آيَاتٌ لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ * وَٱخْتِلَافِ ٱللَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَمَا أَنْزَلَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلسَّمَاءِ مِنْ رِزْقٍ فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا

---

(١) سورة آل عمران: الآيات (١٨٩ ـ ١٩١).

(٢) سورة يونس: الآيات (٣ ـ ٦).

وَتَصْرِيفِ ٱلرِّيَاحِ آيَاتٌ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ * تِلْكَ آيَاتُ ٱللَّهِ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِٱلْحَقِّ فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَ ٱللَّهِ وَآيَاتِهِ يُؤْمِنُونَ﴾[1].

نوع آخر من الاستدلال:

ومن هذا النوع ضرب يتخذ طريق البرهنة متنزلاً مع شبه المنحرفين لتقريرها، ثم إبطالها بقاطع البرهان العقلي، ومن شواهده قوله جلّ وعلا: ﴿وَلَهُ مَنْ فِي ٱلسَّمٰوَاتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَنْ عِنْدَهُ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِ وَلَا يَسْتَحْسِرُونَ * يُسَبِّحُونَ ٱللَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ لَا يَفْتُرُونَ * أَمِ ٱتَّخَذُوا آلِهَةً مِنَ ٱلْأَرْضِ هُمْ يُنْشِرُونَ * لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلَّا ٱللَّهُ لَفَسَدَتَا فَسُبْحَانَ ٱللَّهِ رَبِّ ٱلْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ * لا يُسْئَلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْئَلُونَ﴾[2].

ففي الآية إخبار عن وجود الله ومالكيته لمن في السموات والأرض، وأن له عباداً مستغرقين في تقديسه، ثم أتبع ذلك بإنكار اتخاذ الآلهة من الأرض، ثم ذكر البرهان القاطع على تقرير الوحدانية وإبطال الشرك.

ومن هذا النوع:

وقوله تبارك اسمه: ﴿قُلْ لِمَنِ ٱلْأَرْضُ وَمَنْ فِيهَا إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ * سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ * قُلْ مَنْ رَبُّ ٱلسَّمٰوَاتِ ٱلسَّبْعِ وَرَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْعَظِيمِ * سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ * قُلْ مَنْ بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ يُجِيرُ وَلَا يُجَارُ عَلَيْهِ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ * سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ فَأَنَّى تُسْحَرُونَ * بَلْ أَتَيْنَاهُمْ بِٱلْحَقِّ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ * مَا ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ مِنْ وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُ مِنْ إِلَٰهٍ إِذاً لَذَهَبَ كُلُّ إِلَٰهٍ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَا بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ سُبْحَانَ ٱللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ﴾[3].

---

(١) سورة الجاثية: الآيات (٣ ــ ٦).
(٢) سورة الأنبياء: الآيات (١٩ ــ ٢٤).
(٣) سورة المؤمنون: الآيات (٨٤ ــ ٩١).

وفي هذه الآيات عرض لقضايا إثبات وحدانية الاقتدار على تدبير الكون لله تعالى، ونفي أن يكون لـه ولد لأن هذا نوع من الشرك.

ومن هذا النوع:

وقولـه تعالت أسماؤه: ﴿ٱللَّهُ يَبْدَأُ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ، وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ يُبْلِسُ ٱلْمُجْرِمُونَ * وَلَمْ يَكُن لَّهُم مِّن شُرَكَائِهِمْ شُفَعَاءُ وَكَانُوا بِشُرَكَائِهِمْ كَافِرِينَ * وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ يَوْمَئِذٍ يَتَفَرَّقُونَ * فَأَمَّا ٱلَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا ٱلصَّالِحَاتِ فَهُمْ فِي رَوْضَةٍ يُحْبَرُونَ * وَأَمَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَلِقَاءِ ٱلآخِرَةِ فَأُولَٰئِكَ فِي ٱلْعَذَابِ مُحْضَرُونَ * فَسُبْحَانَ ٱللَّهِ حِينَ تُمْسُونَ وَحِينَ تُصْبِحُونَ * وَلَهُ ٱلْحَمْدُ فِي ٱلسَّمَٰوَاتِ وَٱلْأَرْضِ وَعَشِيّاً وَحِينَ تُظْهِرُونَ * يُخْرِجُ ٱلْحَيَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ ٱلْمَيِّتَ مِنَ ٱلْحَيِّ وَيُحْيِي ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَكَذَٰلِكَ تُخْرَجُونَ * وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ إِذَا أَنتُم بَشَرٌ تَنتَشِرُونَ * وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَاجاً لِّتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ * وَمِنْ آيَاتِهِ خَلْقُ ٱلسَّمَٰوَاتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَافُ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَانِكُمْ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّلْعَالِمِينَ * وَمِنْ آيَاتِهِ مَنَامُكُم بِٱللَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَٱبْتِغَاؤُكُم مِّن فَضْلِهِ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ * وَمِنْ آيَاتِهِ يُرِيكُمُ ٱلْبَرْقَ خَوْفاً وَطَمَعاً وَيُنَزِّلُ مِنَ ٱلسَّمَاءِ مَاءً فَيُحْيِي بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ * وَمِنْ آيَاتِهِ أَن تَقُومَ ٱلسَّمَاءُ وَٱلْأَرْضُ بِأَمْرِهِ ثُمَّ إِذَا دَعَاكُمْ دَعْوَةً مِّنَ ٱلْأَرْضِ إِذَا أَنتُمْ تَخْرُجُونَ * وَلَهُ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَاتِ وَٱلْأَرْضِ كُلٌّ لَّهُ قَانِتُونَ * وَهُوَ ٱلَّذِي يَبْدَأُ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ وَلَهُ ٱلْمَثَلُ ٱلْأَعْلَىٰ فِي ٱلسَّمَٰوَاتِ وَٱلْأَرْضِ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ * ضَرَبَ لَكُم مَّثَلاً مِّنْ أَنفُسِكُمْ هَل لَّكُم مِّن مَّا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُم مِّن شُرَكَاءَ فِي مَا رَزَقْنَاكُمْ فَأَنتُمْ فِيهِ سَوَاءٌ تَخَافُونَهُمْ كَخِيفَتِكُمْ أَنفُسَكُمْ كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾[1].

---

(١) سورة الروم: الآيات (١١ ــ ٢٨).

وفي هذه الآيات ضروب من الأدلّة القاطعة على تفرد الله بالخلق والإبداع، وضرب المثل على منافاة الشرك لمطلق الملكية.

واستقصاء هذا النوع من آيات الهداية في العقيدة على شمولها لكافة عناصرها من الإيمان بـاللَّهِ تعالى وكمالاته التي لا تتناهى في صفاته الحسنى، والإيمان بالغيب على عمومه، والإيمان بالبعث والنشور وسائر ما يقع في اليوم الآخر، لو أريد لكان يجب نقل أكثر آيات القرآن العظيم من المصحف الكريم.

ومن أبدعه آيات النمل من قوله تعالى: ﴿قُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ وَسَلَامٌ عَلَى عِبَادِهِ ٱلَّذِينَ ٱصْطَفَى...﴾ إلى قوله: ﴿قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾. وفي سورة الطور آيات من آيات الدلائل القاطعة على وحدانية الله واقتداره، ومن أروعها قوله تعالى: ﴿أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمُ ٱلْخَالِقُونَ﴾ ومعناه: أَخُلِقَ هؤلاء المنكرون للوجود الإلٰهي من غير خالق خلقهم، أم خلقوا أنفسهم؟ وكلا الأمرين من أبطل الباطل. ومنه في سورة الواقعة ﴿أَفَرَأَيْتُم مَا تُمْنُونَ﴾ إلى قوله تعالى: ﴿أَفَرَأَيْتُمُ ٱلنَّارَ ٱلَّتِي تُورُونَ...﴾ الآية.

* * *

الأصل الثاني

التشريعات التعبُّدية

(١) إفراد الله تعالى بالعبادة والاستعانة غاية الهداية القرآنية.

هـذا الأصل من أصـول الهدايـة القرآنيـة، هو كما رسمه القـرآن العـظيم، وسيلة الاتصـال بـاللَّهِ تعـالى، فيقصـد بـه إلى بيـان وتحقيق أفضل وأكمل مـا رسمت الشرائـع السمـاوية من هـداية تصـل المخلوق بـالخالق، والعبـد بالـرب صلة تعبـد وزلفى، تتقبّـل العقـول أوضـاعهـا التعبدية، وصورها الحسية، وتدرك آثارها الروحية كما بينها النبـي ﷺ في أقـواله، وأفعـاله، وتقـريراتـه، وعماد هـذا النوع من الهـداية إفـراد الله بالعبادة، وطرح العبد نفسه على أعتاب التذلّل المطلق لجلال الله مالك الملك والملكوت، وقد أرشـد الله عباده إلى ذلـك بعـد أنْ وصف نفسـه بأكمل صفات الجلال والجمـال فقال: ﴿إِيَّـاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّـاكَ نَسْتَعِينُ﴾[١] قطعاً لعلائق النفس بالوجود، وربطها بالموجود الأول، وهذا مقام خاصة المؤمنين، لا يقبل منهم غيره: ﴿وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُـدُوا ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَـهُ ٱلـدِّينَ﴾[٢] أما غيـرهم من سائـر النـاس فلهم الأمـر المقـرون بـدوافـع الاستجـابة: ﴿يـا أَيُّهَا ٱلنَّـاسُ ٱعْبُـدُوا رَبَّكُمُ ٱلَّـذِي خَلَقَكُمْ وَٱلَّـذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾[٣].

(٢) النبي ﷺ قـدوة عـبـاد الله المخلَصين.

وقـد ذكر القـرآن العظيم نمـوذجـاً مـزدوجـاً للمعنيين خـوطب بـه نمـوذج الإنسانيـة الأعلى سيد الـوجود محمـد خاتم النبيّين صلوات الله

---

(١) فاتحة الكتاب: الآية (٤).
(٢) سورة البيّنة: الآية (٥).
(٣) سورة البقرة: الآية (٢١).

وسلامه عليه فقال: ﴿إِنَّا أَنزَلْنَا إِلَيْكَ ٱلْكِتَابَ بِٱلْحَقِّ فَٱعْبُدِ ٱللَّهَ مُخْلِصًا لَّهُ ٱلدِّينَ أَلَا لِلَّهِ ٱلدِّينُ ٱلْخَالِصُ﴾[1]. وهذا نسق عجيب في التناسب بين نموذج الخطاب والمخاطب في سمو التكليف، وكأن محمداً ﷺ هو الصورة العليا لأمته، فخوطب خطابها بجميع أطرافها، فهو ﷺ ببشريته مأمور معها بمطلق العبادة لله الواحد الأحد، ليكون قدوتها في كمال البشرية، وهو ﷺ في دوام ترقياته في مدارج الكمال النبوي الخاتم مخصوص بكونه نموذج المثل الأعلى لإخلاص العبادة، ﴿فَٱعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأْتِيَكَ ٱلْيَقِينُ﴾[2] ﴿وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ ٱلشَّمْسِ وَقَبْلَ غُرُوبِهَا وَمِنْ آنَاءِ ٱللَّيْلِ فَسَبِّحْ وَأَطْرَافَ ٱلنَّهَارِ لَعَلَّكَ تَرْضَىٰ﴾[3] ﴿قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَالَمِينَ لَا شَرِيكَ لَهُ وَبِذَٰلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ ٱلْمُسْلِمِينَ﴾[4] وفي خاص الحديث النبوي الأكرم: «وَجُعِلَتْ قرة عيني في الصلاة».

(٣)
العبادة المشروعة وسيلة التقرب إلى الله ومقدّمها الصلاة.

هذا الأصل في الهداية القرآنية يشمل جميع أنواع العبادات التي شرعها الله، يتعبّد بها عباده، وتتمثل بصورة واضحة في أركان الإسلام الأربعة بعد عمودها الأصيل الذي تدور حوله العقيدة في الأصل الأول، وهذه العبادات هي وسيلة التقرب إلى الله تعالى وبؤرة إشراقها الصلاة لأنها أجل مقامات التعبّد لله تعالى وموطن مناجاته وذكره، يقول ربّنا تبارك: ﴿إِنَّنِي أَنَا ٱللَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا أَنَا فَٱعْبُدْنِي وَأَقِمِ ٱلصَّلَاةَ لِذِكْرِي﴾[5]، وقد تكرر ذكر الصلاة في القرآن عشرات المرات، تذكر في أكثرها مقرونة بالزكاة، وتفرد عنها في بعض المواضع.

(٤)
مفهوم الزكاة ومنزلتها في الإسلام.

أمّا الزكاة فهو ركن الإسلام التعاوني الذي يتمثل فيه تكافل أفراد الأمة تكافلاً قانونياً بالحق الواجب، قبل التبرع والإحسان، فإذا لم يفِ

---

(١) سورة الزمر: الآيتان (٢، ٣).
(٢) سورة الحجر: الآية (٩٩).
(٣) سورة طه: الآية (١٣٠).
(٤) سورة الأنعام: الآية (١٦٣).
(٥) سورة طه: الآية (١٤).

الحق بالحاجة وجب تحريك الضمير بمهمز الترغيب والترهيب، فإن كانت الحاجة للأمة في مصلحتها العامة التي تتعلق بمجموعها وجب أن يتدخل القانون، والضرورات تقدر بقدرها، والزكاة أخت الصلاة في الذكر، وقرينتها في تطهير النفس الإنسانية من رذيلتَي الكبر والشح، وهما معقد الرذائل الفردية والاجتماعية.

(٥)
الصوم والحكمة فيه.

أمَّا الصوم فهو الركن الجامع بين تهذيب النفس وتطهيرها من رجس الغرائز المادية، وبين مقام الزلفى إلى الله بعمل لا تتحرك فيه الجوارح، وإنَّما يتحرك فيه القلب والضمير، فهو نيّة خالصة، وسكون إلى الله في مقام مراقبته وحده، وهذا هو سر قول الرسول الأمين ﷺ حاكياً عن رب العزة تبارك وتعالى: «كل عمل ابن آدم له إلَّا الصيام فإنَّه لي».

ومن عجيب الهداية القرآنية في هذا الركن الخفي المعالم أنه لم يتكرر ذكره في القرآن العظيم كما تكرر ذكر غيره من الأركان، وكأنَّ ذلك لأن أعمال السر الخفية تعتمد على الإشارة والرمز، والصوم صمت والصمت صوم، وأم آيات الصوم آيته التي هي آيته: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾[1]، فحكمة هذه العبادة التخلق بالتقوى، والتقوى عمل القلب والضمير.

تعليل رائع

(٦)
ركن الحج ومقامه الاجتماعي والتعبّدي.

أما الحج فهو محفل المسلمين الذي دعا الله إلى إقامته ليجمع شمل القادرين منهم جمعاً تعبّدياً، فهو الركن الاجتماعي التهذيبي، يتعارف المسلمون في ساحته، ويتبادلون فيه الرأي والفكرة، ويسمعون رأي الإمام أو الأئمة، ويطالعون أفكار القادة والزعماء، وفتاوى الأعلام من العلماء في مهمات شؤون الإسلام والمسلمين، ولا يشغلهم هذا

---

(١) سورة البقرة: الآية (١٨٣).

عن التعبّد لله، يؤدّون الشعائر في هذا الركن إيماناً وتسليماً، لا يسألون لماذا؟ ولكنهم يسألون كيف صنع رسول الله ﷺ فيصنعون كما صنع، أفلا تسمع إلى قول الفاروق عمر رضي الله عنه وهو يخاطب الأمة في مواجهة الحجر الأسود: (إني لأعلم أنك حجر لا تضر ولا تنفع، ولولا أنّي رأيت رسول الله ﷺ يقبلك ما قبلتك). والعبادة روحها وإخلاصها التعبد، فإذا خلت منه كانت جسماً بغير روح، وشبحاً بغير عقل، ومن هنا جاء تعبير القرآن العظيم عن الهداية في هذا الركن إيجاباً وسلباً، وطلباً وجحداً، فقال عزّ اسمه: ﴿وَلِلَّهِ عَلَى ٱلنَّاسِ حِجُّ ٱلْبَيْتِ مَنِ ٱسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِيٌّ عَنِ ٱلْعَالَمِينَ﴾[1]. ففي الإيجاب نص بالتحتيم في دائرة الشرط تيسيراً وتقديراً لمن يصلح للوفود للمحفل الأعظم من كل فجّ عميق، وفي السلب تكفير للجاحدين استهتاراً واستكباراً، وكفر دون كفر، وإيمان فوق إيمان.

(٧)
نص آيات من سورة الحج وبيان بعض الهداية القرآنية والإعجاز في معانيها.

والقرآن العظيم نزلت فيه سورة بعنوان هذا الركن العظيم، سميت باسمه (سورة الحج) وفيها عرض لحكمة هذا الركن الاجتماعية، وعرض لحكمته التعبّدية، وجاءت الآيات في بيان الحكمتين نسقاً يراوح بينهما كأنهما مزج من فكرة واحدة، يقول الله عزّ شأنه: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ ٱلَّذِي جَعَلْنَاهُ لِلنَّاسِ سَوَآءً ٱلْعَاكِفُ فِيهِ وَٱلْبَادِ وَمَن يُرِدْ فِيهِ بِإِلْحَادٍ بِظُلْمٍ نُّذِقْهُ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ، وَإِذْ بَوَّأْنَا لِإِبْرَاهِيمَ مَكَانَ ٱلْبَيْتِ أَلَّا تُشْرِكْ بِي شَيْئًا وَطَهِّرْ بَيْتِيَ لِلطَّآئِفِينَ وَٱلْقَآئِمِينَ وَٱلرُّكَّعِ ٱلسُّجُودِ، وَأَذِّن فِي ٱلنَّاسِ بِٱلْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالًا وَعَلَىٰ كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِن كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ، لِّيَشْهَدُوا مَنَافِعَ لَهُمْ وَيَذْكُرُوا ٱسْمَ ٱللَّهِ فِي أَيَّامٍ مَّعْلُومَاتٍ عَلَىٰ مَا رَزَقَهُم مِّن بَهِيمَةِ ٱلْأَنْعَامِ فَكُلُوا مِنْهَا وَأَطْعِمُوا ٱلْبَآئِسَ ٱلْفَقِيرَ، ثُمَّ لْيَقْضُوا تَفَثَهُمْ وَلْيُوفُوا نُذُورَهُمْ وَلْيَطَّوَّفُوا بِٱلْبَيْتِ ٱلْعَتِيقِ، ذَٰلِكَ وَمَن يُعَظِّمْ حُرُمَاتِ ٱللَّهِ فَهُوَ خَيْرٌ

(١) سورة آل عمران: الآية (٩٧).

لَـهُ عِنْدَ رَبِّـهِ، وَأُحِلَّتْ لَكُمُ ٱلْأَنْعَامُ إِلَّا مَا يُتْلَى عَلَيْكُمْ فَٱجْتَنِبُـوا ٱلرِّجْسَ مِنَ ٱلْأَوْثَانِ وَٱجْتَنِبُوا قَوْلَ ٱلزُّورِ، حُنَفَـآءَ لِلَّهِ غَيْرَ مُشْـرِكِينَ بِـهِ وَمَنْ يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَتَخْطَفُهُ ٱلطَّيْرُ أَوْ تَهْوِي بِـهِ ٱلـرِّيحُ فِي مَكَانٍ سَحِيقٍ، ذَٰلِكَ وَمَنْ يُعَظِّمْ شَعَائِرَ ٱللَّهِ فَـإِنَّهَا مِنْ تَقْـوَى ٱلْقُلُوبِ، لَكُمْ فِيهَا مَنَافِعُ إِلَىٰ أَجَلٍ مُسَمًّى ثُمَّ مَحِلُّهَـا إِلَىٰ ٱلْبَيْتِ ٱلْعَتِيقِ، وَلِكُلِّ أُمَّـةٍ جَعَلْنَا مَنْسَكاً لِيَذْكُرُوا ٱسْمَ ٱللَّهِ عَلَىٰ مَا رَزَقَهُمْ مِنْ بَهِيمَةِ ٱلْأَنْعَامِ فَـإِلَـٰهُكُمْ إِلَـٰهٌ وَاحِـدٌ فَلَهُ أَسْلِمُوا وَبَشِّـرِ ٱلْمُخْبِتِينَ، ٱلَّـذِينَ إِذَا ذُكِـرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَٱلصَّابِرِينَ عَلَىٰ مَا أَصَابَهُمْ وَٱلْمُقِيمِي ٱلصَّلَـوٰةِ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُـونَ، وَٱلْبُـدْنَ جَعَلْنَاهَـا لَكُمْ مِنْ شَعَآئِـرِ ٱللَّهِ لَكُمْ فِيهَا خَيْـرٌ فَٱذْكُـرُوا ٱسْمَ ٱللَّهِ عَلَيْهَا صَوَافَّ فَإِذَا وَجَبَتْ جُنُوبُهَـا فَكُلُوا مِنْهَا وَأَطْعِمُـوا ٱلْقَانِـعَ وَٱلْمُعْتَـرَّ، كَذَٰلِكَ سَخَّرْنَاهَا لَكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ. لَنْ يَنَالَ ٱللَّهَ لُحُومُهَـا وَلَا دِمَآؤُهَـا وَلَكِنْ يَنَـالُهُ ٱلتَّقْـوَى مِنْكُمْ، كَذَٰلِـكَ سَخَّـرَهَـا لَكُمْ لِتُكَبِّـرُوا ٱللَّهَ عَلَى مَـا هَدَاكُمْ وَبَشِّرِ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾[1].

فـأنت تـرى الآيـات بـدأت ببيـان مكـانـة البيت الحـرام ومقـامـه في حيـاة المسلمين، وأنه بيتهم جميعـاً جعله الله لعـامتهم وخـاصتهم، يستوي في الحق فيه جميـع من شهده، وحضر فيه، وقدم إليـه من أبعد البعد في أرض الله، أو أقرب القـرب من حرم الله، وأن صـد أي مسلم عنه، وعن الوصول إليه كالصد عن سبيـل الله لا يجترىء عليـه إلَّا كفور أو مفسد في الأرض محارب لله ولرسوله والمؤمنين.

ثم توعد الله من ينحرف عن طريق الحق وهو في بيت الله وحرمه بقول أو فعل، أو تدبير خبيث، بأليم العذاب بعد أن سجل عليه الإلحاد والظلم مما يوجب على الأمة كلها أن تأخـذ على يديـه وتطهـر حرم الله من رجسه وإفساده.

---

(١) سورة الحـج : الآيات (٢٥ ـ ٣٧).

ثم بيّن ربنا تبارك وتعالى رفيع قدر هذا البيت المكرم بأنه تولّى بنفسه تعريف خليله إبراهيم أبي الأنبياء عليهم السلام مكان البيت، وأنه اختاره من بين سائر بقاع الأرض ليكون نديَّ المسلمين في أعظم محافلهم، وأمر خليله ـ بعد تحقيق إخلاص الإيمان بأسلوب الاستفزاز والتنفير من الإبقاء على آثار الوثنية الجاهلية في صورة النهي عن الإشراك بالله متعلقاً بأعمّ ما يفيد العموم ـ أن يعدّ هذا البيت طاهراً مطهراً للطائفين به، والقائمين فيه للصلاة والمناجاة والدعاء والذكر، والركّع السجود تذللاً لجلال الله في ساحات بيته، ثم أمر الله خليله إبراهيم عليه السلام أن يدعو الناس كل الناس وفوداً إلى بيت الله، ووعده بالبلاغ واستجابة من كان أهلاً لشهود هذا المحفل الإسلامي العظيم حيثما كانوا من أرض الله، ليشهدوا فيه ومن حوله منافع لهم في دينهم بتذلل التعبّد، وتسليم الاستسلام وفي دنياهم من تبادل التجارات، ونصب موائد الجود والإكرام، ومناقشة الأفكار، ومعرفة الأحوال، قياماً بشكر الله على واسع فضله وعظيم إنعامه، ومشاركة للبائسين والمتعرضين لطلب الإحسان من عطاء الله، رب الجميع، الذي أعطى من شاء لحكمته، ومنع من شاء بحكمته، طارحين أنفسهم على عتبات الذل والإخلاص لله تعالى، لأن من حُرِم الإخلاص فقد راءى وسمّع ، والرياء والتسميع شرك خفي، ومن يشرك باللّه فقد أهلك نفسه هلاكاً لا يرجى معه فلاح، ومثله في محسوس الأمور مثل من سقط من أعلى مكان إلى أسفل هوّة، فتخطفه الطير الكواسر، فتمزقت أوصاله، وتفرقت أعضاؤه، وتناثرت أشلاؤه، أو عصفت به الريح حتى ألقته في المهالك السحيقة التي لا نجاة منها.

ثم ذكر الله تبارك وتعالى نعمه على عباده وزوار بيته الذين استضافهم في رحاب جوده، وأكرمهم بضيافته ليؤكد طلب الشكر بدوام التذلل والخشوع وتسليم الانقياد وتذلل العبودية بعد أن ذكرهم بالأساس الذي قامت عليه هذه الضيافة، وهو توحيد الربوبية والألوهية.

ثم ذكر ربنا عزّ اسمه أهل الإيمان بخواص نعوتهم من الإخبات لجلال الله، والتواضع لعباد الله والخشوع لتهذيب النفس من غوائل الكبرياء، فقلوبهم وجلة خائفة، يستشعرون الخشية من الله إذا ذكر الله على مسمع منهم، ويصبرون على بلاء الله، ويقيمون الصلاة استجابةً لأمر الله، وينفقون من رزق الله على خلق الله.

ثم عادت الآيات إلى ذكر النعم تذكيراً بالبائسين المحرومين، ليكون الإحسان إليهم صورة من الشكر عملاً بالجوارح وتخشّعاً بالقلب، ثم ختم الله الحديث عن بيته وزواره ببيان ما هو حقه ووصفه من الغنى المطلق عن الخلق وأعمالهم، وأنه إنما أنعم عليهم متفضلاً بمحض الجود والإكرام، فهو القيوم الغني الحميد، يرضى من عباده التقوى وإخلاص العبودية، قياماً بحق شكره على ما هداهم ووفقهم بإحسانه وإنعامه.

ثم عجل لهم البشرى بإحسانهم واستجابتهم لنداء خليله عليه السلام، وبذل طاقتهم في الوصول إلى دار ضيافته طائفين ببيته، فكانوا أهلاً للبشرى بتسجيل الإحسان.

* * *

لم نقصد بهذه الإشارات في هذا العرض قصد التفسير، وإنما أردنا التنبيه إلى ما اشتملت عليه آيات هذا الركن الاجتماعي التعبدي من أركان الإسلام من منازل الهداية القرآنية، لتكون هذه الإشارات منزعاً لبيان الإعجاز البياني في أسلوب أداء هذه المنازل.

وحسب الناظر في هذا المقام أن يردد نظر بصيرته في هذا التصوير البياني ليعرف مكانة الهداية القرآنية في الإعجاز بنوعَيْه المعنوي والأسلوبي حتى يكون ذلك البيان نمطاً في تفسير القرآن العظيم.

* * *

الأصل الثالث

سياسة الخلق

(١)
مكانة العدل في الهداية القرآنية.

هذا النوع من الهداية يستهدف تحقيق أبلغ ما تتطلع إليه النفوس البشرية من نُظُم في تدبير شؤون الحياة، على أوضاع متناسقة من سياسة الخلق سياسة تعتمد على العدل والرحمة، وتستشعر الإخاء والمحبة بين أبناء الإنسانية، ليعيشوا في ظل هذا الإخاء إخوة متحابين، ينعمون بنعمة الأمن والسلام.

ومنابع هذا الأصل في الهداية القرآنية تفيض من مَعين العناية الإلهية بتوطيد دعائم العدل بين أبناء البشرية كلها أينما كانوا، وحيثما حلوا، وكيفما اعتقدوا، وعلى أي لون خلقوا، ومن أي جنس تنوعوا، وعن أي أصل تفرعوا.

النموذج الأول واقتران العدل بالأمانة:

ولهذا نجد القرآن الكريم يطلب العدل بين الناس ـ كل الناس ـ في الحكم، حقاً واجباً، يقول الله عز وجل: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تُؤَدُّوا ٱلْأَمَانَاتِ إِلَىٰ أَهْلِهَا وَإِذَا حَكَمْتُم بَيْنَ ٱلنَّاسِ أَنْ تَحْكُمُوا بِٱلْعَدْلِ﴾[١]، فقد قرن الله جل شأنه بين أداء الأمانة، والحكم بين الناس عامة بالعدل في الأمر بهما وطلبهما طلباً موكداً.

والأمانة كل ما يؤتمن عليه الإنسان من أمور الدين والدنيا، فهي شاملة لجميع التكاليف الشرعية، وتعم أمانة الإنسان مع ربه وخالقه،

---

(١) سورة النساء: الآية (٥٨).

وأمانته مع نفسه، وأمانته مع أسرته وعشيرته، وأمانتـه مع مجتمعـه العام والخاص، وأمانتـه مع سـائر النـاس والأشياء التي تـرتبط بـه ارتباط حق وواجب، أو ارتباط ألفة ورحمة.

أمـا العـدل فهـو الميـزان الإلّهي الـذي تـوزن بـه عـلائق الحيـاة والأحيـاء، والمقصود بـه إقـامة مـوازين الحقوق والـواجبـات بين كـافـة الخلق، لكل فرد، ولكـل جماعـة وطائفـة، ولكل شعب وأمـة، فهو في هـداية القـران حق لكل إنسـان كائنـاً من كـان على حسب مكـانتـه من الحياة، وموضعه في المجتمـع الذي يعيش فيـه، لا يغض من حقه فيـه جنس أو لون، أو لغة، أو عقيدة، أو مذهب ونحلة، أو فكرة في الحياة.

فكل إنسان ــ في هداية القرآن ــ مأخوذ بالعدل، وكل إنسـان لـه في العـدل حقوق وعليـه واجبات، يحيـا في مجتمعـه بهـذه الحقـوق، ويتعامل مع الحياة بالقيام بتلك الواجبات.

ومن هنا كان العـدل أصلاً من أصـول الهدايـة القرآنيـة، وأساسـاً للترابط بين كل مترابطين بسبب من أسباب الحياة.

ولهذا جاء أسلوب الهـداية القـرآنية في الأمـر بـه، والترغيب فيـه متنـوعاً، وسلك بـه البيـان القرآني مسلكـاً فذّاً يجعله دعـامـة للتشـريـع الإسلامي، لا يقوم إلا بها، ولا تصلـح الحياة إلا بـه.

النموذج الثاني:

(٢)
آية جامعة لمعاني التشـريـع أمـراً ونهياً، وبيان ذلك تفصيلاً.

ففي الآية السابقة نجد القـــرآن الـكـريم يقرن العـدل بالأمـانة، وفي قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ وَٱلْإِحْسَانِ وَإِيتَآءِ ذِي ٱلْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ وَٱلْبَغْيِ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾[1] نجده يقرن العدل بأمرين في جانب الطلب والترغيب، ويقرنه بثلاثـة أمور في جانب النهي والتنفير.

---

(١) سورة النحل: الآية (٩٠).

فأما الأمران اللذان قرن بهما في جانب الطلب والترغيب:

فأولهما: الإحسان، والمراد به المراقبة لله في كمال العمل وإتقانه وإخلاص النية فيه، وقصد إيصال النفع به إلى عموم الخلق بقدر طاقة من يعمل.

وثانيهما: إيتاء ذوي القربى، والمقصود به صلة الرحم في أعم مراتبها، وخص القرابة بالذكر لأن حقهم أوكد وأقرب، والقرآن ينبه بالأهم على المهم.

وأما الأمور الثلاثة التي قرن بها العدل في جانب النهي والتنفير فهي:

أولاً: الفحشاء، ويراد بها كل عمل بذيء تشمئز منه النفوس الكريمة، وتستفحشه الفطر السليمة، ويجري في بعض الاستشهاد ضرب المثل للفاحشة بالزنا على أنه تمثيل للفعل البالغ النكارة والفحش، ووجدنا الله سماه فاحشة، فكان نموذجاً لأسوإ الفحش الذي تنفر النفوس الكريمة من مواقعته.

ثانياً: المنكر، ومعناه كل فعل أو قول يبلغ من القبح مرتبة تشيح عنها الطبائع السليمة وتنكرها الشرائع الإلٰهية من كل ما هو بغيض لدى العقول المهذبة، فيعم جميع المعاصي، وكافة الرذائل وسائر الدناءات.

ثالثاً: البغي، وهو تجاوز الحد، فيدخل فيه بغي الأخلاق كالكِبْر، والغرور، والبطر، ويشمل شطط الأعمال كالظلم والغصب، والفظاظة والقسوة. وينضوي تحته رذائل القلوب، كالحقد والحسد والغِلّ، والنفاق والعجب، والمكر والكيد والخداع، وسائر مفسدات الأخلاق.

وقد وقع العدل في الآية مقدماً في مطلعها، للإشعار بأنه أساس الفضائل العملية التي تقوم عليها الحياة النظيفة بين الأفراد والجماعات.

(٣) صيغة المبالغة الدالة على تحقيق العدل والتجرد في ذلك.

النموذج الثالث:

وقد أفرد البيان القرآني هداية القرآن بالعدل، في آيات أخرى كثيرة، وجه فيها الخطاب إلى المؤمنين خاصة باعتبارهم القوامين على أمانة الله وهديه في سياسة الخلق، يقول ربنا عز شأنه: ﴿يَا أَيُّهَا ٱلَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ بِٱلْقِسْطِ شُهَدَآءَ لِلَّهِ وَلَوْ عَلَى أَنْفُسِكُمْ أَوِ ٱلْوَالِدَيْنِ وَٱلْأَقْرَبِينَ، إِنْ يَكُنْ غَنِيّاً أَوْ فَقِيراً فَٱللَّهُ أَوْلَى بِهِمَا فَلَا تَتَّبِعُوا ٱلْهَوَى أَنْ تَعْدِلُوا، وَإِنْ تَلْوُوا أَوْ تُعْرِضُوا فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيراً﴾[1].

هذا الأسلوب في بيان القرآن العظيم لهدايته بالتعبير عن الفكرة في تقدير فضيلة العدل هو الخصيصة الفكرية، والميزة البيانية التي لا نجدها في كتاب غير القرآن العظيم، ولا نراها في شريعة غير شريعة الإسلام.

وفي هذه الآية نسمع هذا النداء الإلّهي المتلطّف لأولئك القوّامين على أمانة الله في سياسة الخلق، وتدبير أمر الحياة، مما يدل على خصيصتهم في حمل أمانة العدل حتى يكون خلقاً لهم وجبلّة في طبيعتهم الإنسانية التي صنعها الإيمان، فلم يقل القرآن: كونوا عادلين، ولم يقل: قوموا بالعدل، ولم يقل: اقسطوا بين الناس، ولكنه قال: ﴿كُونُوا قَوَّامِينَ بِٱلْقِسْطِ﴾ فالأمر بهذه الكينونة معناه، أعيدوا تكوين أنفسكم وجددوا فطرتكم، وكونوا خَلقاً جديداً، تعدون به أنفسكم إعداداً خاصاً، يكون به العدل عنصراً من عناصر تكوينكم الخلقي، واختيار لفظ ﴿قَوَّامِينَ﴾ بهذه الصورة من هذه المادة يدل على أنهم أريدوا على أن يكونوا في حياتهم نهّاضين مشمّرين عن ساق العزم في بذل الجهد ووسع الطاقة، متحفّزين للعمل في سبيل توطيد دعائم هذه

---

(١) سورة النساء: الآية (١٣٥).

الفضيلة الاجتماعية حتى تكون خلقاً فطرياً يولد في نفوسهم مع الإيمان.

(٤)
لطيفة في حكمة التدرج في إقامة العدل ونبذ اتباع الهوى المفضي إلى الظلم.

وليتأمل الناظر في رياض القرآن هذا الأسلوب المتسامي ببالغ المبالغة في جانب الذاتية الإنسانية بإقامة موازين العدل على النفس، ثم تخصيص الوالدين بالذكر، وإجمال الأقربين بعدهما، ثم ليتأمل في تولج الهداية القرآنية في أسلوبها البياني إلى مداخل الضمير الإنساني، وتحذيره من الخضوع في إقامة العدل لعاطفة تتملق غنياً لغناه وثروته، أو عاطفة رحمة ترحم فقيراً لفقره، فيميل مع هذه أو تلك، فلا يحملن عز المال المؤمن أن يجانب لأجله العدل ليظلم الفقير الذي لا مال له، ولا تحملنه الرحمة بالفقير على المحاباة له فيظلم له الغني، وليذكر أن الله تعالى الذي خلق الخلق، وقسم بينهم أرزاقهم هو بحكمته الذي أغنى الغني، وأفقر الفقير، والناس كلهم عيال الله وعباده، يتساوون في حق القيام بالعدل بينهم، وهو أولى بهم، ولا ينبغي لمن شرفه الله بالإيمان أن يتبع الهوى، ويميل مع العواطف فيحيد عن الحق ليًّاً بمنصب العدل، وإعراضاً عن النَّصفة، لأن الله الذي شرفهم بنعمة الإيمان، وحملهم بفضلها أمانة العدل خبير بأعمالهم وما يكون منهم من إعراض عن الحق، فيجازيهم بأعمالهم.

(٥)
معنى العدل عند الإمام الطبري.

وقد فهم مفسرو القرآن معاني هدايته في هذا الأصل فأشاروا إليها في أقاويلهم إشارات عابرات. يقول أبو جعفر الطبري: (العدل ميزان الله في الأرض، به يرد الله من الشديد على الضعيف، ومن الكاذب على الصادق، ومن المبطل على المحق، وبالعدل يصلح الناس).

(٦)
معنى القيام بالقسط عند الإمام الجصاص.

ويقول أبو بكر الجصاص في أحكامه: (قوله تعالى: ﴿كُونُوا قَوَّامِينَ بِٱلْقِسْطِ﴾ قد أفاد الأمر بالقيام بالحق والعدل، وذلك موجب على كل أحد إنصاف الناس من نفسه فيما يلزمه لهم، وإنصاف المظلوم من ظالمه، ومنع الظالم من ظلمه، لأن جميع ذلك من القيام بالقسط).

(٧)
تكامل الإعجاز المعنوي في معنى القيام بالقسط، فلا محاباة حباً ولا بغضاً.

النموذج الرابع:

ومن بديع البيان القرآني في تصوير هداية القرآن العظيم في فضيلة العدل أن الله تعالى شأنه ذكر هذا المعنى نفسه في آية أخرى فقال: ﴿يَا أَيُّهَا ٱلَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ لِلَّهِ شُهَدَآءَ بِٱلْقِسْطِ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ عَلَى أَلَّا تَعْدِلُوا ٱعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى﴾[1].

فصورة النداء المتلطف بعنوان الإيمان، وصورة الخطاب الكينوني ﴿كُونُوا﴾ الذي يجعل من العدل طبيعة في خلائق أهل الإيمان، لأنه أمانتهم العظمى التي حُمِّلوها إلى الحياة، وصورة إعظام القيام بالعدل ﴿قَوَّامِينَ﴾ واحدة هنا وهناك.

بيد أن الأمر اختلف في الآيتين اختلافاً جمع متفرق مواطن العدل باعتباره أصلاً في الهداية القرآنية التي تحقق إعجازه المعنوي، فهناك في الآية الأولى وجّه الأمر للمؤمنين إلى أن يكونوا قوامين بالعدل ولو كان في ذلك مراغمة كافة عواطف الحب والمودة لأقرب الأقربين، وهنا وجه الأمر للمؤمنين إلى أن يكونوا قوامين بالعدل ولو كان في ذلك مراغمة كافة عواطف البغض والعداوة.

وملتقى الآيتين الكريمتين في توجيه أهل الإيمان إلى أن يكونوا نهّاضين بالعدل بين الناس إخلاصاً لله في عبوديتهم له، لا تحملهم محبة مهما عظمت، أو بغض مهما اشتد على الإعراض عن إقامته إحقاقاً للحق، وإنصافاً للمظلوم، وانتصاراً للضعيف.

(٨)
كلام للإمام الطبري في معنى الوقوف عند حدود الله في إقامة العدل.

يقول أبو جعفر الطبري: (يعني جل ثناؤه، يا أيها الذين آمنوا بالله ورسوله محمد ﷺ ليكن من أخلاقكم وصفاتكم القيام لله شهداء بالعدل في أوليائكم وأعدائكم ولا تجوروا في أحكامكم وأفعالكم فتجاوزوا ما حددت لكم في أعدائكم لعدواتهم لكم، ولا تقصروا فيما حددت

---

(١) سورة المائدة: الآية (٨).

لكم من أحكامي وحدودي في أوليائكم لولايتهم لكم، ولكن انتهوا في جميعهم إلى حدّي واعملوا فيه بأمري).

(٩) المعنى عند الإمام الرازي.

ويقول الفخر الرازي: (لا يحملنكم بغض قوم على أن لا تعدلوا فيهم، وتجوروا عليهم، وتجاوزوا الحد فيهم، بل اعدلوا فيهم ولو أساءوا إليكم، وأحسنوا إليهم وإن بالغوا في إيحاشكم).

(١٠) استدلال وجيه للإمام القرطبي من الآية.

ويقول القرطبي: ودلت الآية على أن كفر الكافر لا يمنع من العدل عليه، وأن المثلة بهم غير جائزة وإن قتلوا نساءنا وأطفالنا وغمونا بذلك فليس لنا أن نقتلهم بمثله قصداً لإيصال الغم والحزن إليهم.

(١١) إقامة العدل بين الناس سمة الكتب المنزلة لا القرآن فحسب.

وقد تكرر الأمر بالعدل في البيان القرآني مقروناً بالتحذير عن الميل إلى القرابة وأهل المودة، لأن الطبائع البشرية المحكومة بسلطان الغرائز تقتضي الميل بالعطف والشفقة على القرابة وأهل المودة من الأصدقاء والخلان، والإخوان والأعوان، وقد شرع الله العدل ليكون ميزاناً يراح به الحق على أهله مهما كانت روابطنا بهم من حب أو بغض، قال الله تعالى: ﴿وَإِذَا قُلْتُمْ فَٱعْدِلُوا وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ﴾[١].

ويقول الله عز شأنه لنبيه محمد ﷺ: ﴿فَلِذَٰلِكَ فَٱدْعُ وَٱسْتَقِمْ كَمَآ أُمِرْتَ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَهُمْ وَقُلْ ءَامَنتُ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِن كِتَٰبٍ وَأُمِرْتُ لِأَعْدِلَ بَيْنَكُمُ﴾[٢]، وقد وصف الله تعالى القرآن العظيم بأنه منزل بالحق والميزان، والحق والميزان هما العدل الثابت في شرائع الله الذي لا يقبل النسخ والتبديل، يقول الله تعالى: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ وَٱلْمِيزَانَ﴾[٣].

ولهذا بعد أن أفرد الله القرآن العظيم بهذا الوصف الأكرم، تمييزاً له في هدايته، ذكر أن ذلك سمة كتب الله وشرائعه المنزلة على رسله،

---

(١) سورة الأنعام: الآية (١٥٢).

(٢) سورة الشورى: الآية (١٥).

(٣) سورة الشورى: الآية (١٧).

يقول تعالى: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِٱلْبَيِّنَاتِ وَأَنْزَلْنَا مَعَهُمُ ٱلْكِتَابَ وَٱلْمِيْزَانَ لِيَقُومَ ٱلنَّاسُ بِٱلْقِسْطِ﴾[1] فتحقيق العدل بأجمع صوره وأعم معانيه هو هدف الرسالات الإلٓهية والشرائع السماوية لهداية الخلق وإصلاح شأنهم.

* * *

(١) سورة الحديد: الآية (٢٥).

الأصل الرابع

الوشائج الاجتماعية بين الأفراد والجماعات

(١)
الروابط الاجتماعية بين الأفراد والجماعات ونظام روابط الأفراد في المجتمع وروابط الجماعات: الرابطة الإيمانية، الرابطة اللغوية، الرابطة الوطنية، رابطة المصاهرة.

هذا النوع من أصول الهداية القرآنية يقصد إلى تحقيق أفضل نظام تقوم على دعائمه وشائج الصلات بين الأفراد في المجتمع الموحد في إطار المصاهرة والنسب، كما يقصد إلى تحقيق أفضل نظام تقوم على أساسه وشائج الصلات العامة بين الجماعات في المجتمعات التي لا تربطها وشائج أرفع من وشيجة الإيمان بالله ورسوله وشريعته، وقد تكون لها وشائج خاصة بالبيئة والوطن، أو اللسان، أو القومية، ولكن هذه الوشائج الخاصة تتجمع في إطار عام هو إطار الإيمان، فيؤلف منها مجتمعاً واحداً، له خصائصه الإيمانية التي تمتزج بالخصائص الإنسانية حتى تكون أمة واحدة عناصرها شعوب مختلفة الخصائص موحدة الإيمان.

والمجتمع الواحد في إطار المصاهرة والنسب يعني بناء الأسرة، ودوافع إيجادها ونظام تكوينها وحوافظ بقائها، وآثارها في بناء المجتمع الكبير في الوطن الواحد.

والقرآن الكريم عُني أشد العناية بإبراز هذا اللون من الهداية في صور وأساليب امتاز بها، فلا توجد في كتاب سواه إلا مأخوذة عنه ومنبثقة من نوره، ولكنها في حاجة إلى الغوص على أسرارها، والتقاط جواهرها، واستخراج دررها من معاني آياته في بسط يظهر مواطن الإعجاز المعنوي والفكري في آيات هذا الكتاب الحكيم.

(٢)
رابطة المصاهرة.

وأول ما يطالع الناظر في رياض القرآن من أزاهير هذه الهداية ما يراه في الآيات التي تتحدث عن أصل النوع الإنساني، وكيفية تفرعه إلى أفنان إنسانية عن طريق وشيجة المصاهرة والنسب وهي التي يشير إليها القرآن العظيم إشارة إجمالية في قوله تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِيْ خَلَقَ مِنَ ٱلْمَاءِ بَشَرَاً فَجَعَلَهُ نَسَبَاً وَصِهْراً وَكَانَ رَبُّكَ قَدِيْراً﴾[1]، فالماء أصل الحياة كما أخبر القرآن بجعل الله له كذلك فقال: ﴿وَجَعَلْنَا مِنَ ٱلْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ﴾[2]، فامتنان الله تعالى على الناس بنعمة خلقهم من الماء إشارة إلى اصطفائهم لنوع من الحياة لا يكون لغيرهم من الأحياء، وجعلهم نسباً وصهراً إشارة إلى وشائج القربى بينهم من جانبيها، وهذا عام في النوع الإنساني.

النموذج الأول من آيات هذا النوع:

ويفصّل هذا المعنى الآيات التي تتحدث عن انبثاق الأفراد من المنبع الإنساني عن طريق الزواج كما في قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُوا رَبَّكُمْ ٱلَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالاً كَثِيراً وَنِسَآءً﴾[3].

(٣)
وجه دلالة الآية وما فيها من إشارات اجتماعية وخلقية.

فهذا النداء الإلٓهي العام لجميع أبناء البشرية بعنوانهم الإنساني الشامل يلفت نظر العقل إلى أن وراء هذا النداء أمراً ذا خطر، يقتضي يقظة القلب والعقل على سواء.

وهذا الأمر الذي جاء بعد هذا التنبيه، وما تضمنه من طلب التسامي بالنفس الإنسانية إلى ذروة الفضائل العملية، وهي (التقوى) يفيد اختصاص الإنسان بهذه الفضيلة باعتبارها عملاً تكليفياً ينتهي إليه إخلاص التعبد «التقوى» وهذا اللفظ في القرآن الكريم عنوان التحفظ

---

(١) سورة الفرقان: الآية (٥٤).
(٢) سورة الأنبياء: الآية (٣٠).
(٣) أول سورة النساء.

ومراقبة النفس حتى لا تنزلق في عمل تنحرف بـه عن إخلاص العبـودية لله وحده.

وربط هـذه الفضيلة المتسـاميـة بخصـوص هـذا الاسم الأكـرم (الرب) مُشعِر بأعظم الإنعام بالتربية على مـوائد الفضـل، وفيض الجود بهـذه الإضـافـة التي تعم جميـع أفـراد البشـريـة، لتهـز فيهم عـواطف الاختصاص، وتبلـغ أعماق كل نفس، بالمناجاة لربها الذي تعهدها في إبداعه وخلقه.

وهذا الجمـع في خطاب الإضافة إلى الاسم الأكرم، وفي خطاب الخالقية والمخلوقية مشعر بوحدة المدعو بالنداء، وهو في حقيقته كثرة، والكثرة مع تفـرقها وحـدة في خصائصهـا، لأنها كلهـا نـابعـة من مَعين واحد، هو أصـل البشريـة، وهو المعنيّ بـالنفس الواحـدة المذكـورة في قوله تعالى: ﴿مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ﴾.

وهـذا الخلق العام الشـامل المتكثـر من النفس الـواحـدة، ينبئنـا القرآن بأنه جاء عن طريق المزاوجة بين النفس الأصيلة التي هي المنبـع الأول، وبين نفس أخـرى انشعبت منهـا فـاتصلتـا اتصـال المصـاهـرة النسبية، فكان منهما هذا البشر المبثوث بنوعيه في هذه الحياة.

والقرآن العظيم يبرز حقيقة الـوشيجة بين نـوعي الإنسان، فيخبـر عن واقـع الإبـداع فيهمـا، وأن النفس الأصيلة التي هي المنبـع الأول أُبـدِعت إبـداعـاً بمحض الفيض الإلٓهي، وأن النفس الأخـرى انشعبت منها بعنوان الزوجية بقـوة الخلق والتقديـر، على معنى أنها نـاشئة منهـا وخـارجة من ذاتهـا كما تخـرج الثمـرة من الشجـرة، أو على معنى أنهـا بعضها وبضعة منهـا، فهي أول شطأ زرعهـا، وأول أفنان دوحتهـا، فهي منها، وفيها خصائصها الكامنة في بذرتها، فإذا أثمرت فبها ومنها تثمـر، فالنفس الثانيـة المنبثقة زوج النفس الأولى، بـطريق المصاهـرة والنسب بأصل وجودها منهـا، والأولى هي الرجـل، والثانيـة هي المرأة بفحـوى

الحديث وسياق القصة، وليس للمرأة غنية عن الرجل، لأن المشيئة الإلهية ربطت وجودها اللاحق بوجوده السابق، وهو لا يستغني عنها لأنها بأصل وجودها منه وانشعابها من أصله بعنوان الخاص (زوج) طرف أصيل في بقاء النوع المبثوث منهما في أرض الله.

وهذا الوصف بالكثرة في جانب الرجال، وهم نماذج المنبع الأول، وطرحه في جانب النساء، وهن نماذج الفرع المنشعب من الأصل إشارة إلى الوضع الاجتماعي في وجود النوعين، وهو يفيد كثرة الرجال في أصل الوجود ــ على خلاف ما يُظن ــ وهذه الكثرة في الرجال معرضة دائماً لعوامل الانتقاص عن طريق مخض الحياة، فكان لا بد من قانون التعويض بالتوالد ليبقى التوازن بين النوعين.

هذه إشارات رامزة لبعض مواطن الإعجاز الفكري في الهداية القرآنية، يستطيع الناظرون في القرآن الكريم على مدى الأزمان، أن يستخرجوا أضعاف أضعافها من آي القرآن العظيم في كل أصل من أصول هدايته التي ذكرنا ونذكر نماذج لها.

النموذج الثاني:

ويجري على سنن هذه الآية الكريمة في إشاراتها الرامزة نظائرها من آيات الهداية القرآنية التي سيقت لبيان أصل الإبداع في النوع الإنساني كقوله تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا﴾[1].

(٤)
تحقيق ما في الآية من معان اجتماعية وروابط أسرية.

بيد أن هذه الآية الكريمة ــ جرياً على سنة القرآن في عدم التكرار المحض ــ زادت قيداً أبانت فيه عن الحكمة الربانية في وشيجة الزوجية بين النفس الأصيلة في الإبداع، وبين النفس المنشعبة منها.

تلك الحكمة هي سكون النفس الأصيلة من قلق الوحدة ووحشة

---

(١) سورة الأعراف: الآية (١٨٩).

الانفراد عن الملائم إلى أنس الزوجية وتلاطفها، في نموذجها المنشعب منها.

ويلاحظ أن الحديث هنا جرى على النوع الإنساني في نموذجيه قبل أن ينبت منهما أفراده، وقد كشف عود ضمير النفس الأصيلة خصيصة نوعها، فكانت هي الرجل، كما كشف عود ضمير النفس المتشعبة عن خصيصة نوعها فكانت هي المرأة، وقد صور هذا النهج في إبراز الفكرة الاتساق بين إعجاز الأسلوب وإعجاز الهداية في إيجاز البراعة البيانية بقوله تعالى: ﴿لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا﴾.

(٥)
بيان أسرار الآية وحِكمها.

وقضية سكون الزوج إلى زوجه، والرجل إلى امرأته سيقت في آية أخرى مساق التوجيه للعقل الإنساني إلى التعرف على عظمة القدرة الإلهية، وللامتنان على أفراد النوع الأول في وجود الإنسان، وهم الرجال، لبيان الحكمة في خلق نوع النساء ممثلاً في أفراده من ذات أنفس الرجال، بمعنى المنشأ أو البضعية أو كمال المماثلة في الخصائص النوعية مما يحقق أكمل الانسجام والممازجة.

وزيد هنا قيود على مجرد السكون، تتلاءم مع دائرة الأفراد المنبثين من النوعين في الامتنان عليهم بعد الامتنان على خصوص أصلهم في نموذجه الأول باعتباره المنبع الأصل لإبداع الإنسان وخلقه، قال تعالى: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجاً لِتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُمْ مَوَدَّةً وَرَحْمَةً إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾[1].

هذه لوحة فنية في إطار من الذكر الحكيم ترمز إلى آفاق السعادة الزوجية بين كل زوجين أراداها وسعيا إليها سعياً جاداً مستهدفاً، فالتعبير بقوله: ﴿خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ﴾ إشعار بمكانة الزوجة من زوجها،

---

(١) سورة الروم: الآية (٢١).

وتوجيه لما يجب أن تكون الزوجة من زوجها، وفي قوله: ﴿لَكُمْ﴾ إغراء بالحرص على أن يفتح الزوج قلبه لحب زوجته لأنها له وحده روحاً وعقلاً وجسماً، وفي قوله: ﴿مِنْ أَنْفُسِكُمْ﴾ بيان لما يجب أن يكون من الانسجام والتمازج بين الزوجين، لأنهما نفس من نفس، فهو أبلغ في بث السكينة في قلب الزوج، لأنه بطريق الإيحاء كأنما يسكن إلى نفسه.

وفي الآيتين السابقتين كان الأسلوب: ﴿خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا﴾ أو: ﴿جَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا﴾ ولذلك كان الحديث هناك مع الأفراد في نموذج النوع بطرفيه، أما هنا فالحديث مع الأفراد المنبثين، كل فرد من النوع الأول مقصود بالخطاب والمنة بالنعمة.

(٦) تحليل للطائف المعاني في الآية.

وفي هذه الآية لمحة لطيفة، ونكتة ذوقية في الأسلوب القرآني، ذلك أن الآية الكريمة تجعل السكون مطلوباً من الرجال إلى نسائهم، ولم تجعله مطلوباً من النساء إلى الرجال، لأنه فيهن فطرة وطبيعة، وفي الرجال عادة مكتسبة ومغالبة للفطرة.

ثم أخبرت الآية بشيء جديد كل الجدة على الآيتين السابقتين، وذلك قوله تعالى: ﴿وَجَعَلَ بَيْنَكُمْ مَوَدَّةً وَرَحْمَةً﴾ فالمودة والرحمة شركة بين الزوجين يتساقيان عذب شرابهما ويتقاسمان حلاوتهما، أما السكون فإنه مطلوب من الرجل ليغالب به طبيعته القوامة، حتى تذهب عنه نخوة الشيطان ووساوسه.

ولكن القرآن العظيم لا يذهب بعيداً في مغالبة طبيعة الرجل، فيعطيه درجة القوامة على المرأة ويكلفه الذود عنها والقيام بكفايتها والإحسان إليها في عشرتها، يقول الله تعالى: ﴿ٱلرِّجَالُ قَوَّٰمُونَ عَلَى ٱلنِّسَآءِ﴾[١]، وهذه الدرجة لا تُنقص المرأة حقاً لها باعتبارها نموذج

---

(١) سورة النساء: الآية (٣٤).

النوع المكمل لوجود الإنسانية، بل إن القرآن العظيم يصرح بالمساواة في الحقوق الملائمة لطبيعة النوعين، ويفرد الرجل بدرجة القوامة، لأنه أحق بها وأهلها، يقول الله تعالى: ﴿وَلَهُنَّ مِثْلُ ٱلَّذِي عَلَيْهِنَّ بِٱلْمَعْرُوفِ﴾(1)، أي من الحقوق الواجبات: ﴿وَلِلرِّجَالِ عَلَيْهِنَّ دَرَجَةٌ﴾(1)، تلك هي درجة القوامة بالحق والعدل والرحمة والمودة: ﴿وَعَاشِرُوهُنَّ بِٱلْمَعْرُوفِ فَإِنْ كَرِهْتُمُوهُنَّ فَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئاً وَيَجْعَلَ ٱللَّهُ فِيهِ خَيْراً كَثِيراً﴾(2)، فإحسان العشرة للمرأة لا يلزم أن يكون مبعثه الحب، والقرآن العظيم يفتح باب الرجاء في الخير ولو مع الكراهية.

* * *

(٧) الإيمان أقوى روابط المجتمع المؤمن.

أما المجتمع الموحد في إطار الإيمان بالله ورسوله خاتم النبيين محمد ﷺ وشريعته، فهو بناء الإسلام كله، بجميع مجتمعاته وأممه وشعوبه، على اختلاف أوطانهم وأجناسهم ولغاتهم، ومذاهبهم وأنظمة الحكم فيها.

هذا المجتمع الإيماني هو الذي عبرت عنه الهداية القرآنية بقول الله تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ﴾(3)، فالإيمان وشيجة الإخاء بين عامة المؤمنين في أقطار الأرض، فالمؤمن ــ في هداية القرآن ــ أينما كان هو أخو المؤمن، أينما كان، وجميع ألوان الخطاب الواردة في القرآن العظيم بعنوان الإيمان تشمل جميع المؤمنين في كافة أوطان الإسلام، والحقوق والواجبات التي تترتب على وصف الإيمان تلزم كل مؤمن حيثما كان.

وقد نظمت آيات الهداية القرآنية علائق أفراد المجتمع الإيماني وجماعاته وعلائقهم مع غيرهم في السلم والحرب.

---

(١) سورة البقرة: الآية (٢٢٨).

(٢) سورة النساء: الآية (١٩).

(٣) سورة الحجرات: الآية (١٠).

النموذج الأول لهذا النوع :

ومن أشمل شواهد تنظيم هذه الوشائج الإيمانية في السلم قول الله تعالى: ﴿وَٱعْبُدُوا ٱللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئاً وَبِٱلْوَالِدَيْنِ إِحْسَاناً وَبِذِي ٱلْقُرْبَى وَٱلْيَتَامَى وَٱلْمَسَاكِينِ وَٱلْجَارِ ذِي ٱلْقُرْبَى وَٱلْجَارِ ٱلْجُنُبِ وَٱلصَّاحِبِ بِٱلْجَنْبِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ﴾[1].

(٨)
شمول الآية سائر العلاقات والروابط الإيمانية.

هذه الآية الكريمة جمعت سائر علائق الإنسان بالإنسان في مجتمع الإيمان، وجعلت الحفاظ عليها عزيمة الإيمان على المؤمنين، فالمؤمنون متكافلون في مقومات الحياة لأنفسهم ولمن عاش في كنفهم من غيرهم ممن يفي لهم بعهدهم، فمن خاس العهد أو غدر فلا يجوز ظلمه والغدر به، وإنما يعلن بغدرته، وينبذ إليه عهده، قال تعالى: ﴿وَإِمَّا تَخَافَنَّ مِنْ قَوْمٍ خِيَانَةً فَٱنْبِذْ إِلَيْهِمْ عَلَى سَوَآءٍ﴾[2].

وهداية القرآن توجب على المؤمنين أن يكونوا على استعداد وحذر، وإعداد القوة الدافعة التي ترهب العدو، قال تعالى: ﴿وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا ٱسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ وَمِنْ رِبَاطِ ٱلْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ ٱللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ وَآخَرِينَ مِنْ دُونِهِمْ لَا تَعْلَمُونَهُمُ ٱللَّهُ يَعْلَمُهُمْ﴾[3] ويقول جل شأنه: ﴿يَا أَيُّهَا ٱلَّذِينَ آمَنُوا خُذُوا حِذْرَكُمْ فَٱنْفِرُوا ثُبَاتٍ أَوِ ٱنْفِرُوا جَمِيعاً﴾[4].

فإذا حُملوا على خوض غمار الحرب حملاً، ودفعوا إلى ميادينها دفعاً خاضوها بعزم وقوة، قال الله تعالى: ﴿فَإِمَّا تَثْقَفَنَّهُمْ فِي ٱلْحَرْبِ فَشَرِّدْ بِهِمْ مَنْ خَلْفَهُمْ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ﴾[5] وإن ظهرت أمارات السلم من

---

(١) سورة النساء: الآية (٣٦).
(٢) سورة الأنفال: الآية (٥٨).
(٣) سورة الأنفال: الآية (٦٠).
(٤) سورة النساء: الآية (٧١).
(٥) سورة الأنفال: الآية (٥٧).

غير خديعة من الأعداء فإن هداية القرآن تأمر كافة المؤمنين بالدخول في ساحته، قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ادْخُلُوا فِي السِّلْمِ كَافَّةً﴾[1] وقال تعالى: ﴿وَإِنْ جَنَحُوا لِلسَّلْمِ فَاجْنَحْ لَهَا وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ﴾[2].

والمقصود الإشارة إلى مواطن الإعجاز الفكري في هداية القرآن العظيم، وسوق الشاهد وضرب المثل دون استيعاب واستقصاء.

* * *

---

(1) سورة البقرة: الآية (٢٠٨).

(2) سورة الأنفال: الآية (٦١).

الأصل الخامس

إيقاظ العقل وتحريره

(١)
القرآن يلفت نظر العقل إلى فهم الحقائق الكونية لتدله على الله في وحدانيته وعظيم قدرته.

هذا النوع من الهداية القرآنية هو ملتقى روافد الإعجاز الفكري في أصول الهداية العامة التي عُني بها القرآن العظيم عناية خاصة لعوامل طارئة أثرت على وجود العقل، وقيدته بأغلالها، فكان لا بد من معالجتها، وإصلاحها، وإطلاق العقل من ربقتها، ووضع أصول ثابتة لفهم الحقائق الكونية والحكم عليها، ترد إلى العقل الإنساني اعتباره، وتوليه تقديره ووزنه بقيمته الإنسانية الحقيقية التي جعلت من الإنسان كائناً مسيطراً على الحياة، وموجِّهاً لها، ورقيباً على نُظُمها وأوضاعها.

(٢)
القرآن يتخذ من الملة الحنيفية ـ ملة إبراهيم ـ وسيلة لتذكير العقل بأصل فطرته، ليعود إلى مكانه من قيادة الحياة.

فمن العوامل ما يتمثل في توارد القرون التي سبقت نزول القرآن برسالة الإسلام بأجيالها منذ وقف سير الملة الحنيفية في رسالة إبراهيم الخليل أبي الأنبياء والمرسلين عليه وعليهم الصلاة والسلام، فتلك الرسالة الحنيفية كانت رسالة تعتمد على نظر العقل في أصول العقائد الإلّهية، وكان فيها التقدير الأول لقيمة العقل في إدراك الحقائق الغيبية.

والقرآن الحكيم يقص على العقل الإنساني مواقفه في تلك الرسالة الحنيفية تذكيراً له بأصل فطرته المشرقة التي أصدأها مرور الزمن بفتراته الطويلة في ظل سيطرة الغرائز المادية بسلطانها الحيواني على أوضاع الحياة، ليعود العقل إلى مكانه من قيادة الحياة في صورة تتسق في قدراتها وقوتها مع عناصر العمق والشمول في الرسالة المحمدية خاتمة رسالات السماء، وتنسجم مع بلوغ الإنسانية مرحلة الرشد والكمال التحرري في إدراك الحقائق الكونية والإفادة منها، في

دائرة وحدة العقيدة في كافة الرسالات الإلّهية، وفي دائرة النظم التشريعية الشاملة التي جاءت بها رسالة الإسلام.

النموذج الأول في حوار العقل:

ونحن نقرأ أول حوار يصادف الناظر في القرآن العظيم، بين رسول الله إبراهيم عليه السلام، وبين جبار عصره، وطاغية زمنه، الذي يمثل عنجهية الجهالة المشركة والضلالة الجاهلة فنجد المجال العقلي في هذا الحوار هو الذي يحكم دائرته، ونجده ينفسح ويتنوع، ونجد العقل النير الملهَم، عقل إبراهيم رسول الله وخليله، يجول ويعلو، ويسيطر ويحكم، ونجد إلى جانبه العقل المظلم المغلل بأغلال الجمود والبلادة الحسية، عقل الذي كفر، حبيس الغرائز، وأسير الحواس، يفاجأ بالحجة المشرقة الدامغة فيتوارى منكوساً مدحوراً، ويبهت مشدوهاً متحيراً، ويغلب على أمره في حواره فلا يجد إلا قوة البطش الطاغي يرد بها على نبي الله إبراهيم عليه السلام، ويلقيه في النار التي كانت عليه بإذن ربه برداً وسلاماً.

نص النموذج الأول:

يقول ربنا تبارك وتعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِي حَآجَّ إِبْرَاهِيمَ فِي رَبِّهِ أَنْ آتَاهُ ٱللَّهُ ٱلْمُلْكَ إِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّيَ ٱلَّذِي يُحْيِيْ وَيُمِيتُ قَالَ أَنَا أُحْيِيْ وَأُمِيتُ قَالَ إِبْرَاهِيمُ فَإِنَّ ٱللَّهَ يَأْتِيْ بِٱلشَّمْسِ مِنَ ٱلْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ ٱلْمَغْرِبِ فَبُهِتَ ٱلَّذِي كَفَرَ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِي ٱلْقَوْمَ ٱلظَّالِمِينَ﴾[1].

(٣)
معنى الإحياء والإماتة في خاصة الإلّهية.

احتج إبراهيم عليه السلام على باهر قدرة الله تعالى ومظهر وجوده بأن شأن الرب الإلّه هو الذي يبدع ما لا يقدر أحد على إبداع مثله، ورب إبراهيم، الذي هو رب كل شيء، هو الذي يبدع الحياة إبداعاً بقدرته ومشيئته، فيجعل غير الحي مما لا روح فيه حياً ذا حياة

---

(١) سورة البقرة: الآية (٢٥٨).

(٤)
معناهما في فهم العقول المحجوبة بظلام المادية.

وروح، وهو الذي يسلب الحياة عن كل كائن خلقها فيه، فيميته بإعدام الحياة منه، وهذا حظ العقل النير في فهم الإحياء والإماتة اللتين وصف بهما رسول الله إبراهيم ربه ربَّ العالمين، ولكن العقل المظلم، حبيس الغرائز، عقل الذي كفر بالله وآياته، لم يفهم الإحياء والإماتة كما هما في واقع الأمر على الصورة التي فهمها العقل النير الملهم، عقل إبراهيم رسول الله وخليله عليه السلام، بل فهمها فهماً مادياً، خالياً من الشمول والإبداع اللذَيْن هما خاصة الألوهية الحقة، فقال في مناظرته رداً على إبراهيم: ﴿أَنَا أُحْيِـي وَأُمِيْتُ﴾ يريد من الإحياء والإماتة هذه المظاهر الجوفاء التي يملكها الجبارون الطغاة في تسلطهم على حياة الناس بسلطان القوة والطغيان.

(٥)
حكمة انتقال إبراهيم عليه السلام من حجته الأولى إلى حجة ثانية.

فلما تبين لإبراهيم عليه السلام بلادة عقل هذا الطاغية الجهول، وجمود ذهنه، وأنه ليس لديه صلاحية إدراك المعقولات الخالصة، لأنه مغلق الشعور القلبي، مغلف الإدراك الوجداني، لا يؤمن إلا بما يحسه بمنافذ الحس المادي لعجز تكوينه العقلي عن النفوذ إلى ما وراء الحس المادي، أو لقيام موانع من المؤثرات المادية التي تحجب العقل عن الفهم والإدراك، أو كانت لا تحجبه، ولكنها تحول بينه وبين الاعتراف بمدركاته، ولما كان واجباً في شرعة العدل الإلّهي أن ينتقل به إلى ما يلائمه من أنواع الحجة والبرهان، عدل به إبراهيم عليه السلام إلى لون آخر من الحجة ليستوفي معه طرائقها قطعاً لعذره.

تلك الحجة التي عدل إليها إبراهيم عليه السلام هي لون من البرهان، يشترك في إدراكه العقل والحس، فالعقل يدرك بخصيصته التجريدية المعقول الخالص، ويدرك المحسوس بخصيصته المتعاونة مع الحس فإدراكه مزدوج شامل، أما الحس فإنه يدرك بمنافذه من الحواس ما يقع تحت حكم هذه الحواس.

وفي هذا العدول عن الحجة الأولى مع قيامها في صدقها وباهر

آيتها تسفيه سلبي لعقل ذلك الكافر المتجبر في الأرض، وإظهار لعجزه البليد عن التفكر في معنى الإحياء والإماتة اللتين هما صفة الألوهية الحقة، وتحقق هذا المعنى في نفسه، ونفس من يولد ثم يموت من قومه كل لحظة، بل في ولادة كل حي وموته.

فالله تعالى يحيي كل حي، ويميت كل ميت، وهذا الطاغية الجهول يعلم يقيناً أنه لا يملك هذا العموم الشامل في الإحياء والإماتة، ولو بمعناهما الحركي الذي ظنه إحياء وإماتة.

ولهذا جاءت الحجة الثانية تنزّلاً في المحاجّة إلى المستوى الذي يناسب الخصم، وفيها إشارة إلى موطن البرهنة في الحجة الأولى التي لم يفهمها الذي كفر، لأن الاستدلال على وجود الرب الإلّه الحق، وعلى عظيم قدرته إنما يكون بذكر ما هو من خصائصه التي لا تكون لغيره، وأفعاله التي لا يقدر عليها سواه، فخلق الحياة وإنشاؤها إبداعاً هو الإحياء الذي هو من خصائص الله تعالى، وخلق الموت بسلب الحياة هو الإماتة التي هي فعل الله الذي لا يقدر عليه سواه، أما إحياء وإماتة بغير خلق وإبداع فليس هما على الحقيقة إحياء وإماتة، وإنما هما مظهر من مظاهر الحركة والسكون في الحياة التي يقدر على مباشرتها كثير من المخلوقين.

ومن ثَمَّ نرى أن الحجة الإلّهية إذا لم تُفهم لبعض الناس فلا يرتفع بها الاحتجاج لصلاحيتها في ذاتها للبرهنة إذا نظر فيها عقل غير محجوب عن إدراك مناطها.

فالاحتجاج بالإحياء والإماتة قائم صادق، والانتقال عنه إنما كان لأمرين:

الأمر الأول: بيان موطن دلالته من طريق القياس على فعل لا يشتبه في حصوله من القادر المختار، وأن أحداً سواه لا يقدر عليه، وفي ذلك بيان لخطأ فهم الإحياء والإماتة عند هذا الكافر الجاهل، في

قوله: ﴿أَنَا أُحْيِي وَأُمِيتُ﴾ وفيه بيان لمعنى الإحياء والإماتة اللذين هما من خصائص الألوهية الحقة في مقام الاستدلال على وجود الله وقدرته.

الأمر الثاني: إقامة دليل آخر في صورة تلائم مدارك الخصم، ولا يملك له رداً قال إبراهيم: ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ يَأْتِي بِٱلشَّمْسِ مِنَ ٱلْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ ٱلْمَغْرِبِ﴾ والإتيان بالشمس من المشرق فعل في كائن عظيم يُرى ويحس وهو فعل إبداعي، لا يقدر عليه إلا الرب الإلّه الحق القادر المختار، ونظيره معارضه، وهو الإتيان بالشمس من المغرب، وهو أيضاً ــ لو كان ــ فعل إبداعي لا يقدر عليه. إلا الرب الإلّه الحق القادر المختار.

فلما سمع الذي كفر هذه الحجة التي أبرز فيها الإبداع والإنشاء بمظهر الحركة العظيمة لهذا الكائن العظيم، وهي حركة محسة متكررة، لا يستطيع إنكارها والمكابرة في حصولها، وطولب ــ إفحاماً له ــ بمثلها في معارضتها بحركة مضادة ليقع الإبداع والإنشاء الدال على الألوهية الحقة، وكان الخصم عاجزاً أمام نفسه عن هذه المعارضة لم يكن منه إلا أن بهت مشدوهاً متحيراً لا يحير رداً، ولا يملك جواباً.

* * *

النموذج الثاني في حوار العقل:

ونقرأ أيضاً في القرآن الحكيم لوناً من المحاورة التي تصور المنهج العقلي في إدراك الحقائق الكونية، وهو في أوج عظمته كدعامة من دعائم الملة الحنيفية ملة إبراهيم عليه السلام:

وهذه المحاورة كانت ــ كما يظهر ــ في مبتدأ الرسالة، والقرآن الكريم يقصها تبياناً لمواقف العقل المتحرر من أغلال الجمود والتقليد البليد لما عليه الآباء والأسلاف من ضلالات، تذكيراً لهذا العقل الإنساني بفطرته الأصيلة، وإيقاظاً له من غفوته الطارئة، لينهض بعبئه

في الحياة يقظاً متحرراً في مجال الهداية القرآنية الخاتمة لهدايات السماء في رسالة الإسلام.

نص النموذج الثاني:

قال ربنا عز اسمه: ﴿وَكَذَٰلِكَ نُرِي إِبْرَاهِيمَ مَلَكُوتَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلِيَكُونَ مِنَ الْمُوقِنِينَ * فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ اللَّيْلُ رَأَىٰ كَوْكَبًا قَالَ هَٰذَا رَبِّي فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لَا أُحِبُّ الْآفِلِينَ. فَلَمَّا رَأَى الْقَمَرَ بَازِغًا قَالَ هَٰذَا رَبِّي فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لَئِن لَّمْ يَهْدِنِي رَبِّي لَأَكُونَنَّ مِنَ الْقَوْمِ الضَّالِّينَ * فَلَمَّا رَأَى الشَّمْسَ بَازِغَةً قَالَ هَٰذَا رَبِّي هَٰذَا أَكْبَرُ فَلَمَّا أَفَلَتْ قَالَ يَا قَوْمِ إِنِّي بَرِيءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ * إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ حَنِيفًا وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ * وَحَاجَّهُ قَوْمُهُ قَالَ أَتُحَاجُّونِّي فِي اللَّهِ وَقَدْ هَدَانِ وَلَا أَخَافُ مَا تُشْرِكُونَ بِهِ إِلَّا أَن يَشَاءَ رَبِّي شَيْئًا وَسِعَ رَبِّي كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ * وَكَيْفَ أَخَافُ مَا أَشْرَكْتُمْ وَلَا تَخَافُونَ أَنَّكُمْ أَشْرَكْتُم بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ عَلَيْكُمْ سُلْطَانًا فَأَيُّ الْفَرِيقَيْنِ أَحَقُّ بِالْأَمْنِ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ * الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُم بِظُلْمٍ أُولَٰئِكَ لَهُمُ الْأَمْنُ وَهُم مُّهْتَدُونَ * وَتِلْكَ حُجَّتُنَا آتَيْنَاهَا إِبْرَاهِيمَ عَلَىٰ قَوْمِهِ نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مَّن نَّشَاءُ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ﴾(١).

هذا لون من الحجاج العقلي يسوقه القرآن الحكيم لبيان هدايته في إيقاظ العقل وتحريره من أغلال الجمود على موروث الأسلاف، وتقليدهم في الأخذ بباطل عقائدهم والاستمساك بفاسد ضلالاتهم دون نظر يكشف عن حقيقة ما كان عليه أولئك الأسلاف، سوى أنهم وجدوهم كذلك يفعلون كما حكى الله عنهم ذلك بقوله تعالى: ﴿وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ إِبْرَاهِيمَ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَا تَعْبُدُونَ * قَالُوا نَعْبُدُ أَصْنَامًا فَنَظَلُّ لَهَا عَاكِفِينَ * قَالَ هَلْ يَسْمَعُونَكُمْ إِذْ تَدْعُونَ * أَوْ يَنفَعُونَكُمْ أَوْ يَضُرُّونَ * قَالُوا بَلْ وَجَدْنَا آبَاءَنَا كَذَٰلِكَ يَفْعَلُونَ﴾(٢).

---

(١) سورة الأنعام: الآيات (٧٥ ـ ٨٣).

(٢) سورة الشعراء: الآيات (٦٩ ـ ٧٤).

(٦)
تشابه الضلالات عند المشركين.

وقد ورث طلائع المدعوين بالهداية القرآنية في الرسالة المحمدية الخاتمة لرسالات السماء هذا الجمود العقلي والتقليد البليد لما كان عليه أسلافهم من ضلال فحكى الله عنهم ما حكاه عن قوم إبراهيم، وكان له عليه السلام ولقومه ذكر عند العرب ومن خالطهم من اليهود والنصارى فقال تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱتَّبِعُوا مَا أَنْزَلَ ٱللَّهُ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا﴾[1] ثم رد عليهم بالرد نفسه الذي رد به إبراهيم على قومه في أسلوب مختلف الصورة متفق المعنى والحقيقة: ﴿أَوَلَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ شَيْئاً وَلَا يَهْتَدُونَ﴾[2] فإبراهيم أبان ضلال قومه وردهم عليه إذ قالوا في بلاهة بلهاء: ﴿نَعْبُدُ أَصْنَاماً فَنَظَلُّ لَهَا عَاكِفِيْنَ﴾ فقال لهم: ﴿هَلْ يَسْمَعُونَكُمْ إِذْ تَدْعُونَ * أَوْ يَنْفَعُونَكُمْ أَوْ يَضُرُّونَ﴾ وتأويله: أفلا تعقلون وأنتم تصرحون بهذه الشناعة وتصمون أنفسكم بهذه الوصمة الفاضحة، أن هذه الأصنام لا تسمع دعاء داعيها ولا تنفع متعبديها ولا تضر أحد شيئاً من ضرر، لأنها جمادات منحوتة بأيديكم، فكيف تكون معبودة، والمعبود هو الإلٰه الحق الذي يسمع دعاء داعيه، ويستجيب لمناجيه، وينفع من يشاء من عباده بإرادته وحكمته، ويوقع الضرر بمن يشاء من عباده بقدرته ومشيئته وهو رب العالمين: ﴿ٱلَّذِي خَلَقَنِي فَهُوَ يَهْدِينَ، وَٱلَّذِي هُوَ يُطْعِمُنِي وَيَسْقِينِ، وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِيْنِ، وَٱلَّذِي يُمِيتُنِي ثُمَّ يُحْيِيْنِ وَٱلَّذِي أَطْمَعُ أَنْ يَغْفِرَ لِي خَطِيئَتِي يَوْمَ ٱلدِّينِ﴾[3].

وقد تكرر هذا التقريع في أسلوب هداية القرآن لإيقاظ العقل وتحريره.

ومن لطائفه أنه يجيء في أعقاب سَوق الأدلة القاهرة والبراهين

---

(١) سورة البقرة: الآية (١٦٩).
(٢) الآية السابقة نفسها.
(٣) سورة الشعراء: الآيات (٧٨ ــ ٨٢).

الساطعة التي تنبه العقل إلى النظر المتحرر من أغلال الجمود. ففي سورة لقمان يقول ربنا تبارك وتعالى: ﴿أَلَمْ تَرَوْا أَنَّ اللَّهَ سَخَّرَ لَكُمْ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُ ظَاهِرَةً وَبَاطِنَةً وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يُجَادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَابٍ مُنِيرٍ، وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا مَا أَنْزَلَ اللَّهُ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا أَوَلَوْ كَانَ الشَّيْطَانُ يَدْعُوهُمْ إِلَى عَذَابِ السَّعِيرِ﴾[1].

وفي هذا المجرى يقول عز شأنه مبيناً أن هذا التقليد البليد والجمود على موروث الآباء دين المترفين الذين يقودون الأغمار والعامة: ﴿وَكَذَلِكَ مَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ فِي قَرْيَةٍ مِنْ نَذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَا إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَى أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَى آثَارِهِمْ مُقْتَدُونَ﴾[2].

ثم يبين القرآن الحكيم أن هذا الجمود على خلاف ما تقتضيه فِطَر العقول السليمة: ﴿قَالَ أَوَلَوْ جِئْتُكُمْ بِأَهْدَى مِمَّا وَجَدْتُمْ عَلَيْهِ آبَاءَكُمْ﴾[3] ولكنهم لا يعقلون شيئاً مما يقال لهم ولا يهتدون إلى الحق لأنهم غللوا عقولهم وجمدوا أذهانهم فلا ينظرون ولا يتفكرون، بل هم في ضلالهم يعمهون: ﴿قَالُوا إِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ كَافِرُونَ﴾[3] فحق عليهم انتقام الله: ﴿فَانْتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ﴾[4].

يؤكد القرآن ارتباط هذا المنهج في هداية الفطرة وإيقاظ العقل وتحريره أوثق ارتباط بالمنهج العقلي الذي قامت عليه الملة الحنيفية في رسالة إبراهيم عليه السلام، ولهذا يجيء عقب الآيات السابقة من سورة الزخرف حكاية تبرىء إبراهيم عليه السلام من كفر أبيه وقومه

---

(١) سورة لقمان: الآيتين (٢٠، ٢١).
(٢) سورة الزخرف: الآية (٢٣).
(٣) سورة الزخرف: الآية (٢٤).
(٤) سورة الزخرف: الآية (٢٥).

باتخاذهم آلهة من دون الله يعبدون، فيقول الله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ إِنَّنِي بَرَاءٌ مِمَّا تَعْبُدُونَ. إِلَّا الَّذِي فَطَرَنِي فَإِنَّهُ سَيَهْدِينِ﴾[1].

* * *

بيد أن قصة إبراهيم مع قومه في سورة الأنعام تمثل منهج الهداية القرآنية في إيقاظ العقل وتحريره من أغلال التقليد والجمود أكمل تمثيل.

ومما يلفت إليه نظر الناظرين في رياض القرآن أن ترتيب آياته في نظام التلاوة على ترتيب المصحف الإمام الذي انعقد عليه إجماع الأمة لا يلزم حتى في القصة الواحدة أن يكون جارياً على ترتيب النزول، أو على ترتيب سوابق المعنى ولواحقه، وهذا من إعجاز القرآن الذي انفرد به في طريقة أدائه المعاني والحقائق التي يقصد إليها، فقد يأتي لاحق القصة نزولاً ومعنى قبل سابقها كذلك لحكمة قد تدركها العقول وقد تحجب عنها.

وهنا في قصة حجاج إبراهيم عليه السلام لقومه نلمح شيئاً من هذا نشير إليه، فهما لائحاً، لا يقيناً قاطعاً، ذلك أن القصة بدأت بإعلان إبراهيم عليه السلام قبح نحلة أبيه آزر في اتخاذه أصناماً آلهة يعبدها وقومُه من دون الله، ثم قطع له الحكم عليه وعلى قومه بأنه يراهم غارقين في بحار الضلال المبين الذي لا تغطيه شبهة من عقل، وذلك هو ما قال ربنا عز شأنه في أول القصة؛ ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لِأَبِيهِ آزَرَ أَتَتَّخِذُ أَصْنَاماً آلِهَةً إِنِّي أَرَاكَ وَقَوْمَكَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ﴾[2]، وهذا الموقف من خليل الله إبراهيم عليه السلام يبعد جداً

---

(١) سورة الزخرف: الآيتان (٢٦، ٢٧).

(٢) سورة الأنعام: الآية (٧٤).

أن يكون قد كان إلا بعد أن يكون الله قد أراه آياته الكونية في ملكوته ليكون من الموقنين، ومجرد إيمان إبراهيم عليه السلام بموجب عقله قبل رسالته ، لا يجعله يقف هذا الموقف الشديد من أبيه وقومه، لأنه موقف في شدته وصراحته إنما تقتضيه قوة الرسالة الإلٓهية وبراهينها العقلية والإعجازية، وهذه البراهين إنما بدأت بإراءة الله لخليله ملكوت السموات والأرض ليعرف سنن الله في خلقه، وحكمته في تدبير ملكه، وآياته الدالة، على ربوبيته وإلٓهيته، وليكون هو في خاصة نفسه على درجة من اليقين الراسخ الذي لا تناله شبه خصومة وحينئذ يكون قوّاماً برسالة ربه، نّهاضاً بحقها، صادعاً بأمرها مع أبيه ومع قومه، مبنياً ضلالهم، داعياً لهم إلى الهدى ودين الحق ليخرجهم من ظلمات الوثنية والشرك إلى نور التوحيد وعبادة الله وحده.

فصدر القصة في نظام التلاوة وهو حديث إبراهيم عليه السلام مع أبيه وتسفيه رأيه في اتخاذه الأصنام آلهة ليس بلازم أن يكون صدرها في واقع الأمر وترتيب النزول، بل إنه قد يكون أقرب إلى الصواب أسبقية إراءة الله خليله إبراهيم عليه السلام ملكوت السموات والأرض ليكون من أهل اليقين، على حديثه مع أبيه وتقبيح رأيه في اتخاذ الأصنام آلهة من دون الله يُعبدون، لأن هذا كان بعض آثار يقين إبراهيم عليه السلام.

غير أن هذا قد يعكر عليه ما يشبه الإجماع من المفسرين على أن قوله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ نُرِي إِبْرَاهِيمَ﴾ معناه كما يصوره أبو جعفر الطبري: وكما أريناه البصيرة في دينه والحق في خلافة ما كانوا عليه من الضلال، نريه ملكوت السموات والأرض.

ويقول فخر الدين الرازي في تصوير هذا المعنى: الكاف في كذلك للتشبيه و ﴿ذَٰلِكَ﴾ إشارة إلى غائب جرى ذكره، والمذكور ههنا فيما قبل هو أنه عليه السلام استقبح عبادة الأصنام ، وهو قوله: ﴿إِنِّي

أَرَاكَ وَقَوْمَكَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ﴾ والمعنى: ومثل ما أريناه من قبح عبادة الأصنام نريه ملكوت السموات والأرض.

ويقول صاحب المنار ـ وهو من المحدثين ـ في تصويره: وكما أرينا إبراهيم الحق في أمر أبيه وقومه، وهو أنهم كانوا على ضلال بيّن في عبادتهم للأصنام، كنا نريه ملكوت السموات والأرض على هذه الطريقة التي يعرف بها الحق.

وهكذا لا نكاد نجد عبارة لمفسر في تصوير التشبيه وبيان المشبَّه به المحذوف، وبيان مرجع الإشارة وتعيين المشار إليه إلا وهي تجنح إلى أن المشبه به ـ وهو المشار إليه في مرجع اسم الإشارة ـ حال إبراهيم قبل إراءته ملكوت السموات والأرض، تلك الحال المصورة في عبارات المفسرين بمعرفته الحق، وإنكاره على أبيه اتخاذ الأصنام آلهة يعبدها من دون الله، ومجابهته أباه وقومه بأنه يراهم بسبب هذه الشناعة الوثنية في ضلال بيِّن، ما كان ينبغي لعاقل أن يقع في حَمْأته.

ويمكن دفع التعكير الذي أشرنا إليه: بأن حال إبراهيم التي وقعت مشبهاً بها ومشاراً إليها، وهي تبصيره بمحض نور العقل ليدرك قبح عبادة الأصنام التي أنكرها على أبيه، قبل الرسالة، وهذا أمر مركوز في الفطر السليمة، ولا سيما فطر من علم الله أنهم يصطفون لحمل رسالة الحق والتوحيد من أنبياء الله ورسله، لأنهم المحفوظون بحفظ الله عن مقارفة الشرك والرضا به، على ما قال تعالى في الإشارة إلى تنزيه من يريد اجتباءهم لرسالاته من أنبيائه: ﴿اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ﴾[1].

والشدة التي جعلناها سبيلاً لترتيب المشبَّه به على المشبَّه في

---

(١) سورة الأنعام: الآية (١٢٤).

حالتي إبراهيم عليه السلام، تلك الشدة التي ظهرت في طريقة مخاطبة إبراهيم عليه السلام لأبيه قد يكون جوها الخاص مخففاً من آثارها، ويكون الدافع إليها شفقة الادلال بالبنوّة على الأبوة، مع ملاحظة ضيق دائرة الإنكار المواجه في حدود البيت، وفيه الأم الرؤوم، والأب الشفيق، واحتمال أمن الضرر.

ويتجه بهذا الدفع صحة تصوير المفسرين لمعنى التشبيه، ويكون المشبَّه، وهو إراءة الله خليله ملكوت السموات والأرض، يعني في ابتداء الرسالة والوحي، ويكون المشبَّه به، وهو تنوير عقل إبراهيم عليه السلام، يعني مجرد الإدراك العقلي لقبح اتخاذ الأصنام آلهة تعبد من دون الله رب العالمين.

وحينئذ لا يلزم أن يكون المشبَّه به مترتباً على وجود المشبَّه، وقد يحتمل أن يكون إراءة الله تعالى لخليله ملكوت السموات والأرض، وهو المشبَّه، من قبيل الإرهاص الذي يسبق الرسالة تهيئة لجو الرسالة العقلي الذي تسير فيه.

وقد لاح لنا لائح من ومضات الفكر في فهم هذا التشبيه، يؤكد الربط بين الرسالتين، الرسالة المهيمنة على سائر الرسالات، الخاتمة لوحي السماء، رسالة خاتم النبيين محمد ﷺ، ورسالة الملة الحنيفية التي أيقظت العقل وحررته من جمود التقليد، رسالة أبي الأنبياء خليل الله إبراهيم عليه السلام.

ونستأنس لهذا الفهم بما ورد في ثنايا هذه القصة من تنبيه إلى المنهج العقلي الذي قامت على دعائمه العقيدة الحقة في ملة إبراهيم ورسالته التي أراه الله في مطلعها بعين بصره وبصيرته حجته على قومه، ليكون من أهل اليقين الحسي، والعقلي والكشفي، حتى يجتمع له ضروب الرسوخ في العلم والمعرفة بما أوتيه من كمال الحجة، وبما فتح له من الدلائل والبراهين في ملكوت السموات والأرض.

ثم نستأنس لهذا الفهم بما في بيان الله لخاتم أنبيائه محمد ﷺ بعد اكتمال المحاجة بين خليل الله، وأعداء الله، وغلبة الخليل وقهر حجته لشُبَه الأعداء، بأن هذا الذي قصصناه عليك فيما أوحينا إليك من شأن إبراهيم مع قومه هو حجتنا التي علمناها إياه في إراءتنا له ملكوت السموات والأرض، فأبصرها بحسه، وعقله، وقلبه، ورفعناه بها على أعدائه بغلبته وقهره لهم في مقام الحجاج والمناظرة، ولك أنت فيه المثل الأعلى، لأن آية صدقك في منهج رسالتك، ورسالتك هي آيتك في كتابك المهيمن الذي أوحاه الله إليك وحياً، وهذا كما قال نبينا محمد ﷺ: «ما من نبي من الأنبياء إلا أوتي ما مثله آمن عليه البشر، وكان الذي أوتيته وحياً أوحاه الله إليّ، فأرجو أن أكون أكثرهم تابعاً يوم القيامة».

ومعنى الحديث أن جميع الأنبياء والمرسلين كانت آيات صدقهم قهراً مادياً، لا يستطيع أحد معه إلا أن يجيب أو يهلك، أما الذي أوتيه خاتم النبيين محمد ﷺ فهو المنهج العقلي الخالد الذي لا يعرف الإكراه والقهر المادي، ولا يغلب فيه العقل على نفسه، ولا يوجد سلطان عام في فهم الرسالة فوق سلطانه، فهو صَيْرفيّ الرسالة في إقامة الحجة، وهو الباحث عن حِكمها في أحكامها العامة، لا يرد حكمه إذا صح نظره، ولا يختلف نظره إذا استقام مهيعه، فهو آية الله على الخلق، وحجته على العباد.

ذلك الفهم الذي لاح لنا هو أن يكون المشبَّه به المشار إليه في قوله: ﴿وَكَذَٰلِكَ نُرِي إِبْرَاهِيمَ﴾ أمراً غير مذكور في القصة ولكنه معلوم للمخاطب علماً حضورياً يقوم مقام ذكره، ويجعله كالمحسوس الذي يشار إليه، وهذا الأمر المعلوم هو حالة خاتم النبيين محمد ﷺ في إراءة الله تعالى له في مشهد القرب الأخص ما أراه من آياته الكبرى، وهي الإراءة التي ذكرها الله تعالى في قوله: ﴿مَا زَاغَ ٱلْبَصَرُ وَمَا طَغَىٰ لَقَدْ

رَأَى مِنْ آيَاتِ رَبِّهِ ٱلْكُبْرَى﴾[1] والتي جعلها غاية تجليه على عبده في مقام الاختصاص الذي بدأه بعلم التقديس. لأنه نوع من التجلي فوق طاقة إدراك حقيقته فقال ﴿سُبْحَانَ ٱلَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلاً مِنَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْأَقْصَى ٱلَّذِي بَارَكْنَا حَوْلَهُ لِنُرِيَهُ مِنْ آيَاتِنَا إِنَّهُ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾.

فإبراهيم خليل الله عليه السلام أراه الله ملكوت السموات والأرض، ليرى سنن الله في خلقه، وتدبير ملكوته ليكون من أهل الرسوخ واليقين.

ومحمد حبيب الله ﷺ أراه الله من آيات ربه الكبرى، وأراه من آياته الخاصة المضافة إلى عظمة الله وجلال كبريائه في مقام الاختصاص الذي انفرد به صلوات الله وسلامه عليه.

ولا ريب أن ملكوت السموات والأرض، وهو ما أُريَه إبراهيم عليه السلام، بعض آيات الله الكبرى وبعض آيات الإضافة إلى عنوان العظمة والكبرياء التي أريها محمد ﷺ، ولهذا قيدت إراءة إبراهيم عليه السلام بغاية ترجع إليه في رسالته، وأطلقت إراءة محمد ﷺ عن أية غاية، ولا شك أن مقام الإطلاق في خلع القرب أجلّ من مقام التقييد، ولهذا أثنى الله على عبده وحبيبه محمد ﷺ في مقام إراءته من آيات ربه الكبرى بأكمل كمال الأدب والعبودية فقال: ﴿مَا زَاغَ ٱلْبَصَرُ وَمَا طَغَى﴾ وإلى هذه الدقيقة الذوقية يشير الإمام الرازي بقوله في تفسيره: (الذي رآه إبراهيم ملكوت السموات والأرض والذي رآه محمد ﷺ بعض آيات الله تعالى، ولا شك أن آيات الله أفضل).

وقد يتأكد استئناسنا لهذا الفهم بما رواه الطبري من حديث عبد الرحمن ابن عائش الحضرمي يقول: (صلى بنا رسول الله ﷺ ذات غداة فقال له قائل، ما رأيتك أسفر وجهاً منك الغداة، قال: «وما لي

(١) سورة النجم: الآيتان(١٧، ١٨).

وقد تبدّى لي ربي في أحسن صورة. فقال: فيم يختصم الملأ الأعلى يا محمد؟ قلت: «أنت أعلم يا رب، فوضع يده بين كتفيّ فوجدت بردها بين ثدييَّ، فعلمت ما في السموات والأرض» ثم تلا هذه الآية: ﴿وَكَذَٰلِكَ نُرِي إِبْرَاهِيمَ مَلَكُوتَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلِيَكُونَ مِنَ ٱلْمُوقِنِينَ﴾».

وموضع تأكيد الاستئناس أن الحديث الشريف ربط بين حالة سيدنا رسول الله خاتم النبيين محمد ﷺ في تجلّي الله عليه تجلياً خاصاً علم به ما في السموات والأرض، وبين الآية الكريمة في إراءة سيدنا إبراهيم خليل الله عليه الصلاة والسلام ملكوت السموات والأرض بتلاوتها بعد إخباره بما أوتيه من الاختصاص بالتجلي الأعظم إشارة إلى تشابه الحالتين.

والحديث الشريف من باب التمثيل لتقريب الحقائق العليا لإدراك الأعلين من غير ذوي الاختصاص الأعزّ، أما هم فحالهم شهود هذه الحقائق فلا يحتاجون إلى تصويرها بغير صورتها التي هي لها، ومن هنا يمكن أن يقال: إن معنى قوله ﷺ «تبدّى لي ربي في أحسن صورة» أنه كشف عني حجب أنواره وسبحات جلاله، فرأيت وعلمت ما لا يمكن التعبير عنه. ومعنى قوله ﷺ: «فوضع يده بين كتفيّ فوجدت بردها بين ثدييّ» تصوير لنوع من قرب الاختصاص الذي تنكشف به الحقائق الكونية انكشاف مشاهدة ـ ولهذا قال عليه الصلاة والسلام «فعلمت ما في السموات والأرض».

ومعنى التشبيه ـ على هذا ـ أن الله تعالى يقول لحبيبه محمد ﷺ: ومثل ما خصصناك به في مقام الاختصاص الأعز من إراءاتك آياتنا الكبرى في عوالمنا التي لا تتناهى بها فيوضاتنا في ملكوت السموات والأرض وغيرها لتنطلق في مقام العبودية سابحاً في بحار جلالنا، مستغرقاً بأنوار الكمال، مسبّحاً آناء الليل وأطراف النهار في

مقام ﴿لَعَلَّكَ تَرْضَىٰ﴾ كما قال ﷺ في مأثور تحميداته في الصلاة «ربنا لك الحمد حمداً كثيراً طيباً مباركاً فيه، ملء السموات والأرض، وملء ما بينهما، وملء ما شئت من شيء بعد، أهل الثناء والمجد، أحق ما قال العبد، وكلنا لك عبد».

مثل إراءاتك هذه أرينا أباك خليلنا إبراهيم عليه السلام ملكوت السموات والأرض، وأطلعناه على أسرار ما فيهما من كائنات تدل على ربوبيتنا وإلّهيتنا ، ووحدة عظمتنا، وافرادنا في تدبير ملكنا، ليكون من أهل اليقين والرسوخ الذين لا يحجبهم أنوار الخلق عن إشراق الإيمان بالخالقية، لتقوم له الحجة الباهرة على قومه الذين جادلوه بالباطل في شأن ربه: ﴿وَحَآجَّهُ قَوْمُهُ قَالَ: أَتُحَٰٓجُّوٓنِّي فِي ٱللَّهِ وَقَدْ هَدَىٰنِ﴾.

(٧)
معنى قوله تعالى: ﴿فلما جنَّ عليه الليل﴾.

وقد أكثر المفسرون في تأويل وفهم الآية الكريمة: ﴿فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ ٱلَّيْلُ رَأَىٰ كَوْكَبًا قَالَ هَٰذَا رَبِّي﴾ وأوردوا روايات الله أعلم بحالها.

والذي جنح إليه المهرة من حُذّاق المتأولين لكتاب الله تعالى أن الآية من باب المنهج العقلي في الاحتجاج على الخصم، وليست من باب حكاية الاعتقاد والإيمان، فإبراهيم عليه السلام خاصة وكل نبي الله تعالى لا تأتي عليه لحظة منذ خلقه بشراً سوياً وهو فيها غير عالم بالله تعالى مؤمن بوجوده، عارف بكماله ووحدانيته.

وفي ذلك يقول إمام المفسرين المتأولين أبو جعفر الطبري حاكياً عن غير أهل الرواية: غير جائز أن يكون لله نبيٌّ ابتعثه بالرسالة، أتى عليه وقت من الأوقات وهو بالغ[1] إلا وهو لله موحد، وبه عارف، ومن كل ما يُعبد من دونه بريء، قالوا: ولو جاز أن يكون قد أتى عليه بعض الأوقات وهو به كافر، لم يجز أن يختصه بالرسالة، لأنه لا معنى فيه إلا وفي غيره من أهل الكفر به مثله، وليس بين الله وبين أحد من

(١) وقبل البلوغ أيضاً في عقيدتنا.

خلقه مناسبة، فيحابيه باختصاصه بالكرامة. قالوا: وإنما أكرم من أكرم منهم لفضله في نفسه، فأثابه لاستحقاقه الثواب بما أثابه من الكرامة. وزعموا أن خبر الله عن قيل إبراهيم عند رؤيته الكوكب أو القمر أو الشمس: ﴿هَذَا رَبِّي﴾، لم يكن لجهله بأن ذلك غير جائز أن يكون ربه، وإنما قال ذلك على وجه الإنكار منه[1] أن يكون ذلك ربه. وعلى العيب لقومه في عبادتهم الأصنام، إذ كان الكوكب والقمر والشمس أضوأ وأحسن وأبهج من الأصنام، ولم تكن مع ذلك معبودة، وكانت آفلة زائلة غير دائمة، فالأصنام التي (هي) دونها في الحسن وأصغر منها في الجسم، أحق أن لا تكون معبودة ولا آلهة. قالوا: وإنما قال ذلك لهم، معارضة، كما يقول أحد المتناظرين لصاحبه معارضاً له في قول باطل قال به بباطل من القول على وجه مطالبته إياه بالفرقان بين القولين الفاسدين عنده، اللذين يصحح خصمه أحدهما ويدعي فساد الآخر.

وقال القاضي أبو بكر بن العربي في أحكامه: والذي أوتيه إبراهيم من العلم بالحجة وهي التي تُذكر للخصم على طريق المقابلة كان في الدنيا بظهور دلالة التوحيد وبيان عصمة إبراهيم عن الجهل بالله تعالى والشك فيه والإخبار أن ما جرى بينه وبين قومه إنما كان احتجاجاً ولم يكن اعتقاداً.

وقال القرطبي في أحكامه: غير جائز أن يكون لله تعالى رسول يأتي عليه وقت من الأوقات إلا وهو موحّد، وبه عارف، ومن كل معبود سواه بريء، وكيف يصح أن يتوهم هذا على من عصمه الله وآتاه رشده من قبل وأراه ملكوته ليكون من الموقنين، ولا يجوز أن يوصف بالخلو عن المعرفة، بل عرف ربه أول النظر.

* * *

---

(١) الأظهر أن يكون ذلك من قبيل الإلزام لهم.

(٨)
وحدة المنهج العقلي في الملتين، واعتمادهما على الفطرة الأصيلة (ملة إبراهيم وملة محمد صلى الله عليهما وسلم).

بروح هذا المنهج العقلي في الملتين، الملة الحنيفية المسلمة في رسالة إبراهيم خليل الله عليه السلام، والملة الإسلامية، في رسالة خاتم النبيين محمد ﷺ، توثقت عُرى الوشائج بينهما، فكان إبراهيم عليه السلام في رسالته حنيفاً مسلماً، يدعو إلى توحيد الله بحجة العقل، وبرهان المنطق الفطري الذي ركزه الله جبلّة في الفطرة الإنسانية التي فطر الناس عليها كما قال تعالى لنبيه محمد ﷺ: ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفاً فِطْرَةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِي فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ ٱللَّهِ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾[١].

وإلى هذه الفطرة يشير الحديث الذي رواه الإمام مسلم في صحيحه من حديث عياض بن حمار المجاشعي أن رسول الله ﷺ حدث عن الله تعالى فقال: «إني خلقتُ عبادي حنفاء كلهم وإنّ الشياطين أتتْهم فاجتالتْهم عن دينهم فحرّمَتْ عليهم ما أحللتُ لهم، وأمرَتْهم أن يشركوا بي ما لم أنزّل به سلطاناً». ومعناه أن الله تعالى خلق الناس مفطورين على توحيده، مائلين بعقولهم عن الإشراك بالله، وإن الشياطين أتتهم فاستخفتهم بإلقاء الشبه والشكوك في طريق تفكيرهم حتى أخرجتهم عن فطرتهم الأصيلة النقية، فانحرفوا عن دينهم الحق، دين الفطرة الحنيفية المسلمة لله تعالى وحده، فحرّمت عليهم ما أحل الله لهم، وزيّنت لهم الكفر والفسوق عن جادّة الفطرة الأصيلة، وأمرَتْهم أن يشركوا بالله وينحرفوا عن مَهْيَع الفطرة ومنهج العقل ومنطق البرهان بالتقليد للآباء والأسلاف وتأثير البيئة العامة والخاصة كما جاء في الحديث الذي رواه الشيخان البخاري ومسلم وغيرهما من الأئمة، وهو قوله ﷺ: «كل مولود يولد على الفطرة، فأبواه يهوّدانه أو ينصّرانه، أو يمجّسانه». فالفطرة التي يولد عليها كل مولود هي الحنيفية ملة

---

(١) سورة الروم: الآية (٣٠).

الإسلام لله تعالى التي كان عليها إبراهيم خليل الله، وجاءت بها الرسالة العامة الخاتمة رسالة محمد ﷺ بمناهجها العقلي وأسلوبها الفطري.

وهذا المنهج العقلي الذي يستمد من الفطرة الأصيلة قوته هو الذي كان به إبراهيم عليه السلام حنيفاً مسلماً لأنه خالف قومه، ومال عن طريقتهم الفاسدة وأسلم وجهه لله تعالى بعد أن قامت لديه البراهين القاطعة على وجوده تعالى ووحدانيته كما حكى عنه القرآن العظيم ذلك في قوله جل شأنه: ﴿إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ ٱلسَّمَٰوَاتِ وَٱلْأَرْضَ حَنِيفاً وَمَا أَنَا مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾(١).

وهذا المعنى في تفسير إسلام إبراهيم هو الذي طلبه إبراهيم وابنه إسماعيل عليهما السلام لنفسهما إثر فراغهما من بناء الكعبة المشرفة قبلة المسلمين، وأن يجعل من ذريتهما أمة مسلمة، تُسلِم وجهها لله تعالى عرفاناً بتوحيده وجلال كبريائه، وأن يبعث في هذه الأمة رسولاً منها، من أفضل أرومتها، يتلو عليهم آيات الله التي ينزل عليه بها وحيه، ويعلمهم الكتاب ويبين لهم ما حواه من أصول العقائد، وفروع الشرائع والآداب، ويعلمهم الحكمة، والحكمة هي المنهج العقلي النابع من الفطرة الأصيلة، ذلك المنهج الذي تقيم عليه تلك الأمة حجتها، وتبني عليه نظام حياتها، ويزكّيهم تطهيراً لهم من أرجاس الوثنيات، وجمود التقليد على موروث الآباء والأسلاف، على ما قال ربنا تبارك وتعالى: ﴿وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ ٱلْقَوَاعِدَ مِنَ ٱلْبَيْتِ وَإِسْمَاعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنْتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ * رَبَّنَا وَٱجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِنَا أُمَّةً مُسْلِمَةً لَكَ، وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا وَتُبْ عَلَيْنَا إِنَّكَ أَنْتَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ * رَبَّنَا وَٱبْعَثْ فِيهِمْ رَسُولاً مِنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَابَ وَٱلْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ إِنَّكَ أَنْتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾(٢).

---

(١) سورة الأنعام: الآية (٧٩).

(٢) سورة البقرة: الآيات (١٢٧ ـ ١٢٩).

(٩)
القرآن أحيا المنهج العقلي الذي كان أساساً لملة إبراهيم عليه السلام.

وهذا المنهج العقلي هو الأساس في ملة إبراهيم ورسالته الحنيفية المسلمة، هو الذي أحياه القرآن العظيم بعد أن دَرست معالمه، وطُمست طرائقه، وهُجرت أساليبه، فأوحى الله إلى رسوله خاتم النبيين محمد ﷺ أن يجعل هذا المنهج العقلي قاعدة دعوته، ودعامة رسالته، وأصل شريعته في كل ما تتطلبه حياة الإنسانية من تثبيت عقيدة التوحيد وإبطال الشرك، وهو المنهج الذي هداه الله إليه وجعله سراطه المستقيم ودينه القيم: ﴿قُلْ إِنَّنِي هَدَانِي رَبِّي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ دِينًا قِيَمًا مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾(١). وأنزل عليه قوله تعالى بعد أن أثنى على خليله إبراهيم بأنه كان إماماً للموحدين خاشعاً لله، مائلاً إلى نهج الحق والهدى: ﴿ثُمَّ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ أَنِ اتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾(٢). والآية صريحة في أن هذا الاتباع إنما هو وحي من الله أوحاه إلى خاتم النبيين ليجدد به لملة الإسلام المنهج العقلي القائم على أسلوب الفطرة الأصيلة التي كان عليها إبراهيم عليه السلام، ولذلك جعل هذا الاتباع أحسن الدين فقال: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ دِينًا مِمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ وَاتَّبَعَ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا﴾(٣)، ويبين أن خصيصة هذه الملة هي اليسر ورفع الحرج في التكاليف فقال تعالى: ﴿وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ مِلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَاهِيمَ﴾(٤). ومن المحال أن يكون هذا الاتباع المأمور به محمد ﷺ تقليداً لإبراهيم عليه السلام أو نقلاً عنه، لأن بداهة العقل تحيل أن يؤمر رسول من عند الله أرسله بشريعة كاملة مستقلة بتقليد شريعة لم ير رسولَها ولم يجتمع به لمجرد التقليد من غير وحي بها إليه، وإنما المقصود بهذا الاتباع المأمور به في ملة

(١) سورة الأنعام: الآية (١٦١).
(٢) سورة النحل: الآية (١٢٣).
(٣) سورة النساء: الآية (١٢٥).
(٤) سورة الحج: الآية (٧٨).

الإسلام هو إحياء منهج العقل، الذي قامت عليه الملة الحنيفية، ملة إبراهيم عليه السلام، فكما كانت ملة إبراهيم في منهجها العقلي وحياً من عند الله، فشريعة الإسلام في رسالة محمد ﷺ بمنهجها العقلي المعتمد على الفطرة الأصيلة وحي من عند الله تعالى.

والمراد التذكير بما كان ثابتاً في وحي الله إلى رسوله وخليله من الاعتماد على المنهج العقلي في محاجّة قومه، بعد أن أضاع ذلك طول الزمن، وجمود عقل اليهود وبلادة أذهانهم التي بلغت في صفاقتها أنهم بدّلوا نعمة الله كفراً في صورة سخيفة تافهة، فالله تعالى اصطفاهم وأورثهم مشارق الأرض ومغاربها، وأتم لهم كلمته الحسنى بالنصر والتأييد والنجاة من ظلم فرعون وجبروته وطغيانه، ولكنهم لم يلبثوا إلا ريثما جاوز بهم موسى عليه السلام البحر فأتَوا في العدوة الأخرى على قوم وثنيين يعكُفون على أصنام لهم يعبدونها من دون الله، فقالوا لنبيهم موسى عليه السلام ﴿ٱجْعَل لَّنَا إِلَٰهًا كَمَا لَهُمْ ءَالِهَةٌ﴾ فرد عليهم موسى عليه السلام بما كشف عن طبيعتهم الجاهلة البليدة التي لم تحتمل طعم التوحيد بذوقه العقلي ومنهجه البرهاني فقال لهم: ﴿إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ﴾.

وكان النصارى أشد بلادة من اليهود، لأنهم فارقوا التوحيد وجعلوا هذا الفراق منهجاً لهم، ولفّوا عقائدهم في أغلفة الغموض والإبهام، وأغلقوا دونها نوافذ البحث والمحاجّة، وجعلوها أسراراً فلسفية لا يباح النظر فيها، بل على المؤمن بنصرانيتهم أن يغمض عينيه ويهدر كرامة إنسانيته ويلغي تفكيره وينسى عقله وينكر قلبه ووجدانه ثم يسمع ما يقال له فيعتقده دون نقاش أو فهم لما يقال، وهذه بلادة منهجية، وجمود عقلي لا تستقيم مع طبيعة الحياة.

ومع هذا الواقع الذي كان عليه حال أصحاب هاتين الملتين من الانحراف عن المنهج العقلي في الملة الحنيفية ملة إبراهيم، فقد كان كل فريق منهم يزعم في بلاهة وبلادة أن إبراهيم كان على ملته، فاليهود

قالوا ـ افتراء على الله ـ: إن إبراهيم كان يهودياً، والنصارى قالوا ـ كذباً وضلالاً ـ: إن إبراهيم كان نصرانياً، فرد الله عليهم هذا الافتراء والضلال بقوله تعالى: ﴿يَا أَهْلَ ٱلْكِتَابِ لِمَ تُحَآجُّونَ فِي إِبْرَاهِيْمَ وَمَا أُنْزِلَتِ ٱلتَّوْرَاةُ وَٱلإِنْجِيْلُ إِلَّا مِنْ بَعْدِهِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾[1]، ومعنى محاجّتهم في إبراهيم أنهم زعموا أن إبراهيم كان في ملته على نهج توراتهم وإنجيلهم في المحاجّة، ومعنى رد الله عليهم أن التوراة والإنجيل ليس فيهما منهج إبراهيم في المحاجّة، لأن إبراهيم كان يحاجّ قومه الذين غلبت عليهم عبادة الكواكب بصورتها المفلسفة، فكان يحاجّهم بمنهج الفطرة العقلي الذي قهرهم به، وقامت له عليهم به الحجة، أما التوراة والإنجيل فقد أُنزلا بعد إبراهيم بقرون كثيرة، ولم يكن موسى وعيسى عليهما السلام وهما رسولا اليهودية والنصرانية في حاجة إلى منهج إبراهيم العقلي، إنما كانا في حاجة إلى معجزات مادية قاهرة للفطرة على الإيمان عند رؤيتها، وقد آتاهما الله ذلك، وقهر موسى فرعون، وابتلى عيسى بغلاظ الأكباد من اليهود، فلم تُثمر دعوته الرحيمة فيهم فرفعه الله إلى ملكوته وتركهم في غيّهم يعمهون.

والرسل إنما ترسل في الأمم مؤيدة بما يناسب حال كل أمة، وهذا هو مقتضى العقل، فلذلك وبخوا بأسلوب تقريعي يسخر منهم على عدم فهمهم لهذه القضية البديهية، فقيل لهم: ﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾، هذه البداهة الواقعة أمام حسكم على صفحات التاريخ.

ثم جاء النفي الصريح الذي يقرع أبواب عقول هؤلاء الجامدين فقال تعالى: ﴿مَا كَانَ إِبْرَاهِيْمُ يَهُودِيّاً وَلَا نَصْرَانِيّاً﴾ ـ أي: في منهجه الذي قامت عليه حجته ـ ولكن كان حنيفاً ـ أي: مائلاً إلى الحجة والبرهان العقليّين اللذين حاج بهما قومه، فحجّهم، وغلب منطقُه منطقهم مسلِماً وجهه لله وحده، وما كان في لحظة من لحظات حياته من

---

(١) سورة آل عمران: الآية (٦٥).

المشركين الذين انحطوا بغفولهم، فعبدوا أوثاناً من دون الله، واتخذوا أصناماً آلهة، فانحرفوا بإنسانيتهم عن موجبات كرامتها وشرفها، فلم يصلحوا أن يكونوا من إبراهيم منهم في شيء: ﴿إِنَّ أَوْلَى ٱلنَّاسِ بِإِبْرَاهِيمَ لَلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ وَهَٰذَا ٱلنَّبِيُّ وَٱلَّذِينَ آمَنُوا، وَاللَّهُ وَلِيُّ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾[1].

* * *

صور بارعة من الحوار العقلي:

وللمنهج العقلي في رسالة إبراهيم عليه السلام صور مختلفة أوردها القرآن الكريم في عدد من سوره غير ما ذكرناه من نماذجها.

(١٠)
الصورة الأولى للمنهج العقلي في ملة إبراهيم عليه السلام.

ففي سورة (الأنبياء) صورة من نماذج هذا المنهج بلغ فيها الحجاج غايته التي انتهت إلى أن العقل الإنساني على كثرة العقبات في طريقه عند قوم إبراهيم ـ تيقظ في لحظة من لحظات الإشراق الفكري في أثناء المحاجّة وتنبه إلى ما انزلق فيه من منحدر الوثنية البليدة، وأراد أن يثوب إلى موجب الفطرة الأصيلة، ولكن الصدأ الذي تراكم على هذه الفطرة حجب عنه نور إشراقة اليقظة الطارئة، تلك الإشراقة التي جعلت قوم إبراهيم يعترفون بأنهم ظالمون في اتخاذهم الأصنام آلهة يعبدونها من دون الله الواحد الأحد، وهذه الأصنام، على مرأى أعينهم ومسمع آذانهم، عاجزة لا تنطق، ولا تنفع عابديها العاكفين لها شيئاً من نفع ولا تضر أحداً شيئاً من ضرر.

وقد يلمح الناظر في هذه المحاجة لوناً من السخرية بعقول هؤلاء القوم أريد به تحريك خصائص إنسانيتهم بإيقاظ بَدائه الفكر، وريادة العقل لتدرك الحق المحجوب بسحائب التقليد البليد والجمود المظلم على موروثهم من عقائد الأسلاف، فلمعت لهم منه لامعة انقلب بها حالهم من بلادة بلهاء إلى نظرة عقلية عابرة كومض البرق الخادع،

---

(١) سورة آل عمران: الآية (٦٨).

رجعوا فيها إلى فطرتهم فظلموا أنفسهم، ولكن سرعان ما أظلم عليهم برقهم، فنكسوا على رؤوسهم وارتدوا إلى بلادتهم القاتمة، وعادوا إلى شركهم وتقليدهم لآبائهم.

والقرآن الحكيم يعرض هذه الصورة في براعته البيانية لتكون نموذجاً من نماذج المنهج العقلي في محاجة المبطلين، ليحتذيها أنصار الحق في مناظراتهم، مع ما فيها من أدب الصراحة وشجاعة الحق، يقول الله تعالى: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا إِبْرَاهِيْمَ رُشْدَهُ مِنْ قَبْلُ وَكُنَّا بِهِ عَالِمِيْنَ * إِذْ قَالَ لِأَبِيْهِ وَقَوْمِهِ مَا هَـٰذِهِ ٱلتَّمَاثِيْلُ ٱلَّتِي أَنْتُمْ لَهَا عَاكِفُوْنَ * قَالُوا وَجَدْنَا آبَاءَنَا لَهَا عَابِدِيْنَ * قَالَ لَقَدْ كُنْتُمْ أَنْتُمْ وآبَاؤُكُمْ فِي ضَلَالٍ مُبِيْنٍ * قَالُوا أَجِئْتَنَا بِٱلْحَقِّ أَمْ أَنْتَ مِنَ ٱللَّاعِبِيْنَ * قَالَ بَلْ رَبُّكُمْ رَبُّ ٱلسَّمٰوَاتِ وَٱلْأَرْضِ ٱلَّذِي فَطَرَهُنَّ وَأَنَا عَلَى ذٰلِكُمْ مِنَ ٱلشَّاهِدِيْنَ * وَتَاللَّهِ لأَكِيْدَنَّ أَصْنَامَكُمْ بَعْدَ أَنْ تُوَلُّوا مُدْبِرِيْنَ * فَجَعَلَهُمْ جُذَاذاً إِلَّا كَبِيْراً لَهُمْ لَعَلَّهُمْ إِلَيْهِ يَرْجِعُونَ * قَالُوا مَنْ فَعَلَ هٰذَا بِآلِهَتِنَا إِنَّهُ لَمِنَ ٱلظَّالِمِيْنَ * قَالُوا سَمِعْنَا فَتىً يَذْكُرُهُمْ يُقَالُ لَهُ إِبْرَاهِيْمُ * قَالُوا فَأْتُوا بِهِ عَلَى أَعْيُنِ النَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَشْهَدُونَ. قَالُوا ءَأَنْتَ فَعَلْتَ هَذَا بِآلِهَتِنَا يَا إِبْرَاهِيْمُ * قَالَ بَلْ فَعَلَهُ كَبِيْرُهُمْ هَذَا فَاسْأَلُوهُمْ إِنْ كَانُوا يَنْطِقُونَ * فَرَجَعُوا إِلَى أَنْفُسِهِمْ فَقَالُوا إِنَّكُمْ أَنْتُمْ ٱلظَّالِمُونَ * ثُمَّ نُكِسُوا عَلَى رُؤُوسِهِمْ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا هَـٰؤُلَاءِ يَنْطِقُونَ * قَالَ أَفَتَعْبُدُونَ مِنْ دُوْنِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنْفَعُكُمْ شَيْئاً وَلَا يَضُرُّكُمْ أُفٍّ لَكُمْ وَلِمَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُوْنِ ٱللَّهِ أَفَلَا تَعْقِلُون * قَالُوا حَرِّقُوْهُ وَٱنْصُرُوا آلِهَتَكُمْ إِنْ كُنْتُم فَاعِلِيْنَ * قُلْنَا يَا نَارُ كُوْنِيْ بَرْداً وَسَلَاماً عَلَى إِبْرَاهِيْمَ * وَأَرَادُوا بِهِ كَيْداً فَجَعَلْنَاهُمُ ٱلْأَخْسَرِيْنَ﴾[1].

فإيتاء إبراهيم رشده وصلاحه ومعرفته بربه من قبل الإنعام عليه بالنبوة والرسالة يمكن أن يكون إشارة إلى مرتبة الخِلّة التي يحتمل أن يكون أوتيها الخليل عليه السلام قبل أن يؤتى الرسالة، وقد يرشح هذا

---

(١) سورة الأنبياء: الآيات (٥١ ـ ٧٠).

المعنى قوله: ﴿وَكُنَّا بِهِ عَالِمِينَ﴾، وهو تخصيص من عموم ﴿ٱللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ﴾ تنويهاً باختصاص إبراهيم بمزيد من الفضل والقرب والمعرفة بالله تعالى.

وإجابة إبراهيم عليه السلام عن سؤال قومه في تكسير أصنامهم إجابة في منتهى الصراحة والصدق، وكأنه قال: نعم أنا فعلته إن لم يكن كبيرهم غيوراً على مكانه منهم ويكون هو الفاعل أداءً لحق غيرته فاسألوهم، إن كانوا ينطقون فسيجيبوكم عن سؤالكم، فلما رجعوا إلى أنفسهم وثابوا إلى عقولهم لحظة من الزمان حكموا على أنفسهم بأنهم هم الظالمون في اتخاذ هذه الأصنام آلهة، ولكن سرعان ما انتكس غزل تفكيرهم وعادوا إلى شركهم وسوء تفكيرهم، فأنكر عليهم إبراهيم عليه السلام هذا الموقف المتهافت، وأبرز القرآن الحكيم إنكاره في صورة تعبر عن خوالج نفسه، وما يعتلج فيها من ألم كظيم في سخرية من عقولهم: ﴿أُفٍّ لَّكُمْ وَلِمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾، فلم يجدوا في أنفسهم قدرة للمقاومة أمام قهر الحجة إلا غرائزهم الوحشية يسلطونها على رسولِ الله وخليله إبراهيم عليه السلام بأبشع صور التنكيل والتعذيب: ﴿قَالُوا حَرِّقُوهُ وَٱنصُرُوا آلِهَتَكُمْ﴾، كما يفعل المَغيظ المحنق العاجز عن المحاجّة، ولكن الله الرؤوف الرحيم أمر نارهم ـ وهي بعض خلقه ـ أن تنقلب حقيقتها إلى ضدها فتكون على خليله برداً بديلاً عن الاشتعال والتلهب، وسلاماً بديلاً من الإهلاك والتدمير، ونجّى اللَّهُ خليلَه من القوم الظالمين.

* * *

(١١)
الصورة الثانية.

وفي سورة (الشعراء) جاءت صورة لهذا الأنموذج الحجاجي جارية على أصول المنهج العقلي بأسلوب قريب، يلمس القلوب، ويهيج الوجدان أكثر مما يوغل مع العقول في مداخل المنطق الفكري.

والذي أكسبه هذه الخاصة أنه دخل مدخل إيقاظ العواطف

الإنسانية في رغائب الأفراد من الناس، فإبراهيم عليه السلام سأل قومه عن معبوداتهم سؤال تجهيل لهم وتهانف على موقفهم مع أصنامهم، فأجابوه إجابة العقل المقلد البليد، فناظرهم وقهرت حجته مزاعمهم، إذ يقول: ﴿هَلْ يَسْمَعُونَكُمْ أَوْ يَنْفَعُونَكُمْ أَوْ يَضُرُّونَ﴾. ثم ألقى إليهم بما يحرك فيهم عواطف الرغبة، فوصف ربه رب العالمين بعد أن أعلن عداوته الصارخة لمعبوداتهم من دون الله تعالى بأنه: ﴿ٱلَّذِيْ خَلَقَنِيْ فَهُوَ يَهْدِيْنِ * وَٱلَّذِيْ هُوَ يُطْعِمُنِيْ وَيَسْقِيْنِ * وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِيْنِ * وَٱلَّذِي يُمِيْتُنِي ثُمَّ يُحْيِيْنِ * وَٱلَّذِي أَطْمَعُ أَنْ يَغْفِرَ لِي خَطِيئَتِي يَوْمَ ٱلدِّيْنِ﴾[1].

وهذه أوصاف كريمة رحيمة، يلمس كل إنسان رقتها ولطفها، وتلمس هي شغاف كل قلب بالحب والرغبة مع أكمل أدب النبوة والخلة في الإسناد والاختصاص، فالصفات كلها عدا صفة (الإمراض) مسندة إلى الله تعالى خالق كل شيء، واقتضى أدب الخلة ألّا يتحدث عن صفة (الإمراض) وإنما تحدث عن نزول المرض بالجسم فقال: ﴿مَرِضْتُ﴾ أما الشفاء ورفع ما نزل بالجسم من المرض، فهو من صفات الإسناد لله رب العالمين.

* * *

وفي سورة (الصافّات) ورد هذا الأنموذج للحجاج العقلي في صورة أخرى في حجاج إبراهيم لقومه بأسلوب عاد به إلى طريقة الأنموذج الأصيل لهذا المنهج في إراءة إبراهيم لملكوت السموات والأرض لتقوى حجته على قومه وليكون من أهل اليقين والرسوخ في معرفة الله ببراهين آياته في ملكوته.

بيد أن هذا الأنموذج في سورة الصافّات لم يكن من قبيل

---

(١) سورة الشعراء: الآيات (٧٨ ـ ٨٢).

الأسلوب المنطقي الغوّاص مع العقل في أعماق الفكر، ولكنه جاء بأسلوب الفطرة المعتمدة على الحس العام الذي يتساوى في ظواهر مدركاته العام والخاص، لتقوم به الحجة على الكافة، ويؤخذ به من ضل عناداً، ومن ضُلل جهالة.

والقرآن الحكيم يبدأ هذا الأنموذج بالثناء على الخليل إبراهيم عليه السلام بأنه أقبل على ربه منذ تولاه بالخلة بقلب طاهر مطهر سليم من الغِيَر، ليس فيه لغير الله تبارك وتعالى متسع، وهو بهذا القلب العامر بمشاهدة ملكوت الله توجه إلى أبيه وقومه يسائلهم في عجب من ضلال عقولهم عن بدائه الحق ﴿مَاذَا تَعْبُدُونَ؟﴾ وهو تساؤل لا ينتظر إجابة، ولكنه تساؤل تسفيهٍ لآرائهم في ائتفاكهم آلهة من دون الله يريدون، وتهجين لمذهبهم في إشراكهم مع الله أصناماً بأيديهم ينحتون، وقد أخذه عليه السلام العجب من شأن هؤلاء الضالّين، فنظر إلى مؤلهتهم من النجوم والكواكب الطالعة الآفلة، وهي تحمل دلائل مخلوقيتها للذي فطر السموات والأرض، فتألم لهم ومنهم أشد الألم، لأنهم أهدروا نعمة العقل الذي آتاهم ربهم، وطرحوا كرامة إنسانيتهم تحت أرجل أصنامهم، وعبر عن ألمه: ﴿فَقَالَ إِنِّي سَقِيمٌ﴾ ولا شك أن الألم ولا سيما ألم القلب بالأسف والحزن والتحسر سقمٌ أي سقم، ومرض من أشد أنواع المرض، فهذا إخبار حق واقع، وصدق قاطع، لا شبهة شك فيه.

ثم يمضي الحديث مصوِّراً موقف الخليل عليه السلام وموقف قومه منه إلى نهايته التي هي نهايته في جميع نماذجه، وهي دائماً نهاية الصراع بين الحق والباطل، يقول الله تعالى: ﴿وَإِنَّ مِنْ شِيْعَتِهِ لَإِبْرَاهِيْمَ إِذْ جَآءَ رَبَّهُ بِقَلْبٍ سَلِيْمٍ * إِذْ قَالَ لِأَبِيْهِ وَقَوْمِهِ مَاذَا تَعْبُدُونَ * أَئِفْكاً آلِهَةً دُونَ ٱللَّهِ تُرِيْدُونَ * فَمَا ظَنُّكُم بِرَبِّ ٱلْعَالَمِيْنَ * فَنَظَرَ نَظْرَةً فِي ٱلنُّجُومِ * فَقَالَ إِنِّي سَقِيْمٌ * فَتَوَلَّوْا عَنْهُ مُدْبِرِيْنَ * فَرَاغَ إِلَى آلِهَتِهِمْ فَقَالَ أَلَا تَأْكُلُونَ *

مَا لَكُمْ لَا تَنْطِقُونَ * فَرَاغَ عَلَيْهِمْ ضَرْباً بِٱلْيَمِيْنِ * فَأَقْبَلُوا إِلَيْهِ يَزِفُّونَ * قَالَ أَتَعْبُدُونَ مَا تَنْحِتُونَ * وَٱللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ * قَالُوا ٱبْنُوا لَهُ بُنْيَاناً فَأَلْقُوهُ فِي ٱلْجَحِيْمِ * فَأَرَادُوا بِهِ كَيْداً فَجَعَلْنَاهُمُ ٱلْأَسْفَلِيْنَ﴾[1].

* * *

هذه أربعة نماذج للمنهج العقلي الذي قامت على دعائمه أصول العقيدة في الملة الحنيفية، رسالة إبراهيم عليه السلام، ساقها القرآن الحكيم بياناً للأسلوب الذي سلكه في إيقاظ العقل وتحريره من أغلال الجمود وربقة التقليد.

(١٢)
ما حكمة سياق القرآن لمنهج ملة إبراهيم عليه السلام؟

والقرآن العظيم يستهدف من هذا السياق ـ مع ما أشرنا إليه من وثاقة الصلة بين الملتين الحنيفية والإسلامية ـ اتخاذ هذا المنهج أسلوباً شاملاً أصيلاً للملة الإسلامية، رسالة خاتم الأنبياء محمد ﷺ، تقوم على دعائمه أصولها وفروعها في جميع ما يغنى فيه العقل من نُظُم الحياة الاجتماعية، أو يتهدّى إليه بإرشاد الوحي الإلّهي في العقائد والتعبّدات، وطرائق السلوك والتربية الخلقية، ووزن الفضائل بميزان العدالة، وتقويمها بتقويم الأمر والترغيب من رب العالمين، تحقيقاً لعموم هذه الرسالة المحمدية عموماً يشمل الإنسانية أجناساً وألواناً، أفراداً وجماعات، وأجيالاً وقروناً متتابعة، وأَعصُراً وأزماناً متتالية، وأوطاناً وأقطاراً، وأمماً وشعوباً، وتحقيقاً لخلودها ببقاء الإنسانية على ظهر هذه الأرض التي يحيا الناس عليها.

ذلك لأن العقل الإنساني كائن كوني، مرَّ في أطوار حياته حتى شب واكتهل، وبلغ رشده واستوى واستقام له الأمر في التفكير والوقوف على الحقائق الكونية التي يتجه إلى معرفتها، فكان لا بد له من الانطلاق الحر ليبني مستقبل الإنسانية على أسس إيجابية حية

---

(١) سورة الصافات: الآيات (٨٣ ـ ٩٨).

تضمن وجود نظام اجتماعي متماسك، يحكمه العدل وتزينه الرحمة، وتعيش في ظله الإنسانية حرة كريمة، متصلة بقوى الخير، عارفة بربها معرفة تُفرِده بالتعبّد والتقديس.

(١٣)
نماذج من خواص أساليب القرآن في إيقاظ العقل.

وللقرآن الكريم في هدايته التي يقصد بها إلى إيقاظ العقل وتحريره ألوان من الأساليب البيانية يستثير بها هذا العقل ليثير أسرار الحياة الدفينة في آيات الكون، ويتعرف حقائق الوجود، ويكشف عن عناصر الطبيعة، ويدرس ظواهرها المتفاعلة، ليقف على مدى تسخيرها للإنسان وانتفاعه بهذا التسخير قياماً بحق التكاليف الإلّهية إلى أقصى ما يمكن أن يدفع بالإنسانية في آفاق التقدم الحضاري بقدر ما تستطيع أن تصل إليه وتحققه الطاقة البشرية.

وهذه الألوان من الأساليب البيانية في هداية القرآن هداية توقظ العقل من غفوته وتحرره من عبوديته بلغت من الكثرة حداً لا يبلغ الحصر استيفاءها، ولا الكتابة استيعابها، فلا جرم أن اكتفينا بالشواهد والأمثال نسوقها من آي القرآن نماذج لأشباهها.

نص النموذج الأول:

يقول الله تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِي أَنْزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً لَكُمْ مِنْهُ شَرَابٌ وَمِنْهُ شَجَرٌ فِيْهِ تُسِيْمُونَ * يُنْبِتُ لَكُمْ بِهِ ٱلزَّرْعَ وَٱلزَّيْتُوْنَ وَٱلنَّخِيْلَ وَٱلْأَعْنَابَ وَمِنْ كُلِّ ٱلثَّمَرَاتِ، إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُوْنَ * وَسَخَّرَ لَكُمْ ٱللَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ وَٱلنُّجُومُ مُسَخَّرَاتٌ بِأَمْرِهِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُوْنَ * وَمَا ذَرَأَ لَكُمْ فِي ٱلْأَرْضِ مُخْتَلِفاً أَلْوَانُهُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِقَوْمٍ يَذَّكَّرُونَ * وَهُوَ ٱلَّذِي سَخَّرَ ٱلْبَحْرَ لِتَأْكُلُوا مِنْهُ لَحْماً طَرِياً وَتَسْتَخْرِجُوا مِنْهُ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا وَتَرَى ٱلْفُلْكَ مَوَاخِرَ فِيْهِ وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ * وَأَلْقَى فِي ٱلْأَرْضِ رَوَاسِيَ أَنْ تَمِيْدَ بِكُمْ وَأَنْهَاراً وَسُبُلاً لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ * وَعَلَامَاتٍ وَبِٱلنَّجْمِ هُمْ يَهْتَدُونَ * أَفَمَنْ يَخْلُقُ

كَمَن لَّا يَخْلُقُ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾[1].

نص النموذج الثاني:

وقال عز شأنه: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِي رَفَعَ ٱلسَّمَـٰوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي لِأَجَلٍ مُّسَمًّى يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ يُفَصِّلُ ٱلْآيَاتِ لَعَلَّكُم بِلِقَاءِ رَبِّكُمْ تُوقِنُونَ * وَهُوَ ٱلَّذِي مَدَّ ٱلْأَرْضَ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنْهَاراً وَمِن كُلِّ ٱلثَّمَرَاتِ جَعَلَ فِيهَا زَوْجَيْنِ ٱثْنَيْنِ يُغْشِي ٱلَّيْلَ ٱلنَّهَارَ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ * وَفِي ٱلْأَرْضِ قِطَعٌ مُّتَجَاوِرَاتٌ وَجَنَّاتٌ مِّنْ أَعْنَابٍ وَزَرْعٌ وَنَخِيلٌ صِنْوَانٌ وَغَيْرُ صِنْوَانٍ يُسْقَىٰ بِمَاءٍ وَاحِدٍ وَنُفَضِّلُ بَعْضَهَا عَلَىٰ بَعْضٍ فِي ٱلْأُكُلِ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾[2].

والقرآن الكريم يجمل هذا التفصيل مبيناً حكمة الله في خلقه، وأنه تعالى خلق هذه النعم العامة والخاصة للإنسان خاصة، لينظر فيها نظر اهتداء بها إلى عظمة خالقها، ونظر انتفاع بها بما فيها من خير وجمال وجلال فيقول ربنا تبارك وتعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِي خَلَقَ لَكُم مَّا فِي ٱلْأَرْضِ جَمِيعاً﴾[3].

(١٤)
تحليل النموذج الأول.

فأفاد بقوله: ﴿هُوَ ٱلَّذِي خَلَقَ﴾ انفراده بالكمال الوجودي المتجلي في مظهر خالقيته، وأفاد بقوله: ﴿خَلَقَ﴾، مناط الدلالة في الكائنات على وجوده وقدرته، وسريان حكمته في الموجودات، وأفاد بقوله: ﴿لَكُم﴾ اختصاص الإنسان ومدى سلطان خلافته في الأرض، وتسخير ما عليها من كائنات له، ليعتبر بما فيها من دلائل القدرة الإلهية، وينتفع بما فيها من نعم الله تعالى المكنونة في ذرات عناصرها، وهذا يقتضيه إجالة النظر والبحث في حقائقها لتتجلى له

---

(1) سورة النحل: الآيات (١٠ ـ ١٧).
(2) سورة الرعد: الآيات (٢ ـ ٤).
(3) سورة البقرة: الآية (٢٩).

حكمة الله في خلقه، وأفاد بقوله: ﴿جَمِيعاً﴾، شمول العبرة لكل كائن على الأرض، والانتفاع بكل كائن حتى لا يتعاظم الإنسان شيء على الأرض إلا وهو مقهور له بتسخير الله خاضع لسلطان عقله وتفكيره ويجري هذا المجرى قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ سَخَّرَ لَكُمْ مَا فِي ٱلْأَرْضِ وَٱلْفُلْكَ تَجْرِي فِي ٱلْبَحْرِ بِأَمْرِهِ﴾(1). ويقول جل وجهه: ﴿وَٱللَّهُ أَنْزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِقَوْمٍ يَسْمَعُونَ * وَإِنَّ لَكُمْ فِي ٱلْأَنْعَامِ لَعِبْرَةً نُسْقِيكُم مِمَّا فِي بُطُونِهِ مِنْ بَيْنِ فَرْثٍ وَدَمٍ لَبَناً خَالِصاً سَآئِغاً لِلشَّارِبِينَ * وَمِنْ ثَمَرَاتِ ٱلنَّخِيلِ وَٱلْأَعْنَابِ تَتَّخِذُونَ مِنْهُ سَكَراً وَرِزْقاً حَسَناً، إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ * وَأَوْحَى رَبُّكَ إِلَى ٱلنَّحْلِ أَنِ ٱتَّخِذِي مِنَ ٱلْجِبَالِ بُيُوتاً وَمِنَ ٱلشَّجَرِ وَمِمَّا يَعْرِشُونَ * ثُمَّ كُلِي مِنْ كُلِّ ٱلثَّمَرَاتِ فَٱسْلُكِي سُبُلَ رَبِّكِ ذُلُلاً، يَخْرُجُ مِنْ بُطُونِهَا شَرَابٌ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ فِيهِ شِفَاءٌ لِلنَّاسِ، إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾(2).

(١٥)
مظهر من تنوع أساليب المنهج القرآني في الاستدلال العقلي.

وقد أكثر القرآن الكريم من إخبار الله تعالى بإنزال الماء من السماء وإحياء الأرض به بعد موتها، ولكنه يخرج هذا الإخبار مخارج متنوعة، فتارة تراه يسوقه مثلاً للدنيا وزينتها وسرعة تقضيها ونفادها مهما اخضرّت وزهت وأينعت ثمارها، كما في نحو قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا مَثَلُ ٱلْحَيَاةِ ٱلدُّنْيَا كَمَآءٍ أَنْزَلْنَاهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَٱخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ ٱلْأَرْضِ مِمَّا يَأْكُلُ ٱلنَّاسُ وَٱلْأَنْعَامُ، حَتَى إِذَا أَخَذَتِ ٱلْأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَٱزَّيَّنَتْ وَظَنَّ أَهْلُهَا أَنَّهُم قَادِرُونَ عَلَيْهَا أَتَاهَا أَمْرُنَا لَيْلاً أَوْ نَهَاراً فَجَعَلْنَاهَا حَصِيداً كَأَنْ لَمْ تَغْنَ بِٱلْأَمْسِ، كَذَلِكَ نُفَصِّلُ ٱلآيَاتِ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾(3)، وقوله تعالى: ﴿وَٱضْرِبْ لَهُمْ مَثَلَ ٱلْحَيَاةِ ٱلدُّنْيَا كَمَآءٍ أَنْزَلْنَاهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَٱخْتَلَطَ بِهِ

---

(١) سورة الحج: الآية (٦٥).
(٢) سورة النحل: الآيات (٦٥ ـ ٦٩).
(٣) سورة يونس: الآية (٢٤).

نَبَاتُ ٱلْأَرْضِ فَأَصْبَحَ هَشِيماً تَذْرُوهُ ٱلرِّيَاحُ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ مُقْتَدِراً﴾[1].

(١٦) تحليل النصوص.

وتارة يسوقه برهاناً على صحة البعث بياناً لقدرة الله في الأمور المشاهدة المحسوسة التي يؤمن الحس بوقوعها، وإن كان يجهل كيفيتها، ليقيس العقل أمر البعث على هذا الواقع المشاهد المحسوس، فلا يتعاظمه التصديق به كما في قوله تعالى: ﴿وَتَرَى ٱلْأَرْضَ هَامِدَةً فَإِذَا أَنْزَلْنَا عَلَيْهَا ٱلْمَآءَ ٱهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وَأَنْبَتَتْ مِنْ كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ * ذَلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ وَأَنَّهُ يُحْيِي ٱلْمَوْتَى وَأَنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ * وَأَنَّ ٱلسَّاعَةَ آتِيَةٌ لَا رَيْبَ فِيهَا وَأَنَّ ٱللَّهَ يَبْعَثُ مَنْ فِي ٱلْقُبُورِ﴾[2].

وكما في قوله تعالى: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَنَّكَ تَرَى ٱلْأَرْضَ خَاشِعَةً فَإِذَا أَنْزَلْنَا عَلَيْهَا ٱلْمَآءَ ٱهْتَزَّتْ وَرَبَتْ إِنَّ ٱلَّذِي أَحْيَاهَا لَمُحْيِي ٱلْمَوْتَى إِنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾[3].

وتارة يسوقه لمجرد العبرة للتهدّي به إلى معرفة الله والإقرار بوجوده وكمالاته كما في آية النحل ويرشد إليه تعقيبها بقوله: ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِقَوْمٍ يَسْمَعُونَ﴾، لأن المقصود به من يسمع سماع تعقل وتفكير فيهتدي إلى المعنى الذي من أجله كان ذلك آية من آيات الله وعبرة في أسرار خلقه.

ويؤكد ذلك مجيء العبرة في آية خلق الأنعام والانتفاع بها بعد آية إنزال الماء من السماء، وتفصيل العبرة في خلق الأنعام بأخص منافعها للإنسان، منفعة قد تدخل في تكوين عناصره وتقويم بدنه، وهي من أجلّ منافع هذه الأنعام في حياة الناس وأعمّها بيئة وزماناً وأجيالاً وخلاصة العبرة في هذه الآية التكوينية البديعة هي في تصوير الإنعام في

---

(١) سورة الكهف: الآية (٤٥).

(٢) سورة الحج: الآيات (٥ ـ ٧).

(٣) سورة فصلت: الآية (٣٩).

خلق الأنعام لأجل نفع الإنسان بهذه النعمة، فالتعبير عنها بقوله: ﴿نُسْقِيكُمْ مِمَّا فِي بُطُونِهِ﴾، يصور جمال هذه النعمة في تيسير الانتفاع بها المأخوذ من قوله: ﴿نُسْقِيكُمْ﴾ فهي سقياً وشراب لا تعب فيه بالإعداد والتهيئة والتحضير في طريقه إلى منافذ توزيعه على أعضاء الجسم للانتفاع به.

والإبهام في قول: ﴿مِمَّا فِي بُطُونِهِ﴾ آية من أعمق آيات العبرة، لأن ما في بطون الأنعام ليس فقط هو الغذاء والماء وإنما هناك إفرازات الغدد الكثيرة التي عرف العلم بعضها ولا يزال معها في طريق البحث، وهناك عناصر هذه الإفرازات، وكيفية تكوينها، ومن أي الأشياء تتكون، وهناك الأعضاء الداخلية المهيئة لهذه الإفرازات وتوزيعها بأقدار محددة، وهناك مالم يكشف عنه العلم مما في بطون الأنعام، وهناك العروق والأعصاب الداخلية في دقة نظامها، وإعداد الكل للقيام بمهماتها في تمثيل الطعام بما يشبه الأنابيب الدافعة والمستقبلة، وهناك أعضاء الخلط والمزج لما يدخل المعدة من الطعام والشراب، وهناك أعضاء الفرز والتمييز بعد التمثيل، وهناك الكثير مما يعجز العقل عن حصره.

وكل ذلك عبر عنه القرآن العظيم بقوله: ﴿مِمَّا فِي بُطُونِهِ﴾ بهذا الإيجاز المعجِز، وهو أشبه بوحي الرمز والإشارة، بيد أنه في إفهامه المعنى وأدائه المقصود أوضح من الإسهاب المطنب، والتفصيل المطيل.

ثم جاءت بعد ذلك عبرة العبر، فالقرآن في بيانه المعجز لم يكتف بقوله: ﴿نُسْقِيكُمْ مِمَّا فِي بُطُونِهِ﴾ لما فيه من الإبهام الذي قد تنفر عنه بعض النفوس، وهذا الإبهام كان يمكن دفعه بذكر مفعول الفعل ﴿نُسْقِيكُمْ﴾ بلفظة متصلاً بمتعلق الفعل، فيقال: (نُسْقِيكم مِمَّا

فِي بُطُونِهِ لَبَناً خَالِصاً) ولكن البيان القرآني لم ينهج في أسلوبه هذا النهج، بل أتبع متعلق الفعل: ﴿مِمَّا فِي بُطُونِهِ﴾ وقد أشرنا إلى بعض ما فيه من لوامع الإعجاز، بما فوق مناره معجزة الإعجاز في هداية القرآن، ومعجزته في براعة البيان، فقال: ﴿مِنْ بَيْنِ فَرْثٍ وَدَمٍ لَبَناً خَالِصاً﴾ وهنا مجال العقل وغوصه إلى أعماق الآيات الكونية، ليعرف فيها عظمة القدرة الإلّهية، باحثاً متعمقاً منطلقاً في أجواء العلم والمعرفة ليهتدي إلى بديع صنع الله تعالى.

فهذا الشراب الشهي اللذيذ، الهنيء المريء، الحلو السائغ يتولد من بين (أزبال كرش الحيوان ودمه) يقول المتأففون: (أف. أف) وسيقول العلم الطبيعي، والتحاليل العنصرية، وتقول مخابر تفتيت المواد إلى عناصرها المعروفة، وتقول معامل الطبيعة في معاهد العلم ومدارسه ما تقول من نظريات وصلت إليها في طريق تركيب المواد وتحليلها وتحويل بعض المواد بنسب خاصة بين العناصر وذرات المادة، ولكن العلم بمخابره ومعامله وتحليلاته لا يستطيع أن يقول: كيف خرجت ذرات هذا الطعام اللذيذ الهنيء الذي تشغف بحبه النفوس من بين (الفرث ـ زبل الكرش ـ والدم) المستقذرين لدى النفوس؟ ويتساءل بعد ذلك : كيف تجمعت بهذه النسب الخاصة وتكونت لبناً خالصاً؟ وكيف امتزجت بنسبها الخاصة لم تزد عنها أو تنقص منها ؟ وهل مجرد وجود هذه النسب الخاصة بين ذرات المواد كافٍ في تكوين مادة أخرى؟ أو أن هناك احتمالاً قائماً بوجود عوامل أخرى قد تكون مادية، وقد تكون غير مادية لها دخل في تكوين المادة الثانية بعد تحقق تلك النسب؟ سيقول العلمانيون من أحلاس المعامل والمخابر وعبيد المادة: أليس قد صنع (اللبن) بعيداً عن الفرث والدم، وبعيداً عن بطن الحيوان، وسرى بين الناس جافاً معلباً في علبة، وشربه الناس بعد أن أذابوه بالماء، فشربوا منه لبناً خالصاً سائغاً للأطفال والشاربين؟ نعم، بلى، قد كان ذلك، ولكن سلوا أهل الاختصاص من

أهـل العلم المتـواضعين لنعمـة العلم هـل هـذا كـذاك؟ وفي أهـل الاختصاص من علماء تحليـل العناصـر الماديـة أدباء الأسلوب يجيبـون عن هـذا التساؤل بقـول الشاعـر: ليس التكحل في العينين كـالكحـل، والعقل يقول: ليس التطبـع كالـطبـع، وليس المقلد كالأصـل، فليمض العلم في بحثه ليكشف حقائق الآيات الكونيـة في بيان الهـداية القـرآنية عن طـريق العقل الحـر الطليق الـذي أيقظتـه تلك الهداية من غفـوتـه وحررته من عبودية الجمود على موروث الآباء والأسلاف.

* * *

ثم أتبـع القرآن الكريم آية الإنعام بخلق الأنعام آية كـونية عجيبـة في أسلوب من بـراعـة البيـان القـرآني فقـال: ﴿وَمِن ثَمَرَاتِ النَّخِيلِ وَالْأَعْنَابِ تَتَّخِذُونَ مِنْهُ سَكَرًا وَرِزْقًا حَسَنًا إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾[1] ومـوطن الإبداع في هـذه الآية أنهـا تتحدث عن عـظمة قـدرة الله تعالى ـ الذي أخرج اللبن الشهي اللذيذ من بين زبل الكرش والدم طعاماً سائغاً للشاربين ـ في أنه تعالى جعل من ثمـرات النخيل والأعنـاب خصائص الخير ومحض الإنعام إذا تناولها الإنسان كما خلقها بارئها دون عمل منه يحولها عن حقيقتها الإنعامية، وجعل منهـا خصائص إذا عـولجت بعمل الإنسان تحولت عن حقيقة الخير والإنعـام إلى مصدر شـر وانتقام، فهي ثمـرة واحدة أثمـرتهـا شجـرة واحـدة، سقيت بمـاء واحـد واستخلصت عناصر غذائها من تـربة الأرض التي نبتت فيهـا، وفيها هـذه الخصائص المتخالفة التي يستطيـع الإنسان أن يتخـذ منها رزقـاً حسناً وطعـاماً شهيـاً نـافعاً، وفـاكهة لـذيذة مفيـدة، ويتخذ منهـا سَكَراً يفسـد عقله وجسمه، فتكون عليه شراً ووبالاً بعد أن كانت نعمة وخيراً، فهـذه الآية من قبيل

---

(١) سورة النحل: الآية (٦٧)

قوله تعالى: ﴿وَفِي ٱلْأَرْضِ قِطَعٌ مُّتَجَاوِرَاتٌ وَجَنَّاتٌ مِّنْ أَعْنَابٍ وَزَرْعٌ وَنَخِيلٌ صِنْوَانٌ وَغَيْرُ صِنْوَانٍ يُسْقَىٰ بِمَآءٍ وَاحِدٍ وَنُفَضِّلُ بَعْضَهَا عَلَىٰ بَعْضٍ فِي ٱلْأُكُلِ، إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾[1]، ولذلك اتحدت فاصلتهما لتنبيه العقل إلى مواطن الدلالة في الآيتين على عظمة قدرة الله ووحدانيته ومحكم تدبيره، وبالغ حكمته، وقد وقع الامتنان بهذه النعمة باعتبار أصل وجودها قبل عبث الإنسان بها، ووقع بها الاستدلال على عظمة القدرة الإلٓهية باعتبار ما فيها من الخصائص المتخالفة في غايتها.

أما حديث النحل ودلالة هذا الكائن العجيب البديع على جلال الله وعظيم صنعه وما أودعه الله فيه من خصائص يعجز العقل والعلم عن الإحاطة بها، ولكنها بيّنة الأثر، في دلالتها على إيقاظ العقل وتحريره من أغلال الجمود ليبحث ويفكر ويستنتج فهو حديث طويل عريض، متسع الجوانب، تبادله الباحثون من العلماء وأهل الاختصاص في دراسة طبائع الكائنات الحية وآثارها في الحياة وإن كانوا منه في النقطة التي يبدأ منها الخط المستقيم، وقد أصبح للنحل مناحل دولية، وله بحوث ودراسة عميقة في معاهد الزراعة وكلياتها الجامعية.

والذين فتحوا أنظارهم على ثمرات هذه الدراسات العلمية الحديثة عرفوا ما قال ويقول العلم عن طبائع هذا الكائن وعن منافع هذا الشراب الذي لا تفيه كلمة (حلو) حقه من وصف (الحلاوة) والذي لا زال العلم منه في موقف البحث، كيف تكوّن؟ ومم تكوّن؟ وكيف اختلفت ألوانه؟ ومن أين تأتيه هذه الخصيصة، خصيصة (الشفاء للناس)؟ ومن أي الأمراض يشفي؟ وهنا أيضاً سيقول علماء الطبيعة وتحليل العناصر المادية وأحلاس المخابر والمعامل مثل ما قالوا

---

(١) سورة الرعد: الآية (٤).

في (اللبن) وسيقول لهم العقل الذي أيقظته هداية القرآن، تعـالوا معي، فأنا وأنتم في نقطة البداية على الطريق الذي توثبه القرآن تـوثباً طُـوي له فيـه المكان والـزمان، وهـو هناك عنـد ذروة النهايـة في انتـظار المؤمنين من العلماء.

وقـد كـان الـطب، وهـو علم الحياة أجـرأ الفنـون العلميـة على التجاوب مـع الهداية القرآنية في إشارتهـا إلى العقل بـالتحرر والبحث، فكتبت مجلاته العلميـة في بلاد العـالم المتعبد بـالعلم إلحاداً أو إيمـاناً تذكر عن هذا الشراب الذي يخرج من بطون النحل أموراً كان المؤمنون يؤمنون بها تـديناً ويجهلـونهـا علماً ومعـرفة وبحثـاً، فلفتت أنظارهم إلى هداية كتابهم بإعجازها الفكـري والمعنوي، وتلفتـوا خلفهم يفتشون في تراثهم من تفسير هذا الكتاب الكريم، فوجـدوا إشارات ورمـوزاً لا تغني غناء البحث الجاد المتعمق عن طريق العلم ووسائله المستحدثة.

ولعـل ذلـك يـدفعهم إلى أن يسهمـوا في هـذه البحـوث العلميـة بطرائقها الخاصة مستظلين بظل الإيمان بهداية القرآن العـظيم في إيقاظ العقل الإنساني وتحريره من ربقة الجمود والتقليـد، والعلم ـ أي علم ـ لا وطـن له.

وفي فواصل هذه الآيات تنبيه إلى طريق الهـداية القـرآنية، وأنها عمل من أعمال العقل المتيقظ المتحرر، الذي يجعل من العلم والمعرفة بأوسـع معانيهما، وأعم فنونهما، وأشمل مـوضوعـاتهما قـوة كاشفـة عن حقائق الآيات الكونية في القرآن العظيم، القرآن العظيم، لتكـون وسيلة إلى معـرفة الله، ووحـدانيته في إلٰهيتـه، وربـوبيتـه، وبـديـع صنعـه في خلقه، وبالـغ حكمته في تقديره وهدايته، وتفرده بالكمال المطلق.

والهداية القرآنية وحي الله تعالى، فلا مدخل للعقل في وجودهـا، ولكن الـطريق إلى معرفتهـا والتحقـق بهـا في واقـع الإيمان البرهـاني هـو عمل العقـل وواجبه، ولهـذا جاءت فـواصل الآيـات الكونيـة منبِّهة

(١٧)
عمل العقل في الهداية القرآنية مع القطع بأنها وحي من الله تعالى.

للعقل، لتوقظه حتى يتبين أن عمله في الهداية القرآنية إنما هو الكشف عن حقائقها في آيات الله، والتهدّي بها في توطيد دعائم الإيمان في قلوب المؤمنين.

وهذا اللون من الهداية القرآنية التي توقظ العقل من غفوته، وتحرره من أغلال الجمود، وربقة التقليد كثير جداً في آيات الكتاب المبين، لم نقصد إلى استيعابه، فذلك ما ليس إليه سبيل، وإنما قصدنا إلى التذكير بالمثل والشاهد، والتنبيه إلى مواطن العبرة الهادية للعقل، ليكون ذلك باعثاً للعزائم القادرة عند أهل العلم على المضي مع العقل في ظل هداية القرآن العظيم حتى لا يَضِلَّ ولا ينسى.

* * *

الأصل السادس

عوامل الدفع القيادية في المجتمع الإسلامي

(١)
الهداية القرآنية عروة الأمة الوثقى وطريقها الأوحد للعزة والسؤدد.

هذا الأصل من الهداية القرآنية يقصد إلى بيان ما في هذه الهداية من عوامل وقوى تدفع بالأمة الإسلامية إلى آفاق الإنطلاق حرة كريمة، عزيزة منيعة، متحررة من غوائل الجمود والتأخر، والرضا بالضيم وذل الاستسلام لواقع الحياة في المجتمعات الإسلامية، وما أصابها من كوارث اجتماعية وسياسية قعدت بها عن النهوض الفكري والاجتماعي، والتحرر السياسي، فأورثتها اليأس في صورة الصبر، والاستسلام للهوان في صورة التسامح والسلام.

وللأمة الإسلامية تاريخ مع الهداية القرآنية، تلك الهداية التي جمّعت أشتاتاً من الأمم والشعوب الإنسانية في شتى أقطارها، ووحدت بينهم بوشيجة الإيمان، فكانوا أمة واحدة لها مقوماتها الاجتماعية ولها نظامها السياسي، وفيها ثرواتها الاقتصادية، ولها معالمها الفكرية، ومشخّصاتها الروحية.

وكانت الهداية القرآنية هي الدستور الذي يفيء إلى ظله كل من يحيا في الوجود الإسلامي، ذلك الوجود الذي كان يفرض سلطانه على الحياة بقوة سماحة الحق، ورحمة العدل، استجابة لأمر الله تعالى في آيات الهداية القرآنية التي أقامت منار خلافة الله في الأرض على دعائم العزة الرائدة، حيث يقول جل شأنه في القرآن العظيم مُهِيباً بهذه الأمة المسلمة أن تكون هي الناطقة بكلمة الله، وهي القيّمة على موازين

العدالة بين الخلق: ﴿وَلْتَكُنْ مِنْكُمْ(*) أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى ٱلْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنْكَرِ وَأُولَٰئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾[1]، والمعنى في الآية أن الهداية القرآنية تطلب إلى جميع المؤمنين أن يكونوا كلهم جميعاً أمة موحّدة الغاية في حمل راية الخلافة قوّامة على العدل، داعية إلى الخير، آمرة بالمعروف، ساعية في الإصلاح، ناهية عن المنكر، محذّرة من ارتكابه، وهذا من باب تشريف التكليف، أو تكليف التشريف، فالله تعالى شرف هذه الأمة الإسلامية بما كلفها القيام به من تحقيق خلافة الله في الدعوة إلى الحق والخير، وكلفها القيام بهذا الشرف العظيم.

(٢)
أصالة العدل في خلق الأمة المسلمة وضرورة الإخلاص في تحقيقه.

والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر فضيلة الفضائل الاجتماعية التي يرتفع على دعائمها إصلاح المجتمع، وقد أثنى الله تعالى على القائمين بهذه الفضيلة، ووعدهم الفوز والفلاح إخباراً لا يتخلف، فكانوا خير أمة أخرجت من عالم الغيب لهداية الناس لتكون رائدة الإصلاح في الحياة، قيّمة على موازين العدالة بمقتضى منصب الخلافة عن الله في سياسة خلقه بما هداها الله ﷻ إلى أصول المعرفة وإيقاظ العقل وتحريره على يدها من أغلال الجمود والتقليد، ولهذا خاطبها الله تعالى بوصف الإيمان الشامل لأفرادها وجماعاتها فقال: ﴿يَا أَيُّهَا ٱلَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ بِٱلْقِسْطِ شُهَدَاءَ لِلَّهِ وَلَوْ عَلَىٰ أَنْفُسِكُمْ أَوِ ٱلْوَالِدَيْنِ وَٱلْأَقْرَبِينَ إِنْ يَكُنْ غَنِيًّا أَوْ فَقِيرًا فَٱللَّهُ أَوْلَىٰ بِهِمَا فَلَا تَتَّبِعُوا ٱلْهَوَىٰ أَنْ تَعْدِلُوا وَإِنْ تَلْوُوا أَوْ تُعْرِضُوا فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا﴾[2]، فالهداية القرآنية في سبيل بعث النخوة الإيمانية لحمل راية العدالة في

(*) والراجح عندنا أن لفظ ﴿من﴾ في قوله: ﴿مِنكُم﴾ لبيان الجنس، والمعنى: لتكونوا جميعاً داعين إلى الخير آمرين بالمعروف ناهين عن المنكر في حدود ما استطعتم، أفراداً وجماعاتٍ وأمة.

(١) سورة آل عمران: الآية (١٠٤).

(٢) سورة النساء: الآية (١٣٥).

قلوب المؤمنين بها لا تقنع بمجرد الأمر بالعدل باعتباره فضيلة اجتماعية لها خطرها في حياة الناس، ولكنها تطلب إلى الأمة الإسلامية كلها أن تكون بطبيعة تربيتها القرآنية قوّامة بالعدل، وفي التعبير بهذه الصيغة ﴿قَوَّامِينَ﴾ أكمل التناسق بين الإعجاز البياني في براعة الأسلوب، والإعجاز المعنوي في سمو الهداية القرآنية.

ثم أبانت الآية أن تحقيق القوامة بالقسط لا يكفي وحده أن يكون وسيلة هذه الأمة إلى غايتها النبيلة وإنما تتطلب منها في مكانها القيادي للإنسانية أن يكون عملها نابعاً من القلب والضمير، وأن تكون قواميتها بالعدل في إطار الإخلاص الأكمل الذي لا تشوبه شائبة رياء أو عجب، والذي لا تنحرف به عن الجادة عاطفة قرابة أو عاطفة حب أو بغض، وأن أفرادها وجماعاتها يؤتون ما آتوا وقلوبهم وجلة من خشية الله خاشعة لجلال كبرئائه ﴿شُهَدَاءَ لِلَّهِ وَلَوْ عَلَى أَنْفُسِهِمْ﴾.

وأمر الهداية القرآنية في صنع الله لهذه الأمة المستخلفة في الأرض عجيب، فهي تطلب من المؤمنين أن يكونوا قوّامين بالعدل شهداء لله وحده بهذا العدل، لا يرجون من أحد غيره جزاء، ولا يخافون من سواه انتقاماً وهذا في متعارف الفضائل السلوكية أكمل ما يمكن أن يتحقق به إنسان في سلوكه العملي في الحياة.

ولكن الهداية القرآنية ترتفع بالأمة الإسلامية إلى ذروة من السلوك فوق هذا الكمال، فتطلب إليها أن تطير أنفسها من وساوس الأنانية، ومداخل حب الذات، والميل الخفي مع الهوى، لتكون جديرة بمكانها من خلافة الله في أرضه.

والنفوس الإنسانية قلّما تخلُص من شوائب الضعف البشري أمام عواطف حب النفس والميل للقرابة، فلا جرم أن نرى الهداية القرآنية تمعن في استصفاء النفوس المؤمنة لتعدها لمكانها من القيادة.

ومن هنا كان ما خوّلته الهداية القرآنية للأمة الإسلامية من منصب

القيادة للإنسانية والزعامة للأمم والشعوب، وما وضعتها فيه من مكان الطليعة في القيام بالعدل يستدعي أن تكون هذه الأمة في مستوى المثل الأعلى لنموذج القيادة الإنسانية، فلا يُقبل منها أن تطبق العدل على غيرها وتنسى نفسها، أو تقصد إلى أن تخص نفسها من دون الناس بالخروج عن دائرة تطبيق العدل تعالياً منها عن قوانين المساواة في موازين العدالة.

ولذلك جاءت الهداية القرآنية في الآية بعد استقصاء نعوت الكمال في تكيّف الأمة بما يجب عليها في مرتبتها القيادية في الحياة بهذا التنبيه الوقائي: ﴿وَلَوْ عَلَىٰ أَنفُسِكُمْ أَوِ ٱلْوَٰلِدَيْنِ وَٱلْأَقْرَبِينَ﴾، لتفيد أن هذا الكمال في استبطان خصيصة العدل لا يتحقق حتى يكون العدل خُلقاً للمؤمن، يقوم به على نفسه أولاً فينصف منها، ويجنبها المظالم في القول والعمل والسلوك، كما يقوم به على أعز الناس عليه وأحبهم لديه، وأقربهم منه.

ومن لطيف الأمر في هذه الآية من آيات الهداية القرآنية ما يروى في سبب نزولها، قالوا: إنها نزلت في النبي ﷺ، وقد اختصم إليه رجلان، غني وفقير، وكان ميله ﷺ مع الفقير، يرى أن الفقير لضعفه لا يظلم الغني، فأبى الله تعالى على نبيه ﷺ إلا أن يقوم بالقسط في الغني والفقير على سواء.

وهذا تصوير رائع لمأخذ العدل في الإسلام، لأنه صوّره في صورة مألوفة عند الناس، وجعل نموذجها المثل الأعلى لنماذج الهداية القرآنية، ذلك أن الناس ألفوا أن الغني هو الذي يتعالى على الفقير فيظلمه، استضعافاً له واستهانة بشأنه، واعتزازاً من الغني بقوته وغناه، فيميلون مع الفقير يرحمونه وينتصرون له، استجابة لدواعي بشريتهم، ولم يألفوا في متعارف الحياة أن الفقير الضعيف يظلم الغني القوي، فجاءت الهداية القرآنية في الآية الكريمة عامة شاملة في طلب تحقيق

العدل، ووضعته موضعه من الحياة ميزاناً لا يميل مع رحمة الفقير لفقره وضعفه، ولا يجابي غنياً لغناه وقوته.

(٣)
تحقيق العدل غاية عامة في إنزال الشرائع.

والهداية القرآنية في تطبيق العدل لا تقنع بالسلبية الآمرة من أبراجها العاجية، ولكنها تخوض مع الحياة كفاحاً إيجابياً يحمل الكافة على تقبل العدل رهبة إن لم يقبلوه رغبة، فهي تبين أن الله أنزل الكتاب ـ وهو مصدر هداية العدل ـ مقروناً بإنزال الميزان، والميزان هو الفيصل الذي يحدد الحقوق والواجبات، فهو وسيلة تطبيق العدل تطبيقاً مقنناً بقانون الحكمة، ليقوم الناس في حياتهم بالعدل ولو بقهر القوة لمن أبى واستكبر، وأشارت الهداية القرآنية إلى أن ذلك سنّة الله في جميع رسالاته ومع جميع أنبيائه ورسله، قال تعالى: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِٱلْبَيِّنَاتِ، وَأَنْزَلْنَا مَعَهُمُ ٱلْكِتَابَ وَٱلْمِيزَانَ لِيَقُومَ ٱلنَّاسُ بِٱلْقِسْطِ وَأَنْزَلْنَا ٱلْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ وَلِيَعْلَمَ ٱللَّهُ مَنْ يَنْصُرُهُ وَرُسُلَهُ بِٱلْغَيْبِ إِنَّ ٱللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾[١]. وأسلوب الآية الكريمة يفيد أن تحقيق العدل بأعم معانيه، وقيام الحياة على دعائمه هو الغاية القصوى لإرسال الرسل بالشرائع، وإنزال الكتب الإلٓهية عليهم لهداية الخلق وإصلاح شأنهم.

(٤)
بيان الحق سابق لإقامة القسط.

بيد أن الهداية القرآنية تشير إلى شيء يجب أن يسبق تطبيق العدل في جانب الحياة العملية، ذلك أن الدعوة إلى الحق يجب أن تكون قائمة على الحجة البينة والبرهان الصحيح، فإرسال الرسل إنما كان بالبينات، والبينات الشرائع المقرونة بما يبينها من الحجة والبرهان حتى تنساق العقول راغبة في تقبلها، فإن لم تفعل كانت بوصف العناد والعتو متسربلة، والعناد مرض في القلوب والعقول، دواؤه في ردعه ردعاً حاسماً حتى لا يستشري في جسم الإنسانية فيفسدها، ومن هنا جاء نسق الآية على مراحل، كانت المرحلة الأولى فيها إرسال الرسل

---

(١) سورة الحديد: الآية (٢٥).

بالبينات، والمرحلة الثانية إنزال الكتاب مقروناً بالميزان ليقوم الناس بالقسط، والمرحلة الثالثة إنزال الحديد، وفيه البأس الشديد والقوة القاهرة لمن لم يتقبل الحق المبين بالحجة المشرقة لردعه عن الفساد في الأرض وتعويق سنن الله في تقدم الحياة، انتصاراً لرسالات الله، فمن نهض بذلك كان مؤيَّداً من الله تعالى على ما يشير إليه آخر الآية في قوله تعالى: ﴿وَلِيَعْلَمَ ٱللَّهُ مَنْ يَنْصُرُهُ وَرُسُلَهُ بِٱلْغَيْبِ إِنَّ ٱللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾.

(٥)
الاستقامة شرط التمكين في الأرض وإقامة العدل.

وهذا المعنى هو الذي جاءت به الهداية القرآنية في صورة تبين أن منصب الخلافة عن الله في الأرض يتطلب أن يكون القائمون على أمر الأمة الإسلامية مؤدين لحق تمكين الله لهم في الأرض بإعطائهم سلطان الخلافة، وقوة المنعة والحصانة فقال تعالى: ﴿وَلَيَنْصُرَنَّ ٱللَّهُ مَنْ يَنْصُرُهُ إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ. ٱلَّذِينَ إِنْ مَكَّنَّاهُمْ فِي ٱلْأَرْضِ أَقَامُوا ٱلصَّلَاةَ وَآتَوُا ٱلزَّكَاةَ وَأَمَرُوا بِٱلْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا عَنِ ٱلْمُنْكَرِ وَلِلَّهِ عَاقِبَةُ ٱلْأُمُورِ﴾[1].

وبهذا التمكين في الأرض، وأداء حقوقه ــ ضماناً لنصر الله ــ وعد الله المؤمنين باستخلافهم في الأرض وإعطائهم حق القيام على موازين العدالة بما يكون في أيديهم من سلطان الحق والقوة فقال تعالى: ﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا ٱلصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي ٱلْأَرْضِ كَمَا ٱسْتَخْلَفَ ٱلَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ ٱلَّذِي ٱرْتَضَى لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُمْ مِنْ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْناً يَعْبُدُونَنِي لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئاً وَمَنْ كَفَرَ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ ٱلْفَاسِقُونَ﴾[2].

(٦)
التعزّز بالله مع الإخلاص لله طريق النصر وقيادة الإنسانية.

فمنصب الخلافة في الأرض للمؤمنين الذين يعملون الصالحات، وفي مقدمة الأعمال الصالحات أداء حقوق الله كاملة في التعبُّد له بما أمر به ورغّب فيه، ثم أداء حقوق العباد كما جاءت بها الهداية

---

(١) سورة الحج: الآيتان (٤٠، ٤١).
(٢) سورة النور: الآية (٥٥).

القرآنية، وفي مقدمتها القيام بينهم بالعدل الذي يحقق للقائمين به التمكين في الأرض بقوة الحق، وحق القوة في ردع الخارجين عن موازين العدل والحق، وتضمنت الآية وعداً آخر، هو تمكين الدين الحق الذي ارتضاه الله لمن استخلفهم في الأرض، وبهذا التمكين للدين الحق على أيدي المستخلفين في الأرض القائمين بحق هذه الخلافة جاء الوعد الحق بقوله تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِيٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًا﴾[1]. وهذا الوعد المحقق بإظهار دين المستخلفين في الأرض على الدين كله يستمد قوته من الاعتزاز بالله في صدق التوكل عليه وإخلاص الدعوة إلى الحق، ولهذا نعى الله تعالى على المنافقين تعزّزهم بأعدائه الكافرين له، وبشّرهم بأليم العذاب، وبيّن أن تعزّزهم بأعداء الله من الكافرين ذلة ومهانة وخَوَر، وأنه بناء منهار من أساسه، فقال تعالى: ﴿بَشِّرِ ٱلْمُنَٰفِقِينَ بِأَنَّ لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ٱلَّذِينَ يَتَّخِذُونَ ٱلْكَٰفِرِينَ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَيَبْتَغُونَ عِندَهُمُ ٱلْعِزَّةَ فَإِنَّ ٱلْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا﴾[2]. ويقول لنبيه محمد ﷺ رداً على المشركين الذين اعتزوا بأموالهم وأتباعهم: ﴿وَلَا يَحْزُنكَ قَوْلُهُمْ، إِنَّ ٱلْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا﴾[3].

وفي هذا تقوية لعزائم المؤمنين في المضي قدماً لمناصرة الحق، وإقامة أمر الله بالعدل بين الخلق، لأنهم يعتزون بعزة الله وقوته، وهو القوي القهار، وهذا هو معنى قول الله تعالى: ﴿مَن كَانَ يُرِيدُ ٱلْعِزَّةَ فَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ جَمِيعًا﴾[4]، والعزة بالله أقوى عوامل الدفع القيادي في المجتمع الإسلامي، لأن الله تعالى يريد لهذا المجتمع العزة في كل الأمور ما دام متمسكاً بعزة الله، وقد وعد رسله والمؤمنين بالغلبة والنصر، فقال تعالى: ﴿كَتَبَ ٱللَّهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا۠ وَرُسُلِيٓ إِنَّ ٱللَّهَ قَوِيٌّ

---

(١) سورة الفتح: الآية (٢٨).
(٢) سورة النساء: الآية (١٣٩).
(٣) سورة يونس: الآية (٦٥).
(٤) سورة فاطر: الآية (١٠).

عَزِيزٌ﴾[1]، وهـذا وعد مقـرون بنعوت العـزة والكبريـاء، فهو حـافز من أقـوى الحـوافـز للذين وهبـوا أنفسهم لقيـادة الإنسـانيـة من المؤمنين الصادقين.

ولما كان هذا الحافز يتطلب قـوة من رسوخ الإيمـان بالله تعـالى ينفـرد بها رسـل الله، ومنهم يستمد المؤمنـون حوافـزهم أراد ربنا تبـارك وتعـالى أن يقـوّي عـزائم المؤمنين الـذين استخلفهم في الأرض للقيـام بنصرة الحق وإقامة موازين العدل بين الناس فـأدخلهم في الوعـد الحق بضمان نصرتهم وإمدادهم بمدد العزة الإلّهية فقـال تعالى: ﴿إِنَّـا لَنَنْصُرُ رُسُلَنَـا وَٱلَّذِينَ آمَنُـوا فِي ٱلْحَيَاةِ ٱلـدُّنْيَا وَيَـوْمَ يَقُـومُ ٱلْأَشْهَـادُ﴾[2]. وقـد تسامت منة الله على الذين خصهم بما وضـع في أيديهم من زمام القيادة الإنسانية في المجتمـع الإسلامي فأطلق لهم الوعد بمجرد الإيمان خالياً من كـل شرط، وهـذا من أكمل دوافـع النهـوض في نصـرة الحق وبث هداية القرآن الكريم مهما صادفها من عقبات.

ولم تقف الهـداية القـرآنية في إبـراز الدوافـع القيـادية للمجتمـع الإسلامي عند ذلك، ولكنها ـ في سبيل توجيـه هذا المجتمـع لإعـداده للنهوض بمهمة قيـادة الإنسانيـة ـ ناطت بـه أمـانة القيـام بتحمل أعبـاء سلطان الخلافة عن الله تعـالى، فأشـركته في أقـوى دعائم الـدفـع لبناء الحضـارة البشـريـة على أسس جـديـدة من الإخـاء والمحبـة والتعـاون الإنساني، وجعلت تعزّزه بـالله عزاً أصيـلاً لـه باعتبـاره النموذج الأسمى لقوة التنفيذ الذي يستند إلى القيم الخلقية والفضائل الإنسانية، قال ربنا عز شأنه في الرد على المنـافقين المتعززين بـدنيا المـال غروراً بمـا في أيديهم من لعاعات تافهة، يفخرون بهـا تنفجاً على الحق وتبجحـاً على أهـل الإيمان: ﴿هُمُ ٱلَّـذِينَ يَقُولُـونَ لَا تُنْفِقُوا عَلَى مَنْ عِنْـدَ رَسُولِ ٱللَّهِ

---

(1) سورة المجادلة: الآية (٢١).

(2) سورة غافر: الآية (٥١).

﴿حَتَّى يَنْفَضُّوا وَلِلَّهِ خَزَآئِنُ ٱلسَّمَوَاتِ وَٱلْأَرْضِ وَلَكِنَّ ٱلْمُنَافِقِينَ لَا يَفْقَهُونَ. يَقُولُونَ لَئِنْ رَجَعْنَا إِلَى ٱلْمَدِيْنَةِ لَيُخْرِجَنَّ ٱلْأَعَزُّ مِنْهَا ٱلْأَذَلَّ وَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِيْنَ وَلَكِنَّ ٱلْمُنَافِقِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾(١).

وبهذه العزة التي خلعها الله على المؤمنين ـ استمداداً من عزته الذاتية سبحانه، وانبثاقاً من عزة رسوله محمد ﷺ التي جعلها مصدر قوة رسالته في توجيه المجتمع الإسلامي لحمل أمانة الدوافع القيادية للنهوض بالحياة نهوضاً يبلغ بها جهد الطاقة البشرية ـ ارتبط نصر الله للمؤمنين بواقع الوجود الإسلامي في حقيقته الناصعة، فكان حقاً متحتم الوقوع، وجاءت به البشرى إخباراً لا يتخلف فقال ربنا عز شأنه: ﴿وَكَانَ حَقّاً عَلَيْنَا نَصْرُ ٱلْمُؤْمِنِيْنَ﴾(٢)، ليقوّي عزائمهم، ويشدّ من إرادتهم.

بيد أنه لا يتركهم لنزوات الغرور تعبث بهم، ولكنه يُتحفهم بمدده، ويمددهم بتحفه فيقول لهم: ﴿وَلَا تَهِنُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَنْتُمُ ٱلْأَعْلَوْنَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِيْنَ﴾(٣)، فمجرد الإيمان كاف في توفير مجامع العزة لكم، فكيف ـ وأنتم الأعلون المتعزّزون بعزة الله ـ يصل إلى عزائمكم وهن الخور، وحزن الرعب والخوف، وقد ضمن الله لكم ما دمتم متسربلين بسربال الإيمان علواً على من يناوئكم من أعداء الهداية القرآنية بإخبار صادق لا يتخلّف؟ ﴿وَلَنْ يَجْعَلَ ٱللَّهُ لِلْكَافِرِيْنَ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِيْنَ سَبِيْلاً﴾(٤).

والذين يحكمون على الإسلام بواقع المسلمين يتساءلون كيف تصور الهداية القرآنية دوافع العزة للمجتمع الإسلامي بهذا التصور المتعزّز بالإيمان، وحال هذا المجتمع هو حاله على ما نرى ونسمع؟.

---

(١) سورة المنافقون: الآيتان (٧، ٨).
(٢) سورة الروم: الآية (٤٧).
(٣) سورة آل عمران: الآية (١٣٢).
(٤) سورة النساء: الآية ١٤١.

(٧)
الإيمان مصدر العزة، والخور دافعه ضعف الثقة بالله.

وهؤلاء المتسائلون يغفلون عن نظرة الهداية القرآنية للإيمان الذي تراه تلك الهداية مصدر عزة للمجتمع الإسلامي لا تغالب، لأن المراد من هذا الإيمان هو الإيمان الذي يجعل من المجتمع قوة دافعة قاهرة لا تردها قوة المادة في أية صورة رُكّبت، وفي تاريخ الهداية القرآنية شواهد لا تدفع، فكم كانت قوة أهل الإيمان المادية أمام جحافل الروم والفرس في عَددها وعُددها في أول صدام وقع بين حق الهداية القرآنية وباطل المستكبرين في الأرض؟ بل كم كانت قوة ثُلّة السابقين الأولين من طلائع الإيمان أمام قوة الشرك والنفاق وأخابث اليهود في أوائل المعارك بين الحق الوليد في مهده وبين قوى الشر مجتمعة؟ ولمن كان النصر؟ وعلى من دارت الدائرة؟ وبمن حلت الهزائم؟.

استنطِقوا التاريخ أيها المتسائلون، فسيقول لكم إن القوة مع الإيمان، ولا شيء غير الإيمان، لأنه الحق، والحق أبداً ظافر منصور، ولكنه يفتن بنار التمحيص ليميز الله الخبيث من الطيب، فتستبطىء النفوس العجلانة بالجبلّة البشرية انحسام الأمر بنزول النصر، فيتساءلون وتجيب الهداية القرآنية ببيان سنة الله مع أهل الإيمان، يقول الله تعالى: ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تَدْخُلُوا ٱلْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُمْ مَثَلُ ٱلَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلِكُمْ مَسَّتْهُمُ ٱلْبَأْسَآءُ وَٱلضَّرَّآءُ وَزُلْزِلُوا حَتَّى يَقُولَ ٱلرَّسُولُ وَٱلَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ مَتَى نَصْرُ ٱللَّهِ أَلَآ إِنَّ نَصْرَ ٱللَّهِ قَرِيبٌ﴾[1].

وأسلوب الهداية القرآنية في براعة بيانه يَذْكر الرسل عليهم الصلاة والسلام في بعض المناسبات باعتبارهم القوة الروحية في البشر المهيَّئة لمواجهة الخطاب بما فيه من مظاهر الجلال والكبرياء، دون أن يكون مضمون الخطاب محتمل الوقوع منهم لمكانهم من العصمة الإلّهية، أو لتساميهم في شرف ذواتهم عن مواقعته.

* * *

---

(١) سورة البقرة: الآية (٢١٤).

الأصل السابع

مكانة العِلم في الحياة

(١)
مكانة العلم في نظر الهداية الإسلامية.

هذا الأصل من أصول الهداية القرآنية يدور حول إبراز مقام العلم وشرفه، وسمو مكانته وموضعه من الحياة، وبيان ما خلعته عليه الهداية القرآنية من فضل وضعه في الذروة من قيم الدعائم التي يقوم عليها بناء الحياة الإنسانية في نشأتها على هذا الكوكب الأرضي الذي نعيش فيه، وفي متابعة تدرّجها من مهدها إلى مراحل تكاملها في الوجود الفكري في ظل العقل الإنساني الذي تولّى حضانتها وتنمية خلاياها في رحابه حتى شبّت وترعرعت، واستقامت قناتها في صلابة القوة الدافعة، وبلغت مرحلة الرشد الاجتماعي في التفكير واستطاعت أن تضع لمستقبلها أصول النُظُم الحضارية قائمة على أسس العلم والمعرفة، وجعلت من العلم ميزاناً تزن به آثار «التطور» في وجودها التاريخي.

(٢)
شمول العلم لجميع فنون المعرفة في نظر الهداية القرآنية.

كما جعلت من العلم ــ على أوسع إطلاقات معانيه ــ دليلها الذي لا يضل الطريق في سلوكها إلى المستقبل، لقدرة العلم الذاتية على كشف الحجب، ورفع الستور عن الحقائق المجهولة، ولقدرته على الغوص في مجالات متجددة مليئة بالعوامل الدافعة إلى المضي قدُماً في بناء الحضارة البشرية على قواعد تنهض بالإنسانية نهوضاً يجدد معالم الهداية بأسلوب يعتمد على منطق الفطرة في واقع الحياة ووجودها بملاحظة الظواهر الكونية التي لفتت الهداية القرآنية إليها الأنظار بما تنبىء عنه من عبر تربط الفكر الإنساني بالوجود كله ربطاً يعيش معه العقل دائب الحركة والبحث، ليجعل من الحياة صوراً

متجددة في إطار العلم والمعرفة.

(٣)
الهداية القرآنية تجعل زمام قيادة الحياة في يد العلم، دون أن يكون له سلطان على العقيدة والتعبدات.

والهداية القرآنية أعطت العلم مجاله الفسيح الذي لا تجاريه فيه قيمة أخرى من سائر القيم الإنسانية الدافعة، كما قلدته السلطان المطلق في تقدير القيم الاجتماعية والكشوف الكونية، وقد احتفظت الهداية القرآنية بحقها في التوجية والإرشاد في مجالات الغيب الذي هو غيب يستمد غيبيته من الإيمان بالموجود الأكمل الأعظم الله رب العالمين، وبحقها في مجالات التعبّد له جل جلاله بما شرعه لخلقه في رسالاته السماوية التي أرسل بها أنبياءه ورسله.

(٤)
الهداية القرآنية تدفع بالمجتمع الإسلامي إلى خوض لجج العلم في جرأة وشجاعة.

بيد أن ذلك كله ما فتىء في حاجة شديدة إلى أن يخرج للناس في أسلوب مرغِّب محبَّب، ليدفع بالمجتمع الإسلامي الذي يستظل بظل الهداية القرآنية إلى أن يخوض لجج العلم في شجاعة وجرأة، وصبر وجلد، بل في شوق ولذة وسعادة، فلا يحجم عن اقتحام مداخله ومخارجه دارساً لمسائله باحثاً عن قضاياه في حرية وانطلاق، وسماحة وإشراق، لا يقف متربصاً على أبواب العلم هيّاباً، ينتظر أن تفجَأه نتائج البحث بما لم يكن له به علم، فينكر ويشتطّ في الإنكار، بل يجب عليه أن يلج مزاحماً إلى ساحات البحث نظراً وتجريباً في جميع أنواع العلم وفنونه وموضوعاته وأن يقتحم حصونه وقلاعه ويتوثب إلى معاقله، لا يترك فناً من فنونه أو مذهباً من مذاهبه أو رأياً من آرائه أو نظرية من نظرياته دون أن يكون له فيه بحث أو رأي فاحص محمود.

(٥)
الهداية القرآنية تقدر العلم حق قدره في صنع الحضارات وتطور الحياة.

والعلم ـ في تقدير الهداية القرآنية ـ وهو صانع الحضارات، وهو القيّم على الحياة بما وضع الله في خصائصه من طاقات لتصوير الظواهر الكونية بصورة الحقائق الوجودية التي توجه الحياة دائماً وجهة التقدم، وتزيد من قيمتها، وتضيف إليها ألواناً من ذخائر الفكر المكتنزة في كل ذرة من ذرات هذا الوجود الذي سخره الله للإنسان نعمة منه

عليه، ليتوصل بالنظر فيه إلى معرفة خالقه معرفة تستوجب الشكر بخالص التعبّد وينتفع بما فيه من آيات وخصائص طبيعية مودعة في الكائنات بحكمة وتدبير، وبهذا امتن الله تعالى على عباده فقال: ﴿أَلَمْ تَرَوْا أَنَّ ٱللَّهَ سَخَّرَ لَكُمْ مَا فِي ٱلسَّمٰوَاتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُ ظَاهِرَةً وَبَاطِنَةً﴾[1].

والعلم هو الذي وضع المجتمع الإسلامي في مكان الصدارة من الحياة يوم أن كان العلم هو القائد لهذا المجتمع، فكان زمامه بيد العلم يوجهه ويدفعه دفعاً، وكانت معاقل العلم تخفق فوق آفاقها ألوية المجتمع الإسلامي في ظل ظليل من الهداية القرآنية.

فلما مالت شمس الهداية القرآنية عن المجتمع الإسلامي ـ بما نشأ فوق أرضه من سحائب الجهل والغفلة والفرقة، والانغماس في حمأة الترف المادي الرخيص إشباعاً للغرائز الأرضية، وانصرف الفكر الإسلامي إلى تفاهات من الجدل الأجوف، توهّمها علماً، وانحرفت به تلك التفاهات الجدلية عن الاستضاءة بنور هدايته القرآنية، وتغيرت الأوضاع الاجتماعية والسياسية في هذا المجتمع، وأصبح مجتمعاً جغرافياً ـ ركدت فيه ريح التفكير الحر الخالص لوجه العلم والمعرفة، وزوحم ليزحزَح عن مكان الصدارة في محافل العلم، فوثب إليه يحتله من لم يكن هناك يومئذ، وتخلّف المجتمع الإسلامي بعنوانه الخاص عن قافلة الحياة العلمية تخلفاً أضلّه الطريق إلى النهوض ليلحق بالمدلِجين في سرى ليل الحياة، وظل متخلفاً، وظل زمام العلم بيد غيره، يتحكم به ويسوس الحياة بآثاره المدمرة، وبقيت الهداية القرآنية في يد المجتمع الإسلامي «مصحفاً» يطبع ويزركش ويهدي في صورة «طبولية» يسخر منها الذين احتلوا مكان المجتمع الإسلامي في محافل العلم وصدارة

---

(١) سورة لقمان: الآية (٢٠).

الحياة، واختطفوا من يده لواء الهداية القرآنية، وحولوها إلى علم كافر ملحد مدمّر، تصلى الحياة نيرانه وتنوء الإنسانية تحت وطأته معذبة مؤرقة بالرعب وكراهية العلم وبغض المعرفة.

ولن تعود السكينة والطمأنينة للبشرية إلا إذا آمنت إيماناً يكشف عنها سحب الضلال العلمي، وللعلم ضلاله، وله هدايته، ولن تؤمن البشرية هذا الإيمان إلا إذا عادت الهداية القرآنية بروحها الأصيل في مجالات العلم قوة دافعة تعيد المجتمع الإسلامي إلى مكانه من قيادة الحياة.

(٦)
الهداية القرآنية توجب على المجتمع الإسلامي أن يتيقظ ليسترد حريته الفكرية على ضوء هذه الهداية.

ولن تعود الهداية القرآنية بروحها الأصيل في مجالات العلم وقوة دافعة إلا إذا تيقظ المجتمع الإسلامي يقظة ترد إليه إيمانه بالعلم، وتحرره من عبودية القيادات المنحرفة عن واقع الهداية القرآنية بروحها الأصيل، ويعود هذا المجتمع إلى هدايته القرآنية يستمد منها القوة الروحية والمادية ويجعل منها عملاً في واقع حياته كلها كما كانت يوم كان غنياً بها عن الاستجداء العلمي، وعن استيراد نظرياته الكافرة، متبوأ مكان الصدارة في قيادة الحياة.

ونحن لا نقصد أن يعود المجتمع الإسلامي إلى الوراء فيعيش مع خيال أمجاده التاريخية، ولا أن يحيا فكرياً في حياته العلمية التي كان يحياها في قرونه الغوابر، لأن تلك الأمجاد التاريخية، والحياة الفكرية التي عاشها المجتمع الإسلامي في تلك القرون مع العلم والمعرفة كانت أثراً من آثار الهداية القرآنية التي اقتضتها طبيعة العصر، وصبغة البيئة والعرف، وطاقة التفكير، ومدى فاعلية الوسائل العلمية في الوصول إلى نتائج التجربة والبحث.

ولكل عصر من العُصُر، ولكل جيل من الأجيال نصيبه من الهداية القرآنية يأخذه من تأهل له، وهذه الطاقة المكنوزة في هذه الهداية هي إحدى معجزات القرآن العظيم.

والـذي نقصده أن هـذا التخلف البليـد الـذي أصـاب المجتمع الإسلامي في حركة الدفـع الفكري كان نتيجة لفقدانه الحوافز الدافعة، وفقدانه القيـادات العلمية الحـافزة، ونسيـانه هـدايته القـرآنية، ثم جهله بأهداف هذه الهداية، ثم تنكره لمـا تتطلبـه من تحرر فكـري، وانطلاق إلى مجـالات العلم بـأوسـع وأكمـل مـا تحمـل كلمـة العلم من معـان ومفاهيم، ذلك العلم الذي غير وجه الحياة.

كـان هذا التنكـر أثـراً من آثـار الجهـالـة التي أُريـدت للمجتمع الإسـلامي فيهـا أملي عليـه من فهم مضلِّل للهـدايـة القـرآنيـة، حتى زعمها قلائد في أعناق أحلاس الزوايا ومستمهدي المحاريب للذكر دون تـذكـر، ولصـور من العبـادات دون تفكـر، ولتـوليـد فـروض من العلم ــ زعموا ــ من غير واقـع ولا متوقع، مما استنفد طاقة المجتمـع البائس المسكين، ودفـع ببعض الجسـورين إلى المجـازفـة كـرد فعـل لـذلك الجمـود، فانـطلقوا طـائرين بغيـر أجنحة من صـدق الإخلاص، وعمق الدارسة، واستقامة التفكير، إلى آفاق التأويل الذي هو أشبـه بالتحـريف تحت عنوان التفكير المتحـرر، فكانـوا ــ بعلمهم الجاهـل ــ أسوأ أثـراً على المجتمـع الإسلامي من جهالة أولئك الجامدين، وكـان المجتمع الإسلامي هو الضحية التي تقرب بها هؤلاء وأولئك إلى شياطين الإلحاد المتربصين بالهداية القرآنية، وشياطين الجهالة من الأغمار الفارغين.

(٧)
ضروب الهداية في إعلاء شأن العلم في آيات القرآن.

والقـرآن الحكيم فياض بـألوان الهـداية التي تـرفـع شـأن العلم، وتعلي قدره في آياته الشاهدة بتعظيمه وبيان سمو مكانته.

هل سمعت أن كتاباً سماوياً أو أرضياً نوه بالعلم في أشخاص أهله وذويه، ووضعهم في مكانهم من ذروة الفضل، وسنام الشـرف وجعلهم شهـداء الله تعالى على ثبـوت أخص نعوت قـدسه وجـلال كبـريـائـه في وحـدانية إلٓهيتـه، وقيوميته على تدبيـر ملكوتـه وعزتـه وحكمتـه سوى القرآن العظيم؟

النموذج الأول:

يقول الله تعالى: ﴿شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَالْمَلَائِكَةُ وَأُولُوا الْعِلْمِ قَائِمًا بِالْقِسْطِ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾[1].

النموذج الثاني:

وهل سمعت أن كتاباً ـ أي كتاب له قداسته ـ رفع شأن الذين أوتوا العلم في معارج الفضائل والشرف وبوّأهم منها أسمى مكان غير القرآن العظيم؟ يقول ربنا عز شأنه: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا قِيلَ لَكُمْ تَفَسَّحُوا فِي الْمَجَالِسِ فَافْسَحُوا يَفْسَحِ اللَّهُ لَكُمْ وَإِذَا قِيلَ انْشُزُوا فَانْشُزُوا يَرْفَعِ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾[2].

وفي ذكر أولي العلم بهذه المنقبة المنيفة في صدر أدب المجالسة عامة، ومجالسة الأعلين خاصة آية على تحليهم بالأدب فطرة علمية، فطروا عليها منذ أدبهم العلم فأحسن تأديبهم.

وفي إبهام الدرجات التي يرفعهم الله إليها بتنكيرها مزيد فضل وتشريف، وفي قرنهم بأهل الإيمان وهم منهم في الذؤابة رعاية إلٓهية تجعل لأهل العلم خصيصة تميزهم في رفيع درجاتهم عن سائر أقرانهم، وفيه إشادة بفضل العلم لذاته، وهذا يدل على أن الهداية القرآنية ترغب في العلم بجميع فنونه، وفي أخذه من أي بنع تفجر منه، والحكمة ضالّة المؤمن يأخذها أنى وجدها.

النموذج الثالث مع تحليل لطائف الآية:

والهداية القرآنية ترفع أهل العلم فتخصهم بأنهم أعظم الناس عقلاً، يدركون به دقائق العلم التي تخفى على الأكثرين من العقلاء،

---

(1) سورة آل عمران: الآية (١٨).

(2) سورة المجادلة: الآية (١١).

يقول الله تعالى: ﴿وَتِلْكَ ٱلْأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ وَمَا يَعْقِلُهَا إِلَّا ٱلْعَالِمُونَ﴾[1]، وضرب الأمثال فن من الأسلوب البياني دقيق المسلك، بعيد الغور، شديد الأسر، سريع الإصابة، قوي الإهابة، هو لخاصة العقلاء دلالة، ولعقلاء الخاصة نبالة، عبقري الأساليب، وأسلوب لخطاب العبقريين، يرتفع به الكلام إلى أوج البلاغة، وتسمو به البلاغة إلى ذروة الإعجاز.

(٨)
بيان لأسلوب ضرب الأمثال في توضيح المعاني.

يقرب البعيد، ويدني الغريب، ويسهل الصعب، ويوضح المبَهم، ويفسر المجمَل، ويبين الغامض، ويكشف عن الحقائق، يجعل المعقول محسوساً، والأبيّ مسيراً ملموساً والعصيّ طيعاً مستجيباً، يوجز وكأنه في بيانه قد أطنب، ويومىء وكأنه في براعته قد أسهب، ويشير وهو أبين معبر، ويعبر وهو أخفى رامز، دلالته وحي، وتعبيره مفهِم، ووحيه مفحِم، حجته لنصاعتها تتبختر اتضاحاً، والشبهة أمامه تتضائل افتضاحاً، بيانه السحر الحلال، ومعانيه أحلى من النمير الزلال، وحقاً إن من البيان لسحراً.

هذا الفن البياني في هداية القرآن جعلت تلك الهداية إدراك معانيه غاية العقلاء، والإحاطة بأهدافه ومراميه بداية نهاية العلماء، لأن العقل يدرك ما يظهر له، والعلم يفهم ما وراء الظواهر، لأنه يرفع الحجب عن وجوه المعقولات الخفية، فتبدو وكأنها عرائس مجلوّة في أفخر الحلي والحلل، كلما أوغلت فيه النظر زادك إحساناً وحسناً.

(٩)
فضل العلم وشرفه في إعلاء مكانة أهله بإدراكهم مواقع الهداية من آيات الله.

وحسب العالِمين هذه الشهادة لفضلهم بين العالَمين من الله خير الشاهدين.

ولم تقف الهداية القرآنية في بيان فضل العلم وشرفه في أشخاص أهله وذويه عند ذاك الثناء ولكنها تزيد من فضله بزيادة فضلهم حفاوة

---

(١) سورة العنكبوت: الآية (٤٣).

بهم وتكريماً لهم فتجعلهم أمناء على أسرار آيات الله في عوالمه الذين يهتدون بما فيها من العبر إلى بيان هدايتها على عظمة الله وجلاله، يقول ربنا تبارك وتعالى: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ خَلْقُ ٱلسَّمٰوَاتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَافُ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَانِكُمْ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِلْعَالِمِينَ﴾[1].

وفي هذه الآية الكريمة لون من التنويه بشرف العلم، والتسامي بمكانته في الهداية القرآنية، يصور مدى ما للعلم من قدر خطير في تقديرها.

وفيها بيان أن هذه الهداية لا تقصد إلى لون خاص من العلم، ولا تقيد المجتمع الإسلامي بنوع منه، ولكنها تتسامى بالعلم كله باعتباره أثراً من أرفع آثار السمو الإنساني، وباعتباره الروح المسيطر على توجيه التفكير الإنساني إلى كشف الحجب عن مكنونات الله في آياته الكونية التي أقامها في هذا الوجود براهين ودلائل على وجوده، ووحدانيته، وعظيم قدرته، ومحكَم تدبيره، والتي سخرها مذلَّلة للإنسان ليبلغ بها مكان النعمة في الانتفلع بآثارها قياماً بحق شكرها.

والآية الكريمة تذكر خلق السموات والأرض تذكيراً بما أودع الله فيهما من آثار آياته الكبرى، تنبيهاً على ما أودعه الله فيهما من آثار حكمته الكونية، وبياناً لعظمة قدرته، لأن خلق السموات والأرض أجلّ الدلائل ــ في آيات الله الكونية التي وسع الإنسان الاطلاع عليها ومشاهدة آثارها ــ على وجوده تعالى وبالغ قدرته.

ولذلك يقول تعالى بياناً لمكانة هذا الإبداع: ﴿لَخَلْقُ ٱلسَّمٰوَاتِ وَٱلْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ ٱلنَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾[2]، ويقول عز وجهه في بيان ذلك بأسلوب الاستفهام التقريري الذي يعتمد

---

(١) سورة الروم: الآية (٢٢).
(٢) سورة غافر: الآية (٥٧).

في تقرير الواقع على كثرة الأدلة وقوتها في ذاتها، ووضوح دلالتها على المقصود: ﴿أَأَنْتُمْ أَشَدُّ خَلْقاً أَمِ ٱلسَّمَآءُ بَنَاهَا رَفَعَ سَمْكَهَا فَسَوَّاهَا وَأَغْطَشَ لَيْلَهَا وَأَخْرَجَ ضُحَاهَا وَٱلْأَرْضَ بَعْدَ ذَٰلِكَ دَحَاهَا أَخْرَجَ مِنْهَا مَآءَهَا وَمَرْعَاهَا وَٱلْجِبَالَ أَرْسَاهَا مَتَاعاً لَكُمْ وَلِأَنْعَامِكُمْ﴾(١).

وفي هذه الآية يبين تعالى كيفية خلق السموات والأرض، وأنه بناها بناء رفع به سمكها وسواها بلا تفاوت فيها ولا فطور، وأظلم ليلها، وأضاء نهارها، وأنه دحا الأرض وجعلها في صورتها التي بها يعيش مَنْ فوقها من الأناسيّ، وما فوقها من الحيوان والأشياء، وأنه أخرج للإنسان من هذه الأرض الماء والمرعى ليتمتع، وتتمتع أنعامه التي يتنعم بها في حياته.

والهداية القرآنية تلفت نظر أهل العلم من العقلاء إلى أنهم موجهون إلى النظر في كيفية بناء السماء ومد الأرض، ولا يمكن الوصول إلى ذلك إلا بالبحث العلمي الدائب لمعرفة حقيقة السموات وما فيها من عوالم قد تدخل في عناصر تكوينها، يقول الله تعالى: ﴿أَفَلَمْ يَنْظُرُوا إِلَى ٱلسَّمَآءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَاهَا وَزَيَّنَّاهَا وَمَا لَهَا مِنْ فُرُوجٍ ۞ وَٱلْأَرْضَ مَدَدْنَاهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنْبَتْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ ، تَبْصِرَةً وَذِكْرَىٰ لِكُلِّ عَبْدٍ مُنِيبٍ﴾(٢).

ثم تذكر الآية ــ التي سيقت لبيان سمو مقام العلم برفعة شأن أهله من العالمين ــ أن اختلاف الألسن باللغات، مع وحدة الجارحة اللسانية في طبيعتها الخِلْقية، آيةٌ من آيات الله في خلقه، وأن اختلاف الألوان في أجناس البشر اختلافاً يجمع عجائب الخلقة من سواد وبياض، إلى حمرة وصفرة، إلى صهوبة وشُهلة، مع اتحاد الأصل

---

(١) سورة النازعات: الآيات (٢٧ ــ ٣٣).
(٢) سورة ق: الآيات (٦ ــ ٨).

واتحاد طبيعة قابل التلوين آية من آيات الله الدالة على قدرته وتفرده بالخلق والإبداع.

ثم جاءت الخاتمة في الآية بما هو المقصود الأعظم، فبينت أن في الآيات التي عددتها الآية الكريمة آيات دلائل وبراهين على عظمة الإلٰهية وجلال الربوبية لا يقوم بإدراكها وفقه أسرارها، ومعرفة مدارك دلائلها، وإدراك أهدافها إلا العالِمون الذين أفاض الله عليهم من إشراق المعرفة بملكوته وتعمقوا أسرار الوجود، وغاصوا مع العلم إلى بواطن الكون، يكشفون ظواهره للوصول إلى حقائقه، ليشهدوا آثار الإبداع والتكوين في خلق الله حتى تردد ألسنتهم متعبدة بما توحي إليها القلوب العارفة والعقول المدركة: ﴿هَٰذَا خَلْقُ ٱللَّهِ فَأَرُونِي مَاذَا خَلَقَ ٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦ﴾[1].

(١٠)
تأكيد لإرادة الشمول في فنون العلم.

والآية الكريمة إذ تذكر العالِمين باعتبارهم خلاصة الإنسانية في إدراكهم لمشاهد الملكوت بالعلم الذي هو خصيصتهم المميزة لهم عن سائر العقلاء، لا تقيد هذا العلم بلون من ألوان التفكير الإنساني، ولا بنوع من أنواع التجريب الاستقرائي، ولا بفن من فنون المدارك العقلية، وإنما تذكرهم تفخيماً لهم بوصفهم المطلق، لأن العلم أعظم آيات الله في الوجود وأجلّ نعمة على الإنسان أنعم الله بها على الحياة.

فهل رأيت كيف تصور براعة البيان القرآني هدايته في تعظيم شأن العلم، العلم الذي هو العلم فحسب؟ وكيف تصور الهداية القرآنية ما أفاض الله تعالى على العلماء من فضل تتقطع الأعناق دون بلوغ مكانته؟.

بلى! ولكن الهداية القرآنية تمضي قدماً في الإشادة بفضل العلم، الذي هو علم وعرفان، ومكانة العلماء الذين هم العلماء بآيات

---

(١) سورة لقمان: الآية (١١).

الله وأسرار الحقائق الكونية في السموات والأرض، في آفاق الحياة وأنفس البشر، فتخص هؤلاء العلماء بالثناء عليهم ثناء يستمطر الملائكة المقربون غيثه من مداد أقلامهم، إنهم أعلم خلق الله بجلال الله، وأعرف خلق الله بآيات الله، وأشهد خلق الله لعظمة ا لله، فكانوا بهذا وذاك أخشى خلق الله لله، وأخوف خلق الله من الله، وأرجى خلق الله لرحمة الله، وأعظم خلق الله مكانة عند الله.

النموذج الرابع:

يقول ربنا تبارك وتعالى: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَآءُ﴾[1]، فهم بوصف العلم بجلال الله لمطالعتهم كتاب ملكوته، وإدراكهم لبديع صنع الله ومحكَم تدبيره، وباهر قدرته متفردون بخشية الله، متوحدون بمعرفة جلال كبريائه.

وفي قول الله تعالى: ﴿مِنْ عِبَادِهِ﴾ إيماء إلى أن خشية العلماء لله التي أفردهم الله بها عن سائر مخلوقاته إنما هي خشية عبودية وتعبُّد، ومقام العبودية أرقى درجات القرب من سبحات الجلال الإلّهي، فهم يخشونه لأنهم العلماء بجلاله من عباده الذين هم عباده تعبّداً وزلفى.

(١١)
العلم الذي رفعت الهداية القرآنية شأنه هو العلم الذي يهدي إلى معرفة الله.

وبهذا تنقشع الغشاوة عن أعين الذين في قلوبهم مرض فيعرفون أن قداسة العلم وعظمته اللتين صورتهما الهداية القرآنية إنما هي قداسة العلم الهادي إلى الله وعظمة العلم الدال على الله بالنظر والتفكر في آياته، وهذه قداسة تنبثق من نور الإيمان بالله ورسله، فإذا لم يتحقق هذا الإيمان بقي العلم ـ في نظر الهداية القرآنية ـ مرغوباً فيه أشد الرغبة كمصباح يكشف الظلمات الحسية في طريق هذه الحياة الدنيا، ولن يرضى الله العزيز الحكيم لأهل الهداية القرآنية أن ينصرفوا عن العلم النافع في هذه الدنيا لمجرد انحراف بعض العقول به عن صراط الهداية، وإنما يرضى لهم بل يوجب عليهم أن يغالِبُوا عليه فيأخذوه

---

(١) سورة فاطر: الآية (٢٨).

قسراً، ويطوّعوه لإيمانهم حتى يكون هو الطريق إلى خشية الله خشية تقوم على معرفته بكمال نعوته في ظل الهداية القرآنية التي تعتز بالعلم اعتزازاً يجعله طريقها إلى تبوء مكانها القيادي في توجيه الحياة وقيادة الإنسانية بسلطان خلافة المجتمع الإسلامي في الأرض.

والمتأمل في سياق هذه المدحة الكريمة وموقعها من الآية التي وردت فيها، ومن الآية السابقة عليها يدرك أن العلم الذي كان منبع خشية العلماء لله التي تفردوا بها ونالوا بها هذه المنزلة الرفيعة إنما هو العلم بالله علماً يقوم على النظر في آياته الكونية، وتعرف ما فيها ـ عن طريق البحث بشتى وسائله ـ من بديع صنع الله تعالى ومحكَم تدبيره، وما أودع فيها من أسرار الخلق والتكوين. وهي مسخّرة للإنسان، يستثير منافعها لصالحه وصالح الحياة، يقول الله عز شأنه: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجْنَا بِهِۦ ثَمَرَٰتٍ مُّخْتَلِفًا أَلْوَٰنُهَا وَمِنَ ٱلْجِبَالِ جُدَدٌۢ بِيضٌ وَحُمْرٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَٰنُهَا وَغَرَابِيبُ سُودٌ. وَمِنَ ٱلنَّاسِ وَٱلدَّوَآبِّ وَٱلْأَنْعَٰمِ مُخْتَلِفٌ أَلْوَٰنُهُۥ كَذَٰلِكَ إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُا۟ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ﴾(١).

ولا يمكن أن يكون مقصود الهداية القرآنية بالعلم الذي أثني به على العلماء في آية الخشية لله لوناً من ألوان العلم دون سائر ألوانه وفنونه، وإنما يراد كل علم في مناسبته وموضعه.

والظاهر من سياق الآية وسياقها أنها تقصد إلى نوع من العلم والمعرفة يكشف عن آيات الله في إنزال الماء من السماء، وإخراج الثمرات المختلفة الألوان بهذا الماء، وفي اختلاف أحوال الجبال وألوانها وتركيب ذراتها، وفي اختلاف ألوان الناس والدوابّ والأنعام، من كل بحث يكشف عن آيات الله في هذه الكائنات.

---

(١) سورة فاطر: الآيتان (٢٧، ٢٨).

يقول الإمام الفخر الرازي في تفسيره: (روي أن عمر بن الحسام كان يقرأ كتاب المجسطي على عمر الأبهري، فقال بعض الفقهاء يوماً: ما الذي تقرؤنه؟ فقال: أفسر آية من القرآن، وهي قوله تعالى: ﴿أَفَلَمْ يَنْظُرُوا إِلَى ٱلسَّمَآءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَاهَا﴾ فأنا أفسر كيفية بنيانها.

قال الرازي: ولقد صدق الأبهري فيما قال، فإن كل من كان أكثر توغلاً في بحار مخلوقات الله تعالى كان أكثر علماً بجلال الله تعالى وعظمته.

ونحن نقول مع الإمام الرازي: إن الغوص ـ لمن يحسن السباحة ـ في بحار الكون أبلغ في الوصول إلى لآلىء المعرفة بجلال الله الخلّاق العظيم، وهذه المعرفة البرهانية التي تُشهد صاحبها عظمة الله في صنائعه الكونية هي أسمى مراتب الهداية القرآنية التي يجب أن يكشف عنها من يتعرض لتفسير القرآن العظيم.

* * *

الأصل الثامن

التـربيـة السـلـوكيّة

(١)
الهداية القرآنية تجعل من الفضائل الإنسانية دعامة لبناء المجتمع الإسلامي من أفراده وجماعاته.

هذا الأصل من أصول الهداية القرآنية يستهدف بيان منهج القرآن وطريقته في التربية السلوكية للفرد والجماعة، وأسلوب الهداية القرآنية في هذا الأصل أسلوب يجعل من الفضائل الإنسانية دعامة لبناء المجتمع الإسلامي على قواعدها.

والمجتمع في حقيقته التكوينية بناء بشري لبناتُه الأفراد الذين تتألف من ترابطهم الاجتماعي عناصره الحية التي يتهيأ بها للمجتمع أن يتبوأ مكانه في الحياة، بقدر ما في تلك العناصر من قوة وحيوية وخصوبة في التفكير.

ولهذا نجد الهداية القرآنية تعطي الفرد عناية بالغة في التربية السلوكية التي تُعِدّه إعداداً روحياً وعقلياً ومادياً ليستقيم له بهذا الإعداد التربوي في السلوك استقلاله الذاتي الذي تتجلى فيه إرادته الحرة، ومشيئته القادرة فيما يصدر عنه من فعل أو رأي.

(٢)
قوة الفرد قوة للمجتمع في نظر الهداية القرآنية.

بيد أن الهداية القرآنية مع هذه العناية البالغة في تربية الفرد السلوكية لا تطلق العنان في الفردية إطلاقاً يعزله عن مجتمعه الذي يعيش فيه، ويحيا بين أحضانه، ويأخذ منه ويعطيه، لكنها تجعل من استقلال الفرد وحرية إرادته مظهراً لقوة انطلاق المجتمع في حياته بقوة أفراده، حتى يستطيع أن ينهض بعبئه في بناء الحضارة الفكرية والاجتماعية، ويؤدي واجبه في خدمة البشرية بدفعها إلى آفاق جديدة

في مجالات العلم والمعرفة، ومطالعة آيات الله في حقائق الوجود الكوني المليء بالأسرار الإلّهية المسخرة للإنسان ليحقق بالنظر فيها أكبر قسط لمصالحه ومنافعه المادية والروحية.

(٣)
تحمل المسؤولية أول عامل من عوامل التربية السلوكية ويقوم على ربط الجزاء بالعمل.

وأول عامل من عوامل التربية السلوكية تبرزه الهداية القرآنية، وتجعله موضع عنايتها في البيان القرآني هو تحمّل المسؤولية، والشعور بهذا التكليف شعوراً يجعل من الفرد قوة دافعة للمجتمع في طريق البناء والعمل لصالح الحياة والأحياء والأشياء، ويجعل من الجماعة قوة موحَّدَة العناصر والأهداف.

وأسلوب الهداية القرآنية في إشعار الفرد بتحمّل مسؤولية عمله كاملة يقوم على ربط الجزاء بالعمل، فلا جزاء على غير عمل، ولا عمل بغير جزاء.

النموذج الأول:

وفي تقرير ذلك يقول الله تعالى: ﴿لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا ٱكْتَسَبَتْ﴾[١]، وقد تضمن هذا النص من البيان القرآني قضيتين:

(٤)
بيان ما في النموذج من دلائل على المقصود.

* **القضية الأولى:** تصوير السماحة في الهداية القرآنية وأنها لا تتعنّت في تكاليف العباد بشرائعها وآدابها، ولا تشتط في المطالبة بالعمل التكليفي ولكنها تنظر إلى طاقة الإنسان واستعداده الفطري، والعقلي، والروحي، والبدني، فتكلفه من العمل ما يطيق في حدود هذا الاستعداد جبلّة وكسباً، وهذه القضية هي مضمون قوله تعالى: ﴿لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾، وهي قضية تصوِّر سماحة الشريعة ويسر تكاليفها، تحقيقاً لما أُلهِمه المؤمنون في مناجاة الشكر لله، ودعاء التعبّد، من رفع أثر التكاليف في حالتي النسيان والخطأ الذي لا يتجه

---

(١) سورة البقرة: الآية (٢٨٦).

إليه القلب والضمير بعقد ونية، ورفع الآصار والأثقال في مطلَق التكاليف، لتكون في حدود الطاقة والاستعداد، كما حكى الله عنهم هذه المناجاة في قوله تعالى: ﴿رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَا إِنْ نَسِيْنَا أَوْ أَخْطَأْنَا رَبَّنَا وَلَا تَحْمِلْ عَلَيْنَا إِصْراً كَما حَمَلْتَهُ عَلَى ٱلَّذِيْنَ مِنْ قَبْلِنَا رَبَّنَا وَلَا تُحَمِّلْنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِ وَٱعْفُ عَنَّا وَٱغْفِر لَنَا وَٱرْحَمْنَا أَنْتَ مَوْلَانَا فَٱنْصُرْنَا عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْكَافِرِيْنَ﴾[1].

* والقضية الثانية تبين أن كل نفس عاملة في الحياة إنما تنال جزاء عملها، فلها جزاء ما كسبت من خير وبر وإصلاح، وعليها جزاء ما اكتسبت من شر وفجور وإفساد.

وهذا تقرير لقانون العدل الذي تقوم على أساسه مسؤولية الأفراد وروابطهم الاجتماعية، فلا تُظلَم نفس شيئاً من جزاء عملها، ولا تتحمل نفس آثار عمل نفس أخرى لم تعمل ذلك العمل، فتبوء بجزائها.

وفي إطار هذا القانون الذي تقرره الآية الكريمة في طرفيها، من يسر التكاليف، وعدالة الجزاء ساق البيان القرآني آيات الهداية التي تقصد إلى تربية الفرد تربية سلوكية في تحمل مسؤولية العمل تحملاً كاملاً يربطه بالجزاء كسباً واكتساباً.

(٥)
إبداء حكمة في إفراد عمل السوء بجزائه في هذه الآية.

النموذج الثاني:

يقول الله تعالى: ﴿وَمَنْ يَكْسِبْ إِثْماً فَإِنَّمَا يَكْسِبُهُ عَلَى نَفْسِهِ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيْماً حَكِيْماً﴾[2].

وهذه الآية تُفرد عمل السوء وكسب الإثم والشر بالذكر في ربط الجزاء بالعمل، وكأنما ذلك ـ فيما يظهر والله أعلم ـ لملاحظة جو

(١) سورة البقرة: الآية (٢٨٦).
(٢) سورة النساء: الآية (١١١).

القصة التي نزلت الآية فيها(*) ولأن عمل السوء في الحياة أشبه بالمرض

(*) والقصة كما يرويها الطبري، عن قتادة بن النعمان الأنصاري، قال: كان أهل بيت منا يقال لهم بنو أبيرق: بشر وبشير، ومبشر، وكان بشير رجلاً منافقاً، وكان يقول الشعر يهجو به أصحاب رسول الله ﷺ، ثم ينحله إلى بعض العرب، ثم يقول: قال فلان كذا، وقال فلان: كذا، فإذا سمع أصحاب رسول الله ﷺ ذلك الشعر قالوا: والله ما يقول هذا الشعر إلا الخبيث فقال:

أو كلما قال الرجال قصيدة أضموا وقالوا: ابن الأبيرق قالها

قال قتادة بن النعمان: وكانوا ــ أي بنو أبيرق ــ أهل بيت فاقة وحاجة في الجاهلية والإسلام، وكان الناس إنما طعامهم التمر والشعير، وكان الرجل إذا كان له يسار ــ فقدمت ضافطة من الشام بالدرمك ــ ابتاع الرجل منها فخص به نفسه، فأما العيال فإنما طعامهم التمر والشعير، فقدمت ضافطة من الشام، فابتاع عمي رفاعة بن زيد حملاً من الدرمك، فجعله في مشربة له، وفي المشربة سلاح له: درعان وسيفاهما وما يصلحهما فعدى عليه من تحت الليل، فنقبت المشربة وأخذ الطعام والسلاح، فلما أصبح أتاني عمي رفاعة فقال: يا ابن أخي تعلم أنه قد عدي علينا في ليلتنا هذه، فنقبت مشربتنا فذهب بسلاحنا وطعامنا، فتحسسنا في الدار، وسألنا فقيل لنا: قد رأينا بني أبيرق استوقدوا في هذه الليلة ولا نرى فيما نراه إلا على بعض طعامكم.

وقد كان بنو أبيرق قالوا ــ ونحن نسأل في الدار ــ: والله ما نرى صاحبكم إلا لبيد بن سهل ــ رجلاً منا له صلاح وإسلام ــ فلما سمع بذلك لبيد اخترط سيفه ثم أتى بني أبيرق فقال: والله ليخالطنكم هذا السيف أو لتبينن هذه السرقة، قالوا: إليك عنا أيها الرجل فوالله ما أنت بصاحبها، فسألنا في الدار حتى لم نشك أنهم أصحابها، فقال عمي: يا ابن أخي لو أتيت رسول الله ﷺ فذكرت ذلك له.

قال قتادة: فأتيت رسول الله ﷺ فذكرت ذلك له، فقلت: يا رسول الله ﷺ إن أهل بيت منا أهل جفاء، عمدوا إلى عمي رفاعة فنقبوا مشربة له وأخذوا سلاحه وطعامه، فليردوا علينا سلاحنا، فأما الطعام فلا حاجة لنا فيه، فقال رسول الله ﷺ: «أنظر في ذلك»، فلما سمع بنو أبيرق بذلك أتَوا رجلاً منهم يقال له: (أسير بن عروة) فكلموه في ذلك، واجتمع إليه ناس من أهل الدار، فأتَوا رسول الله ﷺ فقالوا: يا رسول الله، إن قتادة بن النعمان وعمه عمدوا إلى أهل بيت منا أهل إسلام وصلاح يرمونهم بالسرقة من غير بيّنة ولا ثبت.

الذي يجد بيئة مهيئة لسريانه بالهيضة والفساد، فهو أحوج إلى التنبيه إلى أن عامل السوء وصانع الشر مربوط جزاؤه بعمله، فعليه وحده عاقبة ما صنع، وكل من ضعفت نفسه أمام عمل السوء والشر فصنع مثله كان عليه وحده جزاء ما صنع، دفعاً لما يتوهم أن العمل الذي يقع بطريق سريان الفساد يكون جزاؤه على من أصّل السوء وبدأ به.

النموذج الثالث:

ويقول عز شأنه: ﴿لَيْسَ بِأَمَانِيِّكُمْ وَلَا أَمَانِيِّ أَهْلِ ٱلْكِتَابِ مَنْ يَعْمَلْ سُوٓءًا يُجْزَ بِهِۦ وَلَا يَجِدْ لَهُۥ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا * وَمَن يَعْمَلْ مِنَ ٱلصَّالِحَاتِ مِن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَٰٓئِكَ يَدْخُلُونَ ٱلْجَنَّةَ وَلَا يُظْلَمُونَ نَقِيرًا﴾[1].

وفي هاتين الآيتين إلى جانب قانون العدل وتحمل المسؤولية ردع للذين يعيشون أحلاس الكسل والاستهانة بالعمل في زوايا الإهمال، ويتمنون على الله الأماني، فهم كلٌّ على أنفسهم، وعلى الحياة، وعلى

= قال قتادة: فأتيت رسول الله ﷺ فكلمته، فقال: عمدت إلى أهل بيت ذكر عنهم إسلام وصلاح ترميهم بالسرقة على غير بينة ولا ثبت، قال قتادة: فرجعت ولوددت أني خرجت من بعض مالي ولم أكلم رسول الله ﷺ في ذلك، فأتيت عمي رفاعة، فقال: يا ابن أخي: ما صنعت؟ فأخبرته بما قال لي رسول الله ﷺ، فقال: الله المستعان، فلم يلبث أن نزل القرآن: ﴿إِنَّا أَنزَلْنَا إِلَيْكَ ٱلْكِتَابَ بِٱلْحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ ٱلنَّاسِ بِمَا أَرَاكَ ٱللَّهُ وَلَا تَكُن لِّلْخَائِنِينَ خَصِيمًا﴾ ـ يعني بني أبيرق ـ: ﴿وَٱسْتَغْفِرِ ٱللَّهَ﴾، أي: مما قلت لقتادة: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾ ﴿وَلَا تُجَادِلْ عَنِ ٱلَّذِينَ يَخْتَانُونَ أَنفُسَهُمْ﴾ ـ أي: بني أبيرق: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ مَن كَانَ خَوَّانًا أَثِيمًا﴾... فلما نزل القرآن أتى رسول الله ﷺ بالسلاح فرده إلى رفاعة، قال قتادة: فلما أتيت عمي بالسلاح، وكان شيخاً قد عسا في الجاهلية ـ أي: أسن وكبر فيها ـ وكنت أرى إسلامه مدخولاً، فلما أتيته بالسلاح قال: يا ابن أخي هو في سبيل الله، قال قتادة: فعرفت أن إسلامه كان صحيحاً.

(1) سورة النساء: الآيتان (١٢٣، ١٢٤).

المجتمع الذي يحيَون بين جنباته دون شعور بتحمل مسؤولية عمل من الأعمال.

وهؤلاء جرثومة إفساد في حياة الأمة، قصدت الهداية القرآنية أن تلفت إليهم بهذا الأسلوب الزاجر أنظار المجتمع ليقتلع جذور التواكل من أنفسهم، تصحيحاً لبناء الأمة، ودفعاً لها إلى العمل الجاد في مجال المسؤولية الكاملة.

النموذج الرابع وبيان معناه:

ويقول ربنا تبارك وتعالى: ﴿قَدْ جَآءَكُم بَصَآئِرُ مِن رَّبِّكُمْ فَمَنْ أَبْصَرَ فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ عَمِيَ فَعَلَيْهَا وَمَا أَنَا عَلَيْكُم بِحَفِيظٍ﴾[1].

وفي هذه الآية الكريمة تتحدث الهداية القرآنية عن حقيقتها، فتبين أنها نور وبصائر منزلة من عند الله، لتكشف للناس أسرار الكون، وتفتح لهم مغاليق الحياة، فمن استضاء بها وجعلها شمس هدايته، وفتح لها بصر بصيرته وعين عقله كان أعرف بمواقع صالح العمل، وكان أقدر على تحمّل مسؤولية عمله، وكان أرضى بجزاء كسبه الذي هو له وحده لا يتحداه إلى غيره.

ومن أغلق منافذ عقله، وأغمض بصر قلبه عن مواقع الهداية فعميت بصيرته، واحتبس وراء أسوار الجهالة عقله عاش مختلط الفكر، لا يدري ما تتطلبه حياته وحياة مجتمعه من عمل صالح تعظم به قيمة الحياة، تقوده الحيرة إلى غير هدف، ولكنها تروح به وتجيء، يشك في كل حقيقة، ويرتاب في كل يقين، مهزوز الشخصية لا يستطيع أن يتحمل مسؤولية ما يقع منه من عمل، يسخط على حظه من جزاء عمله الذي يحيط به وحده فلا يشاركه في حمله أحد.

---

(١) سورة الأنعام: الآية (١٠٤).

النموذج الخامس وآياته المتماثلة:

كما قال ربنا تبارك وتعالى: ﴿وَلَا تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ إِلَّا عَلَيْهَا وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى﴾[1]، وهذا الإجمال في هذه الآية فصلته آيات أخرى في قوله تعالى: ﴿وَكُلَّ إِنسَانٍ أَلْزَمْنَاهُ طَائِرَهُ فِي عُنُقِهِ وَنُخْرِجُ لَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ كِتَاباً يَلْقَاهُ مَنْشُوراً * اقْرَأْ كِتَابَكَ كَفَى بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيباً * مَنْ اهْتَدَى فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ وَمَنْ ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّى نَبْعَثَ رَسُولاً﴾[2]، وتتعدد مواضع هذا الأسلوب في البيان القرآني، ولكنه لا يكون محض تكرار، وإنما يرد حيث يرد لاقتضاء المقام له، ولا بد فيه من اختلاف بزيادة المعنى، يقول الله تعالى: ﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى وَإِنْ تَدْعُ مُثْقَلَةٌ إِلَى حِمْلِهَا لَا يُحْمَلْ مِنْهُ شَيْءٌ وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَى إِنَّمَا تُنْذِرُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ بِالْغَيْبِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَمَنْ تَزَكَّى فَإِنَّمَا يَتَزَكَّى لِنَفْسِهِ وَإِلَى اللَّهِ الْمَصِيرُ﴾[3]. ويقول جلا وعلا: ﴿مَنْ عَمِلَ صَالِحاً فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ أَسَاءَ فَعَلَيْهَا وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ﴾[4]، وهذا تقرير لحرفية قانون العدل. ويقول عز شأنه: ﴿وَمَنْ جَاهَدَ فَإِنَّمَا يُجَاهِدُ لِنَفْسِهِ إِنَّ اللَّهَ لَغَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ﴾[5]، وفي هذه الآية بيان أن كدَّ الإنسان وكدحه، عائد عليه بآثاره، إن خيراً فخير وإن شراً فشر، والله لا يكلف العباد شيئاً يعود عليه منه نفع أو يلحقه ضرر لأنه غني عنهم بكبرياء جلاله.

(٦)
نوع آخر من أنواع الهداية في تربية السلوك.

وفي البيان القرآني أسلوب آخر في بيان الهداية القرآنية التي تقصد إلى تربية السلوك بتحمل المسؤولية يجري بين الترغيب

---

(١) سورة الأنعام: الآية (١٦٤).
(٢) سورة الإسراء: الآيات (١٣ ـ ١٥).
(٣) سورة فاطر: الآية (١٨).
(٤) سورة فصلت: الآية (٤٦).
(٥) سورة العنكبوت: الآية (٦).

والترهيب، يقول الله تعالى: ﴿مَنْ عَمِلَ صَالِحاً مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾[1] ويقول سبحانه: ﴿يَوْمَ تَأْتِي كُلُّ نَفْسٍ تُجَادِلُ عَنْ نَفْسِهَا وَتُوَفَّى كُلُّ نَفْسٍ مَا عَمِلَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾[2]، ويقول عز وجهه: ﴿قُلْ يَا أَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَاءَكُمُ ٱلْحَقُّ مِنْ رَبِّكُمْ فَمَنِ ٱهْتَدَى فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ وَمَنْ ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا وَمَا أَنَا عَلَيْكُمْ بِوَكِيلٍ﴾[3].

وقد جمع الأسلوب البياني خلاصة الهداية القرآنية في التربية السلوكية بتحمّل الفرد المسؤولية فيما يصدر من عمل بالجوارح، أو بالضمير والقلب، أو بالعقل والروح في هذه الآية بإيجاز هو الغاية في الإعجاز، قال تعالى: ﴿وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنَّ ٱلسَّمْعَ وَٱلْبَصَرَ وَٱلْفُؤَادَ كُلُّ أُولَٰئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْؤُولاً﴾[4].

* * *

(٧)
معنى المسؤولية الجماعية وصور أساليبها في القرآن.

أما المسؤولية الجماعية فهي التي تتحملها الأمة كلها متضامنة متكافلة في عملها الجماعي لصيانة المجتمع عن الهزات الاجتماعية التي تزعزع الثقة في أنفس الأفراد، مما يؤدي إلى انهيار الترابط الجماعي، ويقوي تيار الانعزالية الفردية في الأمة فتستحكم فيها الأنانية والأثرة، وتختل نتيجة لذلك موازين العدالة، ويشيع بين عناصر المجتمع التظالم والخصومات، وتفقد روح التعاون الأخوي بين أبناء الأمة.

وهذا اللون من التربية السلوكية في تحميل الجماعة مسؤولية عملها الجماعي كثير في البيان القرآني متعدد الأنحاء في أسلوب

(١) سورة النحل: الآية (٩٧).
(٢) سورة النحل: الآية (١١١).
(٣) سورة يونس: الآية (٤١).
(٤) سورة الإسراء: الآية (٣٦).

الهداية القرآنية، وطرائقها في مخاطبة الأمة خطاب التكليف الجماعي باعتبارها القيم على موازين العدالة بين الأفراد.

فكل خطاب في البيان القرآني يتجه إلى الجماعة بعنوانها الإنساني العام: ﴿يَا أَيُّها ٱلنَّاسُ﴾، أو بعنوانها الإيماني: ﴿يَا أَيُّهَا ٱلَّذِيْنَ آمَنُوا﴾، هو شاهد من شواهد التربية السلوكية في تحميل الجماعة مسؤولية العمل الجماعي.

(٨)
أثر تحمل المسؤولية في التربية السلوكية.

تحميل المسؤولية للفرد والجماعة هو أساس التربية السلوكية التي تحقق العدالة، وتنشر التراحم بين أفراد الأمة، لأن إحساس الفرد أو الجماعة بالمسؤولية يربي الضمير، ويوقظه ليكون دائماً هو الحارس من داخل النفس الإنسانية، الحريص على سلامة ما يصدر من الأعمال في إطار المسؤولية، إلى جانب إشعاره بالكرامة الشخصية وحرية الإرادة.

(٩)
الهداية القرآنية ترتفع بالتربية السلوكية ـ متدرجة ـ إلى قمة الإيثار.

والهداية القرآنية لا تقف في التربية السلوكية عند منزلة العدل المطلق التي كان تحمل المسؤولية مظهرها الأول، ولكنها في سبيل إعداد الفرد والجماعة لحياة اجتماعية فاضلة تقوم على أساس الترابط الأخوي في الأسرة الإنسانية كلها على وجه العموم، وفي الأسرة الإيمانية منها على وجه الخصوص ـ تتسامى إلى آفاق مكارم الأخلاق التي لا تتقيد في إقامة العلاقات الاجتماعية بقيود الحق الواجب، وإنما تذهب منطلقة مع السماحة وروح التوادّ والمحبة والإيثار.

وهذه المرتبة في التربية السلوكية تجيء ثانية بعد مرتبة العدل، تعظيماً لحقه وبياناً لعموم فضله، حين نجد الهداية القرآنية توصي بالإفضال ومحاسن الشِّيَم، بل إنها تستعلي في سموها فتوحي بالإيثار الذي كان سمة من سمات أفضل نماذج الإنسانية ممثلة في المجتمع الإسلامي الأول الذي تولت الهداية القرآنية تربيته تربية سلوكية، تؤذن أن تكون في نبلها مثالية من عالم الخيال، لولا أنها كانت في واقع

الحياة المشهود أثراً من آثار الفضائل العملية في وجود المجتمع المسلم: ﴿وَٱلَّذِينَ تَبَوَّءُو ٱلدَّارَ وَٱلْإِيمَانَ مِن قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّا أُوتُوا وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾(1).

وإذا كانت هذه الآية الكريمة نصاً في الإيثار فإن روحها يجري في قوله تعالى: ﴿خُذِ ٱلْعَفْوَ وَأْمُرْ بِٱلْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْجَٰهِلِينَ﴾(2).

والإيثار ليس عطاء مادياً، ولكنه خلق روحاني تفنى في حقيقته الاعتبارات المادية، فلا يقام لها وزن في حساب الفضائل.

ومن هنا كان امتثال الأوامر الثلاثة في الآية باباً من أبواب الإيثار، ويروي المفسرون أن هذه الآية لما نزلت سأل رسول الله ﷺ جبريل عنها، فقال له: «إن الله يأمرك أن تصل من قطعك، وتعطي من حرمك، وتعفو عمن ظلمك». وهذا إيثار بالفضل في مكارم الأخلاق، نجده مصوراً تصويراً بارعاً في قوله تعالى: ﴿وَلَا تَسْتَوِي ٱلْحَسَنَةُ وَلَا ٱلسَّيِّئَةُ ٱدْفَعْ بِٱلَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا ٱلَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَٰوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ﴾(3)، وفي قوله تعالى: ﴿فَٱصْفَحِ ٱلصَّفْحَ ٱلْجَمِيلَ﴾(4).

ومن لطائف هذا النوع في الأسلوب البياني أنه في الأغلب يبدأ بمرتبة العدل حقاً واجباً، ثم يعطف إلى ذكر مرتبة الفضل تفضّلاً، مرغّباً فيها ترغيباً يحبّب القلوب في مكارم الأخلاق.

ومن جوامعه هذه الآيات التي تصف المؤمنين بالاستجابة لربهم

---

(1) سورة الحشر: الآية (٩).
(2) سورة الأعراف: الآية (١٩٩).
(3) سورة فصلت: الآية (٣٤).
(4) سورة الحجر: الآية (٨٥).

حين دعاهم رسوله إلى الإيمان به، وتعبدهم لجلاله بأخلص منازل العبودية في أرفع مراتبها بإقامة الصلاة، وهذا بيان لفضلهم أفراداً مؤمنين، ثم ذكر لهم فضلهم الجماعي فوصفهم بأفضل ما توصف به الجماعات من أخلاق اجتماعية هي الشورى فقال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ ٱسْتَجَابُوا لِرَبِّهِمْ وَأَقَامُوا ٱلصَّلَاةَ وَأَمْرُهُمْ شُورَى بَيْنَهُمْ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ * وَٱلَّذِينَ إِذَا أَصَابَهُمُ ٱلْبَغْيُ هُمْ يَنْتَصِرُونَ * وَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِثْلُهَا فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُ عَلَى ٱللَّهِ إِنَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلظَّالِمِينَ * وَلَمَنِ ٱنْتَصَرَ بَعْدَ ظُلْمِهِ فَأُولَئِكَ مَا عَلَيْهِمْ مِنْ سَبِيلٍ * إِنَّمَا ٱلسَّبِيلُ عَلَى ٱلَّذِينَ يَظْلِمُونَ ٱلنَّاسَ وَيَبْغُونَ فِي ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ أُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ * وَلَمَنْ صَبَرَ وَغَفَرَ إِنَّ ذَلِكَ لَمِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ﴾[(١)].

(١٠)
أثر التربية السلوكية في حياة الأمة.

وهذا اللون من التربية خليق أن يجمع للأمة عناصر القوة، يقيم بها العدل، وعناصر الرحمة ترفع بها منار الفضل، والأمة إذا عاشت قوية بالعدل رحيمة بالفضل كانت المثال الأقوم والنموذج الأعلى للمجتمع الأفضل في واقع الحياة، وهذا ما تستهدفه هداية القرآن التربوية من إعداد أمة الإسلام حتى تكون ـ كما أرادها الله في مكانها من قيادة المجتمع البشري وكما وصفها ـ خير أمة أخرجت للناس، قال تعالى: ﴿كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنْكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ﴾[(٢)]، وقال سبحانه: ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطاً لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى ٱلنَّاسِ﴾[(٣)].

ونحن اليوم نعيش في عصر لا مقياس له في سرعة الانتقال من شيء إلى شيء، ومن حال إلى حال، فهو عصر السرعة المسعورة التي

---

(١) سورة الشورى: الآيات (٣٨ ـ ٤٣).
(٢) سورة آل عمران: الآية (١١٠).
(٣) سورة البقرة: الآية (١٤٣).

شردت عن الضوابط والمقاييس، حتى أشبهت الطفرة في توثباتها وهو عصر مادي انفلت فيه زمام العقل بدافع الغرور العلمي، وطغت فيه ظلمات الإلحاد على نور الإيمان، وانحسرت فيه القيم الروحية والأوضاع الخلقية، وخنست الفضائل إلى زوايا الانعزاليين السلبيين الذين أرمضهم ما سمعوا وما رأوا وعجزوا عن النهوض بالعبء، ولن يغنيهم ذلك من الله شيئاً وسوف يسألون.

عصر أصبح فيه التنكر للدين والسخرية من القيم الروحية والفضائل الإنسانية (أفيون) الشباب المثقف الذي يعيش تحت سلطان هذا المخدر المجلوب من وراء البحار وخلف السهوب ساهماً تائهاً، يمشي في حياته وحياة الناس إلى غير هدف، عبداً لغرائزه الحيوانية وشهواته البدنية، منطلقاً من قيود الفضائل منخلعاً من وشائج القيم الخلقية التي جاءت بها جميع الأديان السماوية، لأنه يجهلها، ولا يعرفها معرفة نظر باحث، ولا معرفة عمل تطبيقي صادر عن يقين يملأ جوانحه ويعمر قلبه.

ولو عتبت على هذا الشاب حاله لوجدت عنده من الحجة التي تلقي الذنب على القوّامين بتنشأته وتربيته وخاصة القوّامين على دارسة القرآن وبيان هداياته والمكلفين الدعوة إلى الله وإلى دينه وتبليغ رسالة الإسلام، مما يبعث الأسف والإشفاق على ضياع هذه الثروة البشرية من شباب المسلمين لأن هذا الشباب وفيه جميع طاقات البشرية الروحية والعقلية والبدنية مفرقة في جماعاته وأفراده لم يجد أمامه الأسلوب السهل الرغيب الذي يوجهه ويحبّب إليه النظر في علوم الإسلام ومعارفه من مصدرها الأصيل: القرآن الحكيم، كما أنه لم يجد القدوة الحية التي تسامت بالفضائل علماً وعملاً حتى كانت في حياة الناس المثل المضروب لطلب التأسي والاقتداء.

وهذا الضرب من الهدايات القرآنية ينزل منها منزلة العروة التي تجمع حلقات المجتمع الإسلامي ، فإن هي تركت حتى تراكم عليها صدأ الإهمال تفتتت ذراتها، وتحللت عناصرها وانفرط عقد هذا المجتمع إلى فئام من الناس كأنها حبات من الرمل منثورة في صحراء الحياة تتلاعب الرياح بها هنا وهناك.

وإن هي لقيت من العناية البيانية في القرآن الكريم ما يلفت إليها الأنظار عادت كما كانت دافعاً من دوافع النهوض والتقدم، ودعامة من دعائم بناء المجتمع المسلم على أسس من الفضائل ينهض بها إلى مكانه من الحياة حاملاً أمانة الفكر المؤمن وهو يجول في معترك الوجود.



الأصل التاسع

المجتمع البشريّ

بين عناصر التماسك وعوامل الانحلال[1]

(١)
نظرة الهداية القرآنية إلى المجتمع البشري في نشأته وتفكيره وأطواره صعوداً وانحداراً.

هذا الأصل من أصول الهداية القرآنية يرمي إلى الكشف عن طريقة البيان القرآني في نظرته إلى المجتمع البشري في أصل نشأته، وعناصر بنائه بناء اجتماعاً: يصور تفكيره ولون حياته في أخلاقه وعاداته وطريقة عيشه في صورة موحدة الوسائل والغايات.

وفي نظرته إلى الأطوار التي مر بها هذا المجتمع في مراحل الحياة بين مد واتساع ، يعتمد على دعائم التمازج بين قوى أفراده تمازجاً يجعل من تلك القوى الفردية قوة موحدة العناصر الفعالة في توجيه المجتمع كله إلى آفاق التقدم الحضاري باعتبار هذا التقدم هدفاً من أهداف الحياة الإنسانية في هذا الوجود.

وفي نظرته إلى الأطوار الانحدارية التي مر بها هذا المجتمع بين جَزْر التَّفتُّت، وانحسار الفناء الجزئي في جانب من جوانبه في زمن معين أو مكان محدود، بسبب العوامل الانحلالية التي جعلها الله سبحانه وتعالى في طبيعة الحياة معاول هدم لبناء أي مجتمع من المجتمعات التي قام بناؤها في أصل وجودها على دعائم اجتماعية سليمة من فضائل الأخلاق ومحاسن العادات، ثم انحرف بهذا المجتمع قادتُه وسائقوه في قافلة الحياة عن هذه الفضائل والعادات، إلى بُنيّات الطريق، ومتعرجات المسالك، فارتطم في هوة الانحلال

---

(١) اقرأ رسالتنا في «سنن الله في المجتمع من خلال القرآن».

الاجتماعي، وغاص فيها إلى مهالك الفناء في عملية مد وجزر، قد تطول، وقد تقصر تبَعاً لقوة عناصر البناء الأصيلة لهذا المجتمع أو ضعفها وتغلب عوامل التحلل الخُلُقي عليها.

(٢)
عوامل الانحدار في المجتمع.

والهداية القرآنية في هذا المقام تنبّه إلى لون من ألوان عوامل الانحدار والتفتت في المجتمع في صورة مجملة: ولكنها متكررة في محافل المجتمعات من الحياة، يقول الله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا فِي كُلِّ قَرْيَةٍ أَكَابِرَ مُجْرِمِيهَا لِيَمْكُرُوا فِيهَا وَمَا يَمْكُرُونَ إِلَّا بِأَنْفُسِهِمْ وَمَا يَشْعُرُونَ﴾(١).

ويقول عز اسمه: ﴿وَإِذَا أَرَدْنَا أَنْ نُهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا ٱلْقَوْلُ فَدَمَّرْنَاهَا تَدْمِيرًا﴾ فالآيتان بينتا أن فساد المجتمعات إنما يبدأ من تفتت القمة الاجتماعية في الأمم والشعوب، وفساد القادة والزعماء نذير صارخ بإفساد المجتمع، وهذا الإفساد إذا وقع لا يخص جانباً أو طائفة، وإنما ينصبّ عاماً شاملاً مغرقاً.

(٣)
أثر الترف في تفكك عناصر المجتمع.

وتزيد الآية الثانية إفادة أن الترف عامل من أقوى وأسرع عوامل التفتت والهدم والانحلال في المجتمعات البشرية، لأن الانغماس في مراتع الشهوات وإشباع نهم الغرائز يميت الإحساس بالنخوة ويقتل الشعور بالغيرة، ويجعل الرذائل من مألوفات الحياة، بل يجعلها ميداناً للتنافس، فلا يهتم أحد برفع رأسه إنكاراً لها، بل يجد المجتمع في قادته المترفين من ينكر على من ينكر هذه الرذائل، وتصبح الفضائل والقيم الروحية ومعالم الأخلاق غرائب في نظر هذا المجتمع المنحَلّ المتحلِّل، وعندئذ تحل كلمة الله ويتعرض هذا المجتمع لعوامل الإفناء والإبادة، يقول الله تعالى: ﴿فَلَوْلَا كَانَ مِنَ ٱلْقُرُونِ مِنْ قَبْلِكُمْ أُولُو بَقِيَّةٍ يَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْفَسَادِ فِي ٱلْأَرْضِ إِلَّا قَلِيلًا مِمَّنْ أَنْجَيْنَا مِنْهُمْ وَٱتَّبَعَ ٱلَّذِينَ

---

(١) سورة الأنعام: الآية (١٢٣).

ظَلَمُوا مَا أُتْرِفُوا فِيهِ وَكَانُوا مُجْرِمِينَ. وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ ٱلْقُرَى بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا مُصْلِحُونَ﴾[1].

وهذه الآية تبين أنه تعالى يأخذ بالإفساد الاجتماعي وشيوع المعاصي أسرع مما يأخذ بالكفر والإشراك به، وتبين أن أهل الخير والصلاح لو قاموا بواجب النهي عن الفساد بصدق وإخلاص وشجاعة في الحق وللحق دون تشنيع وشماتة لنجا المجتمع وسلم من انتقام الله تعالى، لأن سنة الله في خلقه أنه لا يهلك المجتمعات بكفرها ما دام أهلها صالحين للحياة المستقيمة.

والهداية القرآنية تحذر المجتمعات البشرية من الوقوع في الانحرافات الاجتماعية بالإشارة إلى أحداث التاريخ الاجتماعي، ووقائع الإبادة والاستئصال التي جعلتها الحياة مثلاً مضروباً للأمم والشعوب. وتصوير ما نال أولئك المنحرفين عن مَهْيَع الهداية من مساخط الله ونقماته.

وفي قصص الأمم السابقة في البيان القرآني مواضع للعبرة والعظة، ففي قصة عاد وثمود وأخذهم بعذاب الإبادة والإفناء، وفي قصة أهل المدائن وقوم نوح، وقوم إبراهيم، وأخذهم بما أخذهم الله به آيات. على أن الهداية القرآنية في بناء المجتمع وتصوير عناصر صيانته وحفظه، وتصوير عوامل إفنائه وتفتيته تضع للناس دعائم بناء المجتمعات الصالحة وتضع لهم وسائل الوقاية من الانزلاق الاجتماعي حتى لا تتسرب إليهم عوامل الهدم والإبادة.

والقانون العام لهداية القرآن في هذا الأصل من أصولها يصوره قول الله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمٰوَاتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ وَكَفَى بِاللَّهِ وَكِيلًا. إِنْ يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ أَيُّهَا ٱلنَّاسُ وَيَأْتِ بِآخَرِينَ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَى

---

(١) سورة هود: الآيتان (١١٦، ١١٧).

ذَلِكَ قَدِيراً﴾[1].

وقوله تعالى: ﴿ذَلِكَ أَنْ لَمْ يَكُنْ رَبُّكَ مُهْلِكَ ٱلْقُرَى بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا غَافِلُونَ. وَلِكُلٍّ دَرَجَاتٌ مِمَّا عَمِلُوا وَمَا رَبُّكَ بِغَافِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ. وَرَبُّكَ ٱلْغَنِيُّ ذُو ٱلرَّحْمَةِ إِنْ يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَسْتَخْلِفْ مِنْ بَعْدِكُمْ مَا يَشَآءُ كَمَا أَنْشَأَكُمْ مِنْ ذُرِّيَّةِ قَوْمٍ آخَرِينَ﴾[2]، وقوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا ٱلنَّاسُ أَنْتُمُ ٱلْفُقَرَآءُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱللَّهُ هُوَ ٱلْغَنِيُّ ٱلْحَمِيْدُ. إِنْ يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيْدٍ وَمَا ذَلِكَ عَلَى ٱللَّهِ بِعَزِيْزٍ﴾[3].

فالآيات الثلاث تقرر كمال اقتدار الله تعالى على إفناء ما يشاء من المجتمعات البشرية واستبدال غيرها بها من عبادة الصالحين لخلافته في الأرض وعمارة الكون والنهوض بالحياة، وفي الآية الثانية تقرير لعدل الله وقاهِر قدرته ومحكَم تدبيره، وقضائه بحكمته ألاَّ يهلك قوماً حتى يتقدم إليهم بالموعظة والإنذار والبلاغ، بمن يبعث إليهم من الرسل مبشرين ومنذرين، كما قال تعالى: ﴿مَا كَانَ رَبُّكَ مُهْلِكَ ٱلْقُرَى حَتَّى يَبْعَثَ فِي أُمِّهَا رَسُولاً يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِنَا وَمَا كُنَّا مُهْلِكِي ٱلْقُرَى إِلاَّ وَأَهْلُهَا ظَالِمُونَ﴾[4]، فإذا انحرفوا عن دعوة هؤلاء الرسل، وأفسدوا في الأرض، كانوا قد أحلُّوا بأنفسهم سخط الله ونقمته، كما تقرر أن لكل عامل نصيباً من عمله، يحصى عليه في كتاب حفيظ، لا يضل ولا ينسى، والله غني عن الخلق، قدير على إفنائهم، حكيم عدْل، لا يهلكهم إلا إذا دفعتهم نفوسهم الشريرة إلى الانحراف والعدول عن سنن الفطرة، بما يرتكبون من أعمال الفساد والإفساد، ليستبدل بهم خلقاً جديداً، يرثون الأرض لإصلاح الحياة، قياماً بشكر الله الغني عن

---

(١) سورة النساء: الآيتان (١٣٢، ١٣٣).
(٢) سورة الأنعام: الآيات (١٣١ ـ ١٣٣).
(٣) سورة فاطر: الآيات (١٥ ـ ١٧).
(٤) سورة القصص: الآية (٥٩).

العالمين، وأن الناس هم الفقراء إلى الله، وأن له سبحانه كمال الاقتدار على أخذ المنحرفين، بما يشاء من ألوان عقابه، وإحلال من يشاء محلهم ممن صفت فطرتهم ولم يدنسوا بكبرياء الغرور وميوعة الترف وبطر النعمة كما هي سنته في خلقه، قال عز شأنه: ﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِنْ قَرْيَةٍ بَطِرَتْ مَعِيشَتَهَا فَتِلْكَ مَسَاكِنُهُمْ لَمْ تُسْكَنْ مِنْ بَعْدِهِمْ إِلَّا قَلِيلًا وَكُنَّا نَحْنُ الْوَارِثِينَ﴾[1].

(٤)
التأديب الجزئي على بعض الانحرافات.

وفي منهج الهداية القرآنية ألوان من التأديب الجزئي الذي نال بعض الأمم والمجتمعات المنحرفة يقصد به إلى تنبيه المجتمعات التي لا تزال فيها بقية من عناصر الخير وصلاحية البقاء، لتعدل عن الانحراف الاجتماعي الذي يصيبها في طريق سيرها في الحياة وتصحح أوضاعها الاجتماعية وتزيل ما علق بها من أوضار الفساد حتى تستقيم قناتها أو يتولد منها جيل لم تلحقه عدوى الأمراض الاجتماعية والأدواء الفكرية، والاستهتار بالقيم الروحية.

وهذا الضرب من الهداية القرآنية كثيرةٌ شواهده في بيان القرآن الكريم، لا تخلو منه سورة من السور المكية ـ على الخصوص ـ وهو في السور المدنيات غير قليل، وهو في حاجة شديدة إلى أقلام خبيرة بفنون الاجتماع البشري وأطواره، وسياسة الأمم والشعوب ليعالج معالجة تبين منازل الهداية في رحابه، وتفسر آيات من القرآن الكريم بطريقة تجعل من الهداية القرآنية في بناء المجتمع الصالح نبراساً يستضيء بنوره المصلحون الاجتماعيون في صورة تبرز الهداية الاجتماعية في بيان القرآن الحكيم باعتبارها لوناً من ألوان الإصلاح الاجتماعي الذي لا تستغني عنه الحياة، وتضعها موضعها من وجود الناس بما فيها من العبرة الواعظة والأسوة الهادية الحميدة.

واستقصاء شواهد هذا اللون من الهداية القرآنية يطول

---

(١) سورة القصص: الآية (٥٨).

ولا يحصى، ونحن نذكر من ذلك ما يسنح للخاطر كنموذج لهذه الشواهد.

ويستطيع الناظر أن يأخذ جملة ما تحدث به القرآن الحكيم عن الأمة العربية في عنصر نزوله الذي تجددت به حياة تلك الأمة بعد صهرها في مساعر الأحداث، وما وصف من حالها التي كانت عليها يوم بعث فيها رسول الهداية القرآنية، وما كانت عليه من فوضى اجتماعية وانحلال يصفه الحبر ابن عباس رضي الله عنهما فيقول: [من أراد أن يعلم جهل العرب فليقرأ ما فوق الثلاثين والمائة من سورة الأنعام إلى قوله: ﴿قَدْ خَسِرَ ٱلَّذِيْنَ قَتَلُوا أَوْلَادَهُمْ سَفَهاً بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾].

والمراد الآيات التي تبدأ بذكر قانون اجتماعي عام يبين ما يجري على المجتمع البشري من أطوار الإفناء والتجديد، وذلك في الآيات الثلاث التي سبق ذكرها، ثم تأخذ الآيات في تعديد قبائح الجاهلية الجاهلة التي كان يجياها العرب قبيل الإسلام، وذلك قوله تعالى: ﴿وَجَعَلُوا لِلَّهِ مِمَّا ذَرَأَ مِنَ ٱلْحَرْثِ وَٱلْأَنْعَامِ نَصِيبَاً فَقَالُوا هَذَا لِلَّهِ بِزَعْمِهِمْ وَهَـذَا لِشُرَكَـآئِنَا فَمَـا كَـانَ لِشُـرَكَـآئِهِمْ فَـلَا يَصِـلُ إِلَى ٱللَّهِ وَمَـا كَانَ لِلَّهِ فَهُـوَ يَصِـلُ إِلَى شُرَكَـآئِهِمْ سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ * وَكَـذَلِكَ زَيَّنَ لِكَثِيرٍ مِنَ ٱلْمُشْرِكِيْنَ قَتْلَ أَوْلَادِهِمْ شُرَكَآؤُهُمْ لِيُرْدُوْهُمْ وَلِيَلْبِسُوا عَلَيْهِمْ دِيْنَهُمْ وَلَـوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَـا فَعَلُوهُ فَذَرْهُمْ وَمَـا يَفْتَـرُونَ * وَقَـالُـوا هَـذِهِ أَنْعَـامٌ وَحَـرْثٌ حِجْرٌ لَا يَـطْعَمُهَا إِلَّا مَنْ نَشَـآءُ بِزَعْمِهِمْ وَأَنْعَـامٌ حُرِّمَتْ ظُهُـوْرُهَـا وَأَنْعَـامٌ لَا يَذْكُـرُونَ ٱسْمَ ٱللَّهِ عَلَيْهَا ٱفْتِـرَآءً عَلَيْـهِ سَيَجْـزِيْهِم بِمَـا كَـانُـوا يَفْتَرُونَ * وَقَالُوا ما فِي بُطُونِ هَذِهِ ٱلْأَنْعَامِ خَالِصَـةٌ لِذُكُـورِنَا وَمُحَـرَّمٌ عَلَى أَزْوَاجِنَـا وَإِنْ يَكُنْ مَيْتَـةً فَهُمْ فِيْـهِ شُـرَكَـآءُ سَيَجْـزِيْهِمْ وَصْفَهُمْ إِنَّـهُ حَكِيْمٌ عَلِيْمٌ * قَدْ خَسِرَ ٱلَّذِيْنَ قَتَلُوا أَوْلَادَهُمْ سَفَهاً بِغَيْـرِ عِلْمٍ وَحَرَّمُـوا مَا رَزَقَهُمُ ٱللَّهُ ٱفْتِرَآءً عَلَى ٱللَّهِ قَدْ ضَلُّوا وَمَا كَانُوا مُهْتَدِيْنَ﴾[١].

---

(١) سورة الأنعام: الآيات (١٣٦ ــ ١٤٠).

(٥)
الأمة العربية نموذج للمجتمع المتماسك بعد هدايتها بالإسلام.

وكذلك يستطيع الناظر أن يأخذ جملة ما تحدث به القرآن الحكيم عن هذه الأمة العربية بعدما جددت الهداية القرآنية ديباجة حياتها، فصنع منها أمة رائدة، وضع في يدها زمام خلافة الله في الأرض لتقود الإنسانية إلى آفاق جديدة من الحضارة الاجتماعية والفكرية، ويخاطبها القرآن وهي في مكانها من الطليعة في قيادة كتائب البشرية، تمضي بها مع الحياة في مدارج التاريخ بقوله عز شأنه: ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ﴾[١]، وبقوله جل وعلا: ﴿وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ﴾[٢]، ويقوله تبارك اسمه: ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ﴾[٣].

وخصيصة الأمة العربية في هذا النحو من البيان القرآني تختص بأصالتها في المواجهة بالخطاب، لا في اختصاصها بالخطاب، تحقيقاً لعموم الرسالة الإسلامية الخاتمة.

ويجري مُجرى هذه الآيات كل ما جاء في البيان القرآني من آيات الدفع القيادي لهذا المجتمع باعتباره الدعامة الأولى التي قام عليها بناء المجتمع الأكبر لهداية القرآن العظيم التي تشير إلى أن هذا المجتمع مطلوب لقيادة الإنسانية بإعداد نفسه إعداداً كاملاً يقوم على قوة الحق، ويعتمد على دعائم الفضائل الخلقية، يقول الله تعالى مخاطباً هذا المجتمع في عموم أفراده، وجماعاته، ﴿وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا وَاذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنْتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا وَكُنْتُمْ عَلَى شَفَا

---

(١) سورة آل عمران: الآية (١١٠).
(٢) سورة النور: الآية (٥٥)
(٣) سورة البقرة: الآية (١٤٣).

حُفْرَةٍ مِنَ ٱلنَّارِ فَأَنْقَذَكُمْ مِنْهَا كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ * وَلْتَكُنْ مِنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى ٱلْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنْكَرِ وَأُولَٰئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ * وَلَا تَكُونُوا كَٱلَّذِينَ تَفَرَّقُوا وَٱخْتَلَفُوا مِنْ بَعْدِمَا جَاءَهُمُ ٱلْبَيِّنَاتُ وَأُولَٰئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾(١).

(٦)
بيان وتحليل لمعنى آية الاعتصام بحبل الله وآية الدعوة إلى الخير والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

فأمر هذا المجتمع بجميع أفراده بالاعتصام بحبل الله والتمسك بكتابه الذي أنزله هدى ورحمة، وتأكيد ذلك بالنهي عن التفرق والتبدد إلى شيع وأحزاب ومذاهب وآراء، وتذكيرهم بنعمة الله عليهم في أنه هدى قلوبهم بعد ضلالة، وألانها بعد قساوة، وغسلها من أوضار الحقد الجاهلي، وملأها بالألفة والمحبة بعد الفرقة والبغضة، وأنه أنقذهم برسوله وهدايته القرآنية من هلاك كان يحيط بهم، وكانوا منه على مزلقة القدم، وأنهم صاروا إخواناً متآلفين متحابّين، يجمعهم الإيمان، وتضمهم الهداية، كل ذلك يوجب على هذا المجتمع أن يشمّر إلى الغاية التي طلب أن ينهض إليها، ولهذا جاءه الأمر يحتم بغير ثنيا على جميع أفراده أن يعدوا أنفسهم للقيام بواجب ما ناط الله بهم من إصلاح، حددت الهداية القرآنية مجاله، فهو دعوة إلى الخير، كل الخير، لكل الناس، وكل الحياة، وأمر بالمعروف الذي تعرفه هذه الهداية في البيان القرآني والشرائع المبينة لهدايته من السنة المطهرة، ونهي عن المنكر الذي تنكره الهداية، وتنكره معها العقول السليمة والطبائع المستقيمة.

والهداية القرآنية لا تقف بمجتمعها عند وضع المقدمات في مواضعها، ولكنها تعطيه ضمان النتيجة إذا وفّى بتصحيح وضع المقدمات ﴿وَأُولَٰئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾ وهي أيضاً لا تتركه دون حافز من حوافز النهوض ولكنها تصور له حال من كانت بيدهم مقاليد توجيه

(١) سورة آل عمران: الآيات (١٠٣ــ١٠٥).

الحياة قبله ولكنهم ضلوا الطريق، وانحرفوا عن صراط الهداية، وتفرقوا طوائف، واختلفوا مذاهب، ولم يثبتوا مع ما جاءهم من البينات من ربهم، فاستحقوا نقمة الله وعذابه، فغضب الله عليهم، وسلبهم ما كان لهم من خصائص اجتماعية وفكرية صالحة، فأهلك منهم من أهلك، وأبقى القرآن الحكيم الإنسانية التي يراد بها تصوير الإنسان في صورة الأناسيّ.

(٧)
اليهود نموذج للمجتمع المتحلل الذي فقد عوامل التماسك.

وكان ممن أبقى الله منهم كنموذج للمجتمع الذي توافرت له في مطالع بنائه عناصر الإصلاح الفكرية والاجتماعية، ثم انحرف عنها متحلِّلاً من قيود الفضائل والقيم الروحية ومكارم الأخلاق، المجتمع العبراني اليهودي، وقد جعلته الهداية القرآنية مثلاً مضروباً، فتحدثت عنه في البيان القرآني حديثاً ضافي الذيول عجيباً غريباً في أحاديث القرآن الحكيم الإنسانية التي يراد بها تصوير الإنسان في مراحل التدرج الاجتماعي في الحياة.

لقد بين القرآن الكريم في حديثه عن المجتمع العبراني، الذي يسميه القرآن مرة بالمجتمع الإسرائيلي ومرة بالمجتمع اليهودي، ما كان لهذا المجتمع من حياة الاستقامة في عهود بعض أنبيائه، استقامة وصفهم القرآن لأجلها بأنهم كانوا أفضل مجتمع في عصرهم، ثم بين القرآن ما دبّ إليهم من عوامل الانحلال الاجتماعي، والتحليل الخلُقي، والجمود الفكري، حتى أفسدت فيهم كل شيء: أفسدت عقولهم وتفكيرهم، وأفسدت عقائدهم وتعبّداتهم، وأفسدت أخلاقهم وقيمهم الروحية، وأفسدت حياتهم الاجتماعية والشخصية، وقتلت فيهم النخوة والغَيْرة، وأماتت فيهم الإحساس بالخير، والشعور بالكرامة مما أوصلهم إلى حال من الفساد الذاتي لا يمكن معها أن تقوم لهم قائمة يعود بعدها مجتمعهم إلى طبيعة المجتمعات الإنسانية في رجاوة الإصلاح، لأن الله تعالى أيأس الحياة من إصلاح حالهم فقال عز

اسمه: ﴿وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ ٱلذِّلَّةُ وَٱلْمَسْكَنَةُ وَبَآؤُوا بِغَضَبٍ مِنَ ٱللَّهِ. ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ ٱللَّهِ وَيَقْتُلُونَ ٱلنَّبِيِّينَ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ﴾[1]، وقال جل شأنه: ﴿ضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ ٱلذِّلَّةُ أَيْنَ مَا ثُقِفُوا إِلَّا بِحَبْلٍ مِنَ ٱللَّهِ وَحَبْلٍ مِنَ ٱلنَّاسِ وَبَآؤُوا بِغَضَبٍ مِنَ ٱللَّهِ وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ ٱلْمَسْكَنَةُ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ ٱللَّهِ وَيَقْتُلُونَ ٱلْأَنْبِيَآءَ بِغَيْرِ حَقٍّ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ﴾[2].

وقد كرر القرآن الحكيم ذكر قصص هذا المجتمع في سور كثيرة متعددة من سوره، وأورده بأساليب متفاوتة في العرض حسبما يقتضيه مقام الإيراد، وقد يذكر في السورة طرفاً من هذا القصص، ثم يكمل حديثه في سورة أخرى، لأن المقصد الأسنى للهداية القرآنية تسجيل العبرة من القصص، وبيان مناط الاهتداء فيه.

ففي سورة البقرة يجد الناظر في رياض القرآن الحكيم أكثر من مائة آية تتحدث عن هذا المجتمع العبراني، اليهودي، الإسرائيلي، فتصف ما كان له من مقومات الحياة وما أمده الله به من نِعَم كَفَرها ولم يقم بحق شكرها، والكفر ألوان وفنون، كما أن الإيمان درجات وضروب، وقد أبانت الهداية القرآنية ما في كفر المجتمع العبراني الإسرائيلي اليهودي من تهافت وسخف، ومهانة وبلادة، وجحود وفجور، وخوَر وصَغار.

ففي مطلع هذه السورة العظيمة تسجل آياتها أن هذا المجتمع هو الذي زرع النفاق في الأرض: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَنْ يَقُولُ آمَنَّا بِٱللَّهِ وَبِٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ وَمَا هُمْ بِمُؤْمِنِينَ. يُخَادِعُونَ ٱللَّهَ وَٱلَّذِينَ آمَنُوا وَمَا يَخْدَعُونَ إِلَّا أَنْفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ فَزَادَهُمُ ٱللَّهُ مَرَضاً

---

(١) سورة البقرة: الآية (٦١).
(٢) سورة آل عمران: الآية (١١٢).

وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ. . .﴾[1].

فهم أصل النفاق وبؤرته، عنهم أُخذ دراية ورواية، وعلماً وعملاً، ونظراً وتطبيقاً، وهم أئمته، ومنافقو الدنيا عنهم تتلمذوا، ولهم اتبعوا، والنفاق شر ألوان الكفر وفنونه: ﴿إِنَّ ٱلْمُنَافِقِينَ فِي ٱلدَّرْكِ ٱلْأَسْفَلِ مِنَ ٱلنَّارِ وَلَنْ تَجِدَ لَهُمْ نَصِيرًا﴾[2].

ثم تأخذ الآيات الكريمة في تذكيرهم بنعم الله عليهم، وأنه فضّلهم على العالمين بما أعطاهم من ضروب الحفاوة والتكريم: ﴿يَا بَنِي إِسْرَآئِيلَ ٱذْكُرُوا نِعْمَتِيَ ٱلَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَوْفُوا بِعَهْدِي أُوفِ بِعَهْدِكُمْ وَإِيَّايَ فَٱرْهَبُونِ﴾[3].

ولكنهم استبدلوا بهدى الله وفضله وإنعامه الاستجابة إلى غرائزهم الفاسدة، واندفعوا في الفساد والإفساد، لا يرجون لله وقاراً، ولا يذكرون له عهداً.

وهكذا ظلت الآيات تذكرهم بفضل الله عليهم وإسباغ نعمه عليهم لترفع من معنوياتهم، لكنهم لفساد فطرهم يأبون إلا أن يخلدوا إلى الأرض متبعين أهواءهم ومستعبَدين لشهواتهم، متهالكين على الدناءات حتى في مطالب غرائزهم الخبيثة من المطعم، فقد ردوا نعمة الله عليهم بأطيب أنواع الطعام من أيسر وأقرب طرقه، وألصقوا بطونهم إلى الأرض، يطلبون فومها وعدسها وبصلها.

ثم تصف الآيات عنادهم البليد، وطبعهم الصفيق، وجمودهم الغريب في قصة بقرتهم، إلى أن وصفت الآيات افتراءهم على الله وتحريفهم لكتابه التوراة الذي أنزله على كليمه موسى عليه السلام هدى

---

(١) سورة البقرة: الآيات تبدأ من الآية الثامنة.

(٢) سورة النساء: الآية (١٤٥).

(٣) سورة البقرة: الآية (٤٠).

ونوراً إخفاء للحق وحسداً من عند أنفسهم لخاتم النبيين محمد ﷺ خاصة، ولأمته عامة، حتى يجيء وصفهم في جبنهم وخور عزائمهم عن ملاقاة أعدائهم الذين أخرجوهم من ديارهم وأبنائهم: ﴿فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ ٱلْقِتَالُ تَوَلَّوْا إِلَّا قَلِيلًا مِنْهُمْ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ بِٱلظَّالِمِينَ﴾(١).

وفي سورة آل عمران، والمائدة، والأعراف، والإسراء، والقصص وغيرها صور كثيرة لهذا المجتمع الذي أكرم فلم يشكر، وأنعم عليه فكفر، وهُدِي فضلّ وانحرف، وتبلد، واستهتر بالقيم الذاتية لفضائل الحياة حتى انتهى أمره إلى هذا التصوير الذي دمغه به البيان القرآني: ﴿مَثَلُ ٱلَّذِيْنَ حُمِّلُوا ٱلتَّوْرَاةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا كَمَثَلِ ٱلْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَاراً بِئْسَ مَثَلُ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِيْنَ كَذَّبُوا بِآيَاتِ ٱللَّهِ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِي ٱلْقَوْمَ ٱلظَّالِمِيْنَ﴾(٢).

(٨)
المجتمع اليهودي فسدت فطرته فلا يعيش إلا على الفساد والشرور.

ومن بارع تصوير الهداية القرآنية لحال هذا المجتمع الإسرائيلي ما وصفته به من أنه مجتمع لا يعيش إلا على الإفساد والضلال، ليس فيه بقية من خير وليس فيه من يترفع عن الدنايا فينهى المفسدين عن الإفساد، بل إنهم في سبيل إشباع غرائزهم يستعينون على الإفساد في الأرض بموالاة أعداءِ الله وأعداء للحق، وذلك في قول الله تعالى: ﴿لُعِنَ ٱلَّذِيْنَ كَفَرُوا مِنْ بَنِي إِسْرَائِيْلَ عَلَى لِسَانِ دَاوُدَ وَعِيسَى بْنِ مَرْيَمَ ذَلِكَ بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ. كَانُوا لَا يَتَنَاهَوْنَ عَنْ مُنْكَرٍ فَعَلُوهُ لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ. تَرَى كَثِيراً مِنْهُمْ يَتَوَلَّوْنَ ٱلَّذِيْنَ كَفَرُوا لَبِئْسَ مَا قَدَّمَتْ لَهُمْ أَنْفُسُهُمْ أَنْ سَخِطَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ وَفِي ٱلْعَذَابِ هُمْ خَالِدُونَ. وَلَوْ كَانُوا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَٱلنَّبِيِّ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِ مَا ٱتَّخَذُوهُمْ أَوْلِيَآءَ وَلَكِنَّ كَثِيراً مِنْهُمْ فَاسِقُونَ﴾(٣).

* *

(١) سورة البقرة: الآية (٢٤٦).
(٢) سورة الجمعة: الآية (٥). (٣) سورة المائدة: الآيات (٧٨ ـ ٨١).

هذان أُنموذجان للمجتمع البشري الذي قام بناؤه في أصل نشأته على عناصر اجتماعية متماسكة، وأوتي من الحوافز الدافعة ما مكّنه من تبوّء مكان القيادة في قافلة الحياة، ثم دبت إليه عوامل الانحلال والتفكك، وانحرف عن مَهْيَع الفضائل، ومنابع الهداية، فتفتتت عناصره الواشجة، وانحلت عراه الرابطة.

بيد أن أحد الأنموذجين بقيت له أصول حوافزه التي تمده بقوى مقاومة عوامل الهدم والإفناء، وترده ـ إذا أراد وتيقظ ـ إلى أصل وجوده المتماسك في عناصر أفراده وشعوبه حتى يعود قوة قيادية في مراحل الحياة الإنسانية.

ذلك هو المجتمع العربي الذي ترعاه الهداية القرآنية ـ في إطار رعايتها للعالم الإسلامي ـ بما تضفيه عليه من عوامل البعث الجديد، في صورة تربط حاضره بماضيه، ومستقبله بأصل أمجاده وحوافزه في الحياة.

أما الأنموذج الثاني فقد عبث هو بنفسه، وبمقوماته الاجتماعية الحقيقية التي كانت مصدر تماسك عناصره في بنائه الأصيل، وليته اكتفى بهذا، بل اختلق لحياته مقومات أبعدته ـ على مدار الزمن وأطوار التاريخ ـ كل البعد عن أصل تكوينه الذي تحدثت عنه الهداية القرآنية، وبما خلعت عليه حين كان مستمسكاً من فضل ليس لأحد من العالمين في عصره.

بل إنه أضاع ما كان في يده من هداية ونور، ولم يقبل هدى الله الذي جاءه على يد خاتم المرسلين محمد ﷺ بل رد هذا الهدى والنور حسداً وكفراً عنيداً: ﴿ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَاهُمُ ٱلْكِتَابَ يَعْرِفُونَهُۥ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمْ وَإِنَّ فَرِيقًا مِّنْهُمْ لَيَكْتُمُونَ ٱلْحَقَّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾[1]، وبقي هذا المجتمع

---

(١) سورة البقرة: الآية (١٤٦).

في الحياة بغير رصيد من مقومات الحياة الصالحة، فلا هو موجود، ولا هو قد ذهب مع الفناء في الفانين.

ذلك هو المجتمع العبراني الإسرائيلي، اليهودي، الذي يصلى نار التشرد في حياته، لا يموت فيها ولا يحيى، ﴿وَكَذَٰلِكَ حَقَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ عَلَى ٱلَّذِينَ فَسَقُوٓا أَنَّهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾[1].

إنه مجتمع لا يعيش لنفسه، ولا بنفسه، وإنما يحيى هذه الحياة التي تستهدف الأوهام والسراب من أجل مستغليه، وسيستنفذون أغراضهم من وجوده، ويومئذ يحل به وعيد الله، ﴿وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكَ لَيَبْعَثَنَّ عَلَيْهِمْ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَامَةِ مَن يَسُومُهُمْ سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ إِنَّ رَبَّكَ لَسَرِيعُ ٱلْعِقَابِ وَإِنَّهُۥ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾[2].

***

النموذج الأول:

وفي البيان القرآني شواهد عامة على هذا الأصل من أصول الهداية القرآنية، لا تخص مجتمعاً من المجتمعات البشرية، تتحدث عن المجتمع وعن عوامل تفتيته وانهياره، يقول الله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَآ إِلَىٰٓ أُمَمٍ مِّن قَبْلِكَ فَأَخَذْنَٰهُم بِٱلْبَأْسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ لَعَلَّهُمْ يَتَضَرَّعُونَ فَلَوْلَآ إِذْ جَآءَهُم بَأْسُنَا تَضَرَّعُوا وَلَٰكِن قَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ. فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِۦ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَٰبَ كُلِّ شَىْءٍ حَتَّىٰٓ إِذَا فَرِحُوا بِمَآ أُوتُوٓا أَخَذْنَٰهُم بَغْتَةً فَإِذَا هُم مُّبْلِسُونَ. فَقُطِعَ دَابِرُ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا وَٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾[3].

فهذه الآيات تبين سنن الله في الأمم والشعوب والمجتمعات البشرية التي تتنكّر للخير والهدى والإصلاح، وتُعرِض عن الحق،

---

(١) سورة يونس: الآية (٣٣).
(٢) سورة الأعراف: الآية (١٦٧).
(٣) سورة الأنعام: الآيات (٤٢ ـ ٤٥).

(٩)
بيان أخذ الله للذين انحرفوا عن الهداية القرآنية.

وتركب مطايا الإفساد والفساد، وتوغل في الضلال والشرور، فيأخذهم الله بالابتلاء والمحن ليثوبوا إلى رشدهم، ويرجعوا عن غيهم متعبدين لله، متذللين لجلال كبريائه، ولكن هذه الإنذارات لم تُفد معهم شيئاً لأن قلوبهم تحجرت فلم يعد فيها للهداية منفذ، فكان لا بد من استئصالهم وتطهير الحياة من أرجاسهم بقطع دابرهم، غير أن من سنة الله الإملاء للمفسدين معاملةً لهم بمكرهم وأخذهم وهم على متع الحياة مقيمون، ففتح الله عليهم باب هذه المتع، وبدل فقرهم ثراء، وسقمهم صحة، وسوء عيشهم رغداً وترفاً، حتى إذا انغمسوا في هذه المتع، وغرقوا في الشهوات، وفرحوا بها بطراً وأشراً واستكباراً على الله فاجأهم أَخْذُ الله، وهم أشد ما يكونون غروراً بالنعمة فأهلكهم وعفى آثارهم، وذهبوا مع حسراتهم خاسرين.

النموذج الثاني:

ويقول تبارك وتعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ ٱلْقُرَى آمَنُوا وَٱتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِمْ بَرَكَاتٍ مِنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ وَلَكِنْ كَذَّبُوا فَأَخَذْنَاهُمْ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ. أَفَأَمِنَ أَهْلُ ٱلْقُرَى أَنْ يَأْتِيَهُمْ بَأْسُنَا بَيَاتاً وَهُمْ نَائِمُونَ، أَوَأَمِنَ أَهْلُ ٱلْقُرَى أَنْ يَأْتِيَهُمْ بَأْسُنَا ضُحىً وَهُمْ يَلْعَبُونَ، أَفَأَمِنُوا مَكْرَ ٱللَّهِ فَلَا يَأْمَنُ مَكْرَ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْخَاسِرُونَ، أَوَلَمْ يَهْدِ لِلَّذِينَ يَرِثُونَ ٱلْأَرْضَ مِنْ أَهْلِهَا أَنْ لَوْ نَشَآءُ أَصَبْنَاهُمْ بِذُنُوبِهِمْ وَنَطْبَعُ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ﴾ (١).

وهذه الآيات صريحة في أن الإيمان والعمل واتقاء المخاطر الاجتماعية دِعامة من دعائم بناء المجتمع السليم الذي يحيا حياة طيبة سعيدة، وأن تكذيب الرسل والكفر برسالاتهم عامل من عوامل هدم المجتمع، لأنه يعرضه للتفكك والانحلال منطلقاً عن قيود حبس النفس

---

(١) سورة الأعراف: الآيات (٩٦ ـ ١٠٠).

وتهذيبها، وسبب من أسباب انتقام الله وسخطه، وأن هذا الانتقام يأتي بغتة، يفاجىء المفسدين وهم غارُّون غافلون لاعبون.

وفي الآية الثالثة إنذار وتخويف لمن يخلف هؤلاء المفسدين الذين أوقع الله بهم نقمته ليحذروا أن يقعوا فيما وقع فيه أسلافهم، وهذا كقوله تعالى: ﴿وَسَكَنْتُمْ فِي مَسَاكِنِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ وَتَبَيَّنَ لَكُمْ كَيْفَ فَعَلْنَا بِهِمْ وَضَرَبْنَا لَكُمُ ٱلْأَمْثَالَ وَقَدْ مَكَرُوا مَكْرَهُمْ وَعِنْدَ ٱللَّهِ مَكْرُهُمْ وَإِنْ كَانَ مَكْرُهُمْ لِتَزُولَ مِنْهُ ٱلْجِبَالُ﴾[1].

النموذج الثالث:

ومن شواهد هذا الأصل قول الله عز شأنه: ﴿وَلَقَدْ أَخَذْنَا آلَ فِرْعَوْنَ بِٱلسِّنِينَ وَنَقْصٍ مِنَ ٱلثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ﴾[2].

النموذج الرابع:

وقوله جل وعلا: ﴿فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُمُ ٱلْعَذَابَ إِذَا هُمْ يَنْكُثُونَ، وَنَادَى فِرْعَوْنُ فِي قَوْمِهِ قَالَ يَا قَوْمِ أَلَيْسَ لِي مُلْكُ مِصْرَ وَهَذِهِ ٱلْأَنْهَارُ تَجْرِي مِنْ تَحْتِي أَفَلَا تُبْصِرُونَ. أَمْ أَنَا خَيْرٌ مِنْ هَذَا ٱلَّذِي هُوَ مَهِينٌ وَلَا يَكَادُ يُبِينُ، فَلَوْلَا أُلْقِيَ عَلَيْهِ أَسْوِرَةٌ مِنْ ذَهَبٍ أَوْ جَاءَ مَعَهُ ٱلْمَلَائِكَةُ مُقْتَرِنِينَ، فَٱسْتَخَفَّ قَوْمَهُ فَأَطَاعُوهُ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْماً فَاسِقِينَ، فَلَمَّا آسَفُونَا ٱنْتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَاهُمْ أَجْمَعِينَ. فَجَعَلْنَاهُمْ سَلَفاً وَمَثَلاً لِلْآخِرِينَ﴾[4].

وخلاصة الروعة في هذه الآيات تتجمع في قوله تعالى: ﴿فَٱسْتَخَفَّ قَوْمَهُ فَأَطَاعُوهُ﴾ لأنه تصوير لأحط درجات المهانة التي تنحدر إليها الشعوب إذا حلت بها عوامل التفتت والانهيار. وتصوير

---

(١) سورة إبراهيم: الآيتان (٤٥، ٤٦).
(٢) سورة الأعراف: الآية (١٣٠).
(٣) سورة الأعراف: الآية (١٣٠).
(٤) سورة الزخرف: الآيات (٥٠ ـ ٥٦).

لأبشع درجات الظلم والتعالي الأجوف ممن يحس من قادة الشعوب المفسدين بما وصلت إليه شعوبهم من الانحدار والتهالك متهاوية إلى قرار الفناء.

(١٠)
أخذ الله للمفسدين لا يترك غيرهم من الصالحين، ولكنهم يحشرون على نيّاتهم.

ومن سنن الله تعالى التي نبهت إليها الهداية القرآنية أن أخْذ الله للمفسدين الظالمين لا يتنقاهم من سائر من يحيون معهم، ولكنه إذا أخذ بانتقامه عم وشمل، ثم يحشرون إلى ربهم على قدر نياتهم، يقول الله تعالى: ﴿وَٱتَّقُوا فِتْنَةً لَا تُصِيْبَنَّ ٱلَّذِيْنَ ظَلَمُوا مِنْكُمْ خَاصَّةً وَٱعْلَمُوا أَنَّ ٱللَّهَ شَدِيْدُ ٱلْعِقَابِ﴾[1].

ومن ألوان التأديب الاجتماعي الذي جاءت به الهداية القرآنية هذا اللون الذي يقصد إلى تقوية روح المقاومة في عباد الله الصالحين المصلحين، وأنهم أمام سنن الله سواسية مع غيرهم، لا تجري بهم ريح الحياة رخاء سرمداً، ولكنهم يتداولون الشدة مع غيرهم حتى لا تتميع نفوسهم باستمرار الراحة وظفر الأنتصار على كل حال، قال تعالى: ﴿وَلَا تَهِنُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَنْتُمُ ٱلْأَعْلَوْنَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِيْنَ. إِنْ يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ ٱلْقَوْمَ قَرْحٌ مِثْلُهُ وَتِلْكَ ٱلْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ ٱلنَّاسِ وَلِيَعْلَمَ ٱللَّهُ ٱلَّذِيْنَ آمَنُوا وَيَتَّخِذَ مِنْكُمْ شُهَدَآءَ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلظَّالِمِيْنَ. وَلِيُمَحِّصَ ٱللَّهُ ٱلَّذِيْنَ آمَنُوا وَيَمْحَقَ ٱلْكَافِرِيْنَ. أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تَدْخُلُوا ٱلْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمِ ٱللَّهُ ٱلَّذِيْنَ جَاهَدُوا مِنْكُمْ وَيَعْلَمَ ٱلصَّابِرِيْنَ﴾[2]. وقال تعالى: ﴿مَاكَانَ ٱللَّهُ لِيَذَرَ ٱلْمُؤْمِنِيْنَ عَلَى مَا أَنْتُمْ عَلَيْهِ حَتَّى يَمِيزَ ٱلْخَبِيْثَ مِنَ ٱلطَّيِّبِ﴾[3].

والهداية القرآنية لا تترك المجتمع في مضيعة من أمره دون أن تضع بين يديه دعائم الحصانة التي تعصمه من الانزلاق في منحدرات

---

(١) سورة الأنفال: الآية (٢٥).
(٢) سورة آل عمران: الآيات (١٣٩ ـ ١٤٢).
(٣) سورة آل عمران: الآية (١٧٩).

التفتت والانهيار، إذا هو تمسك بها وتعطيه ضماناً اجتماعياً يحميه من مفاجآت أهل الشر والفساد من الضالين الغافلين عن سنن الله في خلقه الذين يأخذهم بذنوبهم بعد أن يقدم إليهم كل أنواع التحذير والإنذار، فإذا أعرضوا واندفعوا في الظلم والفساد لم يبق إلا أن يهلكهم بعدله وحكمته، يقول الله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنتَ فِيهِمْ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ﴾[1]. والذي يجب أن يُفهم من هذه الآية الكريمة أنها تضع للناس قانوناً اجتماعياً عاماً تدعو إلى الاستمساك به ليكون فيه نجاة المجتمع من عذاب الاستئصال والدمار، فقوله تعالى: ﴿وَأَنتَ فِيهِمْ﴾ معناه فيما يبدو أن الله لا يعذب مجتمعاً بعذاب الإفناء والمفاجأة ما دام رسول الله ﷺ بسنته وخُلُقه وآدابه ومعاملته موجوداً بينهم، ومحكماً في حياتهم، فإذا وقعت منهم السيئات وهم ليسوا بمعصومين من وقوعها سارعوا إلى الإنابة والرجوع إلى الله بالاستغفار والتوبة، ويكون هذا الاستغفار غسلاً لحوبتهم وتطهيراً لنفوسهم.

(١١)
الهداية القرآنية تضع بين يدي المجتمع عوامل العصمة من الانحراف.

وتجمع الهداية القرآنية هذا القانون العام إلى جانب نظيره في بيان أثر عوامل الهدم، وبيان أن الظلم أشدها أثراً في الأخذ به انتقاماً للمظلومين إذا شاع في المجتمع، ولم يجد في المجتمع من يأخذ على يدي الظالم فيرده إلى حظيرة العدل، فيقول الله تعالى: ﴿وَمَكَرُوا مَكْرًا وَمَكَرْنَا مَكْرًا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ. فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ مَكْرِهِمْ أَنَّا دَمَّرْنَاهُمْ وَقَوْمَهُمْ أَجْمَعِينَ. فَتِلْكَ بُيُوتُهُمْ خَاوِيَةً بِمَا ظَلَمُوا إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ. وَأَنجَيْنَا ٱلَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ﴾[2].

(١٢)
المجتمع بين عوامل البناء والهدم.

* * *

(١) سورة الأنفال: الآية (٣٤).

(٢) سورة النمل: الآيات (٥٠ ـ ٥٣).

الأصل العاشر

إعجاز القرآن
بين الهداية وروعة البيان

(١)
نظرة تفسيرية مجدِّدة وفهم عميق لإعجاز القرآن وهدايته.

هذا الأصل من أصول الهداية القرآنية هو المحور الذي تدور عليه فكرة هذا الكتاب، وهذه الفكرة تقصد إلى وجوب تبيين معالم إعجاز القرآن في تفسيره تبييناً يجعل منه لكل من يطلبه أو يُطلب إليه نصيباً منه قل أو كثر، على حسب استعداد الناظرين واختلاف درجاتهم في العلم والمعرفة، والثقافة والتفكير، وفراهة العقل واستنارة الضمير، وفقه النفس ولطف الحس، وإشراق الروح وصفاء القلب.

ونحن لا نزعم أننا سنفسر القرآن الكريم لنحقق هذا الذي نقصد إليه، وإنما نطلب إلى المشتغلين بتفسير القرآن ممن لهم أهليته أن تكون نظرتهم إلى إعجاز القرآن نظرة مجددة وفهم عميق.

(٢)
حقيقة النظرة المجدِّدة وتحقيقها حجية القرآن لنفسه ولمن أُنزل عليه.

بيد أن هذه النظرة الغائصة مع أبعاد الجلال القرآني الفاحصة لأسراره يجب ألا تتجاوز المقصد الأسنى من نزول القرآن وهدايته، فلا تندفع مع الحماسة الفوارة التي تضع القرآن في تفسيره بين يدي نظريات العلم المتقلبة الحالمة، ورغائب النفوس الواهمة الخائلة والعقول الساهمة الحالمة.

وإنه ليجب على القيمين بفهم القرآن أن يشبعوا نَهَم المتطلعين إلى هداية القرآن في إعجازه بطرائق علمية، لها يقين العلم، وفيها علم اليقين، ليكون هذا الإعجاز حجة قطعية على وجوب الإيمان به كتاباً منزلاً من عند الله لهداية الخلق، وإرشادهم إلى ما يصلح أمورهم، ويحقق سعادتهم في الدنيا والآخرة.

وهذا الضرب من الإعجاز في الهداية هو لُباب هدايات القرآن وزبدة رسالته، لأنه يحقق:

أولاً: حجية القرآن لنفسه بوجوب اعتقاد صحة وصدق جميع ما جاء به من ضروب الهداية علماً وعملاً، فهو بهذه الحجية شاهد لنفسه، وذلك يتطلب وضوح البرهان حتى لا يختلج فيه أدنى ريب.

ثانياً: حجيته على صدق من أرسل به، النبي العربي محمد بن عبد الله ﷺ، ووجوب متابعته في جميع ما ثبت عنه من قول أو فعل أو تقرير ما لم يكن هناك صارف قطعي عن وجوب المتابعة والاقتداء يصرف النص إلى الخصوصية الشخصية أو البيئية أو إلى مطلق العادة الجبلّية.

(٣)
عموم وخلود الرسالة ظاهران في الإعجاز والهداية، وإنزال القرآن عربياً مقصدُه البيان.

والقرآن أنزل برسالة خالدة، لا تقبل في جملتها وتفصيلها، كلياتها وجزئياتها، رداً، وهي خالدة عامة إلى جميع البشر في كل زمان ومكان، فكل من بلغته دعوة هذه الرسالة عاقلاً عقل تكليف بلاغاً بيناً يفهم المراد ويبلغ القصد، فهو مخاطَب بأصولها خطاب إيجاب، يقول الله تعالى: ﴿قُلْ يَا أَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنِّي رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيْعاً ٱلَّذِي لَهُ مُلْكُ ٱلسَّمٰوَاتِ وَٱلْأَرْضِ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ يُحْيِي وَيُمِيتُ فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ٱلنَّبِيِّ ٱلْأُمِّيِّ ٱلَّذِي يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَكَلِمَاتِهِ وَٱتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾[١]، وقال عز شأنه: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِلْعَالَمِيْنَ نَذِيْراً﴾[٢] وقال تبارك وتعالى: ﴿تَبَارَكَ ٱلَّذِي نَزَّلَ ٱلْفُرْقَانَ عَلَى عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيراً﴾[٣].

ومن ثَم كان لا بد لثبوت حجية القرآن لنفسه وحجيته على صدق من أُنزل عليه وبعث به أن يثبت إعجازه لجميع الأمم والشعوب من كافة الأجناس على اختلاف ألسنتهم في جميع الأزمنة والأمكنة أفراداً

---

(١) الأعراف: الآية (١٥٨).
(٢) الأنبياء: الآية (١٠٧).
(٣) أول سورة الفرقان.

وجماعات، عامة وخاصة، حتى تثبت حجيته على جميع من أرسل إليهم، وهم كافة الناس منذ أنزل إلى أن لا يبقى على وجه الأرض من يعقل الإيمان بالله ورسوله، وحينئذ يجب أن يكون تبيين معالم إعجازه بما يلائم العرب الذين نزل بلسانهم وغير العرب من عامة الناس وخاصتهم، تحقيقاً لعموم رسالته.

وقد نزل القرآن عربياً مبيناً جرياً على سنة الله تعالى في إرسال المرسلين بألسنة قومهم حتى يمكنهم الفهم عنهم والإفهام لهم بالطريق المألوف بين عامة البشر، قال الله تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوْمِهِ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ﴾[1].

وإرسال الرسل بلغات أقوامهم وألسنتهم ضرورة اجتماعية بالنسبة إلى كل رسالة ودعوة إلى الله تعالى، يحتمها التفاهم الذي لا يمكن أن يتم بين الداعي والقوم المدعوين إلا بلسانهم الذي يتخاطبون به، وبهذا احتج القرآن لعربيته التي أنزله الله تعالى بلسانها فقال: ﴿وَلَوْ جَعَلْنَاهُ قُرْآنًا أَعْجَمِيًّا لَّقَالُوا لَوْلَا فُصِّلَتْ آيَاتُهُ ۖ ءَأَعْجَمِيٌّ وَعَرَبِيٌّ﴾[2].

(٤)
نماذج تبين أثر القرابة واللغة في تبليغ الدعوة.

وهذه الضرورة يحتمها العقل والمنطق، ذلك أن الرسول سيواجه أول من يواجه بدعوته أقرب المقربين من أهله وأسرته وقومه وعشيرته أنساً بقربهم وقرابتهم، وحرصاً على إيصال الخير إليهم قبل غيرهم ولهذا قال تعالى لخاتم النبيين في مشرق الدعوة: ﴿وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ﴾[3].

ولهذا قال نبي الله لوط عليه السلام حينما جاءه قومه يهرعون إليه لإيذائه في ضيفه: ﴿لَوْ أَنَّ لِي بِكُمْ قُوَّةً أَوْ آوِي إِلَىٰ رُكْنٍ شَدِيدٍ﴾ فكأنه عليه السلام تمنى أن لو استطاع الدفاع عن ضيفه بقوة المقاومة المادية

---

(١) سورة إبراهيم: الآية (٤).
(٢) سورة فصلت: الآية (٤٤).
(٣) سورة الشعراء: الآية (٢١٤).

الشخصية، أو بمن يأوي إليه عصبية لحمايته والدفاع عن كرامته بالذود عن ضيفه، وهو عليه السلام قد كان في واقع أمره يأوي إلى ركن شديد من كنف الله وحفظه، ومن ثَم قال نبينا محمد ﷺ: «يرحم الله لوطاً لقد كان يأوي إلى ركن شديد».

ولا شك أن استجابة الأقربين أرجى عند صاحب الدعوة ليكونوا عدّته وأعوانه عند مواجهة مَن هم أبعد منهم، والقرابة تطمع الداعي في وقوف أقربائه إلى جانبه حمية لعصبيتهم وأنفاً أن تغمز قناتهم في ضيم شخص منهم، لأن القرابة في مألوف الحياة هي حصن الأفراد الذي إليه يلجأون عند اشتداد الخطوب، وركنهم الذي إليه يأوون إذا ادلهمّت الكروب.

فلو خاطبهم الداعي بغير لحنهم، وكلمهم بلسان سوى لسانهم لم يفهموا عنه ما يقول، وربما كان ذلك سبباً يباعد بينه وبينهم ويغض من حميتهم لدعوته.

والحمية للقرابة عند جميع الأجناس والأمم طبيعة جُبلوا عليها، وهي عند العرب خاصة تحتل أرفع مكان في حياتهم وأخلاقهم، يصورها شاعرهم بقوله:

لَا يَسْأَلُونَ أَخَاهُمْ حِيْنَ يَنْدُبُهُمْ فِي ٱلنَّائِبَاتِ عَلَى مَا قَالَ بُرْهَانَا

والتاريخ مليء بالشواهد على ذلك، وأظهر آثار الحمية العصبية موقفُ أعمام رسول الله ﷺ: أبي طالب، والعباس، وحمزة من حمايته وحماية دعوته في أول بعثته ولم يكن واحد منهم قد آمن برسالته يومئذ فقد حدب عليه أبو طالب حدباً شديداً، ووقف في وجه قريش حمية له، وعرض نفسه لأقسى أنواع الأذى والإضرار، وظاهرَه العباس بحضوره معه ليلة العقبة ليشد ظهره، والعباس يومئذ على دين قومه، وقال للنفر من الأوس والخزرج الذين حضروا البيعة تلك الليلة، وكانوا ثلاثة وسبعين رجلًا وامرأتين، وكانوا يعرفون العباس لمروره عليهم

تاجراً: إن محمداً منا حيث قد علمتم وقد منعناه من قومنا ممن هو على مثل رأينا فيه، فهو في عز من قومه ومنعة في بلده، وإنه قد أبى إلا الانحياز إليكم، فإن كنتم ترون أنكم وافون له بما دعوتموه إليه ومانعوه ممن خالفه فأنتم وما تحملتم، وإن كنتم ترون أنكم مسلِموه وخاذلوه فدعوه فإنه في عز ومنعة من قومه وبلده.

ونصره عمه حمزة حين علم أن أبا جهل أساء إليه نصراً استخذى له أبو جهل على ملأ من قريش في نديّها حول البيت المحرم، وحمزة يومئذ فتى من فتيان قريش على دين قومه وكان في متصيد له، فلما بلغه أذية أبي جهل لرسول الله ﷺ أقبل على جمع قريش متوشحاً قوسه فضرب به رأس أبي جهل فشجه شجة منكرة، فقال أبو جهل: ألم تسمع يا أبا عمارة إلى تسفيهه أحلامنا وشتمه آلهتنا؟ فقال حمزة: هل أحد أسفه منكم؟ تعبدون أحجاراً لا تسمع، أشهد ألّا إلّه إلّا الله وأشهد أن محمداً رسول الله، فرُدَّ عليَّ ذلك إن استطعت، فخسىء أبو جهل ولم يرد بشيء.

ولم يقتصر أمر هذه الحمية العصبية على عمومة رسول الله ﷺ الأدنَيْن من أبناء جده عبد المطلب، ولكن تعداه إلى سائر بني هاشم وبني المطلب، فإنه لما اشتد أمر رسول الله ﷺ على قريش مشى رجال من أشرافهم إلى بني هاشم وبني المطلب يعرضون عليهم ـ سفهاً ـ تسليم النبي ﷺ إلى قريش على أن يأخذوا ديته مضاعفة فأبَوا أن يجيبوهم وكادت تنشب بينهم حرب، فتعاقدت قريش على مقاطعة بني هاشم وبني المطلب وكتبوا ذلك في صحيفة، وانحاز أبو طالب ومعه سائر بني هاشم وبني المطلب مؤمنهم ديناً، وكافرهم حمية، إلا ما كان من أبي لهب فإنه انفرد عن آله ومالأ قريشاً عليهم، وقد احتمل بنو هاشم في هذا الحصار من الشدة والبلاء ما يدل على قوة عصبيتهم حمية لقرابتهم.

* * *

(٥)
المعجـزة تحدٍ والزام بالتصديق بحسب حـال الأمـة، وإنـزال الكتاب تحدٍ عام وحجـة للكتـاب ولصدق من أُنزل إليه.

والقرآن الكريم قـد أبان عن نفسـه في حجيته لنفسـه وفي حجيته للنبوة الخاتِمة فقال رداً على الـذين تعنتوا رسـول الله ﷺ بطلب الآيـات المادية من مثل معجزات الأنبياء السابقين كناقة صالـح، وعصا مـوسى، وطير عيسى، ليفهمهم أنه ليس من شـرط صحة النبـوة في ذاتها إنـزال المعجزات على من ادعاها، ولا من شرطها إذا أنزلهـا الله رحمة بعبـاده أن تتسـاوى في نـوعهـا، وإنمـا المعجـزات شـرط في إلـزام التصـديق بالنبوة، والله تعالى إذا شاء أنزلها، وإذا أنزلها جـاءت على مقتضى سنة الله في الـرسالات إلى الأمم فكـل آية تنـزل على حسب استعداد الأمـة المرسل إليها وحالها وقد كانت الأمم السابقة تحمل عقولاً مادية لا تؤمن إلا بخـرق قـوانين المـادة فـجـاءت معجـزات رسلهـا مـنـاسبـة لحالها واستعدادها.

أمـا محمد النبـي الأمي خـاتم الأنبياء فحسبـه أن الله أنـزل عليـه كتاباً هادياً، هو آية نبوته ومعجـزة رسالتـه، لأن الله بعثه وقـد بلـغ العقل الإنساني رشده وتحرر من أغلال التقليد وأسر الغرائز المادية، وأتيـح له الانـطلاق في آفـاق الكـون، يفكـر ويستنبط، ويـعلم ويستـخـرج ويستكشف.

فمعجزة محمد ﷺ على ما كان من أميته التي لا ريب فيها معجزة علمية وآية صدق نبوته آية فكـرية، فهي أدل على صـدقه، قـال تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ أَنـزَلْنَا إِلَيْـكَ ٱلكِتَابَ فَـٱلَّذِيْنَ آتَيْنَـاهُـمُ ٱلْكِتَابَ يُؤْمِنُـونَ بِهِ وَمِنْ هٰؤُلَاءِ مَنْ يُؤْمِنُ بِهِ وَمَا يَجْحَدُ بِآيَاتِنَا إِلَّا ٱلْكَافِرُونَ. وَمَا كُنْتَ تَتْلُومِنْ قَبْلِهِ مِـنْ كِتَابٍ وَلَا تَخُطُّهُ بِيَمِيْنِكَ إِذاً لَٱرْتَـابَ ٱلْمُبْطِلُونَ. بَلْ هُـوَ آيَاتٌ بَيِّنَـاتٌ فِي صُدُورِ ٱلَّذِيْنَ أُوتُوا ٱلْعِلْمَ وَمَا يَجْحَـدُ بِآيَـاتِنَا إِلَّا ٱلـظَّالِمُونَ. وَقَـالُوا لَـوْلَا أُنزِلَ عَلَيْهِ آيَاتٌ مِنْ رَبِّهِ قُلْ إِنَّمَا ٱلآيَاتُ عِنْدَ ٱللَّهِ وَإِنَّمَا أَنَا نَذِيرٌ مُبِيْنٌ. أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَابَ يُتْلَى عَلَيْهِمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَـرَحْمَةً وَذِكْـرَى لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ. قُلْ كَفَى بِٱللَّهِ بَيْنِيْ وَبَيْنَكُمْ شَهِيْداً يَعْلَمُ مَا فِي ٱلسَّمٰوَاتِ

﴿وَٱلْأَرْضِ وَٱلَّذِينَ آمَنُوا بِٱلْبَاطِلِ وَكَفَرُوا بِٱللَّهِ أُولَٰئِكَ هُمُ ٱلْخَاسِرُونَ﴾(١)، وفي هذا المعنى جاء الحديث الصحيح الذي يرويه البخاري وغيره، وهو قوله ﷺ: «ما من الأنبياء نبي إلا أوتي ما على مثله آمن البشر، وإنما كان الذي أوتيته وحياً أوحاه الله إليَّ، فأرجو أن أكون أكثرهم تابعاً يوم القيامة».

على هذا النمط جاء تحدي القرآن في سورة وآيته ليثبت بإعجازه حجيته لنفسه وحجيته على صدق من أنزل عليه مرسلاً به وداعياً إلى هدية.

وهو تحد عام لم تعين في آية من آياته الجهة التي من قبلها كان التحدي، فيجب أن يبقى على عمومه، ويبين فيه الإعجاز بياناً عاماً لكل فرد وطائفة وأمة وشعب، فالتحدي بالبراعة في الأسلوب والفوق البياني وبلوغ الذروة البلاغية حتى لا يلحق به في درجته وعلو طبقته أسلوبٌ، ولا يساميه في مرتبته كلامٌ ولا ينافسه في براعته وفصاحته بيان.

هذا التحدي لون من ألوان الإعجاز التي اشتمل عليها القرآن وهذا اللون يختص به العرب، لأنهم أهل العربية التي نزل بها القرآن، ويدخل معهم تبعاً لهم مَنْ تعرّب من أذكياء الأمم الأخرى، فعرف من أساليب العرب ـ وطرائقها في كلامها وأداء أغراضها ـ ما عرفه مصاقع خطبائها والمقاويل من حكمائها وشعرائها حتى بلغ البشرية في التعبير عن أغراض الكلام.

أما التحدي بما وراء ذلك من صنوف الهداية التي تضمنها القرآن ونزل بها داعياً إليها فهو أمر يعم الناس جميعاً، فيجب أن يبين فيه الإعجاز بياناً يثبت حجيته على كل من بلغه مدعواً إليه.

---

(١) سورة العنكبوت: الآيات (٤٧ ـ ٥٢).

وجميع آيات التحدي في القرآن شاملة للتحدي بالبراعة البيانية والفوق البلاغي وللتحدي بسائر ضروب الهداية من المعاني والمقاصد التي قصد إليها القرآن في إصلاح البشرية.

النموذج الأول:

وقد تدرج القرآن في تحديه ليقطع ريب كل مرتاب، ونحن نذكر نماذج من شواهد كلّ مرتبة، فالمرتبة الأولى تحديه بنفسه جملة. وذلك في نحو قول الله تعالى: ﴿أَوَ لَمْ يَتَفَكَّرُوا مَا بِصَاحِبِهِمْ مِنْ جِنَّةٍ إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ مُبِينٌ. أَوَ لَمْ يَنْظُرُوا فِي مَلَكُوتِ ٱلسَّمٰوَاتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا خَلَقَ ٱللَّهُ مِنْ شَيْءٍ وَأَنْ عَسَى أَنْ يَكُونَ قَدِ ٱقْتَرَبَ أَجَلُهُمْ فَبِأَيِّ حَدِيْثٍ بَعْدَهُ يُؤْمِنُونَ﴾(١).

(٦)
بيان المرتبة الأولى (التحدي بالقرآن جملة).

فالله تعالى بعد أن ذكر أمر النبي ﷺ ـ ونزّهه عما يرمونه به مما لا يناسب حاله التي يعرفونها منذ كان بينهم وليداً وشاباً ورجلاً وكهلاً، ورسولاً داعياً إلى الله ودعاهم أن يقلبوا عين بصائرهم ويرددوا فكرهم في حاله حتى يصلوا بالبرهان إلى معرفة حقيقة أمره، وحقيقة ما دعاهم إليه من الهدى ودين الحق، ومعالي الأمور ومكارم الأخلاق مع ما هو عليه ومتصف به من محاسن الشِّيَم وسمو الفضائل مما لا يمكن أن يقع مثله من إنسان غير كامل العقل، وبعد أن عاد الله بهم إلى ذكر دلائل قدرته وتوحيده ـ بالنظر في ملكوت السموات والأرض، والنظر فيما خلق الله من شيء من الأشياء في غير السموات والأرض، بينهما أو فوقهما أو تحتهما مما يليق بجلال ملك الله وعظمته، ثم حثهم على المبادرة بهذا النظر خوف مفاجأة أجلهم فيفوتهم ما لا يمكن تداركه ـ بين أنه ليس هناك حديث له من خصائص البراعة البيانية وشمول الهداية الإلّهية التي يصلح على مثلها أمر البشر في معاشهم ومعادهم بعد القرآن الكريم الذي جاءكم به هذا النبي الأمين، فإذا لم تؤمنوا

---

(١) سورة الأعراف: الآيتان (١٨٤ ـ ١٨٥).

بهذا الحديث فلن يكون هناك حديث مثله تؤمنون به، فقول الله تعالى: ﴿فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَهُ يُؤْمِنُونَ﴾ إنكار يتضمن التحدي بطلب الإتيان بحديث مثله في خصائصه البيانية وهداياته الإلهية، ومن هنا كانت الضرورة قاضية بتبيان تلك الخصائص التي هي مناط التحدي بالقرآن الكريم في سوره وآياته.

النموذج الثاني:

وقول الله تعالى: ﴿اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ ٱلْحَدِيْثِ كِتَاباً مُتَشَابِهاً مَثَانِيَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ ٱلَّذِيْنَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِيْنُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَى ذِكْرِ ٱللَّهِ ذَلِكَ هُدَى ٱللَّهِ يَهْدِيْ بِهِ مَنْ يَشَآءُ وَمَنْ يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ﴾[1]،.

(٧)
كلام للإمام الرازي في بيان عموم التحدي في الآية.

وفي هذه الآية يقول الإمام الرازي في تفسيره: (كون القرآن أحسن الحديث إما أن يكون أحسن الحديث بحسب لفظه أو بحسب معناه، وكونه أحسن الحديث بحسب لفظه لأجل ما فيه من الفصاحة والجزالة، وسمو النظم في الأسلوب. وكونه أحسن الحديث لأجل معناه فلأنه كتاب منزّه عن التناقض كما قال تعالى في وصفه: ﴿وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ ٱخْتِلَافاً كَثِيْراً﴾ ومثل هذا الكتاب إذا خلا من التناقض كان ذلك من المعجزات، ولأنه مشتمل على الغيوب الكثيرة في الماضي والمستقبل، ولأنه مشتمل على علوم كثيرة جداً، ثم أخذ الإمام الرازي يفصل تلك العلوم واشتمال القرآن عليها في إسهاب عجيب بأسلوبه الفلسفي الذي يستغلق فهمه والإحاطة به على الكثير من الناس.

ومقصودنا من إيراد كلامه بيان أن أئمة المفسرين فهموا أن الآية من مواطن التحدي بالإعجاز في اللفظ والأسلوب والمعنى والهداية،

---

(١) سورة الزمر: الآية (٢٣).

وبيان منهج المفسرين في بيان إعجاز القرآن مما هو ملائم لعصورهم وبيئاتهم وعلومهم ومعارفهم، وبيان أن تفسير القرآن لا يزال في حاجة ماسة إلى أسلوب سهل رغيب يبين هدايته في الإعجاز البياني وغيره من ضروب الهداية والآداب والتشريعات والعلوم والمعارف.

النموذج الثالث:

ويجري مجرى هذه الآية قوله عز شأنه: ﴿أَمْ يَقُولُونَ تَقَوَّلَهُ بَل لَا يُؤْمِنُونَ فَلْيَأْتُوا بِحَدِيثٍ مِثْلِهِ إِنْ كَانُوا صَادِقِينَ﴾[1].

(٨) وضوح التحدي بالقرآن حجة بيّنة للنبي ﷺ.

والتحدي في هذه الآية واضح فقد طلب من المخاطبين أن يأتوا بحديث مثل القرآن إن كانوا صادقين في زعمهم أن محمداً ﷺ تقوّل القرآن على الله، وتكلّف الإتيان به من نفسه، ونسبه إلى الله، ومحمد بين أظهرهم بشر مثلهم، أميٌّ من أنفسهم، لا يقرأ ولا يكتب، ولا جلس إلى معلم، ولا ثافن العلماء، ولا ثاقف الحكماء والفلاسفة، فلا يعجزكم إن كنتم صادقين في زعمكم أن تأتوا بحديث مثل القرآن الذي جاءكم به ودعا إليه ودعاكم إليه ولكنكم لا تؤمنون بما تزعمون، وإنما تباهتون أنفسكم وتخدعون عقولكم.

والتحدي في الآية عام يشمل التحدي بالبراعة البيانية والفوق في الأسلوب البلاغي ويشمل التحدي بما تضمنه القرآن من ضروب الهداية الإلّهية في شتى مقاصد الحياة.

النموذج الرابع ومدخل موقع الآية في الإعجاز

ومثلها قوله جل جلاله: ﴿فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَهُ يُؤْمِنُونَ﴾[2].

هذه الآية تُسقى من مَعين آية الأعراف، فهي أختها في اللفظ والأسلوب ومثيلتها في المعنى الأولي، وإن اختلفنا في موقع كلٍّ منهما

---

(١) سورة الطور: الآية (٣٤).

(٢) سورة المرسلات: الآية (٥٠).

في سورتهما ومناسبتها لسياقها وسباقها، وهذا الاختلاف في موقع الآية له مدخل في الإعجاز، ويحتاج إلى بيان خصائص كل آية اتفقت ألفاظها وصياغتها مع آية أخرى، ولكنها جاءت في موضعها من سورتها مجيئاً غير مجيء أختها في سياقها، لأن القرآن لا يمكن أن يقع فيه التكرار المحض الذي لا يفيد فيه الثاني غير ما أفاده الأول، وهذا ما يحتاج إلى دقة النظر في استخراج المعاني من الكلام وفحواه.

النموذج الخامس:

(٩) معنى جديد للتحدي جملة.

ومن التحدي بجملة القرآن قوله تعالى: ﴿قُل لَّئِنِ ٱجْتَمَعَتِ ٱلْإِنسُ وَٱلْجِنُّ عَلَىٰٓ أَن يَأْتُوا۟ بِمِثْلِ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِۦ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا﴾[1]. هذه الآية من أقوى آيات التحدي العام بجملة القرآن وأصرحها في الإعجاز، وهي في حاجة إلى بيان وجه إدخال الجن في التحدي مع الإنس، أكان ذلك لأن الجن مدعوون لرسالة القرآن ومكلفون بها فدخلوا في التحدي لإقامة الحجة عليهم كما تقام على الإنس بعجزهم عن الإتيان بمثل القرآن؟ أم جاء ذكر الجن فيها على سبيل المبالغة في التحدي، فيكون من قبيل ما ورد في الآيات الأخرى من نحو قوله تعالى: ﴿وَٱدْعُوا۟ مَنِ ٱسْتَطَعْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ﴾ وقوله: ﴿وَٱدْعُوا۟ شُهَدَآءَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ﴾ ويكون المراد من الجن عقلاء عالم الغيب، ومن الإنس عقلاء عالم الشهادة، وكذلك هي عامة في مناط التحدي، فتحتاج إلى بيان الجهة التي قصدت إليها في تحدي الإنس والجن، هل هي براعةُ البيان وفوقُ الأسلوب وعلوّ الطبقة البلاغية، واتساقُ النظم ودقةُ الأداء فحسب، أو هي ذلك كله مع ضروب الهداية، وثروة المعاني المبدعة وغزارة العلوم والمعارف؟ وما نصيب الجن من ذلك؟ وكيف يخاطبون، وبِمَ يكون التفاهم معهم؟.

---

(١) سورة الإسراء: الآية (٨٨).

كل ذلك وغيره مما يجب أن يشتمل عليه تفسير القرآن حتى يكون بيان هدايته في الإعجاز حجة له ولمن أرسل به ودعا للإيمان به.

* * *

(١٠)
وقوع التحدي بعشر سور مثله، وكلام في معنى المثلية.

والمرتبة الثانية من مراتب التحدي هي تحدية بعشر سور مثله، وأطلق لهم العنان في اختراع المعاني إمعاناً في امتهانهم وإظهار عوار عجزهم، فلم يطالبهم بأن تكون السور العشر التي يجيئون بها على حده في استواء المعاني، بل عشر مفتريات لا يُرجع فيهن إلى أصل سديد، وحينئذ يبقى الكلام في المقصود من المثلية، هل هي مثلية علو الطبقة البلاغية فقط، أو هي مع المعاني التي يحاولونها إن استطاعوا؟ هذا ما يحتاج إلى بيان ليقع التحدي في الآية موقعه من هداية الإعجاز.

النموذج السادس:

يقول الله تعالى: ﴿أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَاهُ قُلْ فَأْتُوا بِعَشْرِ سُوَرٍ مِثْلِهِ مُفْتَرَيَاتٍ وَٱدْعُوا مَنِ ٱسْتَطَعْتُمْ مِنْ دُونِ ٱللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾[(١)].

(١١)
بيان التناسب بين مراتب التحدي وزمن النزول.

وهنا لطيفة من لطائف تاريخ آيات القرآن التي وردت في معنى واحد. ذلك أن التحدي ورد على مراتب، **فالمرتبة الأولى** هي التحدي بجملة القرآن، ويجب أن تكون آيات هذه المرتبة أسبق نزولاً من آيات سائر المراتب التي وقع بها التحدي. **والمرتبة الثانية** هي آيات التحدي بمرتبة التحديد في عدد السور المتحدَّى بها، وهي هنا عشر سور. ويجيء بعد ذلك مرتبة **ثالثة** وهي مرتبة التحدي بأقل من عشر سور وقد نزل بها القرآن إلى التحدي بسورة واحدة، وذلك ورد في سورة البقرة وسورة يونس، ومعلوم أن سورة البقرة مدنية النزول، وسورتي هود ويونس مكيتان، فهما أسبق نزولاً من سورة البقرة، وسورة هود جاء التحدي

---

(١) سورة هود: الآية (١٣).

فيها بعشر سور فتكون أسبق نزولاً من سورة يونس التي جاء فيها التحدي بسورة من مثله.

وتأريخ آيات القرآن علم عظيم جداً في بيان هداية القرآن ولكنه قليل الوجود، وقليلة العناية به.

(١٢)
كلام الإمام الرازي في بيان التناسب السابق.

وقد أشار إلى هذه اللطيفة الإمام الرازي فقال: (واعلم أن التحدي بعشر سور لا بد أن يكون سابقاً على التحدي بسورة واحدة، وهو مثل أن يقول الرجل لغيره: اكتب عشرة أسطر مثل ما أكتب، فإذا ظهر عجزه عنه قال: قد اقتصرت منها على سطر واحد مثله.

ثم قال الإمام: إذ عرفت هذا فنقول: التحدي بالسورة الواحدة ورد في سورة البقرة وفي سورة يونس، والتحدي بعشر سور ورد في سورة هود، وتقدّمُ سورة هود على البقرة ظاهر لأن سورة هود مكية وسورة البقرة مدنية، والمكي متقدم على المدني في النزول، وكذلك سورة يونس بالنسبة لسورة هود متأخرة النزول عنها لأن مرتبة التحدي التي جاء في هود تقتضي تقدمها عليها، اهـ. ملخصاً.

النموذج السابع:

وقال تعالى: ﴿وَمَا كَانَ هَذَا ٱلْقُرْآنُ أَنْ يُفْتَرَى مِنْ دُونِ ٱللَّهِ وَلَكِنْ تَصْدِيْقَ ٱلَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ ٱلْكِتَابِ لَا رَيْبَ فِيهِ مِنْ رَبِّ ٱلْعَالَمِيْنَ. أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَاهُ قُلْ فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِثْلِهِ وَٱدْعُوا مَنِ ٱسْتَطَعْتُمْ مِنْ دُوْنِ ٱللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾[١].

(١٣)
التحدي بسورة وبيان بعض وجوه هداية الإعجاز في السورة الواحدة.

هاتان الآيتان سُبقتا بآيات من هذه السورة تنتظم جميعاً في سلك التحدي والإعجاز وأول ذلك قوله تعالى: ﴿وَإِذَا تُتْلَى عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ قَالَ ٱلَّذِيْنَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا ٱئْتِ بِقُرْآنٍ غَيْرِ هَذَا أَوْ بَدِّلْهُ قُلْ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أُبَدِّلَهُ مِنْ تِلْقَاءِ نَفْسِي إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَى إِلَيَّ إِنِّي أَخَافُ إِنْ

(١) سورة يونس: الآيتان (٣٧، ٣٨).

عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ . قُلْ لَوْ شَاءَ ٱللَّهُ مَا تَلَوْتُهُ عَلَيْكُمْ وَلَا أَدْرَاكُمْ بِهِ فَقَدْ لَبِثْتُ فِيكُمْ عُمُراً مِنْ قَبْلِهِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ؟﴾[1] .

ثم حكى عن المعاندين تعنتهم باقتراح نزول آية لعدم اقتناعهم بأن القرآن هو الآية العظمى فقال: ﴿وَيَقُولُونَ لَوْلَا أُنْزِلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِنْ رَبِّهِ فَقُلْ إِنَّمَا ٱلْغَيْبُ لِلَّهِ فَٱنْتَظِرُوا إِنِّي مَعَكُمْ مِنَ ٱلْمُنْتَظِرِينَ﴾[2] .

وانتظام هذه الآيات في سلك التحدي يتطلب بيانها في تحقيق هداية الإعجاز في القرآن بياناً يجمع شملها ويبين حكمة ما جاء في البين منها حتى انتهت إلى نهايتها في التحدي بآيته التي أشارت إلى بعض وجوه الدلالة على صدق من أنزل عليه وأرسل به، وذلك في قوله: ﴿وَمَا كَانَ هَـٰذَا ٱلْقُرْآنُ أَنْ يُفْتَرَىٰ مِنْ دُونِ ٱللَّهِ وَلَكِنْ تَصْدِيقَ ٱلَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ ٱلْكِتَابِ﴾، ووجه الدلالة في قوله: ﴿تَصْدِيقَ ٱلَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ﴾ أي: ما تقدّمه من الكتب الإلّهية، وفي قوله: ﴿وَتَفْصِيلَ ٱلْكِتَابِ﴾ والنظر في هذا التفصيل، من أي الوجوه يكون؟

النموذج الثامن:

وقال تعالى: ﴿وَإِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِنْ مِثْلِهِ وَٱدْعُوا شُهَدَاءَكُمْ مِنْ دُونِ ٱللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ. فَإِنْ لَمْ تَفْعَلُوا وَلَنْ تَفْعَلُوا فَٱتَّقُوا ٱلنَّارَ ٱلَّتِي وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلْحِجَارَةُ أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ﴾[3] .

هاتان الآيتان أقوى ما جاء في التحدي، وأصرح ما ورد في آيات الإعجاز، لما فيهما من القطع بعجز المتحدين مع التقريع والتهديد بالوعيد المرعب البالغ لا يبقى معه شيء من ساكن العداوة إلا تحرك،

---

(١) سورة يونس: الآيتان (١٥، ١٦).

(٢) سورة يونس: الآية (٢١).

(٣) سورة البقرة: الآيتان (٢٤، ٢٥).

ولا عامل من عوامل المعارضة ـ لو كانت ممكنة ـ إلا هاج وأرعد، ولا بقية من نخوة الانتصار للنفس والمعتقد إلا ثارت وغبَّرت.

وفي الآيتين وراء ذلك من فنون التحدي وهداية الإعجاز أمور كثيرة، تحتاج إلى بيان يقيم حجة النبوة نيرة مشرقة، وقد أطال العلماء فيهما نفس القول، ولكنها جولات في أودية الفصاحة وبراعة البيان إلى إشارات خفيفة تطير هنا وهناك بين فصول القول في الإعجاز العلمي وغيره من فنون هداية الإعجاز في القرآن.



الإعجـــاز بالهـدايـة

(١٤)
هـداية الإعجـاز تحـدٍ ودواء في آن، وهي غـايـة القرآن.

وهناك مرتبة من مراتب التحدي وهداية والإعجاز جاءت نصاً في مناط التحدي، وبياناً للجهة التي منها أعجز القرآن ويعجز جميع الذين تحداهم ويتحداهم من أبناء البشر قاطبة في كل زمان ومكان من كل جنس وأمة، وعلى أية درجة من العلم والمعرفة.

هـذه الجهة هي التي سما بها القرآن وتعالى إلى ذروة الفضل والإحسان، وبها سبق فلا يُلحق، وانفرد محلّقاً في آفاقها فلا يُدرك، وهي الجهة التي تحقق رسالته وخلودها لأنها خالدة بخلوده، عامة بعموم رسالته ولا سيما في عالمنا المعاصر الذي فُتن بالعلوم التجريبية والمعارف المادية، وفتن بجولات العقل في ظواهر الطبيعة وبعض حقائق الكون في هذا الكوكب الأرضي الصغير المحدود.

وقد أعمته ظواهر الحياة المادية عن النظر في القيم الروحية وهداية السماء، فضلّ الطريق حتى كاد يهوي إلى منحدر لا يعرف له نهاية، وفي القرآن الحكيم دواؤه لو وجد المهرة من الأطباء، تلك الجهة هي الهداية، وهي أساس دعوة القرآن، وأصل أصوله، عنها تفرعت جميع آدابه وشرائعه، وبها قامت أركان علومه ومعارفه، وعلى دعائمها نهضت حِكَمه وأحكامه، فبها نزل، وإليها قصد، وهي الحق الذي أنزله الله به: ﴿وَبِٱلْحَقِّ أَنْزَلْنَاهُ وَبِـٱلْحَقِّ نَزَلَ وَمَـا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا مُبَشِّـراً وَنَذِيـراً. وَقُرْآناً فَرَقْنَاهُ لِتَقْرَأَهُ عَلَى ٱلنَّاسِ عَلَى مُكْثٍ وَنَـزَّلْنَاهُ تَنْـزِيلاً﴾[1]، وهـداية

(١) سورة الإسراء: الآيتان (١٠٥، ١٠٦).

القرآن دروس في التربية للأفراد، والجماعات والأمم والشعوب، ودروس التربية إنما تكون على حسب الاستعداد والتقبل فلا تكون جملة ولا بد فيها من التفصيل والتدرج.

والهداية بلفظها وحروفها وصياغتها وروح معناها توفيق ورحمة، ويقين وإيمان، وطمأنينة وسكينة، وعلم وعمل، وتحصيل أقصى ما يمكن من البرّ والخير، وتحقيق لحكمة الله وسنته في الإفادة من حقائق هذا الكون العظيم، ووشيجة تعبّد بين الخالق والمخلوق، ووسيلة لبلوغ أقصى ما يمكن أن يصل إليه الإنسان في تحقيق خلافته عن الله تعالى في الأرض.

والتحدي بهداية القرآن ـ لو أتيح بيانها في تفسيره على أوسع مدى معقول، ولا تعدل بالقرآن عن غايته وهدفه ـ قائم ينادي هذه البشرية المغرورة بما وصلت إليه من ذَرْوة العلم والمعرفة فيخرجها من الظلمات إلى النور، ويفتح أمامها أبواباً من البحث في حقائق الكون وأسراره، لم تهتد إلى فتحها وهي سائرة على غير هدى وبصيرة: ﴿كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ لِتُخْرِجَ ٱلنَّاسَ مِنَ ٱلظُّلُمَاتِ إِلَى ٱلنُّورِ بِإِذْنِ رَبِّهِمْ إِلَى صِرَاطِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَمِيدِ﴾[1]، ﴿وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحاً مِنْ أَمْرِنَا مَا كُنْتَ تَدْرِي مَا ٱلْكِتَابُ وَلَا ٱلْإِيمَانُ وَلَٰكِنْ جَعَلْنَاهُ نُوراً نَهْدِي بِهِ مَنْ نَشَاءُ مِنْ عِبَادِنَا وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ صِرَاطِ ٱللَّهِ ٱلَّذِي لَهُ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَاتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ أَلَا إِلَى ٱللَّهِ تَصِيرُ ٱلْأُمُورُ﴾[2]، ﴿قَدْ جَاءَكُمْ مِنَ ٱللَّهِ نُورٌ وَكِتَابٌ مُبِينٌ. يَهْدِي بِهِ ٱللَّهُ مَنِ ٱتَّبَعَ رِضْوَانَهُ سُبُلَ ٱلسَّلَامِ وَيُخْرِجُهُمْ مِنَ ٱلظُّلُمَاتِ إِلَى ٱلنُّورِ﴾[3].

---

(١) سورة إبراهيم: الآية (١).
(٢) سورة الشورى من الآيتين (٥٢، ٥٣).
(٣) سورة المائدة: الآيتان (١٥، ١٦).

والتحدي بالهداية نقتصر منه على ذكر آيتين كنموذج يرمز إلى غيره واختيارنا لهاتين الآيتين لأنهما أصرح في إبراز التحدي بالهداية.

النموذج الأول:

يقول الله تعالى: ﴿فَلَمَّا جَآءَهُمُ ٱلْحَقُّ مِنْ عِندِنَا قَالُوا لَوْلَآ أُوتِيَ مِثْلَ مَآ أُوتِيَ مُوسَىٰٓ أَوَلَمْ يَكْفُرُوا بِمَآ أُوتِيَ مُوسَىٰ مِن قَبْلُ قَالُوا سِحْرَانِ تَظَٰهَرَا وَقَالُوٓا إِنَّا بِكُلٍّ كَٰفِرُونَ. قُلْ فَأْتُوا بِكِتَٰبٍ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ هُوَ أَهْدَىٰ مِنْهُمَآ أَتَّبِعْهُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾[1].

(١٥) إلزام الكفار الحجة وبيان تعنتهم.

والذي نريد أن نلفت إليه النظر هنا هو أن الآية الأولى من هاتين الآيتين وردت على المعهود من موقف المعاندين للرسالة الإلٓهية من التعنت بعدم النظر فيما بين أيديهم من الآيات العقلية المعجزة الدالة على صدق من أرسل إليهم واقتراح آيات مادية سمعوا أنها أنزلت على الرسل قبل محمد ﷺ، فهنا لما جاءهم محمد بالحق من عند الله قالوا متعنتين: هلّا أنزل عليه من الآيات مثل ما أنزل على موسى من قلب العصا حية وفلق البحر وتفجير الماء من الصخرة، فرد الله عليهم بأنهم لم يكونوا صادقي العزيمة في هذا الطلب ولم يطلبوه بإخلاص وجدّ، وإنما هو محض تعنت وعناد، لأنهم لم يؤمنوا بالذي أنزل على موسى وكفروا به، ولما رأوه متوافقاً مع القرآن في أصول الهداية أشاحوا بأعطافهم وأنغضوا رؤوسهم وقالوا: توراة موسى وكتاب محمد سحران تعاونا على الموافقة، ثم سجلوا على أنفسهم الكفر بهما فقالوا: إنا بكل منهما كافرون.

(١٦) ذكر هداية التوراة اقتضاه التجرد وسياق الآيات.

وهنا تجيء الآية الثانية على سنة القرآن ومعهود أسلوبه البديع رداً لتعنتهم وكسراً لشوكة عنادهم صارخة في وجوههم متحدية، والتحدي هنا بالهداية ولكنها هداية لا ينفرد بها القرآن الكريم بل يدخل فيها معه توراة موسى عليه السلام، وهذا من أدل الدلائل على أن القرآن

---

(١) سورة القصص: الآيتان (٤٨، ٤٩).

الكريم كتاب الله الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد.

ذلك لأن اليهود أعدى أعداء رسول الله ﷺ وأصحابه وأمته، وذكر التوراة بالهداية يرفع رؤوسهم، فلو كان محمد ﷺ يتكلم بالقرآن من عند نفسه ويحكّم الهوى والتشهّي ـ حاشاه ﷺ ـ لكان الموقف أدعى إلى عدم ذكر التوراة بهذه المدحة المنفية مقرونة في الذكر مع القرآن ـ لكن الأمر أمر رسالة إلٰهية ونبوة خاتمة، وكتاب حكيم نزل بالحق والعدل والإيمان بسائر الرسل وتعظيمهم وعدم التفرقة بين أحد منهم، وسياق الآيتين اقتضى ذكر موسى عليه السلام وتوراته المنزلة عليه من عند الله بالهدى والنور لأن السورة في قصته مع فرعون وهامان وقارون وإيتائه التوراة وإخبار النبي ﷺ بذلك والامتنان عليه بأنه لم يكن من شاهدي هذه القصة، ولكن إخباره بها رحمة من الله لتكون دليل صدقه إذا أنذر قومه وأخبرهم بها، فكان من المحتم ذكر التوراة في قرن الهداية مع القرآن فلذلك جاء التحدي بهداية الكتابين السماويين ودخلت التوراة مع القرآن.

(١٧)
امتياز هداية القرآن عن هداية سائر الكتب المنزلة.

وهداية التوراة خاصة بأمته وزمنه، فيجب ألا تتساوى مع هداية القرآن زمناً ومكاناً وأمة، ويجب أن يكون لهداية القرآن ميزة ترفعها إلى مرتبة تنفرد بها ولا تشاركها في ذروته هداية من الهدايات لتتناسب مع خلود كتابها وصلاحيته لتحقيق مطالب الحياة في سائر أطوارها الفكرية والاجتماعية فإذا أدخلت التوراة مع القرآن في التحدي بالهداية في سياق قصة موسى عليه السلام، فليس ذلك إلا تحقيقاً لهداية سائر الكتب الإلٰهية التي يؤمن بها المؤمنون بالقرآن متى وصلت إليهم صحيحة لم يثبت عندهم نسخها في القرآن أو في سنة النبي ﷺ.

والقرآن الكريم نفسه ينص على امتيازه في نوع الهداية بعد أن جرى على سنة النصفة والمعدلة بتقرير هداية غيره من الكتب الإلٰهية.

النموذج الأول:

يقول الله تعالى: ﴿وَأَنْزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَابَ بِٱلْحَقِّ مُصَدِّقاً لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلْكِتَابِ وَمُهَيْمِناً عَلَيْهِ﴾[1]، فوصف القرآن بالهيمنة على الكتب التي كانت قبله مع تصديقه لها هو درجة امتيازه على سائرها ضرورة بقائه ببقاء رسالته، وانتهاء التكليف بتلك الكتب بانتهاء رسالاتها، وبقاء القرآن ببقاء رسالته يقتضي أن تكون هدايته أكمل في تحقيق مصالح العباد.

النموذج الثاني:

ويقول الله تعالى: ﴿إِنَّ هَـٰذَا ٱلْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ وَيُبَشِّرُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلَّذِيْنَ يَعْمَلُونَ ٱلصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْراً كَبِيراً﴾[2].

وأقوم: أفعل تفضيل يقتضي اشتراك غير القرآن معه في أصل الهداية، ويقتضي أن طريقة القرآن في الهداية أسد وأرجح، وهذا يدل بالفحوى على أن التحدي بطريقة القرآن في الهداية، لإخباره أنها أفضل الطرق وأعدلها، فمن لم يؤمن بهذا الإخبار فليعارضه وليأت بطريقة مثلها في بيان الهداية وأسلوب أداء المعنى.

ومن تمرس بالنظر في طريقة هداية القرآن وأسلوبه في عرض الحقائق وتمرس بالنظر في طريقة هداية الكتب الإلّهية الأخرى يدرك بالبرهان أرجحية طريقة القرآن على غيرها من طرائق الهداية.

وحسبنا أن ننظر في طريقة الهداية إلى العقيدة، وهي أصل الأصول التي يشترك في عرضها على وجه البلاغ والغاية القصوى جميع الكتب الإلّهية الهادية إلى توحيد الله وباهر قدرته وعظيم حكمته، فلا نجد أبداً مثل القرآن في عرض العقيدة بأسلوب سهل

---

(١) سورة المائدة: الآية (٤٧).

(٢) سورة الإسراء: الآية (٩).

واضـح ، يمس الوجدان ويثير العواطف ويحـرك القلوب، ويوقظ العقل ويوجهه إلى التفكير في جلال ملك الله وعـظيم ملكوتـه ومحكَم تدبيره وبـديـع صنعــه، بمنــطق الفــطرة بعيــداً عن تعقيــدات التـفلسف واصطلاحات العلوم.

وهكـذا يجري على هـذا السنن في عرضـه لقضية النبـوة وحاجة البشـر إليها، وقضيـة البعث وضرورة وقـوعها، ووصفـه اليوم الآخـر وما يقـع فيه من جزاء، وعرضه لأصول العبادات وقواعد المعاملات وسياسة البشـر، وتحقيق العدالـة بينهم بميزانهـا الـذي لا يستثني، وتـرغيبـه في مكارم الأخلاق وسائر الأغراض التي تقصد إليها الرسالات الإلّهية.



إعجاز القرآن
بفنون الهداية أبقى وأشمل

(١)
الغرض مما سبق بيانه من أصول.

تلك عشرة أصول من أصول الهداية القرآنية قبسناها من النظر في آياته، وفيه كثير غيرها مكنوز في سوره، ولم نقصد إلى الاستقصاء والاستيعاب، لأن ذلك لا يقع في مقدور فرد من الأفراد، وإنما أردنا التنبيه إلى ذكر نماذج من أصول الهداية في القرآن العظيم لنعرف حظها من الرعاية والعناية في مناهج التفسير والمفسرين الذين وصلت كتبهم، معظمها إلى دارس القرآن القرآن العظيم وطالب هدايته، ولتكون موضعاً للاهتمام من القوامين على دارسة القرآن وبيان هدايته في هذا العصر الفوار بنظريات العلوم التجريبية، والمزدحم بالمذاهب الاجتماعية والآراء الفلسفية، التي صرفت الناس ـ في الشرق على جهل وتقليد، وفي الغرب بإلحاد وجحود ـ عن النظر في الهداية الإلّهية، ومعرفة حقائقها والتمسك بها والدعوة إليها.

(٢)
حقيقة الهداية القرآنية وثوابتها، ومبلغ علوم الدنيا.

ونحن نرى أن هذا العصر وما ظهر فيه ذرور المعارف والعلوم هو إرهاص لما سيأتي بعده من انقلابات فكرية ونظريات علمية قد تحيل بعض ما وسم بالحقائق إلى أباطيل وخرافات وأساطير، وقد تأتي بأشياء من حقائق العلم الكوني تغير أوضاع العالم وتبدل أفكار العلماء، وتحير عقول العقلاء.

وهداية القرآن عامة باقية، تتجدد في أسلوبها بتجدد حياة المجتمع الإنساني، ضرورة أن هذا القرآن العظيم هو كتاب الله الذي أحاط بكل شيء علماً، لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه.

أودع الله فيه من الهداية والمعارف والحقائق الكونية ما يكفل صلاح البشرية، ويحقق لها سعادتها ما دامت قائمة بخلافة الله في الأرض، تقيم موازين الحق والعدل، وتستكشف أسرار الطبيعة بوسائلها العلمية المتجددة.

وكل جيل من البشر يقبس من هذه الإلّهية ما يناسبه في عصره ومجتمعه وبيئته الخاصة والعامة، ودرجته من العلوم والمعارف، وانطلاق تفكيره في دائرة أصول القرآن الثابتة التي لا تقبل التغيير والتبديل، ولا تخضع إلى تعسف التأويل الذي قد ينقلب إلى تحوير وتحريف.

فلا يمكن أن يقبل القرآن من جيل من الأجيال في أي عصر من العصور المقبلة أن يفسر هدايته بما يخالف أصوله الثابتة في العقيدة والتعبد أو فيما تولاه الله بنفسه ونص عليه نصاً صريحاً لا يقبل التأويل والتحوير، كتقسيم المواريث وتحديد أنصبتها، وتحريم الفواحش ما ظهر منها وما بطن، وما وصى الله به عباده من إقامة العدل والوفاء بالعهد وسائر أصول الفضائل.

(٣)
عموم الدعوة مقتض لكون الهداية غاية الإرسال العظمى.

ولما كانت الهداية في عمومها هي الغاية القصوى من الرسالات الإلّهية ــ وهي في القرآن عامة شاملة لجميع العقلاء المكلّفين من الأفراد والجماعات والأمم والأجناس في كافة الأزمان والأماكن لعموم رسالة القرآن وبقاء دعوته ببقاء النوع الإنساني على هذه الأرض ــ كان بيانها بياناً يلائم كل بيئة في كل بلد وأمة هو الوسيلة الناجحة لتبليغ رسالة الإسلام تبليغاً عاماً بأسلوب يجذب القلوب إلى تقبلها واعتناقها، ويدعو العقول إلى النظر في حقائقها، ويقرب إلى نفس العامة والخاصة فهمَ أصول الإسلام نقية خالصة، بعيدة عما أُلصق بها من الشوائب والخرافات والأساطير.

(٤)
بيان الهداية الصائب طريق الإصلاح القويم.

وهذا البيان للهداية القرآنية هو الوسيلة الصحيحة لإصلاح حال العالم الإسلامي وجمع شمله وتصحيح وضعه في الحياة بين الأمم الناهضة في العلوم والمعارف والتقدم في الإفادة من الكشف عن الحقائق الكونية، وأخذ حظه من التمتع بطيبات ما أنزل الله من رزق ونعم لتكون داعية إلى الشكر والمزيد.

وهذا البيان للهداية القرآنية هو الدواء الناجح للأمراض الإنسانية المعذبة، تلك الأمراض الاجتماعية والسياسية والخلقية والإلحادية التي ألقت بها بين أحضان الرعب والقلق، والاضطراب والشك وكراهية التدين، كما ألقت بها بين أحضان الحرب التي تأكل شبابها والقادرين على العمل فيها لغير هدف سوى سلطان الأثَرة المادية وسيطرة الأنانية والغرور على عقلية قادة الشعوب وزعمائها، نعم، إن هذا البيان للهداية القرآنية هو الدواء الناجح لشفائها من هذه السراطانات وهو الذي يخرجها من ظلمات هذا الجو الخانق الذي تعيشه هذه الإنسانية باكية دامية إلى آفاق فسيحة من الرضا والاستقرار والاطمئنان في ظل معرفة الله الرحمن الرحيم، وفي ظل معرفة سنن الله في خلقه ليقام على دعائمها موازين العدل والإخاء والمحبة والتعاون على البر والتقوى.

(٥)
عموم دعوة القرآن وخلود رسالته هما سر هدايته المعجزة.

وكما يقتضي عموم دعوة القرآن، وخلود رسالته أن بيان هدايته هو الغاية القصوى لتحقيق رسالته وهو الطريق الصالح لتبليغ رسالة الإسلام على ما يستطاع من بلاغ، يقتضي عموم الدعوة وخلود الرسالة أن التحدي بالهداية ـ كما جاء بها القرآن ـ يجب أن يكون هو الطريق الأعم لبيان إعجاز القرآن كما تحدى بها خالصة منفردة من دون التحدي بروعة النظم وبراعة الأسلوب صراحة في بعض ما سقناه من آياته، ومشاركة للتحدي بعلو طبقة النظم القرآني، وفوق أسلوبه في جميع آيات التحدي والإعجاز.

فالتحدي بالهداية الشاملة لمعاني وأفكار القرآن، وعلومه ومعارفه وطرائقه في توجية العقل إلى النظر في حقائق الكون، وذكره لبعض خصائص الآيات الكونية، ورسمه لسياسة الأقتصاد ونظام الحياة، ووضعه لقواعد علاقات الأفراد والجماعات والأمم في السلم والحرب، واعتماده في تلك العلاقات على القيم الخلقية، يجب أن يكون قائماً في كل بيان لمعاني القرآن وتفسيره ما كان القرآن داعياً إلى رسالة عامة خالدة تحتاج إلى برهان يناسب عقلية كل جيل في كل عصر ومجتمع وبيئة.

* * *

(٦)
الإعجاز البياني وهداية خاصة البلغاء.

أما التحدي بعلو طبقة الكلام في البلاغة، وبلوغه الذروة من براعة البيان، وفوقه في الأسلوب مع أصالته في التحدي، وبقائه طريقاً لإقامة الحجة بإعجاز القرآن على من عسى أن يكون بلغ في مراتب الذوق العربي وملكة التعبير بالفصحى مرتبة عليا، يدرك بها لطائف الأسلوب، ويقف على مواطن الإحسان والإجادة في تأليف الجملة، فإنه يشبه أن يكون خاصاً بجيل العرب الذين عاصروا نزول القرآن وشوفهوا به، لأنهم كانوا أقدر على نظم الكلام في صورته البشرية العليا، كما كانوا أقدر على إدراك مواطن الإعجاز في أسلوب الكلام المعجِز.

النموذج الأول:

روي أن أعرابياً سمع قول الله تعالى: ﴿فَلَمَّا ٱسْتَيْـَٔسُوا مِنْهُ خَلَصُوا نَجِيًّا﴾[1]، فسجد، فقيل له في ذلك؟ فقال: إنما سجدت لبلاغته وأشهد أن مخلوقاً لا يقدر على مثل هذا.

النموذج الثاني:

وسمع بعض بلغائهم قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ وَٱلْإِحْسَانِ وَإِيتَآءِ ذِي ٱلْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ وَٱلْبَغْيِ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ

---

(١) سورة يوسف: الآية (٨٠).

تَذَّكَّرُونَ﴾[1]، فقال: والله إن له لحلاوة، وإن عليه لطلاوة، وإن أعلاه لمثمر، وإن أسفله لمغدق، وإنه ليعلو ولا يُعلى عليه، وما يقول هذا بشر.

وعالمنا اليوم شرقه وغربه ليس فيه قوام أصيل بالذوق العربي وإدراك أسرار التعبير الذي ينبع منه الإعجاز البياني في القرآن، ولو وجد هذا العبقري في عصرنا فإنه لا يخرج عن كونه حاكياً ومقلداً لأصلاء العرب وفحول الخطباء والمترسلين في الجاهلية وصدر الإسلام، والتقليد مهما بلغ به صاحبه فإنه عقيم ليس فيه افتنان ابتكار ولا تنوع ابتداع، فهو محدود المدى والغاية، ومثل هذا لا يرتفع إلى درجة التحدي بإعجاز القرآن المبين ﴿تِلْكَ آيَاتُ ٱلْكِتَابِ وَٱلَّذِي أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ ٱلْحَقُّ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ﴾[2].

(٧)
بيان حاجة علمَيْ التفسير والأدب لإظهار حقيقة الإعجاز البياني في القرآن.

بيد أن هذا الإعجاز البياني ـ مع عناية حذاق العلماء، ومهرة المترسلين ومداره البلاغة العربية به عناية فائقة كما تراها ماثلة فيما ألف من كتب ورسائل خاصة ببيان الإعجاز ـ في كتب التفسير لم يخرج عن لفتات عابرة ونظرات طائرة لا تشبع المتعطشين إلى بلاغة القرآن ليعرفوا منها سر إعجازه البياني.

ومن هنا كان من اللازم أن يظهر هذا الجانب الإعجازي في تفسير القرآن ظهوراً بيّناً بأسلوب تفهمه الأجيال الذين باعدت الحياة بينهم وبين تذوق جمال الجملة العربية بالسليقة والطبع، كما باعدت بينهم وبين معرفة طرائق تأليف الكلام العربي على مقتضى استدعاء المعاني لكل لفظ في مكانه من جملته، إلا عن طريق التقليد للكلام الموروث، أو المحاكاة لصدى القواعد المدونة في فنون اللغة العربية.

---

(١) سورة النحل: الآية (٩٠).
(٢) أول سورة الرعد.

ومن السذاجة أن ننتظر من فن البلاغة ـ الموؤد والمدون أشلاء من قواعد ومصطلحات مستعجمة في الكتب الدراسية القديمة، أو المنزوع منها نزعاً في ورق أبيض مصقول ـ أن ينهض بعبء بيان الإعجاز بياناً يقنع الذين يريدون أن يعرفوا علمياً الإعجاز الفني في القرآن معرفة يقوم على أساسها الإيمان بأن هذا الكتاب الكريم أنزله الله تعالى من عنده آيات بينات وهدى للعالمين، ليس في طوق مخلوق أن يأتي بمثله ولو ظاهره عالم الغيب وعالم الشهادة: ﴿قُلْ لَئِنِ ٱجْتَمَعَتِ ٱلْإِنْسُ وَٱلْجِنُّ عَلَى أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا ٱلْقُرْآنِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيراً﴾[1].

فعلى العلماء المتعمقين في دراسة النصوص الأدبية، وعلى حذاق الأدباء الجادين في فهم التراث الأدبي وعلى صيارفة النقد الأدبي من الذين يؤمنون برسالة القرآن الكريم وهدايته أن يفكروا جدياً في لون من الدراسة يمكن به معرفة إعجاز القرآن إعجازاً بيانياً من الوجهة الفنية المقنعة للعقول والأذواق.

* * *

(١) سورة الإسراء: الآية (٨٨).

طريق إدراك إعجاز القرآن

وقد صحبت القرآن تلاوة ونظراً فرأيت أن أقرب الطرق لإدراك الإعجاز البياني فيه هو إدمان النظر في سوره وآياته، والوقوف مع تعبيراته والتأمل في نظمه، وإقامة دراسة مستوعبة لآياته على ضوء هذا النظر لوضع مبادىء من القواعد المرنة والأصول الأدبية الفسيحة تكشف عن بعض وجوه الإعجاز البياني بطريق فني محرّر.

والقرآن كتاب لا يزال للباحثين فيه مجالات علمية، وأدبية، ودينية، وخلقية، وسياسية، واجتماعية، تتسع مناحيها حتى يخيل للناظر أنها لا تلتقي لشدة ما يترآى بينها من تباعد واختلاف، ولكنها تتجمع في ظله متماسكة كأنها فن واحد من المعارف الإنسانية.

فهذا الفقه الإسلامي على سعته وتعدد مدارسه واختلاف مذاهبه في صور الاجتهاد الإسلامي ليس فيه حكم متفق عليه أو مختلف فيه إلا وهو ينزع إلى القرآن بعرق يستند به إلى آياته.

وهذه الفِرق الإسلامية التي لا يكاد يحصرها العدد، وما لها من نحل ومذاهب وآراء في العقائد ونظام وسياسة الدولة، كلها يلجأ إلى القرآن يستنطقه بحجته، ويستعينه للظفر على خصمه بآياته.

* * *

الإعجاز بروعة البيان

والقرآن راسخ في عزته أمام هذا النزاع العلمي يجري من حوله بين متباين الآراء والمذاهب رسوخ العلم الأشم تزوي في سفحه هوج الأعاصير وتتكسر على صخره أفكار المقاويل.

(٨)
تفرد القرآن في الإعجاز البياني وسر ذلك.

ولعل هذه القوة الكامنة في أسلوب هذا الكتاب هي السر في إعجازه البياني، ذلك السر الفني الذي يملأ الإحساس به نواحي الشعور الإنساني دون أن يستطيع أبرع الناس بياناً وأبلغهم عبارة وأنصعهم مقالاً التعبير عنها بعبارة محدودة مضبوطة بقواعد العلم، ومن هنا قال الشيخ السكاكي في كتابه مفتاح العلوم: (**إن إعجاز القرآن يُدرَك ولا يمكن التعبير عن وصفه**).

اقرأ ما شئت من آي القرآن فلن تجده إلا مشيداً لصرح الخير والإصلاح، أو هادماً لدعائم الشر والفساد، وهو في كليهما عبقري البلاغة والبيان.

(٩)
دعوة إلى التفكر ونبذ التقليد الأعمى.

انظر إليه وهو يدعو إلى تحرر العقل من ربقة الاستعباد الفكري، ويهدم التقليد ويدعو إلى الاجتهاد والنظر في ملكوت الله وآياته في الآفاق فيقول ناعياً على قوم أهدروا نعمة الله عليهم بالعقل ــ وهو مناط كل فضيلة في الإنسان ــ:

النموذج الأول:

﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱتَّبِعُوا مَا أَنزَلَ ٱللَّهُ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ

آبَاءَنَا أَوَ لَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ شَيْئاً وَلَا يَهْتَدُونَ﴾[1].

النموذج الثاني:

ويقول عز شأنه: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱتَّبِعُوا مَا أَنْزَلَ ٱللَّهُ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا أَوَ لَوْ كَانَ ٱلشَّيْطَانُ يَدْعُوهُمْ إِلَى عَذَابِ ٱلسَّعِيرِ﴾[2].

(١٠)
نظرة تدبر في معنى النموذجين.

فهل ترى أسلوباً أبلغ في إيلام النفس الإنسانية وإيقاظ العقل من سباته من هذا الأسلوب اللاذع المرير في النعي على أولئك الأغبياء الذين استهانوا بعقولهم، وركنوا إلى التقليد البليد. ثم انظر إلى ما ختمت به الآيتان من التقريع الساخر الذي ينادي عليهم بالبلادة والجهالة والضلال المبين، فالتقليد شر كله، ولكنه كان يمكن أن يكون شراً محتملاً لو كان التقليد لقوم يعقلون شيئاً، أي شيء، لو عقلوا لاهتدوا إلى الحق، فخاتمة الآية الثانية تفسر خاتمة الآية الأولى، وتبين أن عدم العقل وسيلة من وسائل إضلال الشيطان يدعوهم بها إلى عذاب السعير لأنهم أهدروا إنسانيتهم واستهانوا بعقولهم واتخذوا من دون الله آلهة من الحجارة يعبدون.

النموذج الثالث:

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَنْ يَخْلُقُوا ذُبَاباً وَلَوِ ٱجْتَمَعُوا لَهُ وَإِنْ يَسْلُبْهُمُ ٱلذُّبَابُ شَيْئاً لَا يَسْتَنْقِذُوهُ مِنْهُ ضَعُفَ ٱلطَّالِبُ وَٱلْمَطْلُوبُ﴾[3].

(١١)
أسلوب لاذع متهكم فذ فريد في النعي على المشركين.

فالعقلاء كلهم يعلمون أن أخص خصائص الألوهية الحقة الخلق والإبداع، وهذا الذباب يرونه أخس طائر وأحقره وأضعفه، فهل يستطيع معبودكم الذين اتخذتموهم آلهة من دون الله أن يخلقوا هذا الطائر الضعيف؟ لا، لن يستطيعوا أن يخلقوا هذا المخلوق

---

(١) سورة البقرة: الآية (١٧).

(٢) سورة لقمان: الآية (٢١).

(٣) سورة الحج: الآية (٧٣).

الضعيف ولو اجتمعوا له وظاهر بعضهم بعضاً، لا، بل إن هذا الذباب الضعيف أقوى من معبوديكم الذين لا يستطيعون رد ما يسلبهم عنوة وقهراً، فهل رأيت أوجع في التهكم وآلم للنفس من هذا التقريع؟!

النموذج الرابع:

ثم استمع إلى ضرب آخر من هذا الأسلوب اللاذع المتهكم: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ ٱللَّهِ عِبَادٌ أَمْثَالُكُمْ فَادْعُوهُمْ فَلْيَسْتَجِيبُوا لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ. أَلَهُمْ أَرْجُلٌ يَمْشُونَ بِهَا أَمْ لَهُمْ أَيْدٍ يَبْطِشُونَ بِهَا أَمْ لَهُمْ أَعْيُنٌ يُبْصِرُونَ بِهَا أَمْ لَهُمْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا قُلِ ٱدْعُوا شُرَكَاءَكُمْ ثُمَّ كِيدُونِ فَلَا تُنْظِرُونِ﴾[1].

(١٢)
بيان مغبة إهدار نعمة العقل وتحكيم الهوى.

فهل هناك تسفيه لأحلام هؤلاء المخاطبين أشد إيلاماً لعقولهم، إن كانوا يعقلون، من هذا التحقير الذي سبق مساق التحدي: ﴿قُلِ ٱدْعُوا شُرَكَاءَكُمْ ثُمَّ كِيدُونِ فَلَا تُنْظِرُونِ﴾ بعد أن قدم بين يديه قضية من قضايا البداهة التي لا يختلف فيها إنسان وإنسان، تلك القضية التي سيقت للتنبيه على أنهم لو استعملوا عقولهم أدنى استعمال لما وقعوا في هذا الخطأ العقلي المهين لإنسانيتهم، حيث تعبّدوا أنفسهم لما لا يستحق الحياة بله العبادة والتقديس، هم يعلمون أن أصنامهم ليست لها أرجل تمشي عليها، ولا أيد تبطش بها، ولا أعين تبصر بها، ولا آذان تسمع بها، ولكن في نفي هذا المعلوم بداهة بطريق الاستفهام الإنكاري استهزاء بهم وازدراء بعقولهم بأبسط تعبير وأوضح أسلوب.

(١٣)
اختلاف الأسلوب والألفاظ في معنى متفق، وتفرّد القرآن في ذلك.

والدارس للقرآن الحكيم يرى أنه انفرد بطريقة بديعة في أداء المعاني لا تُجارى، وأسلوب فذٍّ محكَم لا يُبارى، فأنت تقرأ فيه قصص الأنبياء وسيَرهم مع أممهم، والقصة الواحدة تتكرر مرات كثيرة بعبارات وأساليب لولا ما فيها من الأسماء والأشخاص والأماكن لظن السامع أنها

---

(١) سورة الأعراف: الآيتان (١٩٤، ١٩٥).

في كل موضع قصة مستقلة بذاتها، لاستقلال أسلوبها وألفاظها، وورودها بين البسط تارة، والإجمال تارة أخرى، مع المحافظة على سر القصة وحكمتها والمحافظة على جمال الأسلوب القصصي الذي يقرر حقائق الأحداث الواقعة في حياة الناس، بعيداً عن الخيال الفضفاض، مع مراعاة المناسبة التامة بين مقام الكلام ونهجه واضطراد ذلك إلى النهاية مما انفرد به القرآن، وإذا وجد من ريحه شيء في كلام فحول الخطباء والمترسلين من البلغاء فلا يمكن استمراره طويلاً، وإن الناقد ليدرك الفرق العريض بين الفقرات في القوة والضعف ظاهراً في كلامهم، ولكن القرآن العظيم إذا تحدث في مقام جرى في أسلوبه على سَنن من القوة لا يختلف أوله عن آخره، ولا وسطه عن طرفيه، والاختلاف الذي قد يبدو للناظر هو اختلاف في مقامات الكلام.

ومن بدائع أسلوب القرآن أنه لا يطيل الحديث في مقام واحد دون أن يجعل في البين حكمة بالغة أو موعظة حسنة، لأن الإطالة على سنن واحد مدعاة ـ في الغالب ـ إلى الألفة والفتور، والألفة ماحية لأثر الكلام في النفس، والفتور خدر للعقل يعيقه عن متابعة المعاني واستيفاء الإحاطة بها.

خزي الظالمين والنموذج الأول:

تأمل هذه الآيات التي وردت في وصف ما يحيق بالظالمين من الفزع المرعب وأليم العذاب يوم القيامة: ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱللَّهَ غَافِلًا عَمَّا يَعْمَلُ ٱلظَّالِمُونَ إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ ٱلْأَبْصَارُ مُهْطِعِينَ مُقْنِعِي رُءُوسِهِمْ لَا يَرْتَدُّ إِلَيْهِمْ طَرْفُهُمْ وَأَفْئِدَتُهُمْ هَوَاءٌ. وَأَنذِرِ ٱلنَّاسَ يَوْمَ يَأْتِيهِمُ ٱلْعَذَابُ فَيَقُولُ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا رَبَّنَا أَخِّرْنَا إِلَىٰ أَجَلٍ قَرِيبٍ نُّجِبْ دَعْوَتَكَ وَنَتَّبِعِ ٱلرُّسُلَ أَوَلَمْ تَكُونُوا أَقْسَمْتُم مِّن قَبْلُ مَا لَكُم مِّن زَوَالٍ. وَسَكَنتُمْ فِي مَسَاكِنِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ وَتَبَيَّنَ لَكُمْ كَيْفَ فَعَلْنَا بِهِمْ وَضَرَبْنَا لَكُمُ ٱلْأَمْثَالَ وَقَدْ مَكَرُوا مَكْرَهُمْ وَعِندَ ٱللَّهِ مَكْرُهُمْ وَإِن كَانَ مَكْرُهُمْ لِتَزُولَ مِنْهُ ٱلْجِبَالُ.

فَلَا تَحْسَبَنَّ ٱللَّهَ مُخْلِفَ وَعْدِهِ رُسُلَهُ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ ذُو ٱنْتِقَامٍ . يَوْمَ تُبَدَّلُ ٱلْأَرْضُ غَيْرَ ٱلْأَرْضِ وَالسَّمَٰوَاتُ وَبَرَزُوا لِلَّهِ ٱلْوَاحِدِ ٱلْقَهَّارِ. وَتَرَى ٱلْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ مُقَرَّنِينَ فِي ٱلْأَصْفَادِ سَرَابِيلُهُم مِّن قَطِرَانٍ وَتَغْشَىٰ وُجُوهَهُمُ ٱلنَّارُ﴾[1] .

فتأمل كيف جاء بدء الآيات جامعاً بين الوعد الضمني والوعيد الصريح ، ووصف حال الظالمين بأوصاف لو وضع مكانها غيرها من ألفاظ التفظيع ما جاءت هذا المجيء ، ثم أخذت تذكر ندمهم على ما فرط منهم ولات حين مَندم ، كما تصف تمنيهم تحسراً لو أخرت آجالهم فيجيبوا داعي الله ويتبعوا الرسل ، فأكذبهم الله لأنهم كانوا يقسمون أنهم لا يزولون عن الحياة الدنيا مع أنهم عاينوا ما حل بالظالمين من انتقام الله وبطشه ، بل سكنوا مساكنهم وعرفوا بما عاينوا من آثارهم ما نزل بهم من عذاب الله ، ولكنهم لم يعتبروا بهم .

ثم عاد إلى ذكر أوصاف هول يوم الحساب بعد أن وصف مكرهم وشدة كيدهم لرسل الله وأن هذه سبيل الظالمين مع المصلحين .

النموذج الثاني :

ثم انظر إلى تصوير هذا المقام نفسه في موضع آخر: ﴿يَا أَيُّهَا ٱلنَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمْ إِنَّ زَلْزَلَةَ ٱلسَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ . يَوْمَ تَرَوْنَهَا تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّا أَرْضَعَتْ وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ حَمْلَهَا وَتَرَى ٱلنَّاسَ سُكَارَىٰ وَمَا هُم بِسُكَارَىٰ وَلَٰكِنَّ عَذَابَ ٱللَّهِ شَدِيدٌ﴾[2].

المقام واحد في الجملة من غير شك ، ولكن الأسلوب والألفاظ هنا غير الأسلوب والألفاظ هناك ، لا يستطيع أحد أن يزعم أنها متفقة أو متحدة مكررة ، واختلاف الأسلوب والألفاظ يحدث في النفس أثراً مختلفاً في نوعه والشعور به ومداه .

---

(١) سورة إبراهيم : الآيات (٤٢ ــ ٥٠) .

(٢) سورة الحج : الآيتان (١ ــ ٢) .

النموذج الثالث:

ومن هذا القبيل قوله تعالى: ﴿وَٱسْتَفْتَحُوا وَخَابَ كُلُّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ. مِنْ وَرَآئِهِ جَهَنَّمُ وَيُسْقَى مِنْ مَآءٍ صَدِيدٍ. يَتَجَرَّعُهُ وَلَا يَكَادُ يُسِيغُهُ وَيَأْتِيهِ ٱلْمَوْتُ مِنْ كُلِّ مَكَانٍ وَمَا هُوَ بِمَيِّتٍ وَمِنْ وَرَآئِهِ عَذَابٌ غَلِيظٌ﴾[1].

(١٤)
إعجاز بياني في التصوير القرآني.

هذا تصوير مفظع تنخلع لهوله قلوب السامعين، فتصور خيبة الجبار العنيد التي تحيق به فتذله حتى تجعله سخرية الساخرين: ﴿سَيُصِيبُ ٱلَّذِينَ أَجْرَمُوا صَغَارٌ عِنْدَ ٱللَّهِ وَعَذَابٌ شَدِيدٌ بِمَا كَانُوا يَمْكُرُونَ﴾[2]، ومع هذه الذلة وذلك الصغار للجبابرة المعاندين من ورائهم جهنم، وحسبهم ألّا توصف لتكون حاوية في صورتها لجميع ألوان العذاب، ومع هذا العقاب في نار جهنم يسقون من ماء وأي ماء؟ إنه الصديد، وتأمل قوله: ﴿يَتَجَرَّعُهُ﴾ بهذه الصيغة التي تدل على منتهى التكلف والعلاج والمشقة، ومع ذلك لا يكاد يسيغه. وتصور حالته وفي هذا التصوير إنه ﴿يَأْتِيهِ ٱلْمَوْتُ﴾ فيغير حاله ويكفهر وجهه وتتقلص عضلاته ويدخل بعضه في بعض يتقبض وينتشر، وليته يجد مكاناً يفر إليه أو جهة من الجهات لا يأتيه الموت منها، بل ﴿يَأْتِيهِ ٱلْمَوْتُ مِنْ كُلِّ مَكَانٍ﴾ وقد يتوهم أن في الموت راحة له، ولكنه لا يموت، ثم ماذا؟ ﴿وَمِنْ وَرَآئِهِ عَذَابٌ غَلِيظٌ﴾ وفي كلمة ﴿غَلِيظٌ﴾ التي وُصف بها العذاب جمع كل وصف من أوصاف الهول والبشاعة، وما عليك لتعرف مكانها من براعة البيان إلا أن تديرها مع ما ترى من أساليب الخطباء والمترسلين، وانظر هل تجدها إلا قلقة نابية، تحاول أن تتمطى لتمزق نظام الكلام لكنها في مكانها من الآية لم تكن مجرد لفظة قصدبها أداء معناها السطحي الذي تمليه أوضاع اللغة بل هي صورة مستقلة كاملة وضع في إطارها كل ما تتطلبه صورة العذاب الذي ينتظر الجبار العنيد من ألوان منكرة سوداء في خطوط متعرجة بشعة.

---

(١) سورة إبراهيم: الآيات (١٥ ــ ١٧). (٢) سورة الأنعام: الآية (١٢٤).

وتأمل المناسبة بين الجبار العنيد ووصف عذابه بالغِلَظ، والجبار العنيد في الدنيا أكثر ما يكون حاله أن يكون عُتُلًا جوّاظاً غليظ الكبد عريض القفا، ثم تأمل بعد ذلك كيف تم التلاؤم بين العذاب والغلظ حتى وقع الوصف موقعه في الموصوف فكان من بديع التصوير.

(١٥)
أعمال الكفار لا حقيقة لها ولا نفع منها.

وطرز آخر من أسلوب القرآن تراه في تصوير العمل الذي لا يقوم على أساس صحيح، فيذهب هباء لا يفيد منه صاحبه وهو أحوج ما يكون إلى الإفادة منه.

النموذج الأول:

وأكمل نماذج هذا النوع من العمل عمل من كفر بمن هو أصل جميع النعم الذي ربى عباده على موائد فضله وإحسانه: ﴿مَثَلُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ أَعْمَالُهُمْ كَرَمَادٍ ٱشْتَدَّتْ بِهِ ٱلرِّيحُ فِي يَوْمٍ عَاصِفٍ لَا يَقْدِرُونَ مِمَّا كَسَبُوا عَلَى شَيْءٍ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلضَّلَالُ ٱلْبَعِيدُ﴾[1]. انظر إلى تسجيل عنوان الكفر عليهم، وجعلهم بهذا العنوان الكريه مضرب المثل، ثم انظر إلى ربط الكفر بهذا الاسم الكريم (الرب) وخصيصته التعطف والتحنان والتفضل بأنواع التربية والتعهد بالفواضل والنعم، فالكفر به أبشع من الكفر بغيره كما هو مركوز في طبائع البشر، ألا ترى أن النفوس البشرية أشد كراهية وبغضاً لمن أساء إلى من أحسن إليها.

ثم ألقت الآية الكريمة بذواتهم وأشخاصهم في مهبّ رياح الإهمال وطوت كشحها عنهم وانصرفت بمهمها إلى أعمالهم التي قدموها في حياتهم من الإحسان والبذل والإصلاح دون أن يقيموا لها دعائم من الإيمان بالرب الكريم الذي أعطاهم ما مكّنهم من هذه الأعمال فهي كرماد، والرماد أخف وألين من التراب والرمل، وهذا الرماد وقع في مهب ريح في يوم عاصف فهل يبقي ذلك الريح

(١) سورة إبراهيم: الآية (١٨).

في اليوم العاصف من هذا الرماد، الذي استقبله زروراً من كل جانب، أثراً من بقية تتماسك، ولذلك جاءت النتيجة طبيعية تنساق إلى الأذهان دون كد أو تعب: ﴿لَا يَقْدِرُونَ مِمَّا كَسَبُوا عَلَى شَيْءٍ﴾، ثم جاءت الفاصلة وكأنها تحمل بين أطوائها كل ما صورته الآية من خيبة وحسرة وندم.

النموذج الثاني:

فهم كما قال الله تعالى: ﴿عَامِلَةٌ نَاصِبَةٌ تَصْلَى نَارًا حَامِيَةً. تُسْقَى مِنْ عَيْنٍ آنِيَةٍ. لَيْسَ لَهُمْ طَعَامٌ إِلَّا مِنْ ضَرِيعٍ. لَا يُسْمِنُ وَلَا يُغْنِي مِنْ جُوعٍ﴾[1].

النموذج الثالث:

ولون آخر يسوقه القرآن لهذا الموقف من التصوير: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَعْمَالُهُمْ كَسَرَابٍ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ الظَّمْآنُ مَاءً حَتَّى إِذَا جَاءَهُ لَمْ يَجِدْهُ شَيْئًا وَوَجَدَ اللَّهَ عِنْدَهُ فَوَفَّاهُ حِسَابَهُ وَاللَّهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ. أَوْ كَظُلُمَاتٍ فِي بَحْرٍ لُجِّيٍّ يَغْشَاهُ مَوْجٌ مِنْ فَوْقِهِ مَوْجٌ مِنْ فَوْقِهِ سَحَابٌ ظُلُمَاتٌ بَعْضُهَا فَوْقَ بَعْضٍ إِذَا أَخْرَجَ يَدَهُ لَمْ يَكَدْ يَرَاهَا وَمَنْ لَمْ يَجْعَلِ اللَّهُ لَهُ نُورًا فَمَا لَهُ مِنْ نُورٍ﴾[2].

والبحث يتجاوز مبتدأ الآية الأولى فهي كأختها السابقة في تسجيل عنوان الكفر عليهم وطي ذكرهم إلى ذكر أعمالهم لأن التمثيل مَسوق لتصويرها، وإنما ذكروا بعنوانهم تمهيداً إلى ذكر أعمالهم، غير أنه هنا حذف المتعلق فأطلق الكفر إطلاقاً ليكون أعم يسد عليهم منافذ الأمل.

(١٦)
روعة التصوير في الآية الأولى.

وهنا جاء التمثيل في الآية الأولى لأعمال الكافرين، التي لا أساس لها من الإيمان، بالسراب، والسراب وهم من نسج الخيال منتشر في صحصح من الأرض متسع، لا نبات فيه ولا حياة

(١) سورة الغاشية: الآيات (٣ ــ ٧).
(٢) سورة النور: الآيتان (٣٩، ٤٠).

يتخيله الظمآن الذي عضه حر المفاوز فضاعف ظمأه فيخاله ماء، فيمشي إليه على أقدام الأمل حتى إذا أنهكه العطش والتعب وقف حيث ظن مكان ماء فلم يجد ما تخيله شيئاً، أي شيء، لا ماء ولا شبه ماء من حقائق الأشياء، ولكنه وجد الله له بالمرصاد، ينصب له ميزان العدل فيحاسبه كما يشاء بعدله وحكمته في أسرع من رد الطرف.

(١٧)
تصوير آخر لأعمال الكفار في الآية الثانية.

ثم جاء التمثيل في الآية الثانية لأعمال الكافرين بظلمات متراكمة، وهي في بحر لا قرار له يعلوه موج يغطيه فيسير عنه كل شيء، ومن فوق هذا الموج المتكثف موج أشد كثافة منه، ومن فوق هذا الموج الثاني سحاب، يا للهول، ويا للضياع والهلاك، وظلمات بعضها فوق بعض، تميت كل أمل في النجاة، وتذهب بكل خيال في طمع، وأنى يكون ذلك ولو أن ناظراً أخرج يده وهي أقرب الأشياء إليه وعرضها على ناظريه ليراها لم يقارب رؤيتها بله أن يراها، وهؤلاء القوم سدوا ما بينهم وبين الله من منافذ الإيمان فلا سبيل إليهم لأن يروا النور بالخروج من هذه الظلمات المتفاحشة كثافة ورعباً ﴿وَمَنْ لَمْ يَجْعَلِ ٱللَّهُ لَهُ نُوراً فَمَا لَهُ مِنْ نُورٍ﴾.

النموذج الأول في بيان حال المنافقين:

وانظر إلى تصوير القرآن الحال المنافقين الذين استبطنوا أخبث الكفر وأظهروا الإيمان خديعة وجبناً ﴿مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ ٱلَّذِي ٱسْتَوْقَدَ نَاراً فَلَمَّا أَضَاءَتْ مَا حَوْلَهُ ذَهَبَ ٱللَّهُ بِنُورِهِمْ وَتَرَكَهُمْ فِي ظُلُمَاتٍ لَا يُبْصِرُونَ. صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ فَهُمْ لَا يَرْجِعُونَ. أَوْ كَصَيِّبٍ مِنَ ٱلسَّمَاءِ فِيهِ ظُلُمَاتٌ وَرَعْدٌ وَبَرْقٌ يَجْعَلُونَ أَصَابِعَهُمْ فِي آذَانِهِمْ مِنَ ٱلصَّوَاعِقِ حَذَرَ ٱلْمَوْتِ وَٱللَّهُ مُحِيطٌ بِٱلْكَافِرِينَ. يَكَادُ ٱلْبَرْقُ يَخْطَفُ أَبْصَارَهُمْ كُلَّمَا أَضَاءَ لَهُمْ مَشَوْا فِيهِ وَإِذَا أَظْلَمَ عَلَيْهِمْ قَامُوا، وَلَوْ شَاءَ ٱللَّهُ لَذَهَبَ بِسَمْعِهِمْ وَأَبْصَارِهِمْ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾[١].

---

(١) سورة البقرة: الآيات (١٧ ـ ٢٠).

(١٨)
من معاني النموذج الأول.

يحسب المنافقون أنهم بتظاهرهم بالإيمان يخدعون الناس وما يخدعون إلا أنفسهم وما يشعرون، فمثّل الله حالهم بحال رهط وقعوا في ظلمة واقبة، فاتخذوا أهبتهم وجمعوا كل ما يملكون من وسيلة لإيقاد نار يستضيئون بها ليكونوا بمنجاة من الأخطار الحائقة بهم في غمرة هذه الظلمات، وأوقدوها فيما أعدوا لها وتأهبوا به لإشعالها، فلما أضاءت ما حولهم، وكشفت لهم عن موضع أقدامهم وهموا بما لم ينالوا، ذهب الله بنورهم وتركهم حيارى في تيههم يعمهون.

(١٩)
دقة التعبير القرآني، وكلام للإمام ابن تيمية في منع الترادف اللفظي في القرآن.

فالتعبير بلفظ ﴿ٱسْتَوْقَدَ﴾ دون (أوقد) أبلغ في تصوير المثل ليدل على حقيقة حال الممثَّل له، فليس معنى استوقد رديفاً لمعنى (أوقد) متحداً معه في المعنى، وإنما معنى استوقد أوسع وأدق في دلالته على المعنى المقصود الذي وضع في مكانه ليدل عليه لأن ﴿ ٱسْتَوْقَدَ ﴾ يُشعر بالإعداد والأهمية وقوة الإيقاد مما ينشأ عنه عموم الإضاءة من سائر الجوانب، وعلماء اللغة يقولون: إن زيادة المبنى تدل على زيادة المعنى، وهذا لازم في القرآن مطرد فلن تكون فيه كلمة بلغت في البناء منتهى صيغتها مساوية في أداء المعنى لكلمة أخرى من مادتها لم تقع فيه وقصرت في بنائها عن صيغة أختها، على أن حذاق العلماء يرون أن الترادف مطلقاً معدوم في القرآن، قال ابن تيمية: وأما الترادف في ألفاظ القرآن فنادر أو معدوم، وقلّ أن يعبر عن لفظ واحد بلفظ واحد يؤدي جميع معناه بل يكون فيه تقريب لمعناه، وهذا من أسباب إعجاز القرآن، فإذا قال القائل ﴿يَوْمَ تَمُورُ ٱلسَّمَآءُ مَوْرًا﴾: إن المور هو الحركة كان تقريباً إذ المور حركة خفيفة سريعة، وكذلك إذا قال: الوحي الإعلام، أو قيل ﴿وَأَوْحَيْنَا إِلَيْكَ﴾: أنزلنا إليك، أو قيل ﴿وَقَضَيْنَا إِلَىٰ بَنِي إِسْرَآئِيلَ﴾: أي أعلمنا، وأمثال ذلك، فهذا كله تقريب لا تحقيق، فإن الوحي هو إعلام سريع خفي، والقضاء إليهم أخص من الإعلام، فإن فيه إنزالاً إليهم وإيحاء إليهم.

(٢٠)
لطائف بيانية في التعبير القرآني.

ثم انظر إلى قوله: ﴿ذَهَبَ ٱللَّهُ بِنُورِهِمْ﴾ دون أن يقول ذهب الله بنارهم، لأن المقصود لهم من استقياد النار هو النور، فإذا غافصهم ذهاب النور، وبقيت لهم النار بين أيدهم لا نور لها تأكل أنفسهم أبلسوا ووقعوا في تيه من الحيرة وأخذهم الدهش واستولى عليهم الرعب والفزع، وهم يَرون أصل النور ولا نور، وفي قوله: ﴿ذَهَبَ ٱللَّهُ بِنُورِهِمْ﴾ دون أن يقول: (أذهب الله نورهم) لطيفة بيانية من لطائف التعبير القرآني لأن قوله: ﴿ذَهَبَ ٱللَّهُ بِنُورِهِمْ﴾ يفيد أن الله انتزع النور منهم وأخذه فلا ممطع لهم في رده عليهم لأنهم يعلمون أنهم لا سبيل لهم إلى الله، بل إن معنى التعبير القرآني أدق لأنه يفيد أن الله ذهب بالنور وحُجِبوا عنه بظلمات النفاق ـ ولله المثل الآعلى ـ أما التعبير الثاني فإنه يفيد أن الله تعالى أزال النور عنهم بإطفائه، وذلك لا يقطع طمعهم فيما يتعللون به من أسباب يستعيدون بها النور، ولذلك جاء تعقيب تعبير الآية بما يفيد تيئيسهم من رجع النور ﴿وَتَرَكَهُمْ فِي ظُلُمَاتٍ لَا يُبْصِرُونَ﴾.

وهذا تصوير بارع لحال المنافقين يكشف عن خبيئة قلوبهم المريضة، وعمي بصائرهم وجمود أحاسيسهم، وخمود شعورهم، فهم صم لا يسمعون نداء الحق، وإذا سمعوه أشاحوا عنه معرضين، بكم لا ينطقون الحق، وإذا نطقوه أصابهم عيّ البلَه، وحُصروا فلم يستطيعوا أن يبينوا عن ذات أنفسهم، وهم عمي لا يبصرون طريق الحق، فهم في غيّهم سادرون، لا يرجعون عن ضلالتهم، ولا يفيئون إلى ظل من الأمل في الخلاص.

(٢١)
تصوير آخر لحال المنافقين في النموذج الثاني.

ثم أدار القرآن الحديث في الآية الثانية إلى لون آخر من التمثيل لتصوير حال المنافقين فشبه حالهم في تظاهرهم بالإيمان ليفيدوا منه عصمة دمائهم وأموالهم ونيلهم حرية المشاركة في أعمال المسلمين وقسمهم معهم في غنائمهم إذا حضروا الجهاد معهم، وكانوا يحضرونه

طمعاً في الغنيمة متربصين بالمؤمنين الدوائر كما ذكر الله حالهم هذا في قوله: ﴿ٱلَّذِينَ يَتَرَبَّصُونَ بِكُمْ فَإِن كَانَ لَكُمْ فَتْحٌ مِّنَ ٱللَّهِ قَالُوٓا۟ أَلَمْ نَكُن مَّعَكُمْ وَإِن كَانَ لِلْكَٰفِرِينَ نَصِيبٌ قَالُوٓا۟ أَلَمْ نَسْتَحْوِذْ عَلَيْكُمْ وَنَمْنَعْكُم مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾[1].

(٢٢)
عودة إلى معاني النموذج الأول الفذّة.

وحالهم في إضمارهم أخبث الكفر وما يدبرون في الخفاء من مكر سيء وكيد للمؤمنين إذا خلوا إلى شياطينهم من أخابث اليهود ورؤوس الكفر وزعماء الشرك، واستيلاء الخوف على قلوبهم لئلا تنكشف حالهم، ويفتضح أمرهم ويبدو للمؤمنين عوارهم وتظهر لهم حقيقة أمرهم فيؤخذوا بكفرهم ومكرهم ـ شبّه حالهم هذا بالسحاب الأسحم الشديد المطر في الليل البهيم الأدهم بما فيه من ظلمات متراكمة، ورعد قاصف مرهِب وبرق خاطف مرعِب الذي أصاب قوماً لا يستطيعون اتقاء آثاره المخيفة إلا بأضعف الوسائل يجعلون أصابعهم أطرافها في آذانهم رهباً من الهلاك وحذراً من الموت توهماً منهم أن ذلك يمنعهم من سماع صوت الرعد الهادر، أو يحول بينهم وبين الصواعق المهلكة التي تنزل عليهم مع هدير وومض البرق، ولكن الله محيط بعلمه وقدرته بهم لا يعجزونه هرباً من عذابه ﴿لَوْ يَجِدُونَ مَلْجَأً أَوْ مَغَٰرَٰتٍ أَوْ مُدَّخَلًا لَّوَلَّوْا۟ إِلَيْهِ وَهُمْ يَجْمَحُونَ﴾[2]، اتقاء بطش الله وانتقامه.

ثم وصف حيرتهم وصفاً أشبه بوصفها في الآية السابقة مع اختلاف الإطار التي وضعت فيه الصورة في الآيتين، فهناك كما قلنا على ما قلنا، وهنا شدة ومض البرق تكاد تخطف أبصارهم وتذهب بألبابهم إذا لمع لهم منه بريق ضوء مشوا فيه، وإذا أظلم عليهم وقفوا حيارى مشدوهين، ولو شاء الله أن يضاعف عليهم ومض البرق ولمعانه ليذهب بسمعهم

---

(١) سورة النساء: الآية (١٤١).
(٢) سورة التوبة: الآية (٥٧).

وأبصارهم ويتطابق خبرهم مع مَخبرهم كما وصفهم في الآية السابقة ﴿صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ فَهُمْ لَا يَرْجِعُونَ﴾ لكان قديراً على أن يفعل ما يشاء، لأن قدرته لا تحدها الحدود، ولا يعجزها يعجزها شيء في الوجود، وإنما يمهلهم إملاءً لهم وكيداً بهم حتى إذا أخذهم فإن أخذه أليم شديد ﴿وَأُمْلِي لَهُمْ إِنَّ كَيْدِي مَتِينٌ﴾[1].

وفي هذه النماذج التي اخترناها للنظر والإبانة عن بعض خصائصها البيانية في مقام الوعيد والترهيب والتصوير النفسي للنفوس المعقدة المخبوءة وراء تعاريج النفاق ـ غَناء لمن أراد أن يتابع البحث ويجول في ميدان الإعجاز البياني للقرآن العظيم.

(٢٣)
في ذكر آيات الوعد غَناء عن الحديث عنها.

ونتجاوز هذا المقام إلى مقام الترغيب والوعد لنذكر بعض النماذج الغنية عن إطالة النظر في تحليلها، ويكفي لإدراك براعتها التي لا تعارَض أن توضع في إطارها جملة لتؤلف صورة واضحة تعبر عن نفسها تعبيراً قد يكون أصدق من تعبير الحديث.

فاستمع إلى وصف السابقين الأولين من عباد الله المتقين المقربين، واستمع إلى وصف ما أعده الله لهم من كرامته وجزيل إنعامه، فستجد في الأسلوب سلاسة ورقة وفي الألفاظ لطفاً وحلاوة ورنة في الفاصلة، واتساقاً في الفقرات، وتسبق معانيها إلى قلبك ألفاظها لأذنك.

النموذج الأول:

﴿وَٱلسَّابِقُونَ ٱلسَّابِقُونَ * أُولَٰٓئِكَ ٱلْمُقَرَّبُونَ * فِي جَنَّاتِ ٱلنَّعِيمِ * ثُلَّةٌ مِنَ ٱلْأَوَّلِينَ * وَقَلِيلٌ مِنَ ٱلْآخِرِينَ * عَلَىٰ سُرُرٍ مَوْضُونَةٍ * مُتَّكِئِينَ عَلَيْهَا مُتَقَابِلِينَ * يَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَانٌ مُخَلَّدُونَ * بِأَكْوَابٍ وَأَبَارِيقَ وَكَأْسٍ مِنْ مَعِينٍ * لَا يُصَدَّعُونَ عَنْهَا وَلَا يُنْزِفُونَ * وَفَاكِهَةٍ مِمَّا

---

(١) سورة نٓ: الآية (٤٥).

يَتَخَيَّرُونَ * وَلَحْمِ طَيْرٍ مِمَّا يَشْتَهُونَ * وَحُورٌ عِينٌ كَأَمْثَالِ ٱللُّؤْلُؤِ ٱلْمَكْنُونِ * جَزَآءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ * لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْواً وَلَا تَأْثِيماً إِلَّا قِيلاً سَلَاماً سَلَاماً * وَأَصْحَابُ ٱلْيَمِينِ * مَا أَصْحَابُ ٱلْيَمِينِ * فِي سِدْرٍ مَخْضُودٍ * وَطَلْحٍ مَنْضُودٍ * وَظِلٍ مَمْدُودٍ * وَمَآءٍ مَسْكُوبٍ * وَفَاكِهَةٍ كَثِيرَةٍ * لَا مَقْطُوعَةٍ وَلَا مَمْنُوعَةٍ * وَفُرُشٍ مَرْفُوعَةٍ * إِنَّا أَنْشَأْنَاهُنَّ إِنْشَآءً * فَجَعَلْنَاهُنَّ أَبْكَاراً * عُرُباً أَتْرَاباً * لِأَصْحَابِ ٱلْيَمِينِ * ثُلَّةٌ مِنَ ٱلْأَوَّلِينَ * وَثُلَّةٌ مِنَ ٱلْأَخِرِينَ﴾[1].

النموذج الثاني:

﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَاعِمَةٌ * لِسَعْيِهَا رَاضِيَةٌ * فِي جَنَّةٍ عَالِيَةٍ * لَا تَسْمَعُ فِيهَا لَاغِيَةً * فِيهَا عَيْنٌ جَارِيَةٌ * فِيهَا سُرُرٌ مَرْفُوعَةٌ * وَأَكْوَابٌ مَوْضُوعَةٌ * وَنَمَارِقُ مَصْفُوفَةٌ * وَزَرَابِيُّ مَبْثُوثَةٌ﴾[2].

(٢٤)
لا يُبارى القرآن ولا يُجارى.

أسلوب هامس ناعم مطمع، ولفظ رقيق لين حلو، وفواصل موسيقية ذات رنين مبهج، فمَن من الناس الذين نالوا حظاً من علم وأدب، وتمرسوا بنصوص فصاحة العرب لا يطمعه هذا الأسلوب في مباراته؟ هذه السماحة المعبرة في أسلوب الآيات، وهذه الرقة الباسمة في ألفاظها، وهذه الحلاوة في رنين فواصلها، تغري بالجري على سننها، لا بل إنها تطمع في معارضتها، ولكنه طمع في غير مطمع، فوَعِزَةِ القرآن لو أن أنبياء الناس وحكماءهم اجتمعوا على قلب أبينهم وأحكمهم وأفصحهم ما استطاعوا أن يأتوا بمثل آية من آيات القرآن بله سورة من سوره.

(٢٥)
شاهد لأثر البيان القرآني على نفوس البلغاء.

ليس هذا كلاماً خطابياً تدفع إليه عصبية دينية أو تقليد، ولكنه البحث والدراسة والنقد الفاحص، وتردد النظر المتأمل، روي أن أحد

---

(١) سورة الواقعة: الآيات من ١٠ إلى ٤٠.

(٢) سورة الغاشية: الآيات من ٨ إلى ١٦.

تلاميذ أبي العلاء المعري قال: دخلت على أبي العلاء في وقت خلوة بغير علم وكنت أتردد إليه لأقرأ عليه فسمعته ينشد:

كم بودرت غادة كعوب — وعمرت أمها العجوز
أحرزها الوالدان خوفاً — والقبر حرز لها حريز
يجوز أن تبطىء المنايا — والخلد في الدهر لا يجوز

ثم تأوه مرات وتلا: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لِّمَنْ خَافَ عَذَابَ ٱلْآخِرَةِ ذَٰلِكَ يَوْمٌ مَّجْمُوعٌ لَّهُ ٱلنَّاسُ وَذَٰلِكَ يَوْمٌ مَّشْهُودٌ. وَمَا نُؤَخِّرُهُۥٓ إِلَّا لِأَجَلٍ مَّعْدُودٍ. يَوْمَ يَأْتِ لَا تَكَلَّمُ نَفْسٌ إِلَّا بِإِذْنِهِۦ فَمِنْهُمْ شَقِيٌّ وَسَعِيدٌ﴾[1]، ثم صاح وبكى بكاء شديداً وطرح وجهه على الأرض زماناً ثم رفع رأسه ومسح وجهه وقال: سبحان مَن تكلم بهذا في القدم، سبحان مَن هذا كلامه، ثم صبرت ساعة، ثم سلمت عليه فرد علي، وقال: متى أتيت؟ فقلت: الساعة، ثم قلت: يا سيدي أرى في وجهك أثر غيظ؟ فقال: لا يا أبا الفتح، بل أنشدت شيئاً من كلام المخلوق وتلوت شيئاً من كلام الخالق فلحقني ما ترى.

وكيفما يكن حال هذه القصة فإنها تصور سلطان البيان القرآني على النفوس المؤمنة والجاحدة على سواء.

(٢٦)
سبر أغوار النفس الإنسانية وتكشُّف ضعفها وتقليدها.

ثم نزع آخر من الأسلوب يختص بالمحاورة، أتى فيه القرآن العظيم بما يملأ القلوب مهابة وجلالاً، ونبه فيه على دقائق نفسية من أصدق ما ينطبق على حقائق الناس في واقع وجودهم في الحياة.

نص النموذج الأول:

استمع إلى قوله تعالى: ﴿وَبَرَزُوا لِلَّهِ جَمِيعاً فَقَالَ ٱلضُّعَفَآءُ لِلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوٓا إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعاً فَهَلْ أَنتُم مُّغْنُونَ عَنَّا مِنْ عَذَابِ ٱللَّهِ مِن شَيْءٍ قَالُوا لَوْ هَدَىٰنَا ٱللَّهُ لَهَدَيْنَٰكُمْ سَوَآءٌ عَلَيْنَآ أَجَزِعْنَآ أَمْ صَبَرْنَا مَا لَنَا مِن

---

(١) سورة هود: الآيات (١٠٣ ـ ١٠٥).

مَحِيص، وَقَالَ ٱلشَّيْطَانُ لَمَّا قُضِيَ ٱلْأَمْرُ إِنَّ ٱللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ ٱلْحَقِّ وَوَعَدتُّكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ وَمَا كَانَ لِيَ عَلَيْكُم مِّن سُلْطَانٍ إِلَّا أَن دَعَوْتُكُمْ فَٱسْتَجَبْتُمْ لِي فَلَا تَلُومُونِي وَلُومُوا أَنفُسَكُم مَّا أَنَا بِمُصْرِخِكُمْ وَمَا أَنتُم بِمُصْرِخِيَّ إِنِّي كَفَرْتُ بِمَا أَشْرَكْتُمُونِ مِن قَبْلُ إِنَّ ٱلظَّالِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾[1].

فانظر إلى تصوير حال الأتباع الضعفاء مع المتبوعين الأقوياء، بعد أن ارتفعت عنهم أوهام القوة في يوم تجردوا فيه من كل سبب من أسباب الدنيا التي كانوا يتيهون بها على عباد الله استكباراً في الأرض وعتوا على الضعفاء المحرومين، ثم انظر إلى خبث الشيطان وسخريته من جنوده ممن قلده في استكباره وصلفه في صراحة مريرة وتبكيت خبيث، بعد أن تكشف له ولهم عواقبهم من مقت غضبه، وتأمل قوله تعالى: ﴿وَبَرَزُوا لِلَّهِ جَمِيعاً﴾ لتدرك ما في التعبير عن ظهورهم مجتمعين ليوم الحساب بهذه الصيغة، صيغة الفعل ﴿بَرَزُوا﴾ وكانوا في الدنيا لا يظهرون مجتمعين لأن القادة المستكبرين كانوا يأنفون أن يظهروا مع الأتباع الضعفاء، وفي هذا التعبير إشارة إلى ما كان عليه القادة المستكبرون من التخفي والتستر عن الأنظار في أحوالهم الخاصة التي كانوا يقضون فيها أوقاتهم من العبث والفجور وارتكاب الفواحش والإفساد في الأرض اعتماداً على ما كان لهم من أسباب الدنيا مما يسترهم من القصور المشيدة والصروح الشامخة عن أنظار الناظرين.

وفي ربط الفعل ﴿بَرَزُوا﴾ بلفظ الجلالة بحرف اللام إشارة إلى ما كانوا عليه من استهتار برقابة الله عليهم واطلاعه على خفايا أحوالهم متوهمين أنهم كما استتروا عن الناس استتروا عن رب الناس العليم الخبير، فلما ذهب عنهم ما كانوا به يستترون خرجوا من مخابىء أوهامهم إلى ساحة الحساب والعرض على الله عراة من كل سبب كان لهم في دنياهم لا تخفى عليه منهم خافية.

---

(١) سورة إبراهيم: الآيتان (٢١، ٢٢).

ثم تأمل عنوان كل طائفة في المحاورة، فالأتباع هم الضعفاء الأذلاء، والمتبوعون هم الأقوياء المستكبرون، وفي التعبير عنهم بالذين استكبروا ما يدل على أنهم استحدثوا هذا الاستكبار ولم يكن لديهم من أسبابه سبب وصيغة ﴿ٱسْتَكْبَرُوا﴾ تدل على التعجرف الفاجر وتكلف الكبرياء والتشامخ الأجوف.

(٢٧)
تفرد الأسلوب القرآني وبراعته البيانية ظاهر في كلماته المعجِزة.

فكلمات القرآن المفردة صور من المعاني والحقائق، فكل كلمة رسالة أو كتاب في تحليلها وتفصيل ما طوي فيها، وقد تجري بعض كلمات القرآن في كلام بعض المترسلين ولكنها لا تقع موقعها الذي يخلع عليها هذا اللون من البراعة البيانية في أسلوب القرآن، وهذا ضرب من ضروب الإعجاز في القرآن لو تُتُبِّع لخرج منه علم كثير.

ثم تأمل خذلان قائد المستكبرين ومقدَّمهم في الضلال والتضليل لأتباعه المتكبرين وتبريه من جريمة إضلالهم، وهو الذي خيل إليهم الاستكبار فضيلة، بأنه ما كان له عليهم من سلطان يقسرهم به على الكفر والفجور بالاستكبار والغطرسة على خلق الله، وكشف لهم عن عجزه، وأنه وإياهم في ضلال مبين، ولم يكتف بخذلانهم وعجزه عن مؤاساتهم بل ذهب يوبخهم على أنهم قد انقادوا له دون تعقل، فلم يتدبروا ما كان حولهم في الدنيا من عظات وعبر، فاللوم واقع على أنفسهم لا على شيطانهم وإبليسهم وهو يعترف أمامهم زيادة في التنكيل بهم بأنه أعجز عن أن يقدر على إغاثتهم كما أنهم عاجزون عن إغاثته وكلٌّ في العذاب مشتركون.

(٢٨)
نماذج أخرى لصور المحاورة بين المتكبرين والمستضعفين.

وقد جاء هذا اللون من أسلوب المحاورة بين الأتباع والمتبوعين في صور متعددة من آيات القرآن، فمن ذلك قوله تعالى: ﴿إِذْ تَبَرَّأَ ٱلَّذِينَ ٱتُّبِعُوا مِنَ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوا وَرَأَوُا ٱلْعَذَابَ وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ ٱلْأَسْبَابُ. وَقَالَ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوا لَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً فَنَتَبَرَّأَ مِنْهُمْ كَمَا تَبَرَّأُوا مِنَّا كَذَٰلِكَ يُرِيهِمُ

ٱللَّهُ أَعْمَالَهُمْ حَسَرَاتٍ عَلَيْهِمْ وَمَا هُم بِخَارِجِينَ مِنَ ٱلنَّارِ﴾[1].

ومنه قوله تعالى: ﴿قَالَ ٱدْخُلُوا فِي أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِكُم مِّنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ فِي ٱلنَّارِ كُلَّمَا دَخَلَتْ أُمَّةٌ لَّعَنَتْ أُخْتَهَا حَتَّى إِذَا ٱدَّارَكُوا فِيهَا جَمِيعاً قَالَتْ أُخْرَاهُمْ لِأُولَاهُمْ رَبَّنَا هَـٰؤُلَاءِ أَضَلُّونَا فَآتِهِمْ عَذَاباً ضِعْفاً مِّنَ ٱلنَّارِ قَالَ لِكُلٍّ ضِعْفٌ وَلَـٰكِن لَّا تَعْلَمُونَ. وَقَالَتْ أُولَاهُمْ لِأُخْرَاهُمْ فَمَا كَانَ لَكُمْ عَلَيْنَا مِن فَضْلٍ فَذُوقُوا ٱلْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْسِبُونَ﴾[2].

ومنه قوله تعالى: ﴿وَإِذْ يَتَحَاجُّونَ فِي ٱلنَّارِ فَيَقُولُ ٱلضُّعَفَاءُ لِلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوا إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعاً فَهَلْ أَنتُم مُّغْنُونَ عَنَّا نَصِيباً مِّنَ ٱلنَّارِ. قَالَ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوا إِنَّا كُلٌّ فِيهَا إِنَّ ٱللَّهَ قَدْ حَكَمَ بَيْنَ ٱلْعِبَادِ﴾[3].

ونكتفي بهذه النماذج عن عرض بعض آيات الكتاب الكريم، والنظر في أسلوبها وما يكمن فيه من براعة البيان والتنبيه على مواطن الإعجاز البلاغي فيها لتكون أمثلة لدراسة مستفيضة مستوعبة لمن تواتيه الفرصة للبحث في مستقبل الأيام.

(٢٩)
التناسب الظاهر بين المعاني واختلاف الآيات طولاً وقصراً.

وهناك ظاهرة انفرد بها أسلوب القرآن، نرى أن نعرض لها عرضاً إجمالياً على نمط ما عرضنا له من النظر في نماذج الإعجاز البياني في هذا الكتاب الكريم.

تلك الظاهرة هي تفصيل آياته وتقسيمها تقسيماً يتفاوت طولاً وقصراً، ويختلف في مقاطعه وفواصله باختلاف المعاني التي تؤدى بها.

فآيات الأحكام والتشريع يغلب عليها الطول والبعد عن السجع ورنين الفواصل ويكثر ذلك في السور المدنية، فسورة البقرة أطول سور القرآن وأعظمها اشتمالاً على الأحكام التشريعية، لا تكاد ترى

---

(١) سورة البقرة: الآيتان (١٦٦، ١٦٧).
(٢) سورة الأعراف: الآيتان (٣٨، ٣٩).
(٣) سورة غافر: الآيتان (٤٧، ٤٨).

فيها سجعاً أو فقراً قريبة الفواصل، ولعل السبب في ذلك ـ كما يبدو لنا ـ أن المقصود الأهم فيما هو من هذا القبيل من سور القرآن الكريم إنما هو أداء الأحكام وصرف الهمة إليها صرفاً كاملاً حتى لا يُشغَل السامع بغيرها، وتطلُّباً للإقبال على فهمها والعمل بها، فلو جاء الكلام في هذه السور والآيات التشريعية مسجوعاً قصير الفقرات لكان في رنين السجع وحلاوته في السمع، وتقسيم الفواصل ما يشغل الذهن عن الاستجماع إلى المعاني والأحكام التي هي المقصود الأول الأهم هنا.

أما غير آيات الأحكام والتشريع فليس ثمة ما يمنع فيها من السجع والتقسيم ورنين الفواصل، وربما زادها ذلك جمالاً وحلاوة في السمع على ما نراه في كثير من سور القرآن، ولكل مقام مقال.

(٣٠)
هل السجع من أساليب القرآن؟

ومن هنا اختلف العلماء ونقَدة الأدب في دخول السجع في أسلوب القرآن، هل تعد فقر القرآن وآياته التي تجري على استواء ما عرف عند العرب بالسجع سجعاً فيكون حينئذ السجع من أساليب القرآن أو لا يعد ذلك سجعاً، فلا يكون حينئذ السجع من أساليب القرآن؟

(٣١)
كلام غير مسلّم للقاضي الباقلاني في المسألة.

فذهب القاضي أبو بكر الباقلاني وجماعة من علماء الكلام إلى أن القرآن كله خارج عن أسلوب كلام العرب، فلا يقال له: مرسل ولا مسجوع، وشددوا النكير على من زعم أن في القرآن سجعاً، قال الباقلاني في كتاب الإعجاز: (لو كان القرآن سجعاً لكان غير خارج عن أساليب كلامهم، ولو كان داخلاً فيها لم يقع بذلك إعجاز. . . . والذي يقدرونه سجعاً فهو وهم لأنه قد يكون الكلام على مثال السجع وإن لم يكن سجعاً، لأن ما يكون به الكلام سجعاً يختص ببعض الوجوه دون بعض، لأن السجع من الكلام يتبع المعنى فيه اللفظ الذي يؤدي السجع، وليس كذلك ما اتفق مما هو في تقدير السجع من القرآن لأن اللفظ يقع فيه تابعاً للمعنى، وفصل بين أن ينتظم الكلام في نفسه

بألفاظه التي تؤدي المقصود فيه وبين أن يكون المعنى منتظماً دون اللفظ، ومتى ارتبط المعنى بالسجع كانت إفادة السجع كإفادة غيره، ومتى ارتبط المعنى بنفسه دون السجع كان مستجلباً لتجنيس الكلام دون تصحيح المعنى).

وهذا الكلام الذي تأثر فيه الإمام الباقلاني بمنطق المتكلمين موضع للبحث، لا تسلم قضاياه وقد رده عليه كثير من العلماء ونقاد الأدب.

(٣٢)
رأي العلّامة ابن خلدون في نفي السجع عن القرآن.

وقد ذهب إلى نفي السجع عن القرآن العلّامة ابن خلدون فقال في مقدمته: (وأما القرآن وإن كان من المنثور إلا أنه خارج عن الوصفين، وليس يسمى مرسلاً مطلقاً ولا مسجعاً، بل تفصيل آيات ينتهي إلى مقاطع يشهد الذوق بانتهاء الكلام عندها، ثم يعاد الكلام في الآية الأخرى بعدها ويثنّى من غير التزام حرف يكون سجعاً ولا قافية، وهو معنى قوله: ﴿ٱللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ ٱلْحَدِيثِ كِتَاباً مُّتَشَابِهاً مَّثَانِيَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ﴾[1]، وقال: ﴿قَدْ فَصَّلْنَا ٱلآيَاتِ﴾ ويسمى آخر الآيات منها فواصل، إذ ليست أسجاعاً ولا التزم فيها بما يلتزمه السجع.

(٣٣)
التحقيق في أصل المسألة، وبيان أن إثبات السجع في القرآن لا يخرجه عن إعجازه، لسمو مكانته البلاغية والبيانية، بل هو أدعى إلى تحقيقه.

وقد تأثر بهذا الرأي بعض المحدثين من الأدباء والكتاب. والقضية التي يجب أن يدور حولها البحث هي: هل في القرآن سجع؟ أي جمل متوازنة لها فواصل من غير وزن كوزن الشعر؟ وليست القضية أن القرآن كله سجع أو غير سجع ولم يقل أحد مطلقاً بأن القرآن كله سجع، ولا يعقل أن يقوله عاقل، بله عالماً أديباً، ووجود السجع في القرآن في بعض سوره وآياته لا يدخله في أساليب كلام البشر دخولاً يستوي به معها حتى يخرجه عن الإعجاز، ومَن الذي زعم أن أسلوب

---

(١) سورة الزمر: الآية (٢٤).

السجع كله متحد في درجته البيانية ومرتبته البلاغية؟ أفلا يجوز أن يوجد من كلام البشر كلام مسجوع، وهو متفاوت في درجات البيان والبلاغة؟ وهل يكون سجع حكماء العرب وعقلائهم من ذوي الفصاحة واللسن مماثلاً لسجع الكهان الذين يقصدون إلى التعمية في المعاني برصف الألفاظ؟ وإذا تفاوت السجع في كلام البشر فما الذي يمنع أن يكون السجع الذي جاء في القرآن بلغ في البراعة البيانية درجة يعجز عنها البلغاء، وقد كان جنسه في مقدورهم، وهذا موقف القرآن من سائر أنواع الكلام وأساليب البيان، فجنسه كلام مؤلف من ألفاظ عربية كأي كلام عربي، ولكنه سما إلى الذروة البلاغية بطبيعته الخاصة في الأداء وبعلو طبقته في براعة البيان، وهذا أبلغ في تحقيق الإعجاز.

أما الزعم بأن السجع دائماً يتبع فيه المعنى اللفظ، فهو زعم غير سديد لأنه إذا صح في سجع الكهان وسجع الصنعة والتكلف فلن يصح في سجع الطبيعة وسماحة الطبع.

(٣٤)
كلام نفيس للإمام ابن الأثير في حقيقة السجع، وإثبات مجيئه في القرآن.

قال ابن الأثير في «المثل السائر»: (فإذا صفى الكلام المسجوع من الغثاثة والبرد فإن وراء ذلك مطلوباً آخر وهو أن يكون اللفظ فيه تابعاً للمعنى لا أن يكون المعنى فيه تابعاً للفظ....)، ثم قال: (لو كان السجع مذموماً لما ورد في القرآن الكريم، فإنه قد أتى منه بالكثير حتى إنه ليؤتى بالسور جميعاً مسجوعة كسورة الرحمن والقمر).

(٣٥)
رأي الإمام أبي هلال العسكري وإثباته الازدواج في القرآن.

وقال أبو هلال العسكري في الصناعتين: (ولا تكاد تجد لبليغ كلاماً يخلو من الازدواج ولو استغنى عن الازدواج لكان القرآن، لأنه في نظمه خارج عن كلام الخلق، وقد كثر الازدواج فيه حتى حصل في أوساط الآيات فضلاً عما ازدوج في الفواصل منه).

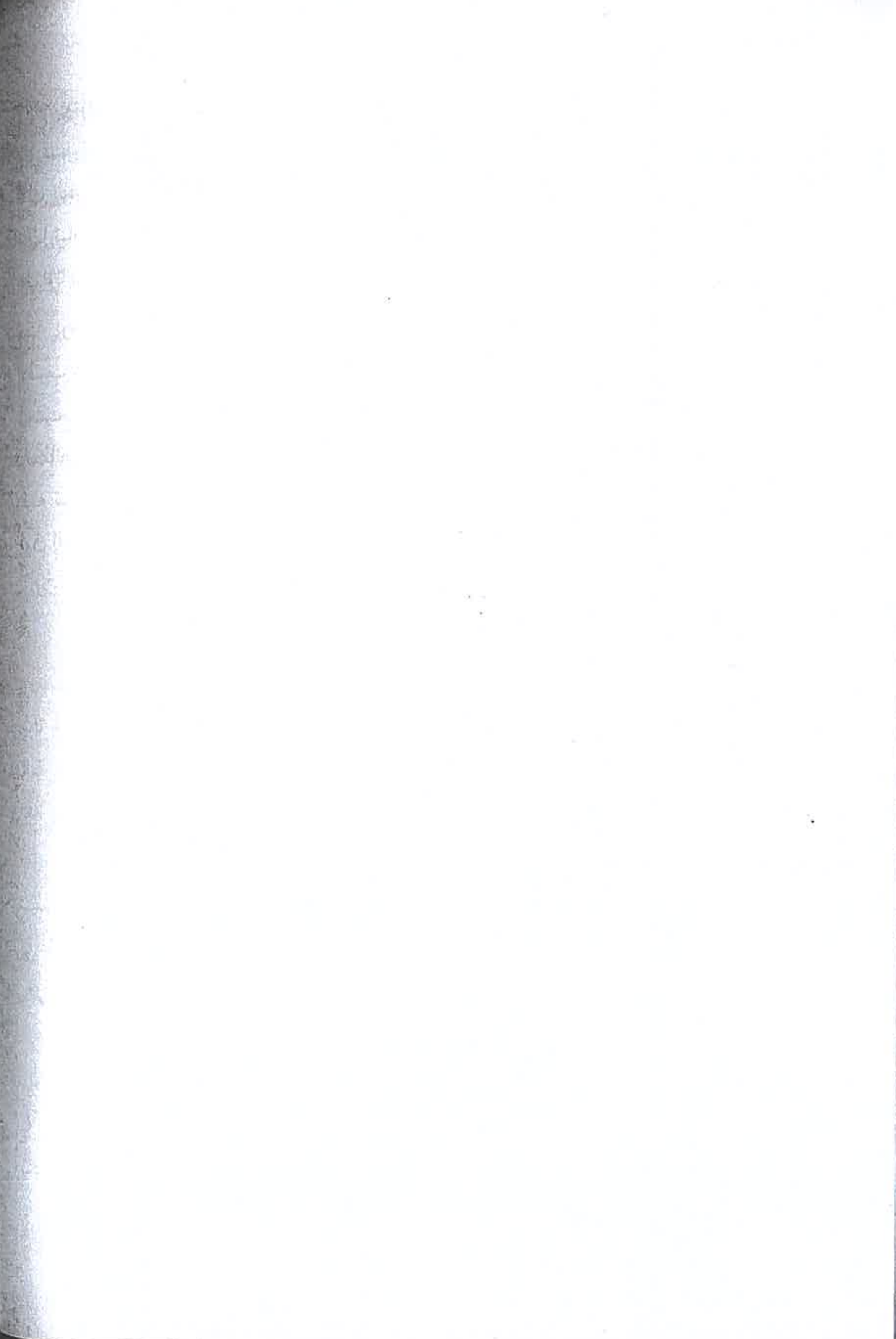
(٣٦)
بيان كون الخلاف لفظياً بين المتكلمين والأدباء، وخلاصة البحث.

والظاهر أن المسألة نشأت من اختلاف منهج المتكلمين مع منهج الأدباء والبلاغيين وهو اختلاف تعبير وليس اختلاف جوهر في حقيقة علمية أو قضية فنية، فالمتكلمون لا ينكرون أن في القرآن فِقراً

وآيات متوازنة مقفّاة غير موزونة بأوزان الشعر، يسمونها فواصل وآيات، ولا يسمونها سجعاً وازدواجاً، والبلاغيون والأدباء لا يتوقفون في تسمية تلك الفقر سجعاً، والجميع متفقون على أن هذه الفقر مما كان اللفظ فيها تابعاً للمعنى موجود في القرآن، فالخلاف ـ كما يقول علماؤنا ـ : لفظي.

وخلاصة الرأي أن القرآن العظيم كلام من جنس منثور كلام العرب في ألفاظه وعباراته، ولكنه مباين في علو طبقته وسمو درجته لجميع كلام الخلق في نظمه وأسلوبه فهو من المنثور الجامع لخصائص أبلغ فنونه وأعلى طبقات أنواعه، فيه سجع يقتضيه المقام، وفيه ترسّل يبلغ غاية المرام، وهو في كليهما معجِز خارج عن طوق البشر.

* * *



التفسير بالمأثور

(١)
بيان وجوه الحكمة في نزول القرآن مفرّقاً.

نزل القرآن الكريم على رسول الله ﷺ بلسان عربي مبين، منجّماً على حسب مقتضيات الأحوال ومجرى الحوادث، ووقوع الأحداث وظهور القضايا والوقائع في مدى ثلاث وعشرين سنة، وهي عمر الرسالة في حياة رسول الله ﷺ كما هو مروي عن ابن جريج، ويقول قتادة: كان بين أوله وآخره عشرون سنة، قال الله تعالى: ﴿وَقُرْآناً فَرَقْنَاهُ لِتَقْرَأَهُ عَلَى ٱلنَّاسِ عَلَى مُكْثٍ وَنَزَّلْنَاهُ تَنْزِيلاً﴾(١)، وهذا رد على المشركين في تعنتهم وطلبهم أن يكون نزول القرآن جملة واحدة كنزول الكتب السابقة فبيّن الله الحكمة في نزوله منجّماً مفرّقاً مفصّلاً، وذلك ليكون حفظه أسهل وعلم معانية أيسر وأثبت.

وقال تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ ٱلْقُرْآنُ جُمْلَةً وَاحِدَةً كَذَٰلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِ فُؤَادَكَ وَرَتَّلْنَاهُ تَرْتِيلاً﴾(٢)، وفي هذه الآية تصريح بشبهة الكافرين مسندة إليهم وفيها دحض لهذه الشبهة وبيان للحكمة في التنزيل مفرقاً، وهي تثبيت فؤاد النبي ﷺ والتيسير عليه وعلى أمته في حفظه والإحاطة بمعانيه وأسراره والامتثال لأوامره ونواهيه، والعمل بأخلاقه وسياسته، وتحقيق إعجازه على أبين وجه وأكمله،فإن المعارضة للكلام المفرق نجوماً أيسر من المعارضة لكتاب

---

(١) سورة الإسراء: الآية (١٠٦).
(٢) الفرقان: الآية (٣٢).

جملة واحدة، والتحدي بإعجازه بدأ مع نزوله، فكأنه تحداهم بكل نجم منه قل أو كثر فعجزوا وتحيروا ولم يأتوا بشيء ﴿وَقَالُوالَوْ نَشَآءُ لَقُلْنَا مِثْلَ هَـٰذَا﴾، وهم كاذبون مكابرون، لأنه كان يقرعهم ويمعن في تعجيزهم بأنهم لن يستطيعوا معارضة القرآن فلو كانت المعارضة ممكنة لطاروا إليها، ولو وقعت لطارت إلى الناس في الشرق والغرب.

(٢)
بيان النبي ﷺ القرآنَ لصحابته أهلِ لغة القرآن رضي الله عنهم.

وكذلك تلقاه أصحاب رسول ﷺ مِن فيه مشافهة، فحفظه كلَّه حفّاظُهم في صدورهم، وكتبه كله كتّابُهم بين يدي رسول الله ﷺ على سمعه وبصره، وبتعليمه وإرشاده، وتدارسه مع جمهورهم، تفقيهاً لهم في دستور دينهم وبياناً لنظام دنياهم، يسألونه عما خفي عليهم من فقهه ومعانيه فيجيبهم مبيناً في غير إسهاب لأنهم لم يكونوا في حاجة إلى إسهاب وهم أهل لسانه القيمون على لغته العارفون بمعانيه بسليقتهم ومشاهدتهم لنزوله وحذقهم لحقيقته ومجازه، يسمعون من النبي ﷺ تفسيره فيعلمون مطلقه ومقيده، وعامه وخاصه، وناسخه ومنسوخه، ومجمله ومفصله، ومبهمه ومفسره، ومحكمه ومتشابهه، وكانوا أقدر الناس على فهم أسلوبه، يدركون بفطنتهم إشاراته ومراميه، لا يختلفون عليه، ولا يختلفون فيه. وإذا تنازعوا في علم من علمه ردوه إلى رسول الله ﷺ ليبين لهم وهو بين أظهرهم عملاً بإرشاد الله تعالى: ﴿فَإِن تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱلرَّسُولِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ ذَٰلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلاً﴾[١].

(٣)
كلام للإمام ابن تيمية في بيان اختلاف التفسير عند السلف.

وقد ذكر الإمام ابن تيمية في مقدمة أصول التفسير أن اختلاف السلف في التفسير اختلاف تنوع، لا اختلاف تضاد، وذلك نوعان:

أحدهما: أن يعبر واحد منهم عن المعنى المراد بعبارة غير صاحبه، تدل على معنى في المسمى غير المعنى الآخر مع اتحاد المسمى،

---

(١) سورة النساء: الآية (٥٩).

كتفسيرهم الصراط المستقيم، فسره بعض بالقرآن، أي اتباعه، وبعض بالإسلام، فالقولان متفقان لأن دين الإسلام هو اتباع القرآن، ولكن كل منهما نبه على وصف غير الوصف الآخر، كما أن لفظ الصراط يشعر بوصف ثالث، وكذلك قول من قال: هو السنة والجماعة، وقول من قال: هو طريق العبودية، وقول من قال: هو طاعة الله ورسوله، وأمثال ذلك، فهؤلاء كلهم أشاروا إلى ذات واحدة لكن وصفها كلّ منهم بصفة من صفاتها.

النوع الثاني: أن يذكر كل منهم من الاسم العام بعض أنواعه على سبيل التمثيل وتنبيه المستمع على النوع، لا على الحد المطابق للمحدود في عمومه وخصوصه. مثاله ما نقل في قوله تعالى: ﴿ثُمَّ أَوْرَثْنَا ٱلْكِتَابَ ٱلَّذِينَ ٱصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ وَمِنْهُمْ مُقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌ بِٱلْخَيْرَاتِ بِإِذْنِ ٱللَّهِ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَضْلُ ٱلْكَبِيرُ﴾[1]، ومعلوم أن الظالم لنفسه يتناول المضيع للواجبات والمنتهك للحرمات، والمقتصد يتناول فاعل الوجبات وتارك المحرمات، والسابق يدخل فيه من سبق فتقرب بالحسنات مع الواجبات. فالمقتصدون هم أصحاب اليمين، والسابقون أولئك المقربون، ثم إن كُلًّا يذكر هذا في نوع من أنواع الطاعات كقول القائل: السابق الذي يصلي في أول الوقت، والمقتصد الذي يصلي في أثنائه، والظالم لنفسه الذي يؤخر العصر إلى الاصفرار.

وأصحاب رسول الله ﷺ أحق بهذا التوجيه وأهله لأنهم صدر السلف وعنهم أخذ مَن بعدهم وكان النزاع بينهم في تفسير القرآن قليلاً جداً، لأن ما تكلموا فيه منه قليل، وما نقل عن رسول الله في التفسير قليل موجز، يقصد به إلى تبيين مواضع العبرة ومعقد الهداية في آيات

(١) سورة فاطر: الآية (٣٢).

الذكر الحكيم. روي عن أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها، قالت: لم يكن النبي ﷺ يفسر شيئاً من القرآن إلا آيات تُعَدّ علمهن إياه جبريل.

(٤) شواهد من تفسير النبي ﷺ لآياتٍ من القرآن العظيم.

وشاهد ما ورد من تفسير النبي ﷺ ما رواه الطبراني من حديث سفيان بن عيينة أنه لما نزل قول الله تعالى: ﴿خُذِ ٱلْعَفْوَ وَأْمُرْ بِٱلْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْجَاهِلِينَ﴾[1]، قال النبي ﷺ: «ما هذا يا جبريل؟ قال: إن الله يأمرك أن تعفو عمن ظلمك، وتعطي من حرمك، وتصل من قطعك».

ومن شواهده أيضاً ما رواه الإمام أحمد في المسند عن أبي سعيد الخدري، عن النبي ﷺ، قال: «كل حرف من القرآن يذكر فيه القنوت فهو الطاعة».

ومنها ما أخرجه الخطيب عن ابن عمر، عن النبي ﷺ في قوله تعالى: ﴿يَتْلُونَهُ حَقَّ تِلَاوَتِهِ﴾، قال: «يتبعونه حق اتباعه».

ومنها ما أخرجه ابن مردويه عن علي بن أبي طالب، عن النبي ﷺ في قوله: ﴿لَا يَنَالُ عَهْدِي ٱلظَّالِمِينَ﴾ قال: «لا طاعة إلا في المعروف»، ويعضده ما جاء موقوفاً عن ابن عباس، قال: ليس لظالم عليك عهد أن تطيعه في معصية الله.

ومنها ما رواه البخاري ومسلم في قوله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا﴾ قال النبي ﷺ: «يدعى نوح يوم القيامة فيقال له: هل بلّغت؟ فيقول: نعم، فيدعى قومه فيقال لهم: هل بلغكم؟ فيقولون ما أتانا من نذير، وما أتانا من أحد، فيقال لنوح: من يشهد لك؟ فيقول: محمد وأمته، قال النبي ﷺ: فذلك قوله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا﴾ والوسط العدل فتدعون فتشهدون له بالبلاغ وأشهد عليكم».

---

(١) سورة الأعراف: الآية (١٩٩).

ومنها ما أخرجه أبو الشيخ والديلمي عن ابن عباس، قال: قال رسول الله ﷺ في قوله: ﴿فَٱذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ﴾ فيقول: اذكروني يا معشر العباد بطاعتي أذكركم بمغفرتي.

ومنها ما أخرجه الترمذي وصححه عن أبي أمية السفياني، قال: أتيت أبا ثعلبة الخشني، فقلت له: كيف تصنع في هذه الآية؟ قال: أية آية؟ قلت: قوله تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا عَلَيْكُمْ أَنفُسَكُمْ لَا يَضُرُّكُم مَّن ضَلَّ إِذَا ٱهْتَدَيْتُمْ﴾، قال: أما والله لقد سألت عنها خبيراً، سألت عنها رسول الله ﷺ فقال: «بل ائتمروا بالمعروف وتناهوا عن المنكرحتى إذا رأيت شحاً مطاعاً وهوى متبعاً ودنيا مؤثرة وإعجاب كل ذي رأي برأيه فعليك بخاصة نفسك ودع العوام».

ومنها ما أخرجه الفريابي، قال: سئل النبي ﷺ عن هذه الآية ﴿فَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يَهْدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَـٰمِ﴾ قالوا: كيف يشرح صدره؟ قال: «نور يقذف به فينشرح له وينفسح»، قالوا: فهل لذلك من أمارة يعرف بها؟ قال: «الإنابة إلى دار الخلود والتجافي عن دار الغرور والاستعداد للموت قبل لقاء الموت».

ومنها ما أخرجه الإمام أحمد في المسند عن عائشة رضي الله عنها أنها قالت: يا رسول الله ﴿ٱلَّذِينَ يُؤْتُونَ مَآ ءَاتَوا وَّقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ﴾، هو الذي يسرق ويزني ويشرب الخمر وهو يخاف الله؟ قال: «يا ابنة الصديق، ولكنه الذي يصوم ويصلي ويتصدق ويخاف الله».

ومنها ما أخرجه ابن جرير والطبراني من طريق موسى بن علي بن رباح، عن أبيه، عن جده، أن النبي ﷺ قال له: «ما ولد لك»؟ قال: ما عسى أن يولد لي؟ إما غلام أو جارية، قال: فمن يشبه؟ قال: من عسى أن يشبه؟ إما أباه أو أمه، فقال النبي ﷺ: «مه؟ لا تقولنّ هذا، إن النطفة إذا استقرت في الرحم أحضرها الله تعالى كل نسب

بينهـا وبين آدم، أمـا قـرأت: ﴿فِي أَيِّ صُـورَةٍ مَـا شَـآءَ رَكَّبَـكَ﴾ قال: سلكك.

(٥) تفسير النبي ﷺ وخاصةِ أصحابه كان موجزاً مبيِّناً هادياً.

هذه نصوص التقطناها من فصل طويل أثبته السيوطي في إتقانه، وقد توخينا فيها ما رجحت عندنا صحته بمؤيِّد أو سند وقد تتبع السيوطي في هـذا الفصل سـور القرآن سـورة سورة، وهي تؤكـد مـا قلنـاه من أن التفسيـر المأثـور عن النبي ﷺ كـان مـوجـزاً، يقصـد إلى بيـان موطن الهداية في الآيـة، وكذلـك ما جـاء عن خواص أصحـابه وعلمـائهم من مأثور التفسير، فإنه ذهب هذا المذهب، أما التفاسير المـطوَّلة المنسوبة إلى ابن عباس وتلاميذه فأكثرها مما أخذ عن مسلمة اليهود أو من تتلمذ لهم من غيـرهم تـأثـراً بمـا ورثوه من شـروح التـوراة وسـائـر كتبهم، وهذا يحتاج إلى نظر ممحص.

(٦) طريقة النبي ﷺ في البيان وتربية الصحـابـة في القرآن.

وكان ﷺ يجيب أصحابه إذا سألوا، ويرشدهم إذا سكتوا، يعجبه منهم أن يسألوا فيمـا ينفعهم في دينهم ودنياهم وأن يعملوا بمـا علموا، ولا يعجبه أن يستكثروا من المسـائل رحمـة بهم وشفقة عليهم والوحي ينـزل عليـه، يخشى أن يشـدد الله عليهم فيضعفـوا عن العمـل، وهو الرؤوف الرحيم بهم، الحريص عليهم وعلى سلامتهم، العزيز عليه عنتهم ومشقتهم، فلما أكثر عليه من لم يرسخ من حدثانهم وسألوا فيما يفيـد وما لا يفيـد حتى قال بعضهم: من أبي؟ أدبهم الله فـأنـزل قـوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا ٱلَّذِينَ آمَنُوا لَا تَسْأَلُوا عَنْ أَشْيَآءَ إِنْ تُبْدَ لَكُمْ تَسُؤْكُمْ وَإِنْ تَسْأَلُوا عَنْهَا حِينَ يُنَزَّلُ ٱلْقُرْآنُ تُبْدَ لَكُمْ عَفَا ٱللَّهُ عَنْهَا وَٱللَّهُ غَفُورٌ حَلِيمٌ. قَدْ سَأَلَهَا قَوْمٌ مِنْ قَبْلِكُمْ ثُمَّ أَصْبَحُوا بِهَا كَافِرِينَ﴾(١).

(٧) شاهد لما سبق.

وشـاهد ذلـك ما رواه مسلم في صحيحه عن أبـي هريـرة، قال: خطبنا رسول الله ﷺ فقال: «أيها الناس قد فُرض عليكم الحج فحجوا»، فقال

(١) سورة المائدة: الآيتان (١٠١، ١٠٢).

رجل: كل عام يا رسول الله؟ فسكت حتى قالها ثلاثاً فقال رسول الله ﷺ: «لو قلت نعم لوجبت ولما استطعتم» ثم قال: «ذروني ما تركتم فإنما أهلك من كان قبلكم كثرة مسائلهم واختلافهم على أنبيائهم، فإذا أمرتكم بأمر فأتوا منه ما استطعتم وإذا نهيتكم عن شيء فدعوه».

وقد انتقل رسول الله ﷺ إلى الرفيق الأعلى والقرآن الكريم محفوظ في الصدور مكتوب في الألواح والصحف، مرتب الآيات توقيفاً من رسول الله ﷺ.

(٨)
أبو بكر رضي الله عنه ينشرح لمشورة عمر رضي الله عنه في جمع القرآن، ويعهد بذلك لألزم كتّاب الوحي (زيد بن ثابت الأنصاري) رضي الله عنه.

ولما كثر الاستشهاد في جملة القرآن في حروب الردة أشار عمر بن الخطاب على أبي بكر الصديق أن يجمع القرآن لئلا يذهب كثير منه بذهاب حفظته، فتوقف أبو بكر قليلاً ثم شرح الله صدره لِما رآه عمر، فعهد إلى ألزم كتّاب الوحي لرسول الله ﷺ وأكثرهم كتابة لوحي القرآن، الفحل لا يقدع أنفه، والعيلم لا تغمز قناته: زيد بن ثابت الأنصاري، أن يقوم بمهمة جمع القرآن تحت سمعه وسمع عمر وبصره وبصر عمر وبمشهد من الأجلّة السابقين الأولين وبعلم جميع من حضر من أصحاب رسول الله ﷺ وفيهم علي وأبيّ وابن مسعود ممن اشتهر بجمع القرآن كله في صدره حفظاً كما تلقاه من رسول الله ﷺ فلم يغير عليه أحد منهم ولم تنقل كلمة عن واحد منهم في الإنكار عليه.

(٩)
ظهور ورع زيد رضي الله عنه، وانشراح صدره وجمعه الأول للقرآن الكريم، وانضمام نفر إليه لنسخه في زمن عثمان رضي الله عنه.

وتوقف زيد قليلاً تهيباً لمهمته التي كلف القيام بها حتى شرح الله صدره للذي شرح له صدر أبي بكر وعمر، وتم الجمع في صحف كانت عند أبي بكر حتى توفاه الله، ثم كانت عند عمر حياته ثم كانت عند أم المؤمنين حفصة بنت عمر حتى طلبها عثمان رضي الله عنه في خلافته من حفصة حينما اختلف قرأة الأقطار الإسلامية من الصحابة في أحرف القراءات المنزلة فخشي حذيفة عاقبة هذا الاختلاف، وأشار على

عثمان بتدارك الأمر قبل أن يستفحل، فعهد عثمان إلى صاحب الجمع الأول زيد بن ثابت صاحب جمع أبي بكر وضم إليه نفراً من قريش وأمرهم بنسخ صحف أبي بكر التي كانت موجودة عند حفصة، ولما تم نسخ المصاحف رد عثمان الصحف إلى أم المؤمنين حفصة. وأرسل إلى كل أفق بمصحف مما نسخوا، فكانت تلك المصاحف هي الإمام في حفظ القرآن مكتوباً باتفاق جميع الصحابة ومَن عاصرهم من سائر المسلمين.

(١٠)
وصف القرآن ومكانته السامية.

فالقرآن كما وصفه رسول الله ﷺ في حديث الترمذي وأبي نعيم: «كتاب الله، فيه نبأ ما كان قبلكم وخبر ما بعدكم، وحكم ما بينكم، وهو الفصل، ليس بالهزل، من تركه من جبار قصمه الله، ومن ابتغى الهدى في غيره أضله الله، وهو حبل الله المتين، وهو الذكر الحكيم، وهو الصراط المستقيم، هو الذي لا تزيغ به الأهواء، ولا تلتبس به الألسنة، ولا يشبع منه العلماء ولا يخلق على كثرة الرد، ولا تنقضي عجائبه، هو الذي لم تنته الجن إذ سمعته حتى قالوا: إنا سمعنا قرآناً عجباً يهدي إلى الرشد، من قال به صدق، ومن عمل به أُجِر، ومن حكم به عدل، ومن دعا إليه فقد هدي إلى صراط مستقيم».

(١١)
عناية منقطعة النظير بكتاب الله تعالى.

والتاريخ الصادق لا يتردد في تقرير أنه لم يعرف أن كتاباً إلٰهياً أو كتاباً بشرياً في مدى حياة المجتمع الإنساني، عاصر أحداث تطور الإنسانية الفكرية والاجتماعية، وعاصر المد الحضاري في العصور المختلفة حظي بمثل ما حظي به القرآن من العناية في تلقيه وحفظه وضبطه، ونقله، وروايته جِيلاً عن جيل، وعصراً بعد عصر.

فهو الكتاب الفذ الذي حفظ في صدور قرائه من جماهير المسلمين في شرق الأرض وغربها، وشمالها وجنوبها، يحفظه ألوف الألوف ماهرين به في حذق التلاوة، لا يفوتهم منه حرف، بله كلمة أو آية.

وهو الكتاب الفذ الذي كتب كله في حياة رسول الله ﷺ لم يفقد منه حرف.

وهو الكتاب الفذ الذي أجمع المسلمون بجميع فرقهم، وأعصرهم، وبلدانهم، على شرط التواتر القاطع في نقله سورة سورة، وآية آية، وكلمة كلمة.

وهو الكتاب الفذ الذي انفرد في عصر النبي ﷺ بالكتابة بأمره ﷺ حتى ينفرد بالتعالم، ويشتهر بالعرفان لدى الخاصة والعامة، فلا يشتبه بغيره لأول وهلة، وإن كان بأسلوبه البياني الخاص لا يمكن فيه الاشتباه عند أدنى تأمل. روى الأئمة وأخرجه مسلم من حديث أبي سعيد، قال: قال رسول الله ﷺ: «لا تكتبوا عني شيئاً غير القرآن».

وهو الكتاب الفذ الذي دُوِّن تاريخه مرحلة مرحلة، فقد عرف متواتراً طريق نزوله، وأمكنة نزول آياته وسورة وأزمنة نزولها، وحال نزولها، وأسباب نزولها، وعرف منه أول ما نزل، وآخر ما نزل، وما نزل منه مفرقاً، وما نزل جميعاً، وعرف عدد سوره، وعدد كلماته، وعدد حروفه ولغاته، وإعجازه، وسائر خصائصه التي امتاز بها عن جميع الكلام.

ذلك لأن القرآن منذ نزوله آية آية، وسورة سورة، كان له تاريخ مشهود في تلقيه ونقله بالتواتر القاطع وحفظه في الصدور وكتابته في الصحف والمصاحف فلم يعرف التاريخ القرآني أن وقتاً من الأوقات أو لحظة من لحظات الزمن فقد المسلمون سورة من سوره، بل آية من آيه، وكانت خصيصة القرآن في تلقيه ونقله التواتر القطعي، فهو بهذا محفوظ حفظاً تاماً تحقيقاً لوعد الله تعالى في قوله: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ﴾.

(١٢)
العمل مقارن للعلم والتقوى في زمن الصحابة رضي الله عنهم.

وكان أجلّاء أصحاب رسول الله ﷺ يُعنَون أشد العناية بحفظ القرآن في صدورهم لأنهم عرب أميون لا يكتبون ولا يقرأون في كتاب وكانوا يعنون بعلم ما يحفظون، ويعملون بما يعلمون، كان إذا حفظ أحدهم عشر آيات وقف عندها، يتفقه فيها ويتعلم معانيها ويعمل بما علم، وكان أحدهم يلبث زمناً طويلاً في حفظ السورة الطويلة. ويقول أنس بن مالك: كان الرجل إذا قرأ البقرة وآل عمران جدّ في أعيننا. وأخرج الإمام مالك في الموطأ: أن عبد الله بن عمر مكث في حفظ البقرة ثماني سنين.

وهم على ذلك متفاوتون في الحفظ والعلم، فمنهم من حفظ القرآن كله وعلم بقدر طاقته علمَه وتفسيره، واشتهر من هذا القبيل عدد قليل، من أشهرهم: الخلفاء الأربعة وابن عباس وابن مسعود، وهذان هما اللذان نقل عنهما أكثر ما يدور بين الناس من التفسير المنقول بالرواية.

علي بن أبي طالب

(١٣)
الإمام على رضي الله عنه في طليعة المفسرين من الصحابة رضي الله عنهم، وهو في غُنية بفقهه وجلالته عما يُغالى في شأنه.

وأكثر الخلفاء الأربعة رواية عنه في التفسير الخليفة الرابع علي بن أبي طالب رضي الله عنه، وقد اختلط في النقل عنه الحق بالباطل، والصحيح بالزيف، لأن شيعته ــ وأكثرهم من الأعاجم وفيهم دخلاء من اليهود ــ كذبوا عليه وكذبوا له حتى روَوا عنه أنه قال: (لو شئت أن أوقر سبعين بعيراً من تفسير أم القرآن لفعلت) ومن العجيب أن يتكلف بعض العلماء تخريجاً لذلك أو شرحاً ليدخله في دائرة الإمكان وهو لو كان على الصورة التي حاول بها هذا العالم توضيح الرواية عن الإمام لما كان فيه فضيلة للإمام لأن كل أحد يقدر على أن يذكر من أحوال العالم وكمالات الله التي لا تتناهى ما يملأ ما لا يحصى من الدواوين والأسفار. ويجعل ذلك تفسيراً لقوله تعالى: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَالَمِينَ﴾ فقط. وقد نقل السيوطي هذا التكلف عن ابن أبي جمرة،

قال بعد أن ذكر نص الرواية: وبيان ذلك أنه إذا قال الحمد لله رب العالمين يحتاج إلى تبيين معنى الحمد وما يتعلق بالاسم الجليل الذي هو الله وما يليق به من التنزيه، ثم يحتاج إلى بيان العالم وكيفيته على جميع أنواعه وإعداده وهي ألف عالم أربعمائة في البر وستمائة في البحر فيحتاج إلى بيان ذلك كله. ثم أخذ يفصل القول على هذا النحو في جميع آيات فاتحة الكتاب. إلى أن ختم كلامه بقوله: فعلى هذه الوجوه يكون ما قاله عليّ من هذا القبيل.

وأخرج أبو نعيم في الحديث عن ابن مسعود أنه قال: أُنزِل القرآن على سبعة أحرف، ما منها حرف إلا وله ظهر وبطن، وإن علي بن أبي طالب عنده منه الظاهر والباطن. كما أخرج أبو نعيم أيضاً: أن علياً قام على المنبر فقال: سلوني؟ فوالله لا تسألوني عن شيء إلا أخبرتكم، واسألوني عن كتاب الله، فوالله ما نزلت آية إلا وقد علمت فيم أنزلت وأين أنزلت، إن ربي وهب لي قلباً عَقولاً ولساناً سَئولاً.

والحق الذي يؤمن به المؤمنون أن الإمام رضي الله عنه كان على خصيصة من الفضل والعلم والحكمة والفقة في الدين ونفاذ البصيرة تضعه في الذروة من طليعة أصحاب رسول الله ﷺ، وكان رضي الله عنه في غُنْيَة بفضله الحق عن المبالغات التي أضاعت الحق في غمارها، رضي الله عنه وأرضاه.

ابن عبّاس

(١٤)
حَبر الأمة وترجمان القرآن عبد الله بن عباس رضي الله عنهما.

أما الحَبر عبد الله بن عباس، فهو تلميذ علي ووارث علمه، وقد دعا له النبي ﷺ فقال: «اللهم فقهه في الدين وعلمه التأويل» وكان عمر بن الخطاب يؤثره ويقرب مجلسه، ويحضره مشاهده مع الأكابر من ذوي شوراه من الصحابة، ويقول فيه: ذاكم فتى الكهول، إن له لساناً سَئولاً وقلباً عَقولاً.

روى البخاري عن طريق سعيد بن جبير عن ابن عباس، قال: كان عمر يدخلني مع أشياخ بدر فكأن بعضهم وجد في نفسه، فقال: لِمَ يدخل هذا معنا وإن لنا أبناء مثله؟ فقال عمر: إنه ممن قد علمتم، فدعاهم ذات يوم فأدخله معهم، قال ابن عباس: فما رأيت أنه دعاني إلا ليريهم، فقال: ما تقولون في قول الله تعالى: ﴿إِذَا جَآءَ نَصْرُ ٱللَّهِ وَٱلْفَتْحُ﴾ فقال بعضهم: أمرنا أن نحمد الله ونستغفره إذا نصرنا وفتح علينا، وسكت بعضهم فلم يقل شيئاً، فقال لي: أكذلك تقول يا ابن عباس؟ فقلت: لا، فقال: ما تقول؟ قلت: هو أجل رسول الله ﷺ، أعلمه الله له، قال: إذا جاء نصر الله والفتح، فذلك علامة أجلك فسبح بحمد ربك واستغفره إنه كان تواباً. فقال عمر: لا أعلم منها إلا ما تقول.

وروى البخاري من طريق ابن أبي مليكة عن ابن عباس، قال: قال عمر بن الخطاب يوماً لأصحاب النبي ﷺ: فيمن ترون هذه الآيات نزلت: ﴿ أَيَوَدُّ أَحَدُكُمْ أَنْ تَكُونَ لَهُ جَنَّةٌ مِنْ نَخِيلٍ وَأَعْنَابٍ ﴾ قالوا: الله أعلم، فغضب عمر وقال: قولوا نعلم أو لا نعلم، فقال ابن عباس: في نفسي منها شيء، فقال عمر: يا ابن أخي قل ولا تحقر نفسك، قال ابن عباس: ضربت مثلاً لعمل، فقال عمر: أي عمل؟ قال ابن عباس: لرجل غني يعمل بطاعة الله ثم بعث له الشيطان فعمل بالمعاصي حتى أغرق أعماله.

وكان ابن عباس يسمى ترجمان القرآن، ويسمى الحبر والبحر لسعة علمه، وعن عبد الله بن عمر أن رجلاً أتاه فسأله عن السماوات والأرض كانتا رتقاً ففتقناهما، فقال: اذهب إلى ابن عباس فاسأله ثم تعال أخبرني، فذهب الرجل فسأل ابن عباس، فقال: كانت السماوات رتقاً لا تمطر، وكانت الأرض رتقاً لا تنبت ففتق هذه بالمطر، وهذه بالنبات، فرجع إلى ابن عمر فأخبره، فقال: قد كنت أقول:

ما يعجبني جراءة ابن عباس على تفسير القرآن، فالآن قد علمت أنه أوتي علماً، وكان علي رضي الله عنه يقول فيه: كأنما ينظر إلى الغيب من ستر رقيق.

وابن عباس لم يدرك من عمر النبي ﷺ ما أدرك غيره من نظرائه في العلم ولكنه لازمه فيما أدركه من الزمن وعقل وفقه وجد واجتهد، واستعاض عما فاته بملازمة أكابر الصحابة وعلمائهم مثل عمر وعلي وابن مسعود وزيد بن ثابت، وكان حريصاً على العلم جداً، يأخذه حيث وجده، ويسعى إليه أنى كان، ويحتمل في سبيله من الجهد والمشقة ما يحتمل، وهو يقول معبّراً عن حاله في ذلك: (وجدت عامة حديث رسول الله ﷺ عند الأنصار، فإن كنت لآتي الرجل فأجده نائماً، لو شئت أن يوقظ لي لأوقظ، فأجلس على بابه تسفي على وجهي الريح حتى يستيقظ متى يستيقظ، وأسأله عما أريد ثم أنصرف).

قال السيوطي في الإتقان: وقد ورد عن ابن عباس في التفسير ما لا يحصى كثرة، وفيه روايات وطرق مختلفة، فمن جيدها طريق علي بن أبي طلحة الهاشمي عنه، وفيها يقول الإمام أحمد بن حنبل: بمصر صحيفة في التفسير رواها علي بن أبي طلحة لو رحل رجل فيها إلى مصر قاصداً لما كان كثيراً.

وقد اعتمد البخاري على هذه الصحيفة في صحيحه فيما علقه عن ابن عباس. ونقل السيوطي عن الخليلي صاحب الإرشاد أنه قال: وهذه التفاسير الطوال التي أسندوها إلى ابن عباس غير مرضية ورواتها مجاهيل... إلى أن يقول السيوطي: وأوهى طرق التفسير عن ابن عباس طريق الكلبي عن أبي صالح عن ابن عباس فإن انضم إلى ذلك رواية محمد بن مروان السدي الصغير فهي سلسلة الكذب.

والظاهر أنه لشهرة هذا الحبر رضي الله عنه بالعلم والفضل ودعاء

النبي ﷺ وطول عمره وأخذه عمن أسلم من اليهود وكونه جد العباسيين الذين دُوِّن أشهر التفاسير المعروفة في ظل خلافتهم حُمل عليه كثير، وكثرتعنه الرواية في التفاسير عن الذين دخلوا الإسلام من اليهود والنصارى في قصص الأنبياء وتفسير الحوادث الماضية.

ومن شواهد تفسيره الموثوق به المشاكل لعلمه وعصره ما ذكر السيوطي أنه أخرجه ابن أبي حاتم من طريق علي بن أبي طلحة عنه في قوله تعالى: ﴿مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ ٱلَّذِي ٱسْتَوْقَدَ نَاراً. . .﴾ الآيات، قال: هذا مثل ضربه الله للمنافقين كانوا يعتزون بالإسلام فيناكحهم المسلمون ويوارثهم، ويقاسمونهم الفيء، فلما ماتوا سلبهم الله العز كما سلب صاحب النار الضوء وتركهم. في ظلمات، يقول: في عذاب، كصيب: هو المطر ضرب مثله في القرآن. فيه ظلمات، يقول: ابتلاء. ورعد وبرق: تخويف. يكاد البرق يخطف أبصارهم، يقول: يكاد محكَم القرآن يدل على عورات المنافقين فإن وجدوا في الإسلام عزاً اطمأنوا، فإن أصاب الإسلام نكبة قاموا ليرجعوا إلى الكفر.

ومنها ما أخرجه ابن أبي حاتم أيضاً من طريق ابن أبي طلحة عنه في قوله تعالى: ﴿أَنْزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌ بِقَدَرِهَا. . .﴾ الآية، قال: هذا مثل ضربه الله احتملت منه القلوب على قدر يقينها وشكها، فأما الزبد فيذهب جفاء، وهو الشك، وأما ما ينفع الناس فيمكث في الأرض وهو اليقين، كما يُجعل الحلي في النار فيؤخذ خالصه، ويترك خبثه في النار، كذلك يقبل الله اليقين ويترك الشك.

ومن شواهد ما نسب إليه ويشبه أن يكون مما حمل عليه ـ وهو كثير ـ ما ذكره الأستاذ أحمد أمين في فجر الإسلام، قال: ومن أدلة الوضع أنك ترى روايتين نقلتا عن ابن عباس أحياناً وهما متناقضتان لا يصح أن تنسبا إليه جميعاً فترى في ابن جرير مثلاً عند

قوله تعالى: ﴿فَخُذْ أَرْبَعَةً مِنَ ٱلطَّيْرِ فَصُرْهُنَّ إِلَيْكَ ثُمَّ ٱجْعَلْ عَلَىٰ كُلِّ جَبَلٍ مِنْهُنَّ جُزْءًا ثُمَّ ٱدْعُهُنَّ يَأْتِينَكَ سَعْيًا﴾ عن معاوية، عن علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس، قال: إنما هو مثل قال: قطعهن ثم اجعلهن في أرباع الدنيا، ربعاً هٰهنا وربعاً هٰهنا ثم ادعهن يأتينك سعياً. وقال بعد قليل: حدثنا محمد بن سعد، قال: حدثني أبي، قال: حدثني عمي، قال: حدثني أبي، عن أبيه، عن ابن عباس: فصرهن إليك، صرهن: أو ثقهن.

قال الأستاذ أحمد أمين: فهو يفسر صرهن مرة بقطعهن، ومرة بأوثقهن، ومن العسير أن نتكلف القول بأنه فسر هذا زمناً، وفسر ذلك زمناً آخر.

ونحن نرى أنه من المجازفة التي لا تنتظم في سلك العلم الحكم بالوضع على التفسيرين لما يرى فيهما من التنافي والتضارب، وكانت قواعد العلم تقضي بالنظر في سند الروايتين ما دامتا من طريقين مختلفين فترجح نسبة أوثقهما سنداً إليه وتطرح الأخرى، ورواية قطعهما أوثق سنداً لأنها عن طريق علي بن أبي طلحة، وقد وثقها البخاري والشافعي وحسبك بهما.

وإن كنا نميل من ناحية تفسير الآية وبيان معناها المناسب لسياقتها أن المفهوم من هذه السياقة أن المعنى ﴿فَصُرْهُنَّ إِلَيْكَ﴾ ميّلهن إلى ذاتك بالاستئلاف والتحبيب والتعويد، ثم فرقهن عنك في أمكنة مختلفة، ثم ادعهن بما تعودن منك من ألوان وسائل الدعاء، فإنهن بحكم التعود القائم على التحبيب إليك يأتينك إذا سمعن دعاءك سعياً، مسرعات في إقبالهن شوقاً إليك واستجابة لدعائك، فإذا وقع هذا منها إليك بما كان منك إليها فاعلم أن الله تعالى هو العزيز الحكيم.

ابن مسعود

(١٥)
عبد الله بن مسعود رضي الله عنه القارىء الماهر، والمفسر الحاذق، الملازم للنبي ﷺ.

أما عبد الله بن مسعود فهو من السابقين الأولين، يقول عن نفسه: لقد رأيتُني سادس ستة ما على ظهر الأرض مسلم غيرنا، وكان خادم رسول الله ﷺ وصاحب نعله وطَهوره وسواكه، يدخل على رسول الله ﷺ بغير حجاب، يوقظه من نومه، ويلازمه في بيته. روى البخاري عن أبي موسى الأشعري، قال: قدمت أنا وأخي من اليمن فمكثنا حيناً لا نرى عبد الله بن مسعود وأمه إلا من أهل بيت رسول الله ﷺ ولزومه.

كان ابن مسعود من أعلم أصحاب رسول الله ﷺ بالقرآن وتفسيره يقول عن نفسه: والله الذي لا إلّه غيره ما نزلت آية من كتاب الله إلا وأنا أعلم فيما نزلت، وأين نزلت، ولو أعلم مكان أحد أعلم بكتاب الله مني تناله المطايا لأتيته، وفي الحديث عن النبي ﷺ: «من سره أن يقرأ القرآن رطباً كما أنزل فليقرأه على قراءة ابن أم عبد»، وكان النبي ﷺ يحب أن يسمع القرآن، فقال لابن مسعود: «اقرأ علي سورة النساء، فقال: اقرأ عليك، وعليك أنزل؟ قال: إني أحب أن أسمعه من غيري»، فقرأت عليه حتى إذا بلغت: ﴿فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَى هَـٰؤُلَآءِ شَهِيداً﴾[1]، فاضت عيناه ﷺ.

وهكذا مضى عصر النبي ﷺ والقرآن محفوظ في صدور الذين أوتوا العلم، يفهمه كل من سمعه من الصحابة بقدر ما رزقه الله تعالى من فهم.

(١٦)
الرجوع إلى لغة العرب مدعاة لترك الجدل في لغة القرآن.

لا ترى جدلاً في إعرابه ولغته، إن خفي عليهم معنى لفظ من ألفاظه رجعوا إلى شعر العرب وديوانهم، روي أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه قرأ على المنبر قوله تعالى: ﴿أَوْ يَأْخُذَهُمْ عَلَى تَخَوُّفٍ﴾[2]، فسأل عن معنى التخوف فقام إليه رجل من هزيل فقال

---

(١) سورة النساء: الآية (٤١).

(٢) سورة النحل: الآية (٤٧).

له: التخوف عندنا (التنقص) ثم أنشده شاهداً من شعر قومه:

تخوف الرحل منها تامكاً قرداً ... كما تخوف عودَ النبعة السفنُ

(١٧)
ترك التكلف والتعنت في تفسير القرآن.

وكان الصحابة إن لم يحضرهم المعنى الخاص باللفظ لم يتكلفوا واكتفوا بالمعنى العام في سياق الكلام، روي أن عمر قرأ على المنبر قوله تعالى: ﴿وَفَاكِهَةً وَأَبًّا﴾[1]، فقال: هذه الفاكهة قد عرفناها، فما الأبّ؟ ثم رجع إلى نفسه فقال: إن هذا لهو التكلف يا عمر، وفي رواية أن رجلاً سأله: ما الأبّ؟ فقال له: نهينا عن التكلف والتعمق.

وروي أن ابن عباس قال: ما كنت أعلم ما فاطر السموات حتى اختصم إليّ أعرابيان في بئر فقال أحدهما: أنا فطرتها، يقول: أنا ابتدأتها.

ولما سأل رجل يقال: له «صبيح» عمر عن الذاريات ذرواً حبسه وأدّبه أدباً شديداً.

(١٨)
بيان النبي ﷺ معاني القرآن المُشكِلة.

وكذلك لا ترى في هذا العصر جدلاً في معاني القرآن ومراميه، لأنهم يتلقونها عن رسول الله ﷺ، روى البخاري عن ابن مسعود، قال: لما نزلت هذه الآية: ﴿ٱلَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ﴾ شق ذلك على الناس فقالوا: يا رسول الله: وأينا لا يظلم نفسه؟ قال: «إنه ليس الذي تعنون، ألم تسمعوا ما قال العبد الصالح؟ إن الشرك لظلم عظيم إنما هو الشرك».

وروى مسلم في الصحيح عن عقبة بن عامر، قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول وهو على المنبر: «﴿وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا ٱسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ﴾[2]، ألا وإن القوة الرمي ثلاث مرات».

---

(١) سورة عبس: الآية (٧١).
(٢) سورة الأنفال: الآية (٦٠).

وروى البخاري ومسلم عن عائشة، قالت: قال رسول الله ﷺ: «من نوقش الحساب عذب»، قلت: أليس يقول الله: ﴿فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَاباً يَسِيراً﴾[1]، قال: «ليس ذلك بالحساب ولكن ذلك العرض».

(١٩)
التفسير بالمأثور مادة العلم، وحسم لمادة الجدل في تفسير القرآن.

وكذلك لا نرى جدلاً في أصوله وعقائده ولا جدلاً في فقهه وأحكامه، ولا جدلاً في أخلاقه وآدابه وسياسته.

روى البخاري أن رجلاً جاء إلى ابن مسعود فقال له: تركت رجلاً في المسجد يفسر القرآن برأيه، يفسر هذه الآية: ﴿يَوْمَ تَأْتِي السَّمَاءُ بِدُخَانٍ مُبِينٍ﴾ قال: يأتي الناس يوم القيامة دخان فيأخذ بأنفاسهم حتى يأخذهم كهيئة الزكام. فقال ابن مسعود: من علم علماً فليقل به. ومن لم يعلم فليقل: الله أعلم، إنما كان هذا لأن قريشاً استعصوا على النبي ﷺ فدعا عليهم بسنين كسني يوسف، فأصابهم قحط وجهد حتى أكلوا العظام فجعل الرجل ينظر إلى السماء فيرى بينه وبينها كهيئة الدخان من الجهد. والقول الذي جاء في تفسير الرجل مروي عن ابن عباس وعلي وغيرهما من الصحابة.

(٢٠)
الصحابة رضي الله عنهم، وفضلهم في نشر الإسلام، وتفسير القرآن.

ولما انتقل النبي ﷺ إلى الرفيق الأعلى واستوعب الإسلام جزيرة العرب وفاضت به على مَن حولها من الشعوب والأمم، تطلب الوافدون على الإسلام من غير العرب والداخلون في دين الله أفواجاً ممن بعدت دارهم عن مهبط الوحي الكشف عن بعض معاني القرآن التي قد خفيت عليهم لأسباب وراء مجرد فهم اللغة ومعاني الألفاظ والأسلوب فانتهض لذلك علماء الصحابة، وكان من أشهرهم الذين سبق الحديث عنهم، وهم الذين غلب ذكرهم في التفسير بالمأثور والرواية. والناظر فيما صح عنهم نقلُه من التفسير بنقل الثقاة يجده لا يخرج عن دائرة التفسير النبوي قلة وإيجازاً وغرضاً يرمي إلى العبرة ومعقد الهداية.

---

(١) سورة الانشقاق: الآية (٨).

(٢١)
ميزة الإمام مجاهد ــ رحمه الله ــ التفسيرية وسعة اطلاعه.

وكان لكل واحد من علماء الصحابة تلاميذ تخصصوا به ولازموه، وأخذوا عنه علمه وطريقته في تفسير القرآن، واشتهر من تلاميذ ابن عباس: عكرمة وسعيد بن جبير وعطاء بن أبي رباح ومجاهد بن جبر وهو أجلّهم ثقة، اعتمد على تفسيره الإمام الشافعي والبخاري، وقد روي عنه أنه قال: عرضت القرآن على ابن عباس ثلاثين مرة، وكان ذلك كما يظهر لإجادة حفظه وضبط حروفه وقراءاته، وذكر ابن تيمية في مقدمة أصول التفسير أن مجاهداً قال: عرضت القرآن على ابن عباس ثلاث عرضات من فاتحته إلى خاتمته أوقفه عند كل آية منه أسأله: فيم نزلت، وكيف كانت؟ وهذا يدل على استيعابه لتفسير آيات القرآن، وعلم معانيه وأحكامه، ويقول ابن أبي مليكة: رأيت مجاهداً سأل ابن عباس عن تفسير القرآن ومعه الواحة، فقال ابن عباس: اكتب حتى سأله عن التفسير كله، وروى الترمذي عن قتادة، قال مجاهد: ما في القرآن آية إلا وقد سمعت فيها شيئاً. ولذلك كان سفيان الثوري يقول: إذا جاءك التفسير عن مجاهد فحسبك به.

ويمتاز مجاهد عن سائر تلاميذ ابن عباس، بل سائر أقرانه من المفسرين أنه أعطى لعقله كثيراً من الحرية، وأدخل التفسير بالاجتهاد والرأي مبكراً في طور التفسير بالمأثور، ومن شواهده ما ذكره الطبري عند تفسير قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ ٱلَّذِينَ ٱعْتَدَوْا مِنكُمْ فِي ٱلسَّبْتِ فَقُلْنَا لَهُمْ كُونُوا قِرَدَةً خَاسِئِينَ﴾. عن مجاهد، قال: مسخت قلوبهم ولم يمسخوا قردة وإنما هو مثل ضربه الله لهم كمثل الحمار يحمل أسفاراً.

(٢٢)
قولان بالرأي مهجوران عند أهل العلم لمجاهد رحمه الله.

ومما أخذ عليه تفسيره للمقام المحمود الذي يبعثه الله نبيه محمداً ﷺ حيث قال ــ كما رواه الطبري ــ: المقام المحمود هو أن يُجلِس الله تعالى محمداً معه على كرسيه. قال أبو عمر بن عبد البر: ومجاهد وإن كان أحد الأئمة بتأويل القرآن فإن له قولين مهجورين عند أهل العلم، أحدهما هذا والثاني في تأويل قوله تعالى: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَاضِرَةٌ إِلَى رَبِّهَا نَاظِرَةٌ﴾ يقول: تنتظر الثواب، لا يراه شيء من خلقه.

واشتهر من تلاميذ ابن مسعود: علقمة بن قيس، ومسروق بن الأجدع، والأسود بن زيد، والشعبي، والحسن البصري، ورواياتهم في التفسير منثورة في كتب التفسير وهي تدل على نهجهم فيه، قال ابن تيمية: أعلم الناس بالتفسير أهل مكة لأنهم أصحاب ابن عباس كمجاهد وعطاء بن أبي رباح، وعكرمة مولى ابن عباس، وسعيد بن جبير،وطاوس،وكذلك في الكوفة أصحاب ابن مسعود.

هذا عرض مجمل للدور الذي مر به التفسير المأثور قبل أن يُدُون في الكتب، ومن ذلك يتبين الفرق الشاسع بين ما دُوِّن في الكتب من هذا التفسير وبين ما صح منه، وقد اتخذ مادة للتوسع في التفسير بالرواية دون تحقيق أو تمحيص، فكان مصدراً لكثير من الأقوال التي لا توافق الأصول ولا يقرها المعقول.

* * *

أثر العلوم المستحدثة والمنقولة في التفسير

(١)
أسلوب خبيث لأعداء الدين دلّ على عجزهم عن مواجهة الإسلام فكرياً وعسكرياً.

ولمّا اتسعت الفتوحات الإسلامية لنشر راية الهداية والعدل بين الأمم والشعوب دخل في غمار المسلمين ـ تقيةً ـ كثير ممن لا يرجون لله وقاراً من الموتورين والحاقدين على الإسلام من اليهود والمنافقين، والزنادقة، ليفسدوا على المسلمين تدينهم ويشككوهم في إسلامهم عن طريق الأكاذيب والأساطير والخرافات والقصص الزائف، بعد أن عجزوا عن مواجهته بالحجة والمنطق المعقول، وبعد أن عجزوا أيضاً عن مواجهته بقوة السلاح في ميادين الجهاد، واتخذوا من تفسير القرآن مادة لأغراضهم ووسيلة خفية لأهدافهم الخبيثة وحملوا إليه من موروثاتهم في عقائدهم وأقاصيصهم بلايا من الأكاذيب والترهات التي قبلها بعض ذوي البلَه والغفلة من المنتسبين للعلم من المسلمين الذين ربما لا يتهمون في إخلاصهم، والتي دسها عليهم عمداً بعض الملاحدة، حتى ضاعت كثرة الحقائق في غمرة الأساطير.

(٢)
اتخاذ التفسير منحى لغوياً خلافياً سبّب بعداً عن روح الهداية القرآنية.

وكان من آثار دخول الأعاجم في الإسلام، وظهور اللحن في القرآن أن ظهر إلى جانب ذلك قوم من أهل اللغة والأدب، شغفوا بالإعراب واتخذوا من نصوص القرآن وآياته مادة لإظهار براعتهم في علوم اللغة وفنون الأدب، وراحوا يعقدون مجالس الإملاء في توجيه آيات من القرآن جاءت على غير السَنن الذي يعرفونه من قواعدهم التي قعّدوها، وغفلوا عن النظر البلاغي الذي اقتضى مجيء الآيات كما أنزل الله تعالى كقوله: ﴿لَٰكِنِ ٱلرَّٰسِخُونَ فِي ٱلْعِلْمِ مِنْهُمْ وَٱلْمُؤْمِنُونَ يُؤْمِنُونَ بِمَا

أُنْزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنْزِلَ مِنْ قَبْلِكَ وَٱلْمُقِيمِينَ ٱلصَّلاةَ وَٱلْمُؤْتُونَ ٱلزَّكَاةَ وَٱلْمُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ أُولَٰئِكَ سَنُؤْتِيهِمْ أَجْراً عَظِيماً﴾[1]، وكقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ آمَنُوا وَٱلَّذِينَ هَادُوا وَٱلصَّابِئِينَ وَٱلنَّصَارَىٰ مَنْ آمَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ وَعَمِلَ صَالِحاً فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾[2].

ثم أخذ فريق منهم يؤلفون الكتب والدواوين في إعراب القرآن آية آية، وكلمة كلمة، ويكثرون من الشواهد شعراً ونثراً على ما يذكرون من وجوه في الإعراب، أو لهجات عن بعض قبائل العرب، واتسعوا في ذكر وجوه الأعاريب، وتفننوا في التخريج تعالماً باللغة وأساليبها، وقد اضطر بعضهم إلى أن يصطنع شواهد من الشعر لم ينطق بها العرب ولا عرفوها، ولكنها العصبية المذهبية هي التي حملتهم على هذا الباطل، واختلفوا إلى مدارس، لكل مدرسة مذهب في النحو والتصريف وفقه اللغة، ولا تزال الكتب الدراسية تحمل الخلاف العريض بين مدرستَي الكوفة والبصرة.

وقد زاد من حدة هذا الخلاف التنافسُ على الدنيا والتقرب من أهلها في دواوين الحكم وقصور الخلافة، وكان بعض الخلفاء يزكي نار هذا الخلاف ويختص بعض الأدباء والنحويين بالزلفى ويسند إليهم مناصب التدريس والتأديب في قصور الخلافة، ويثير بين المتنافسين من علماء مدرستَي الكوفة والبصرة المسائلَ الخلافية كالذي قيل: إنه وقع بين الكسائي زعيم نحويّي الكوفة وسيبويه إمام البصرة في مسألة العقرب والزنبور المشهورة، وقد قيل: إن أنصار الكسائي استنطقوا بعض الأعراب أن ينطق بما يوافق رأيهم وينتصر لصاحبهم.

(٣)
بيان سبب القول بـ « الصرفة » وأشهر من قال بها.

وإذا تجاوزنا هذا الجانب مما أتخمت به بعض كتب تفسير القرآن التي نزعت في طريقتها إلى الجانب اللغوي الإعرابي، وجدنا إلى جانبه منزعاً آخر يتصل به من قريب، ذلك هو جانب البحث البلاغي في القرآن لتبيين إعجازه وعلو طبقته في البلاغة والبيان، وهذا الجانب وإن

---

(١) سورة النساء: الآية (١٦٢).
(٢) سورة المائدة: الآية (٦٩).

كان لم يستكمل المدى المطلوب منه ولم يف بالعرض الذي أنشىء له ـ لأن السرعة التي كتب بها حصرته في دائرة ضيقة من القواعد الخاصة، والضوابط المصطنعة والتعاريف المتكلفة، والتفريعات المتكثرة، وقعدت به دون أن يبلغ الغرض الذي كان ينبغي أن يبلغه ربما هو ببالغه إلا أنه شغل العلماء ببحوث لفظية لا تعني في العلم شيئاً.

بيد أن هذا اللون من البحث البلاغي ـ مع أنه لم يؤد إلى الهدف الذي قصد به ـ أحدث لوناً من الخلاف في بيان إعجاز القرآن، وظهر لمنافسته القول بالإعجاز بالصرفة، وهو قول مال إليه أكثر المتكلمين، وأسنده القاضي عياض إلى الإمام أبي الحسن الأشعري وجماعة من أصحابه، وجنح إليه الفخر الرازي في مواضع من تفسيره، وفي كتابه «نهاية الإيجاز» ـ الذي لخص به كتابَي عبد القاهر «دلائل الإعجاز» و «وأسرار البلاغة» ورتبهما كما شاء ـ انتهى إلى أن إعجاز القرآن في فصاحته وقد حاول إبطال كل وجه غير هذا الوجه.

والرازي مضطرب الرأي جداً في وجه إعجاز القرآن في تفسيره وسائر مؤلفاته التي يعرض فيها لهذا الموضوع.

(٤)
تعريف مذهب «الصرفة».

وقد صور مذهب الصرفة في كتابه (نهاية الإيجاز) ونسبه إلى إبراهيم النظّام أحد شيوخ المعتزلة فقال: قال النظّام: إن الله تعالى ما أنزل القرآن ليكون حجة على النبوة، بل هو كسائر الكتب المنزلة لبيان الأحكام من الحلال والحرام، والعرب إنما لم يعارضوه لأن الله تعالى صرفهم عن ذلك وسلب علومهم به.

(٥)
القول بـ«الصرفة» سبّب جدلاً عقيماً، وأبعد التفسير عن جانب الهداية والإعجاز.

وقد أدى هذا الخلاف إلى أن يزدحم المختلفون في ساحة القرآن، يتجادلون ويتدافعون، ودخل هذا الجدل العقيم في تفسير القرآن، وكون جانباً منه قامت عليه كثرة من الكتب والمؤلفات، وصرف كثيراً من المفسرين عن العناية بجانب الهداية العلمية والمعنوية في القرآن.

(٦)
تفسير «الكشاف» مثال جلي للابتعاد عن مقاصد القرآن.

ولعل أظهر مثل لذلك بين أيدينا هو كشاف الزمخشري الذي يشبه أن يكون قد قصره على غرضين اثنين، **الغرض الأول** منهما هو تبيين ما في آيات القرآن من سمو في التعبير وفوق في البيان وعلو في البلاغة والفصاحة، بما جاء فيه من بارع التمثيل، ودقيق الاستعارة، ولطيف الكناية. **والغرض الثاني** هو نصر مذهب المعتزلة بأخضره ويابسه وعجره وبجره، وحمل آيات القرآن قسراً على أن تنهض حجة لمزاعمه، وهذا الاتجاه دعا بعض العلماء إلى أن يشمر للرد عليه، مما زهد الكثيرين في النظر فيه والإفادة بنفي عبارته عن مقاصد القرآن، مما فتح باب الجدل في المسائل الكلامية وجعل القرآن ميداناً لها، تحمل آياته عليها حملاً، وتنزل في فهمها على ما تقتضيه مسائلهم وقواعدهم، حتى إن الناظر في تلك الكتب يظن أن القرآن الكريم كتاب من كتب فلسفة الكلام نزل ليفتح ميداناً للجدل وليس كتاب هداية نزل ليبعث اليقين والسكينة في القلوب.

(٧)
كلام نفيس لشيخ الإسلام في شأن المعتزلة وأصولهم.

وفي ذلك يقول الإمام ابن تيمية في رسالته أصول التفسير: فالذين أخطئوا في الدليل والمدلول مثل طوائف من أهل البدع اعتقدوا مذهباً يخالف الحق الذي عليه الأمة الوسط الذين لا يجتمعون على ضلالة كسلف الأمة وأئمتها، وعمدوا إلى القرآن فتأولوه على آرائهم، تارة يستدلون بآيات على مذهبهم ولا دلالة فيها، وتارة يتأولون ما يخالف مذهبهم بما يحرفون به الكلم عن مواضعه، وهذا كالمعتزلة فإنهم من أعظم الناس كلاماً وجدلاً، وقد صنفوا تفاسير على أصول مذهبهم، مثل تفسير عبد الرحمن بن كيسان، وتفسير الجبّائي، وتفسير القاضي عبد الجبار، وتفسير الروماني، والكشاف لأبي القاسم الزمخشري، فهؤلاء اعتقدوا مذهب المعتزلة وأصولهم الخمسة التي هي التوحيد، والعدل، والمنزلة بين المنزلتين، وإنفاذ الوعيد، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

ثم قال ابن تيمية: والمقصود أن مثل هؤلاء اعتقدوا رأياً ثم حملوا ألفاظ القرآن عليه وليس لهم سلف من الصحابة والتابعين لهم بإحسان، ولا من أئمة المسلمين، لا في رأيهم ولا في تفسيرهم، وما من تفسير من تفاسيرهم الباطلة إلا وبطلانه يظهر من وجوه كثيرة، وذلك من جهتين: تارة من العلم بفساد قولهم، وتارة من العلم بفساد ما فسروا به القرآن: إما دليلاً على قولهم، أو جواباً على المعارض لهم، ومن هؤلاء من يكون حسَن العبارة فصيحاً، ويدس البدع في كلامه وأكثر الناس لا يعلمون، كصاحب الكشاف ونحوه، حتى إنه يروج على خلق كثير ممن لا يعتقد الباطل من تفاسيرهم ما شاء الله.

(٨)
ردّ للإمام ابن قتيبة علمي على بعض أقوال المعتزلة.

وقال ابن قتيبة في الرد على المعتزلة ومن سلك مسلكهم من المتكلمين في حمل آيات القرآن على مذاهبهم: وفسروا القرآن بأعجب تفسير، يريدون أن يردوه إلى مذاهبهم ويحملوا التأويل على نحلهم، فقال فريق منهم في قوله تعالى: ﴿وَسِعَ كُرْسِيُّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ﴾ أي: علمه، وجاءوا على ذلك بشاهد لا يُعرف، وهو قول الشاعر * ولا بكرسيء علم الله مخلوق * كأنه عندهم، ولا يعلم علم الله مخلوق، يستوحشون أن يجعلوا لله تعالى كرسياً... وقالوا في قوله تعالى: ﴿وَٱتَّخَذَ ٱللَّهُ إِبْرَٰهِيمَ خَلِيلًا﴾ أي: فقيراً إلى رحمته وجعلوه من الخلة استيحاشاً من أن يكون الله تعالى خليلاً لأحد من خلقه... فأي فضيلة في هذا لإبراهيم؟ أما تعلمون أن الناس كلهم فقراء إليه، وهل إبراهيم في خليل الله إلا كما قيل: موسى كليم الله! وعيسى روح الله؟.

* * *

(٩)
أثر الفلسفة والمنطق في تفسير القرآن سلباً.

ولما تسللت العلوم المترجَمة والفلسفات الأجنبية عن الإسلام بأصولها وعقائد أهلها إلى ساحة الإسلام أسرع إليها أقوام، واعتنقوا مبادئها، وتوغلوا في دراستها، وكأن أعقلهم وأذكاهم من جعل نفسه

عبداً لآراء أرسطو يتعبّد بها وينافح عنها وينشر أصولها، وأدخلوها في تفسير القرآن، يحتجون بها له، ويدافعون بمنطقها عنه، وهو في غُنية عنها وعن منطقها، لأن له منطقاً هو منطق الفطرة، ويحتجون به لها ليقربوها إلى العقول، ويخدعوا عامة المسلمين ببريقها، وقد يعتسفون الرأي اعتسافاً لا يتمشى مع سماحة البيان القرآني، واتخذوا من آيات العقائد وبيان دلائل القدرة الإلّهية وعظمة ملك الله ميداناً لأوسع خلاف وأشد جدل يذهب بنضارة الهداية القرآنية في تعاريج الجدل المنطقي الجاف.

(١٠)

خطورة التأثر بالفلسفة والعلوم الدخيلة، وفتح ذلك البابَ للمغرضين المحرِّفين الكلم عن مواضعه.

ومن هذا الباب ـ باب الفلسفة الأجنبية ـ دخل طوائف الباطنية من القرامطة والروافض الذين حرفوا آيات الله عن مواضعها، فحملوا على كتاب الله في تفسيره غثاء من الرأي الخبيث التافة لا تساوي ضرطة عير ولا عفطة عنز، وإنما أملاها على قائليها حقد أبله وجهل بليد، كقولهم في قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تَذْبَحُوا بَقَرَةً﴾ هي عائشة أم المؤمنين وكقولهم في قوله تعالى: ﴿قَاتِلُوا أَئِمَّةَ ٱلْكُفْرِ﴾ هم طلحة والزبير، وكقولهم في قول عز شأنه: ﴿مَرَجَ ٱلْبَحْرَيْنِ﴾ علي وفاطمة، من أمثال هذه الترهات التي لا يعقلها إلا المبرسمون كما نقل عن أبي مسلم الأصفهاني أنه قال: رأيت في بعض التفاسير، قول من قال في ﴿حمعسق﴾: إن الحاء حرب علي ومعاوية، والميم ولاية المروانية، والعين ولاية العباسية، والسين ولاية السفيانية، والقاف قدوة المهدي، قال أبو مسلم: وإنما حكيت ذلك لأني أردت أن يُعلَم أن فيمن يدعي العلم حمقى.

(١١)

اغترار بعض أهل العلم بهذا الغثاء من الرأي، وكلام للإمام ابن الصلاح في تخريج فهم هؤلاء السادة.

وقد خدع بهذا النوع من الخرافات السخيفة قوم من أهل السلامة من المتصوفة، فذكروا منها الكثير وحسبوه تفسيراً، قال ابن الصلاح في الفتاوى: وجدت عن الإمام أبي الحسن الواحدي المفسر رحمه الله تعالى أنه قال: صنف أبو عبد الرحمن السلمي حقائق التفسير. فإن كان

اعتقد أن ذلك تفسير فقد كفر، قال ابن الصلاح: وأنا أقول الظن بمن يوثق به منهم أنه قال شيئاً من أمثال ذلك أنه لم يذكره تفسيراً ولا ذهب به مذهب الشرح للكلمة المذكورة في القرآن العظيم، فإنه لو كان كذلك كانوا قد سلكوا مسلك الباطنية وإنما ذلك ذكر منهم لنظير ما ورد به القرآن فإن النظير يذكر بالنظير، ومن ذلك قتال النفس في قوله تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا قَـٰتِلُوا ٱلَّذِينَ يَلُونَكُم مِّنَ ٱلْكُفَّارِ﴾[1]، فكأنه قال: أمرنا بقتال النفس ومن يلينا من الكفار، ومع ذلك فيا ليتهم لم يتساهلوا في مثل ذلك لما فيه من الإبهام والإلباس.

(١٢)
تخريجٌ حسن للإمام السيوطي لفهم أولئك العلماء.

وذكر السيوطي في الإتقان عن ابن عطاء الله السكندري في كتابه المنن، قال: اعلم أن تفسير هذه الطائفة لكلام الله وكلام رسوله بالمعاني الغريبة ليس إحالة للظاهر عن ظاهره، ولكن ظاهر الآية مفهوم منه ما جلبت الآية له، ودلت عليه في عرف اللسان، وثم أفهام باطنة تفهم عند الآية والحديث لمن فتح الله قلبه، وقد جاء في الحديث: «ولكل آية ظهر وبطن» فلا يصدنك عن تلقي هذه المعاني منهم أن يقول لك ذو جدل ومعارضة: هذه إحالة لكلام الله وكلام رسوله، فليس ذلك بإحالة، وإنما يكون إحالة لو قالوا: لا معنى للآية إلا هذا وهم لا يقولون ذلك بل يقرون الظواهر على ظواهرها مراداً بها موضوعاتها ويفهمون عن الله تعالى ما أفهمهم.

(١٣)
بيان الضابط في قبول الكلام المنسوب إلى أئمة علماء منهم.

وكلام هذين الإمامين ــ ابن الصلاح وابن عطاء الله وهما من أئمة أهل العلم ــ من أحسن ما يمكن به تخريج ما يوثق بنسبته إلى من عرف من هؤلاء السادة بالإمامة في علوم الشريعة كالرعيل الأول منهم مثل الحسن البصري والمحاسبي والجنيد والتستري والشبلي والخراز

---

(١) سورة التوبة: الآية (١٢٣).

إلى أمثال أبي الحسن الشاذلي وعبد القادر الجيلاني من الذين عصمهم العلم بالشريعة عن الانزلاق عن المضايق، وكل كلام ينسب إليهم يجب أن يوزن بميزان الشريعة فإن وافق نصوصها قبلناه واقتدينا بهم في العمل به وإن خالف نصاً مجمَعاً عليه توقفنا في نسبته إليهم، أو في فهمه عنهم حتى يفتح الله بما يشاء، إحساناً للظن بهم.

(١٤) كلام للإمام التستري في علم التفسير، وشاهد تفسيري.

ومن أقرب تفاسير السادة الصوفية إلى القبول وصحة التوجيه تفسير أبي محمد سهل بن عبد الله التستري من زهّاد القرن الثالث وأئمته يقول في مقدمته: (ما من آية في القرآن إلا ولها أربعة معانٍ ظاهر وباطن، وحد ومطلع، فالظاهر التلاوة، والباطن الفهم، والحد حلالها وحرامها، والمطلع إشراق القلب على المراد بها فقهاً من الله عز وجل فالعلم الظاهر علم عام، والفهم لباطنه والمراد به خاص).

ومن شواهده قوله فيما يفهم من قول الله تعالى: ﴿وَٱتَّخَذَ قَوْمُ مُوسَىٰ مِنْ بَعْدِهِ مِنْ حُلِيِّهِمْ عِجْلًا جَسَداً لَهُ خُوَارٌ﴾[(١)]، عجل كل إنسان ما أقبل عليه فأعرض به عن الله من أهل وولد، ولا يتخلص من ذلك إلا بعد إفناء جميع حظوظه من أسبابه، كما لم يتخلص عبدة العجل من عبادته إلا بعد قتل النفوس.

(١٥) تخريج لتفسير الإمام التستري وبيان قبوله.

فهو لا يقصد إلى تفسير الآية وبيان أن هذا معناها الشرعي، وإنما يقصد إلى بيان ما يفهمه القلب المشرق بأنوار الإخلاص في عبوديته لله تعالى وحده، من لوازم تفسيرها.

فهذا كلام مقبول، لأن المراد من عجل كل إنسان معبود كل إنسان وعجل بني إسرائيل معبودهم الذي اتخذوه إلَهاً من دون الله، وكل ما أقبل عليه الإنسان بكليته وقطعه عن الله تعالى وشغله عن القيام بواجب عبوديته له فهو إلَه مجازاً، وفي السنة: «تعس عبد الدينار،

---

(١) سورة الأعراف: الآية (١٤٨).

تعس عبد الدرهم، تعس عبد القطيفة...» وفي القرآن الكريم: ﴿إِنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلَادُكُمْ فِتْنَةٌ﴾ وحق ما قال أبو محمد رضي الله عنه: أن الإنسان لا يتخلص من ذلك إلا بعد إفناء جميع حظوظه من أسبابه الصارفة له عن التوجه بالخدمة إلى الله تعالى، والتخلص من حظوظ الأسباب قتل للنفس مجازاً لأنه إماته إماتة لها عن تطلب الحظوظ، فلا بعد في استخراج التستري ما استخرجه من الآية على أنه ليس معناها الذي يؤدي إليه الكلام، ولكن على أنه إرشاد توجه إليه الآية بفحوى هدايتها، ومن هذا القبيل ما ذكره السلمي في حقائق التفسير منسوباً إلى ابن عطاء الله في قوله تعالى: ﴿وَآيَةٌ لَهُمُ الْأَرْضُ الْمَيْتَةُ أَحْيَيْنَاهَا وَأَخْرَجْنَا مِنْهَا حَبّاً فَمِنْهُ يَأْكُلُونَ﴾(١)، قال: القلوب الميتة بالغفلة أحييناها بالتيقظ والاعتبار والموعظة، وأخرجنا منها حباً، معرفة صافية تضيء أنوارها على الظاهر والباطن، فهذا ليس تفسيراً للآية على أنه معناها المراد من ألفاظها وجملها، وإنما هو معنى يستخرج من لوازم التفسير.

ولا حرج على فضل الله في تفهيمه بعض عباده أفهاماً يستنبطها من وراء فهمه لتفسير آيات الله. وقد يستأنس لذلك بما نقلناه عن ابن عباس في تفسير سورة: ﴿إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ﴾ بمجلس عمر بن الخطاب ومشهد من أصحاب رسول الله ﷺ.

(١٦)
شاهد تفسيري موفّق للإمام التستري.

وتأمل قول التستري في قوله تعالى: ﴿الَّذِي خَلَقَنِي فَهُوَ يَهْدِينِ﴾(١)، الذي خلقني لعبوديته يهديني إلى قربه، فإنك ترى نسمات التوفيق والرشاد تهب من آفاقه، فالذي خلقني لعبوديته هو صريح قوله تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾(٢)، وقوله يهديني لقربه، هو من قوله تعالى: ﴿وَاسْجُدْ وَاقْتَرِبْ﴾ ثم تأمل في قوله تعالى:

---

(١) سورة يسٓ: الآية (٣٣).
(٢) سورة الذاريات: الآية (٥٦).

﴿وَٱلَّذِي أَطْمَعُ أَنْ يَغْفِرَ لِي خَطِيٓـَٔتِي يَوْمَ ٱلدِّينِ﴾[1]: أخرج كلامه على شروط الأدب بين الخوف والرجاء ولم يحكم عليه بالمغفرة.

هذا كلام يشعر بقوة الأدب مع الله تملأ قلب قائله، وروح الخشية تسري بين جواحه ﴿إِنَّما يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُاْ﴾.

(١٧)
الاختلاف في نسبة بعض تفاسير أهل التصوف إليهم.

ولا نريد أن نعرج على ما ينسب إلى بعض هؤلاء السادة من أقوال في تفسير القرآن يسودها الغموض والإبهام، وكثير من ظواهرها يشم منه رائحة الإلحاد والكفر الباطني الخبيث، وأكثر ما يظهر ذلك في التفسير المنسوب إلى ابن عربي الحاتمي، والناس مختلفون أشد الاختلاف في نسبته إليه والمحققون على أنه أو الكثير منه مكذوب عليه، وقد قطع صاحب المنار بأن هذا التفسير من تآليف القاشاني الباطني.

ونكتفي بذكر مثل واحد من هذا التفسير المنسوب إلى ابن عربي في الفتوحات.

ولهذا الشيخ كلام في الفتوحات ـ وهو كتاب محقق النسبة إليه في جملته لا في تفصيله فقد قال الشعراني رحمه الله: إن فيه كثيراً مما دس على الشيخ، والله عليم بحقيقة حاله ـ يفسر به بعض الآيات تفسيراً يقلب قواعد الشريعة رأساً على عقب، والله تعالى لم يطلب من عباده إلغاء عقولهم ليصلوا إلى مقاصد من يرمي بالقول على حسب ما يكنه في ضميره.

(١٨)
تفسير مرفوض هادم لأصول الشريعة، مردود على قائله ومعتقده.

وكيف يمكن فهم ما ينسب إلى الشيخ في الفتوحات تفسيراً لقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا سَوَآءٌ عَلَيْهِمْ ءَأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ. خَتَمَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَعَلَىٰ سَمْعِهِمْ وَعَلَىٰٓ أَبْصَٰرِهِمْ غِشَٰوَةٌ

---

(١) سورة الشعراء: الآية (٨٢).

﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾[1]، تقول الفتوحات في تفسيرها: يا محمد إن الذين كفروا ستروا محبتهم فيّ، دعهم فسواء عليهم أأنذرتهم بوعيدك الذي أرسلتك به أم لم تنذرهم، لا يؤمنون بكلامك فإنهم لا يعقلون غيري، وأنت تنذرهم بخلقي وهم ما عقلوه ولا شاهدوه وكيف يؤمنون بك وقد ختمت على قلوبهم فلم أجعل فيها متسعاً لغيري، وعلى سمعهم فلا يسمعون كلاماً في العالم إلا مني، وعلى أبصارهم غشاوة من بهائي عند مشاهدتي، فلا يبصرون سواي ولهم عذاب عظيم عندي، أردهم بعد هذا المشهد السني إلى إنذارك وأحجبهم عني كما فعلت بك بعد قاب قوسين أو أدنى قرباً، أنزلتك إلى من يكذبك ويرد ما جئت إليه مني في وجهك... إلخ.

أفكان أبو جهل وحزبه من رؤوس الكفر الفاجر ممن يحبون الله محبة ستروها وكانوا مستغرقين في الله لا يعقلون غيره ولا يفهمون عن رسوله، وكانت قلوبهم معمورة بالله فلم تتسع لغيره، ولا يسمعون كلاماً إلا منه سبحانه، وعلى أبصارهم غشاوة من بهاء الله فلا يبصرون سواه؟!

هذا كلام يهدم الشريعة ويرد رسالات الرسل ويدعو إلى الكفر والإلحاد بصورة بشعة ونحن ننزه عامة المسلمين بله علماءهم عن صدور هذه الكفريات الإلحادية من أقلامهم وأقل درجات نشر هذا الكلام وأمثاله بين العامة والخاصة في سوء العواقب أنه فتنة للعقول وإفساد للقلوب، والحديث الذي يرويه البخاري عن علي رضي الله عنه وكرم وجهه يقول: حدثوا الناس بما يفهمون، أتريدون أن يُكذَّب الله ورسوله؟ هل هناك دعوة لتكذيب الله ورسوله من شر القول بأن أكفر الكافرين وألعن الملعونين مستغرقون في محبة الله لا يعقلون غيره ولا يسمعون إلا

---

(1) سورة البقرة: الآيتان (٦، ٧).

منه، ونحن نرد هذا الباطل الفاجر، ولا نجزم بنسبته إلى شخص معين، والله تعالى هو المتولي لسرائر الناس بعلمه.

* * *

(١٩)
الهداية أهم أغراض القرآن، وبيانها حاجة تفسيرية ملحّة.

وهكذا صور لا تنتهي عند حصر، أتخم بها تفسير القرآن ووقف عندها ولم يتجاوزها إلى تفصيل هدايته العلمية ودلائله الفكرية وبراهينه الكونية، والهداية في القرآن هي أصل أصوله، ومعقد مقاصده، وأهم أغراضه، يجب أن تتوجه إليها العزائم، وتقصد إليها الهمم بأساليب تستجيب إلى نداء العلم والمعرفة في هذا العصر وفيما يستقبل من زمن الحياة والناس، بما لا يخالف الأصول الإسلامية التي جاء بها القرآن الحكيم وبينتها السنة المطهرة وأجمعت عليها الأمة.

(٢٠)
كلام للإمام السيوطي بيّن فيه اتجاهات التفسير.

وقد عرض الإمام جلال الدين السيوطي صورة للألوان التفسيرية التي ظهرت في المؤلفات وكتب التفاسير واستغرقت حياة المسلمين إلى عصره في القرآن التاسع الهجري فقال: ثم ألف في التفسير خلائق فاختصروا الأسانيد ونقلوا الأقوال تترى فدخل من هنا الدخيل والتبس الصحيح بالعليل، ثم صار كل من يسنح له قول يورده، ومن يخطر بباله شيء يعتمده ثم ينقل ذلك عنه من يجيء بعده ظاناً أن له أصلاً غير ملتفت إلى تحرير ما ورد عن السلف الصالح ومن يرجع إليه في التفسير، حتى رأيت من حكى في تفسير قوله تعالى: ﴿غَيْرِ ٱلْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ﴾، نحو عشرة أقوال، وتفسيرها باليهود والنصارى هو الوارد عن النبي ﷺ وجميع الصحابة والتابعين وأتباعهم، حتى قال ابن أبي حاتم: لا أعلم في ذلك اختلافاً بين المفسرين، ثم صنف بعد ذلك قوم برعوا في علوم فكان كل منهم يقتصر في تفسيره على الفن الذي يغلب عليه.

فالنحوي تراه ليس له هم إلا الإعراب، وتكثير الأوجه المحتملة فيه ونقل قواعد النحو ومسائله وفروعه وخلافياته كالزجاج والواحدي في

البسيط وأبي حيان في البحر والنهر، والإخباري ليس لـه شغل إلا القصص واستيفـاءهـا، والأخبـار عمن سلف سـواء كـانت صحيحـة أو باطلة كالثعلبـي.

والفقيه يكاد يسرد فيه الفقه من باب الطهارة إلى أمهـات الأولاد، وربما استطرد إلى إقـامة أدلـة الفروع الفقهيـة التي لا تعلق لها بـالآية، والجواب عن أدلة المخالفين كالقرطبـي.

(٢١)
نـظر مـوضـوعي لتفسيـر الإمـام الرازي.

وصاحب العلوم العقلية خصوصاً الإمام فخر الـدين الرازي، فقـد مـلأ تفسيره بـأقوال الحكمـاء والفلاسفـة وشبهها، وخـرج من شيء إلى شيء يقضي النـاظر فيـه العجب من عدم مـطابقة المـورد لـلآيـة. قـال أبو حيان في البحر: جمـع الإمام الرازي في تفسيره أشيـاء كثيرة طـويلة لا حاجة بها في علم التفسير، ولذلك قال بعض العلماء: تفسير الرازي فيه كل شيء إلا التفسير.

ونحن قبل أن نسترسل في نقل كـلام السيوطي نقـول لأبـي حيان بشهـادة السيوطي: رمتني بـدائها وانسلت، لأن كثيـراً مما ذكـره الإمـام الرازي مفيد جداً في موضعه، وهو أحد المفسـرين القلائل الـذين مسوا الآيات الكونية بالنظر بما كـان عنده من معـارف عصره، وقـد يكون من الحق أنـه أغرق وبـالـغ في الاستطراد في بعض المـواضـع، وأكثـر من الحديث عن العرَض والجوهر لـلاستدلال بحـدوثها على وجـود الخالق تفسيراً لبعض الآيات كما أكثر من اللجاج مـع المعتزلة يثير شبههم ويرد عليها بعد أن يستفرغ جهده في تقزير مذهبهم وهذا مما عيب عليه، وأما أبو حيان فقـد حشى كتابيـه البحر والنهـر بمسائـل من النحو وتفـريعاتـه وعلله لا حـاجة لهـا مطلقـاً في تفسيـر القـرآن سـوى أنهـا تشتت الفكـر وتغطي معاني الآيات بغشاوة من الخلافات النحوية لا طائل تحتها.

ثم قـال السيوطي: والمبتـدع ليس له قصـد إلا تحـريف الآيـات وتسـويتها على مـذهبه الفـاسد بحيث إنـه متى لاح لـه شـاردة من بعيـد

اقتنصها أو وجد موضعاً له فيه أدنى مجال سارع إليه، قال البلقيني: استخرجت من الكشاف اعتزالاً بالمناقيش، من قوله تعالى: ﴿فَمَن زُحْزِحَ عَنِ ٱلنَّارِ وَأُدْخِلَ ٱلْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ﴾، حيث قال: وأي فوز أعظم من دخول الجنة، أشار به إلى عدم الرؤية.

والملحد فلا تسأل عن كفره وإلحاده في آيات الله وافترائه على الله ما لم يقله، كقول بعضهم في قوله تعالى: ﴿إِنْ هِيَ إِلَّا فِتْنَتُكَ﴾، ما على العباد أضر من ربهم، قال صاحب كشف الظنون: وينسب هذا القول إلى صاحب قوت القلوب أبي طالب المكي.

(٢٢)
إنصاف الزمخشري، وبيان المآخذ عليه.

وهنا جانب للتأمل يرينا كيف أن القرآن الكريم جُعل مصيدة للمذاهب والآراء، وتصيدها من ثنايا أقوال أصحابها مع خفائها، وليت الزمخشري أخلص كشافه للتفسير البياني على نهجه وطريقته في بيان البراعة البيانية التي يتجلى فيها أسلوب القرآن، وترك الجدل العقيم لمذهبه في الاعتزال.

وفي الحق أن جار الله كان بنهجه البياني إماماً من أئمة الفصاحة وجودة التعبير عن بلاغة القرآن حتى تأسى به كل من جاء بعده من صنعة التفسير، فكلهم وردوا حياضه، واستقوا من كوثره، ونهلوا من منابعه، ودرجوا في مدارج البيان معتمدين على بيانه، يقتبسون ألفاظه وعباراته، ويحلون عرائس تفسيرهم بحلى تفسيره، ويزينون معاصم جملهم بأساور من إبريز جمله، ولكنها العصبية المذهبية دفعت به إلى أن يخلط هذه الروعة البيانية بما أصدأ مرآتها فجاءت صورته فيها كما قال الإمام ابن تيمية في المقدمة: ومن هؤلاء من يكون حسَن العبارة فصيحاً ويدس البدع في كلامه ولكن أكثر الناس لا يعلمون كصاحب الكشاف ونحوه حتى يروج على خلق كثير ممن لا يعتقد الباطل من تفاسيرهم الباطلة ما شاء الله، وقد رأيت من العلماء المفسرين وغيرهم

من يذكر في كتابه وكلامه من تفسيرهم ما يوافق أصولهم التي يعلم أو يعتقد فسادها ولا يهتدي لذلك.

* * *

(٢٣)
تفسير الإمام الطبري وبيان جلالته العلمية، وهل كان الإمام السيوطي مبيناً لهداية القرآن وإعجازه؟!

وتصوير السيوطي في عرضه للتفاسير المؤلفة منذ أول عصور التدوين والتأليف ـ لا يستثنى منها سوى تفسير الطبري، لأنه أجلّ التفاسير وأعظمها، لأن صاحبه أبا جعفر تعرض فيه إلى جانب الإسناد عن الصحابة والتابعين لتوجيه الأقوال وترجيح بعضها على بعض ـ يوجب أن نتساءل ماذا كان موقف السيوطي من هذا التصوير وهو من أكبر المفسرين في عصره وأكثرهم إنتاجاً في التأليف؟ هل استفاد من ذلك شيئاً تفادى به المؤاخذات التي أخذها على أولئك المفسرين من حشد المذاهب والآراء والعلوم ومسائلها مما يتصل أو لا يتصل بتفسير القرآن؟.

(٢٤)
الإمام السيوطي لم يفسر القرآن، بل شرع في جمع ما أخذه على الأئمة قبله.

سندع السيوطي نفسه يجيب عن هذا التساؤل، وهو يقول في ذلك: وقد شرعت في تفسير جامع لجميع ما يحتاج إليه من التفاسير المنقولة والأقوال المقولة والاستنباطات والإشارات والأعاريب واللغات ومحاسن البدائع وغير ذلك بحيث لا يحتاج معه إلى غيره وسميته «مجمع البحرين ومطلع البدرين» وجعلت كتاب «الإتقان في علوم القرآن» مقدمة لهذا التفسير.

ترى هل صنع السيوطي رحمه الله شيئاً؟ نعم أفادنا أنه ألف دائرة معارف عربية إسلامية تجمع فنوناً من اللغة والأدب والعقائد والروايات الحديثية وأقوال العلماء ومذاهبهم في وجوه الإعراب واستنباط الأحكام ونكت البلاغة ومحاسن البديع تحت عنوان تفسير القرآن.

ونحن وإن كنا لم يتح لنا أن نطلع على هذا الكتاب الذي لا نسميه تفسيراً، ولكنا نصر على تسميته دائرة معارف إسلامية عربية إن كان قد وفى السيوطي بشرطه فيه، فليس ذلك من موجبات الأسف

عندنا على فائت لا ينال، لأن السيوطي رحمه الله دلنا في صدق وإخلاص على أصول كتابه، وهي مبثوثة في الكتب والمكاتب الإسلامية، فمن أرادها فهي منه على طرف الثمام كما يقول الأدباء.

(٢٥)
ما أشار إليه من جمع شتات التفريع من سائر العلوم، كان مفتاحاً لفهمنا بلوغ بعض المصنفات عشرات المجلدات.

وهذا اللون من دوائر المعارف من تفريعات الفنون كثير جداً في المكتبات العربية الإسلامية وكان للسيوطي فضل توجيهنا إلى فهم ما اشتملت عليه كتب الطبقات والفهارس من وصف بعض الكتب بأنها تقع في عشرات المجلدات مما قد تجاوز المائة مجلد وبعضها المئات، وقد كنا نقرأ هذا الكلام فنقف منه موقف الحائر المتشكك، ولكن صنيع السيوطي كان مفتاحاً لفهمنا له على نحو ما أخذ به نفسه في تفسيره الجامع لأشتات العلوم والمعارف.

(٢٦)
الأمثلة على ذلك.

من ذلك ما ذكره المقريزي أن الإمام أبا الحسن الأشعري ألف تفسيراً في سبعين مجلداً ويزعم ابن عربي أنه في خمسمائة مجلد، ويقول العسكري في «تبيين كذب المفتري» مبيِّناً منهج الإمام في هذا التفسير: إن أبا الحسن كتب كتاباً في التفسير يسمى «المختزن» لم يترك آية تعلق بها بدعي إلا أبطل تعلقه بها وجعلها حجة لأهل الحق.

ومن ذلك تفسير ابن النقيب المسمى بالتحرير والتحبير، قال في «كشف الظنون»: إنه في نيف وخمسين مجلداً، وقال بعض العلماء: إنه في مائة سفر.

ومن ذلك التفسير المنسوب إلى عبد السلام بن محمد بن يوسف القزويني المعتزلي تلميذ القاضي عبد الجبار، قال صاحب «كشف الظنون»: يقال إنه أزيد من ثلثمائة مجلد، وقال غيره: إنه في خمسمائة مجلد، ويقول عنه ابن النجار: حشد فيه من العجائب حتى رأيت منه مجلداً في آية واحدة، هي ﴿وَٱتَّبَعُوا مَا تَتْلُو ٱلشَّيَاطِينُ عَلَى مُلْكِ سُلَيْمَانَ﴾[١].

(١) سورة البقرة: الآية (١٠٢).

ومن ذلك ما ذكره ــ بلديُّنا ــ كمال الدين أبو الفضل جعفر بن ثعلب الإدفوي في كتابه (الطالع السعيد) في ترجمة الإمام أبي بكر محمد بن علي المقرىء الإدفوي إذ يقول بعد أن نقل قول أبي الحسن القفطي في أن لأبي بكر الإدفوي تصانيف في التفسير والقراءة واللغة والنحو وغير ذلك ، وأنا ــ صاحب الطالع ــ قد وقفت على كتابه المسمى بـ «الاستغنا» في التفسير في مجلدات كثيرة، رأيت منها من نسخة عشرين مجلداً ويقال: إنه في مائة مجلد أو ما يقاربها.

ويقول صاحب «كشف الظنون»: تفسير الإدفوي، محمد بن علي ابن أحمد المقرىء النحوي المتوفى سنة ثمان وثمانين وثلاثمائة المسمى (بالاستغنا) في علم القرآن مائة وعشرون مجلداً صنفه في اثنتي عشرة سنة.

ومنهج السيوطي في كتابه «مجمع البحرين» يسهل علينا ما روي عن الإمام أبي جعفر الطبري أنه حينما أراد أن يملي تفسيره قال لأصحابه: أتنشطون لتفسير القرآن؟ قالوا: كم يكون قدره؟ فقال: ثلاثون ألف ورقة، فقالوا: هذا مما تفنى فيه الأعمار قبل تمامه، فاختصره لهم في ثلاثة آلاف ورقة، فكان المختصر هو هذا التفسير الذي بين أيدي الناس، وهو ــ على ذلك ــ أضخم ما أخرجته المطبعة من كتب التفسير كما أنه أفخمها وأعلاها منزلة، يقول عنه الإمام ابن تيمية في المقدمة: إنه من أجلّ التفاسير وأعظمها قدراً. ويقول عنه الإمام النووي في التهذيب: كتاب ابن جرير في التفسير لم يصنف أحد مثله. ويقول السيوطي: وكتابه أجلّ التفاسير وأعظمها، وإليه أرشد حيث يقول: فإن قلت: فأي التفاسير ترشد إليه، وتأمر الناظر بالتعويل عليه؟ قلت: تفسير الإمام أبي جعفر الطبري الذي أجمع العلماء المعتبرون على أنه لم يؤلف مثله في التفسير.

ويقول الإمام القاضي أبو بكر بن العربي المعافري المالكي في

كتابه «أحكام القرآن»: من أجلّ من فسر القرآن الطبري شيخ الدين فجاء فيه بالعجب العجاب، ونثر فيه لباب الألباب وفتح فيه لكل من جاء بعده إلى معارفه الباب، فكل أحد غرف منه على قدر إنائه، وما نقصت قطرة من مائه.

يقول الإمام الطبري في خطبة كتابه العظيم: (فإن من جسيم ما خص الله به أمة نبينا محمد ﷺ من الفضيلة، وشرفهم به على سائر الأمم من المنازل الرفيعة وحباهم به من الكرامة السنية، حفظه ما حفظ عليهم ـ جل ذكره وتقدست أسماؤه ـ من وحيه وتنزيله، الذي جعله على حقيقة نبوة نبيهم ﷺ دلالة، وعلى ما خصه به من الكرامة علامة واضحة وحجة بالغة، أبانه به من كل كاذب ومفتر، وفصل به بينهم وبين كل جاحد وملحد، وفرق به بينهم وبين كل كافر ومشرك، الذي لو اجتمع جميع من بين أقطارها من جنّها وإنسها، وصغيرها وكبيرها على أن يأتوا بسورة من مثله لم يأتوا بمثله ولو كان بعضهم لبعض ظهيراً. . .) إلى أن يقول مبتهلاً إلى الله تعالى مبيناً لمنهجه بذكر رؤوس المسائل التي عول عليها في تفسيره: (اللهم فوفقنا لإصابة صواب القول من محكمه ومتشابهه، وحلاله وحرامه، وعامه وخاصه، ومجمله ومفسره، وناسخه ومنسوخه، وظاهره وباطنه، وتأويل آيه، وتفسير مشكله. . .) إلى أن يقول: (ونحن في شرح تأويله وبيان ما فيه من معان ـ منشئون إن شاء الله ذلك ـ كتاباً مستوعباً لكل ما بالناس إليه الحاجة من علمه جامعاً، ومن سائر الكتب غيره في ذلك كافياً، ومخبرون في كل ذلك بما انتهى إلينا من اتفاق الحجة فيما اتفقت عليه منه، واختلافها فيما اختلفت فيه منه ومبينو علل كل مذهب من مذاهبهم، وموضحو الصحيح لدينا من ذلك، بأوجز ما أمكن من الإيجاز في ذلك وأخصر ما أمكن من الاختصار فيه).

ولنتصور مع أبي جعفر الطبري ـ رحمه الله ـ أن تفسيره

الموجود بين أيدي العلماء هو أوجز ما أمكنه من الإيجاز، وأخصر ما أمكنه من الاختصار، وهو ـ على ذلك ـ عشر ما كان يزمع أن يمليه على أصحابه وتلاميذه في ثلاثين ألف ورقة، فماذا يكون الحال لو أن أصحابه نشطوا لقبول عرضه الأول، وأطلق أبو جعفر لقلمه العنان وأورد ما كان يريد أن يمليه؟.

وهل يمكن أن نتصور نوع البحوث والأفكار والمعاني التي كان تفسير أبي جعفر يبلغ بها عشرة أمثال ما هو بأيدي العلماء؟ والتي أعرض عنها الطبري رحمة بأصحابه؟ أكانت تلك البحوث مجرد روايات وأسانيد مختلفة الطرق للمعاني التي ذكرها في هذا التفسير الموجز بأمكن ما يمكن من الإيجاز؟ أم كانت بحوثاً في معاني الآيات وتبيين هداية القرآن لإصابة صواب القول في فنون القرآن وعلومه التي ذكرها أبو جعفر في خطبته والتي طواها ولم يذكرها بأوسع وأعمق مما ذكره في هذا التفسير الذي هو أخصر ما أمكن من الاختصار؟

وفضل الطبري وغزارة علمه وإحاطته بثقافة عصره مع البصيرة النافذة لا يبعد الاحتمال بأن الطبري كان عنده في خزائن تفكيره علوم ومعارف في هداية القرآن وفنونه احتبسها لنفسه، لأنه لم يجد من ينشط لحملها عنه وليته فعل؟

وما رأيناه في استكثار أبي جعفر في تفسيره الموجود من الروايات للمعنى الواحد بطرق مختلفة وأسانيد متعددة لا يبعد الاحتمال بأن كثيراً مما اختزنه الطبري كان من نوع تلك الروايات والأسانيد المتعددة للمعنى الواحد في الآية من نوع ما ذكره في مواضع من تفسيره وكان لها أكبر الأثر في تضخم الكتاب والصد عن دراسته تهيباً له واستطالة لما فيه من الأسانيد التي رغب الناس عنها اتكالاً على وجودها في كتبها الخاصة، والطبري يذكر هذه الروايات تأييداً لرأيه وفهمه وتفكيره استقلالاً دون تقليد لأحد من المفسرين الذين سبقوه، لأن

الطبري لا ينازع أحد في إمامته وفضله وهو ـ على ذلك ـ يؤثر أن يؤثر عن السلف رأياً بموافقة رأيه ويتأيد به فهمه.

* * *

(٢٧)
منهج للإمام الرازي يبيّن لنا كيف يمكن للمفسّر الإسهاب في تفسيره.

وهناك منهج آخر غير منهج الطبري في تطويل كتب التفسير، تكثر به المسائل وتزدحم به المؤلفات دون أن يكون لها كبير صلة بتفسير آيات القرآن، وهذا المنهج ذكره الإمام فخر الدين الرازي في مقدمة تفسيره إذ يقول: اعلم أنه مر على لساني في بعض الأوقات أن هذه السورة الكريمة ـ الفاتحة ـ يمكن أن يستنبط من فوائدها ونفائسها عشرة آلاف مسألة، فاستبعد هذا بعض الحساد وقوم من أهل الجهل والغي والعناد، وحملوا ذلك على ما ألفوه من أنفسهم من التعلقات الفارغة عن المعاني، والكلمات الخالية عن تحقيق المعاقد والمباني، فلما شرعت في تصنيف هذا الكتاب قدمت هذه المقدمة لتصير كالتنبيه على ما ذكرناه أمر ممكن الحصول قريب الوصول، فنقول ـ وبالله التوفيق:

إن قولنا: (أعوذ بالله من الشيطان الرجيم) لا شك أن المراد منه الاستعاذة بالله من جميع المنهيات والمحظورات ولا شك أن المنهيات: إما أن تكون من باب الاعتقاد أو من باب أعمال الجوارح، أما الاعتقادات فقد جاء في الخبر المشهور قوله ﷺ: «ستفترق أمتي على ثلاث وسبعين فرقة: كلهم في النار إلّا فرقة واحدة» وهذا يدل على أن الاثنتين والسبعين موصوفون بالعقائد الفاسدة، والمذاهب الباطلة، ثم إن ضلال كل واحدة من أولئك الفرق غير مختص بمسألة واحدة، بل هو حاصل في مسائل كثيرة من المباحث المتعلقة بذات الله تعالى وبصفاته، وبأحكامه، وبأفعاله، وبأسمائه، وبمسائل الجبر، والقدر، والتعديل والتجوير، والثواب والمعاد، والوعد والوعيد، والأسماء والأحكام والإمامة، فإذا وزعنا عدد الفرق الضالة ـ وهو الاثنتان

والسبعون ـ على هذه المسائل الكثيرة بلغ العدد الحاصل مبلغاً عظيماً وكل ذلك أنواع الضلالات الحاصلة من فرق الأمة، وأيضاً فمن المشهور أن فرق الضلالات من الخارجين عن هذه الأمة يقربون من سبعمائة، فإذا ضمّت أنواع ضلالاتهم إلى أنواع الضلالات الموجودة في فرق الأمة في جميع المسائل العقلية المتعلقة بالإلهيات والمتعلقة بأحكام الذوات والصفات، بلغ المجموع مبلغاً عظيماً في العدد، ولا شك أن قولنا (أعوذ بالله) يتناول الاستعاذة من جميع تلك الأنواع، والاستعاذة من الشيء لا تمكن إلاّ بعد معرفة المستعاذ منه، وإلاّ بعد معرفة كون ذلك الشيء باطلاً وقبيحاً فظهر بهذا الطريق أن قولنا (أعوذ بالله) مشتمل على الألوف من المسائل الحقيقية اليقينية.

وأما الأعمال الباطلة فهي عبارة عن كل ما ورد النهي عنه: إما في القرآن، أو في الأخبار المتواترة، أو في أخبار الآحاد أو في إجماع الأمة أو في القياسات الصحيحة، ولا شك أن تلك المنهيات تزيد على الألوف، وقولنا (أعوذ بالله) متناول لجميعها وجملتها، فثبت بهذا الطريق أن قولنا (أعوذ بالله) مشتمل على عشرة آلاف مسألة أو أزيد أو أقل: من المسائل المهمة المعتبرة، اهـ.

وهذه طريقة عجيبة ومنهج غريب في التوصل إلى تضخيم الكتب وتطويلها، تكشف لنا ما كان يسود بعض العصور من تنافس في استخراج المسائل واستنباط القضايا العلمية من العبارات التي لا تدل عليها ولا تقصد للدلالة عليها إلا من أبعد الاحتمالات التعسفية وفي غمار هذا التكديس والاستطراد في المناسبات والخروج من موضوع إلى موضوع آخر تضيع الإشارات العابرة التي قد تنبه على مواطن الهداية القرآنية في آيات القرآن العظيم.

وعلى ضوء هذا المنهج الذي اعتمد عليه الإمام الرازي في تفسيره نستطيع أن نفهم مسلك المفسرين العقليين الذين لم تصل إلينا

كتبهم، ولكنا عرفنا سبيلها ومنهجها عن طريق الفهارس والطبقات التي تحدثت عن تلك الكتب حديث المعجب بكثرة ما فيها من العلوم والآراء والمسائل التي طالت بها طولاً أخرجها عن منهج التفسير المبين لهداية القرآن، سواء أكانت تلك الكتب الموغلة في الطول لمؤلفين من أهل السنة كتفسير الإمام أبي الحسن الأشعري أم كانت من وضع المعتزلة كتفسير أبي يوسف القزويني تلميذ القاضي عبد الجبار شيخ المعتزلة في عصره.

(٢٨)
القرآن كتاب هدى وإعجاز، وليس تفسيره ترفاً فكرياً، وبيان ذلك.

وطريقة الإمام الرازي التي أراد أن يبرهن بها على أن فاتحة الكتاب تتضمن ألوف المسائل والفوائد طريقة أشبه ما تكون بالعمليات الحسابية لا يهش لها العلم ولا سيما في تفسير القرآن الكريم الذي أنزل هدى للناس وبينات من الهدى والفرقان، وهي طريقة يمكن لكل عالم أو متعلم أراد أن يقتل فراغ وقته أن يعمد إليها ويجريها في كلام آحاد الناس، بله القرآن العظيم.

فلو قال قائل ـ على طريقة الرازي ـ: إن قولنا (الحمد لله) يمكن أن يستنبط منه ألوف الألوف من المسائل والفوائد لما أبعد الشقة في طريق الإمكان، لأنه يستطيع أن يقول (الحمد لله) جملة اسمية تثبت الحمد لله على أكمل وجه، وهي أقوى في الدلالة على الإثبات من الجملة الفعلية، وهذا يقتضي بيان الجملة الاسمية وأركانها وبيان الجملة الفعلية وأركانها، ونوع فعليتها من جهة المضي والحضور والاستقبال إلى آخر ما يمكن الاستطراد فيه من فن النحو والمعاني في الموازنة بين الجملتين في تقرير المعنى المراد وثبوته.

ثم يقول: لا شك أن الحمد إما أن يكون مطلقاً لمجرد التعبد والتقديس، وإما أن يكون مقيداً بنعمة، والنعمة إما أن تكون عامة أو خاصة، والنعمة العامة إما سماوية أو أرضية، والخاصة إما أن تكون في خلق الإنسان وتكوينه مما امتن الله به على الإنسان. وإما أن تكون

في وسائل حياته وعيشه، وهي إما مادية أو معنوية، والنعم العامة السماوية والأرضية لا تدخل تحت حصر، والنعم الخاصة مادية أو معنوية لا يدخل حصرها في دائرة الإمكان.

والحمد قد يكون بالقول كالتسبيح والتقديس، وقد يكون بالفعل كالقيام بأنواع الطاعات، والمحمود الذي هو مصدر النعم يجب أن تعرف كمالاته بقدر الطاقة البشرية، وهذه الكمالات هي التي يستحق أن يحمد لأجلها، ولا ريب أن كمالات الله لا تتناهى.

فثبت بهذا التوليد أن قولنا (الحمد لله) يتضمن ألوف ألوف الألوف من المسائل والفوائد، بل يتضمن ما لا يمكن حصره، أفيكون هذا الكلام علماً يفسر به القرآن؟!

وقد عرفنا أن هذا الضرب من توليد المعاني كان هو سبيل بعض العلماء في بيان إمكان ما نسب إلى الإمام علي كرم الله وجهه من أنه قال لو شئت أن أوقر سبعين بعيراً من تفسير أم القرآن لفعلت.

(٢٨) أ
الشيخ محمد عبده ينحو نحو التطويل في بيان مسائل فاتحة الكتاب، واختيار غريب للشيخ.

ومن العجيب أن نرى الأستاذ الشيخ محمد عبده ينحو هذا النحو بوجه مّا في بيان ما اشتملت عليه سورة الفاتحة من جميع المعاني التي يحتوي عليها القرآن، وقد شعر الأستاذ بهذا الاشتباه فحاول دفعه بما لم يحسم الداء، لأن بيان الأستاذ للمعاني التي تضمنتها سورة الفاتحة وإن لم يكن من قبيل «الإشارة ودلالة الحروف وأسرارها» لكنه ليس بعيداً من الطريق التي بيّن بها ابن أبي جمرة ما نسب إلى علي كرم الله وجهه: إني لو شئت أن أوقر سبعين بعيراً من تفسير أم القرآن لفعلت، وليس بعيداً عن الطريق الذي سلكه الرازي في استخراج ألوف المسائل من كلمة (أعوذ بالله) للبرهنة على أن فاتحة الكتاب تتضمن من المسائل والفوائد ألوف الألوف.

وأعجب من ذلك أن الأستاذ الشيخ محمد عبده جعل منحاه هذا بياناً لوجه اختياره لقول ضعيف في أن أول ما أنزل من القرآن إطلاقاً

(٢٩)
الرد على اختيار الأستاذ محمد عبده بما صح من الآثار.

هو سورة الفاتحة، وهو اختيار غريب وتوجيه أغرب، لأن حديث أول ما نزل من القرآن: ﴿ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ﴾، رواه الشيخان البخاري ومسلم من طريق عائشة أم المؤمنين في حديث بدء الوحي، وأخرجه الحاكم في المستدرك والبيهقي في الدلائل وصححاه عن عائشة أيضاً، وأخرجه الطبراني في كبيره بسند على شرط الصحيح عن أبي رجاء العطاردي، قال: كان أبو موسى يقرئنا فيجلسنا حلقاً عليه ثوبان أبيضان فإذا تلا هذه السورة: ﴿ٱقْرَأْ بِإِسْمِ رَبِّكَ ٱلَّذِي خَلَقَ﴾، قال: هذه أول سورة نزلت على محمد ﷺ، وكذلك أخرجه سعيد بن منصور في سننه عن عبيد بن عمير، وأخرجه ابن أشته في كتاب المصاحف عن عبيد والزهري.

وحديث أول ما نزل من القرآن ﴿يَا أَيُّهَا ٱلْمُدَّثِّرُ﴾ رواه الشيخان، وفي إحدى روايتيه جاءت هذه الجملة (وهو يحدث عن فترة الوحي) وهي تقوي أن أول ما نزل إطلاقاً في بدء الوحي ﴿ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ﴾ و﴿يَا أَيُّهَا ٱلْمُدَّثِّرُ﴾ أول ما نزل بعد فترة الوحي «وهي مدة ثلاث سنين» ويؤيد ذلك قوله في حديث (المدثر): فإذا الملك الذي جاء بحراء جالس على كرسي بين السماء والأرض، فرجعت، فقلت: زملوني زملوني، فدثروني، فأنزل الله ﴿يَا أَيُّهَا ٱلْمُدَّثِّرُ﴾ فقوله: «فإذا الملك الذي جاء بحراء» يدل على أن هذه القصة متأخرة عن قصة حراء التي نزل فيها ﴿ٱقْرَأْ﴾ وكذلك قوله: «فدثروني»، فأنزل الله: ﴿يَا أَيُّهَا ٱلْمُدَّثِّرُ﴾ يدل على أن سورة المدثر نزلت بعد رجوعه من حراء، وبعد رؤيته الملك فيه، وإقرائه ﴿ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلَّذِي خَلَقَ﴾، كما في حديث البخاري.

(٣٠)
ردّ الإمام ابن حجر على من قال بأن الفاتحة أول ما نزل من القرآن.

أما القول بأن الفاتحة أول ما نزل من القرآن، فقد نقله السيوطي في الإتقان عن الزمخشري إذ يقول: قال في الكشاف: ذهب ابن عباس ومجاهد إلى أن أول سورة نزلت ﴿ٱقْرَأْ﴾ وأكثر المفسرين إلى أن أول

سورة نزلت فاتحة الكتاب، وقال ابن حجر: والذي ذهب إليه أكثر الأئمة هو الأول، وأما الذي نسبه إلى الأكثر فلم يقل به إلا عدد أقل من القليل بالنسبة إلى من قال بالأول، وحجته على ما ذهب إليه مخالفاً جمهور الأئمة وأعلام الأمة حديث مرسل رواه البيهقي والواحدي.

ولا يمكن أن يوضع حديث مرسل يرويه غير الشيخين في ميزان مع حديث مسند برواية الثقاة في صحيحي البخاري ومسلم، كما لا يمكن أن يوضع الزمخشري في ميزان فن الحديث وروايته مع ابن حجر، ومعروف أن الزمخشري في علم الحديث ليس هناك، فكيف يرجح قوله في مسألة حديثية تتعلق بالسند والرواية ولا دخل فيها للعقل على أقوال سادة المحدثين من ثقاة الرواة، وهم حجة الأمة في نقل السنة؟ فكيف صح من الأستاذ الشيخ أن يجعل هذا التوجيه العقلي سبيلاً إلى ترجيح هذا القول الضعيف، ولا دخل للعقل في مثل ذلك، لأنها مسألة ترجع إلى النقل والسند.

(٣١)
رد صاحب المنار على شيخه في مسألة أول ما نزل من القرآن بعدما نقل كلام الأستاذ.

يقول صاحب المنار: أما الأستاذ الإمام فقد رجح أن أول ما نزل على الإطلاق سورة الفاتحة ولم يستثن قوله تعالى: ﴿ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ﴾ ونزع في الاستدلال على ذلك منزعاً غريباً في حكمة القرآن وفقه الدين فقال ما مثاله: ومن آية ذلك أن السنة الإلّهية في هذا الكون، سواء أكان كون إيجاد أو كون تشريع أن يظهر سبحانه الشيء مجملاً ثم يتبعه التفصيل بعد ذلك تدريجاً، وما مثل الهدايات الإلّهية إلا مثل البذرة والشجرة العظيمة فهي في بدايتها تحتوي على جميع أصولها ثم تنمو بالتدرج حتى تنبثق فروعها بعد أن تعظم دوحتها ثم تجود عليك بثمرها، والفاتحة مشتملة على مجمل ما في القرآن وكل ما فيه تفصيل للأصول التي وضعت فيها، ولست أعني بهذا ما يعبرون عنه بالإشارة ودلالة الحروف كقولهم: إن أسرار القرآن في الفاتحة، وأسرار الفاتحة في البسملة، وأسرار البسملة في الباء، وأسرار الباء في نقطتها، فإن هذا لم

يثبت عن النبي ﷺ وأصحابه عليهم الرضوان، ولا هو معقول في نفسه وإنما هو من مخترعات الغلاة الذين ذهب بهم الغلو إلى سلب القرآن خاصيته وهي البيان.

وبيان ما أريد هو أن ما نزل القرآن لأجله أمور (أحدها) التوحيد، لأن الناس كانوا كلهم وثنيين وإن كان بعضهم يدعي التوحيد؛ (ثانيها) وعد من أخذ به وتبشيره بحسن المثوبة، ووعيد من لم يأخذ به وإنذاره بسوء العقوبة. والوعد يشمل ما للأمة وما للأفراد فيعم نعم الدنيا والآخرة وسعادتهما، والوعيد كذلك يشمل نقمهما وشقاءهما، فقد وعد الله المؤمنين بالاستخلاف في الأرض والعزة والسلطان والسيادة وأوعد المخالفين بالخزي والشقاء في الدنيا، كما وعد بالجنة والنعيم وأوعد بنار الجحيم في الآخرة؛ (ثالثها) العبدادة التي تحيي التوحيد في القلوب وتثبته في النفوس؛ (رابعها) بيان سبيل السعادة وكيفية السير فيه الموصل إلى نعم الدنيا والآخرة؛ (خامسها) قصص من وقف عند حدود الله تعالى وأخذ بأحكام دينه وأخبار الذين تعدَّوا حدوده ونبذوا أحكام دينه ظهرياً لأجل الاعتبار واختيار طريق المحسنين ومعرفة سنن الله في البشر.

هذه الأمور التي احتوى عليها القرآن وفيها حياة الناس وسعادتهم الدنيوية والأخروية والفاتحة مشتملة عليها إجمالاً بغير ما وشك ولا ريب.

فأما التوحيد ففي قوله تعالى: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَـالَمِينَ﴾ لأنه ناطق بأن كل حمد وثناء يصدر عن نعمة مّا فهو له تعالى ولا يصح ذلك إذا كان سبحانه مصدر كل نعمة في الكون تستوجب الحمد ومنها نعمة الخلق والإيجاد والتربية والتنمية ولم يكتف باستلزام العبارة لهذا المعنى فصرح به بقوله ﴿رَبِّ ٱلْعَـالَمِينَ﴾ ولفظ ﴿رَبِّ﴾ ليس معناه المالك والسيد فقط بل فيه معنى التربية والإنماء، وهو صريح بأن كل نعمة يراها الإنسان في نفسه وفي الآفاق منه عز وجل فليس في الكون متصرف بالإيجاد ولا بالإشقاء والإسعاد سواه.

التوحيد أهم ما جاء لأجله الدين ولذلك لم يكتف في الفاتحة بمجرد الإشارة إليه بل استكمله بقوله ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ فاجتث بذلك جذور الشرك والوثنية التي كانت فاشية في جميع الأمم وهي اتخاذ أولياء من دون الله تعتقد لهم السلطة الغيبية ويدعون لذلك من دون الله ويستعان بهم على قضاء الحوائج في الدنيا ويتقرب بهم إلى الله زلفى، وجميع ما في القرآن من آيات التوحيد ومقارعة المشركين هو تفصيل لهذا الإجمال.

وأما الوعد والوعيد فالأول منهما مطوي في ﴿بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَـٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾ فذكر الرحمة في أول الكتاب ــ وهي التي وسعت كل شيء ــ وعدٌ بالإحسان، وقد كررها مرة ثانية تنبيهاً لنا أن أمره إيانا بتوحيده وعبادته رحمة منه سبحانه بنا لأنه لمصلحتنا ومنفعتنا. وقوله تعالى: ﴿مَالِكِ يَوْمِ ٱلدِّينِ﴾ يتضمن الوعد والوعيد معاً لأن معنى الدين الخضوع أي إن له تعالى في ذلك اليوم السلطان المطلق والسيادة التي لا نزاع فيها لا حقيقة ولا ادعاء، وأن العالم كله يكون فيه خاضعاً لعظمته ظاهراً وباطناً يرجو رحمته ويخشى عذابه وهذا يتضمن الوعد والوعيد. أو معنى الدين: الجزاء وهو إما ثواب للمحسن وإما عقاب للمسيء وذلك وعد ووعيد. وزد على ذلك أنه ذكر بعد ذلك ﴿ٱلصِّرَاطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ﴾ وهو الذي من سلكه فاز ومن تنكّبه هلك، وذلك يستلزم الوعد والوعيد.

وأما العبادة فبعد أن ذكرت في مقام التوحيد بقوله: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ أوضح معناها بعض الإيضاح في بيان الأمر الرابع الذي يشملها ويشمل أحكام المعاملات وسياسة الأمة بقوله تعالى: ﴿ٱهْدِنَا ٱلصِّرَاطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ﴾ أي: إنه وقد وضع لنا صراطاً سيبينه ويحدده وتكون السعادة في الاستقامة عليه، والشقاوة في الانحراف عنه، وهذه الاستقامة عليه روح العبادة ويشبه هذا قوله تعالى: ﴿وَٱلْعَصْرِ

إِنَّ ٱلْإِنْسَانَ لَفِي خُسْرٍ إِلَّا ٱلَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا ٱلصَّالِحَاتِ وَتَوَاصَوْا بِٱلْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِٱلصَّبْرِ﴾، فالتواصي بالحق والصبر هو كمال العبادة بعد التوحيد.

والفاتحة بجملتها تنفخ روح العبادة في المتدبر لها، وروح العبادة هي إشراب القلوب خشية الله وهيبته والرجاء لفضله لا الأعمال المعروفة من فعل وكف حركات اللسان والأعضاء فقد ذكرت العبادة في الفاتحة قبل ذكر الصلاة وأحكامها والصيام وأيامه وكانت هذه الروح في المسلمين قبل أن يُكلَّفوا هذه الأعمال البدنية وقبل نزول أحكامها التي فصلت في القرآن تفصيلاً مّا وإنما الحركات والأعمال مما يتوسل به إلى حقيقة العبادة ومخ العبادة الفكر والعبرة.

وأما **الأخبار والقصص** ففي قوله تعالى: ﴿صِرَاطَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ﴾ تصريح بأن هناك قوماً تقدموا وقد شرع الله شرائع لهدايتهم، وصائح يصيح ألا فانظروا في الشئون العامة التي كانوا عليها، واعتبروا بها، كما قال تعالى لنبيه يدعوه إلى الاقتداء بمن كان قبله من الأنبياء: ﴿أُولَٰئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُ فَبِهُدَاهُمُ ٱقْتَدِهْ﴾ حيث بيّن أن القصص إنما هي للعظة والاعتبار، وفي قوله تعالى: ﴿غَيْرِ ٱلْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ﴾ تصريح بأن غير المنعم عليهم فريقان، فريق ضل عن صراط الله، وفريق جاحد وعاند من يدعو إليه فكان محفوفاً بالغضب الإلٓهي والخزي في هذه الحياة الدنيا.

وباقي القرآن يفصل لنا في أخبار الأمم هذا الإجمال على الوجه الذي يفيد العبرة فيشرح حال الظالمين الذين قاوموا الحق عناداً والذين ضلوا فيه ضلالاً، وحال الذين حافظوا عليه وصبروا على ما أصابهم في سبيله. فتبين من مجموع ما تقدم أن الفاتحة قد اشتملت إجمالاً على الأصول التي يفصلها القرآن تفصيلاً فكان إنزالها أولاً موافقاً لسنة الله تعالى في الإبداع، وعلى هذا تكون الفاتحة جديرة بأن تسمى

(أم الكتاب) كما نقول: إن النواة أمّ النخلة فإن النواة مشتملة على شجرة النخلة كلها حقيقة لا كما قال بعضهم إن المعنى في ذلك أن الأم تكون أولاً، ويأتي بعدها الأولاد، اهـ.

وهذا المنهج الذي حاول به الأستاذ الشيخ محمد عبده أن يجعل فاتحة الكتاب متضمنة إجمالاً لجميع ما احتواه القرآن من المعاني تفضيلاً هو ــ في نظرنا ــ عين ماسلكه الرازي في بيان إمكان أن يستخرج من فاتحة الكتاب عشرة آلاف مسألة، وهو أيضاً قد يتلاقى في مهيعه مع ما شرح به ابن أبي جمرة الكلمة المنسوبة إلى علي كرم الله وجهه من أنه لو شاء أن يوقر سبعين بعيراً من تفسير أم القرآن لفعل، وابن أبي جمرة لم يسلك في منهجه الذي حاول به بيان إمكان ما نسب إلى أمير المؤمنين مسلك الإشاريين ودلالة الحروف وأسرارها، وإنما سلك منهج بيان تركيز المعاني الكثيرة في سورة الفاتحة، على أنه لم يقل في بيانه أنها تتضمن جميع معاني القرآن المفصلة في سوره وآياته.

ولقد كان من الخير للأستاذ الإمام أن ينزه مقامه العلمي ــ وهو رائد الطليعة المجددة في تفسير القرآن الحكيم ــ عن نحو هذا التكلف المتعسف، وكان من الخير لمنصبه الديني المرموق ألا يجنح لترجيح قول ضعيف مخالفاً جمهور الأئمة وأعلام الأمة في تعيين أول ما نزل من القرآن، ويحمله هذا الترجيح على تأييد ما اختاره بهذا البيان الذي يظهر فيه التكلف أوضح ظهور.

ويظهر أن تلميذه صاحب المنار لم يطمئن كل الاطمئنان إلى بيان شيخه فقال في صدره ما نقلناه عنه من أن الشيخ نزع في الاستدلال على ترجيحه للقول الضعيف منزعاً غريباً.

وقال معلقاً على بيان الشيخ: وأقول الآن: هذا ما قاله الأستاذ الإمام مبسوطاً موضحاً ويمكن أن يقال: إن نزول أول سورة العلق قبل

الفاتحة لا ينافي هذه الحِكَمَ التي بينها.

* * *

(٣٢)
تفسير الإمام الألوسي مثال مشهود لمنهج الإمام السيوطي الذي اختطه في مقدمة تفسيره.

ولو أردنا أن نضرب مثلاً مشهوداً للناس على هذه التفاسير الجمعية التي وضع منهجها السيوطي كخلاصة لجمع الطرق التفسيرية التي سبقته لكان ذلك في آخر صورها التي وصلت إلينا عن عالم من علماء القرن الثالث عشر الهجري، كانت له مكانته العلمية في عصره، وله معارفه الواسعة التي تهيىء له الأسباب المساعدة لوضع تفسير القرآن الكريم على طريقته الجمعية الخاصة هو كتاب «روح المعاني» لأبي الفضل شهاب الدين السيد محمود الألوسي البغدادي، وهو كتاب ضخم يشبه أن يكون صورة عريضة لمنهج السيوطي في كتابه.

(٣٣)
قصور علم التفسير بعد الإمام الألوسي، والحاجة إلى تفسير يواجه ما أقبل من الغرب من نهضة علمية، يكون عماده الهداية القرآنية، وإعجازه الفريد.

ثم وقف الناس بعد الألوسي عن التأليف في التفسير، والمحاولات التي جاءت بعده لا تبلغ أن تسمى كتب تفسير للقرآن، وأمثل من حاول ذلك كان يقصر محاولته على تفسير سورة أو آية يجرد تفسيرها من جملة التفاسير التي تقع له، ويجعل ذلك كتاباً أو رسالة تحمل اسمه، حتى وصلت إلى الشرق الإسلامي أعلام النهضة العلمية قادمة من الغرب ترعد وتبرق وتنذر وتحذر وكان لا بد أن يحس بعض أبناء الإسلام الذين أيقظتهم نذر هذه النهضة بحاجتهم إلى الأخذ منها بسبب، فأسرع إليها طلائع الرواد، ونظروا فيها فهالهم ما رأوا من المذاهب المستحدَثة في العقائد والفلسفات وما رأوا من مذاهب في الاجتماع والاقتصاد، وما رأوا من نظريات مبتدعة في العلوم والمعارف وما رأوا في أنظمة الحكم من أوضاع مما لفت أنظارهم إلى تعرف موقف الإسلام من هذه المذاهب والآراء والنظم، والإسلام دستوره الخالد الذي يستمد بقاءه منه هو القرآن العظيم، فتساءلوا هل لدينا تفاسير للقرآن تسعفنا بما يجب أن نبني عليه مستقبل أمتنا في هذه الحياة الفوارة بكل جديد من العلم والمعرفة؟ فنظروا وأمعنوا في النظر،

وبحثوا وشددوافي البحث فلم يجدوا على قرب منهم سوى هذه التفاسير الجمعيـة التي تجمـع معارف العصـور الماضيـة بغثها وسمينهـا، وحقها وباطلها مما عرفه تاريـخ الإسلام في ظل اللغة العربية.

بيد أنهم وجدوا الهداية القرآنية في تلك التفاسير مبددة هنا وهناك مغمورة بين الروايات والأسانيد في التفاسير المأثـورة عن العصر الأول، ووجـدوها تـائهة بين المـذاهب والتفريعـات في التفاسيـر الاجتهـاديـة، واستخراجها من بين ركام الروايات والمذاهب يحتـاج إلى جهد ومشقـة وأعمار تفنى ولا يبلـغ منها ما تريـد، ولكنهم وجدوا آيـات القرآن تهيب بهم أنْ تقدَّموا إلى الحيـاة وخذوا حقكم من النهضـات العلمية والتقـدم العقلي، وتبوَّؤا مكانكم في ميادينها فأنتم أهلها وأحق بها، وهذه النهضة منكم خرجت وإليكم يجب أن تعود.

(٣٤)
ظهور طليعة نابهة مـن الـعـلـمـاء اعتصمت بهـدي الـكـتـاب، واجتهـدت فـي بيانه بياناً منفتحاً عـلـى عـلـوم العصر.

وشمـر فـريق من العلمـاء النـابهين واتجهـوا إلى القـرآن العـظيم باعتباره الدستور الخـالد لـلإسلام يتلونـه حق تلاوتـه وينظرون فيـه على ضوء ما وصل إليه اجتهادهم من الإلمام بشيء من هذه العلوم والمعرفـة التي أيقظت عقولهم لها هذه النهضة، وفتـح لهم القرآن الحكيم أبـواب الفكـر الحر على مصـاريعهـا فـولـج منهم القليـل إلى مـداخـل الحيـاة الفكـريـة معتصمين بهـدى القـرآن يستنبئـونـه عن تـاريخهم من العـزة والكرامة، وعن مكانهم من العلم والمعرفة، فجاءهم الجـواب من آفاق وحيـه: ﴿سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الْآفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ﴾.

بيـد أن هذه الـطليعة كـانت متفاوتـه التفكيـر والمعرفـة بتـاريـخ الإسـلام، وفهم أسلوب القـرآن، والصبـر على مـرارة البحث، ومشقـة استطلاع الحقائق، فمنهم من تعجـل واندفـع إلى أحضـان الـنظريـات الجـديدة وآمن بهـا دون قيد أو شـرط على أنهـا حقـائق ثـابتـة لا تقبـل الجدل، فراح يعتسف الطريق اعتسافاً، ليطبق هذه النظريات على تفسير

القرآن ويخضعه لها ويحمله عليها حملاً لا ترتضيه لغة العرب التي نزل بهـا القـرآن المبين، ولا يحتمله أسلوب القـرآن، ولا يتفق مع جـوه وروحـه، ولا نعـرف تفسيراً كـامـلاً جـرى على هـذا النهج المتعجل الجماع لكل ما وصل إليـه من نظريـات مستحدثـة لم تستحكم طاقـات فتلها سوى تفسير «الجواهـر» للشيـخ طنطاوي جـوهري، وقـد ذاع هذا التفسير وانتشر في بعض بلاد الشرق الإسلامي التي استيقظت من النوم حـديثاً، وهي عـطشى لا تزال تمسـح رمص النـوم من عينيها، وتتمطى على نفسهـا من طـول مـا عـاشت تحت كـابوس الكسـل البليد، والجهل بتاريـخ الإسلام وحقائقه العلمية والتشريعيّة، وما أدخله الغرباء المغتصبـون معهم من نـظريـات علميـة تخدمهم وتخـدم استغلالهم، وتبـاعد هؤلاء الأصـلاء في أوطانهم الإسـلاميـة عن الإسـلام وتـاريخه وشـرائعه فشغلت تلك البـلاد بهذا التفسيـر، لأنها تخيلتـه في تصورهـا المنعكس عليهـا من حياتهـا الواقعيـة أنـه هـو التفسيـر لكتـاب الإسلام ودستـوره القرآن العـظيم، وكان لهـا عذرهـا لأنها لـم تجـد من تفـاسير الهـداية القـرآنية مـا يروي غلتهـا، ويشبـع نهمهـا، ويـرضي رغائبهـا، ويقرب إليها معاني القرآن بأسلوب سهل ميسر رغيب.

❋ ❋ ❋

(٣٥)
الأستـاذ الشيـخ محمد عبده رائد هـذه النهضـة التفسيرية.

ولا شك أن أبرز طلائـع هذه النهضـة المجددة في تفسيـر القرآن هو شيخها الأستاذ الشيـخ محمد عبده، فإنه رحمه الله كان ـ فيما وصل إلينا موثوقاً به من تفسيره ـ فيما بلغه العرب، وكثير من معـارف الإسلام التي يحتاج إليها من يتعرض لتفسير القرآن، وكان إلى جـانب ذلك على اتصال قوي بالنهضة العلمية النصرانيـة في الغرب، وكـان ملماً بـأحوال المسلمين والـطوائف والنحل الحـادثـة في أمم الشـرق، ممـا جعله في عصره أبرز رجال الدين وأكثرهم معرفة بما استحدث من نظريات تتصل بـالدين وأوسعهم معـرفة بمـا انبجس عنها من مـذاهـب اجتماعيـة ونظم

سياسية، وفلسفات اعتقادية، فهو قد جمع في معارفه وثقافته الكثير مما يحتاج إليه تفسير القرآن في عصره، لتبيين جوانب من هدايته التي توقظ المسلمين لينهضوا على دعائمها.

غير أن الأستاذ الشيخ محمد عبده لم يترك للناس شيئاً من التفسير، يمكن القطع بأنه تفسيره ونتاج تفكيره سوى تفسير جزء ﴿عَمَّ﴾ وهو كتاب مدرسي، مطبوع شائع ذائع بين المثقفين، وقد وضعه الشيخ ليكون مرشداً لدراسة التفسير في مدارس الجمعية الخيرية الإسلامية التي كان له فضل في نشأتها ورعايتها، ولكن هذا الكتاب لا يكشف كشفاً تاماً عن منهج الشيخ في تفسير يستوعب القرآن الحكيم كله، فهو نموذج لما كان يمكن أن يكون من منهج وأسلوب للشيخ في التفسير المستوعب لو قدر له الوجود، والنماذج لا تعطي الصورة الباطنة للبناء، وإنما تعطي السمات الخارجية للأوضاع التي تلمحها الحواس أو ما كان منها بقبيل من الإدراكات الأولية للعقل.

(٣٦)
تفسير المنار، وبيان منهجه، وما يؤخذ عليه.

أما تفسير المنار فهو من وضع الشيخ رشيد رضا صاحب مجلة المنار وتلميذ الأستاذ الشيخ محمد عبده، ويمكن أن يكون فيه أفكار وآراء من أفكار الشيخ محمد عبده، استقاها السيد رشيد رضا من دروس أستاذه، وكان أخص تلاميذه به.

وقد صرح السيد رشيد بأنه بعد وفاة الإمام أنه استقل بالتفسير وأدخل عليه كثيراً من المسائل والبحوث، فقال: (وإنني لما استقللت بالعمل بعد وفاته خالفت منهجه رحمه الله تعالى بالتوسع فيما يتعلق بالآية من السنّة الصحيحة سواء كان تفسيراً لها أو في حكمها وفي تحقيق بعض المفردات أو الجمل اللغوية والمسائل الخلافية بين العلماء، وفي الإكثار من شواهد الآيات في السور المختلفة، وفي بعض الاستطرادات لتحقيق مسائل تشتد حاجة المسلمين إلى تحقيقها بما يثبتهم بهداية دينهم في هذا العصر أو يقوي حجتهم على خصومه

من الكفار والمبتدعة أو يحل بعض المشكلات التي أعيا حلها بما يطمئن به القلب وتسكن إليه النفس).

وقد أحس السيد رشيد رضا بأن تفسيره أصبح تفسيراً جمعياً كغيره من التفاسير الحاطبة في ليل أو نهار بما أدخله عليه بعد وفاة الإمام من الاستطرادات لتحقيق مسائل تشتد إليها حاجة المسلمين ـ كما يقول ـ، ولا تتصل بتفسير القرآن إلا كما يتصل فن النغم بفن النحو ولذلك نراه يعتذر عن هذه الاستطرادات إذ يقول: وأستحسن للقارىء أن يقرأ الفصول الاستطرادية الطويلة وحدها في غير الوقت الذي يقرأ فيه التفسير لتدبر القرآن والاهتداء به في نفسه، وفي النهوض بإصلاح أمته، وتجديد شباب ملته الذي هو المقصود بالذات منه.

وهو بهذا يكلف القارىء لتفسيره شططاً حتى يستطيع أن يفيد منه شيئاً من الهداية التي هي الهدف الأصيل من تفسير القرآن، على أن هذا الذي يستحسنه للقارىء قد يمكن تحقيقه في فصول طوال متميزة بعنوانات خاصة، أما ما أدرج في التفسير من هذه الاستطرادات وهو كثير فلا يمكن تمييزه إلا بتمزيق الاتصالات البيانية في أسلوب التفسير، وبذلك يفوت على القارىء كثير من الفوائد والملابسات.

وتفسير المنار إلى جانب هذا المأخذ الذي اعترف به مؤلفه تظهر فيه العصبية المذهبية فهو شديد الحملة في مسائل فرعية على من يسميهم «المبتدعة» وهذه المسائل اختلف فيها العلماء، ويشتد صاحب المنار فيرفع النزاع فيها إلى درجة الإيمان والكفر، ولو أنه صرف همته إلى تعليم الجاهلين وهداية الضالين بالاقتصار على بيان هداية القرآن لكان في تفسيره خير كثير وقد أساء إلى تفسيره عند كثير من الناس تحمُّسُه الشديد لرأيه ومذهبه، مما رفع الثقة به عندهم فيما يقول أو يروي.

وصاحب المنار أقوم بعلم الحديث والسنّة دراية ورواية

ـ وهو أصيل أصيل في تفسير القرآن ـ من شيخه الذي يدل ما عرف من منهجه في التفسير أنه كان قليل الرعاية للسنّة وعلومها أو كان على مذهب من يرَون تفسير القرآن بما يرون من الرأي والاجتهاد في دائرة قواعد اللغة واطراح الأحاديث التي تعجز عقولهم عن فهمها ولو كانت صحيحة الإسناد.

(٣٧)
تفسير الشيخ المراغي وبيان ميزته، ومناقشته في بعض ما فسر من الآيات.

ولقد كان أمثل من نهَج نهْج الأستاذ الشيخ محمد عبده ـ في عمومه ـ هو الأستاذ الشيخ محمد مصطفى المراغي شيخ الأزهر، في دروسه التفسيرية الرمضانية التي كان يلقيها ـ غالباً ـ في كل أسبوع من أسابيع شهر رمضان المعظم وكان يحضرها عظماء الدولة وكبار علمائها وأدبائها وذوي الثقافة من شبابها.

كان ـ رحمه الله ـ يختار لدروسه آيات من الكتاب الكريم، يفسرها بطريقة هادية مهدية يعرض إلى مفردات الكلمات في الآيات مبيناً معانيها اللغوية، ثم معانيها القرآنية، ثم يأخذ في بيان معنى الآية ملماً بما فيها من دلائل الهداية عارضاً لها في أسلوب رغيب مهذب العبارة نقي الجمل، وقد يعرض عرضاً خفيفاً لمسألة نحوية أو بلاغية حسب ما يحتمله المقام.

وهي دروس أشبه بالمحاضرات العامة، لا تتعمق، ولا تستطرد إلا لحاجة ماسة تدعو إليها ضرورة بيان الحق والنصح للمسلمين «وكان ـ رحمه الله ـ شجاعاً في بيان الحق إذا عرض للبيان مناسبة صالحة لا يُكرِه الآيات، ولا يقسرها على استجلاب المعاني، ولكنه يعرض الرأي بعد بيان معنى الآية على أنه استنباط واضح من مدلولاتها التي تقصد من عامة مبادىء الهداية في القرآن، وكان يستهدف النصح في مواجهة من يملكون الإصلاح، أداء لواجب أمانة الحق والعلم.

وذلك كقوله وهو يفسر هذه الآية الكريمة: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَنْ يَشْتَرِي لَهْوَ ٱلْحَدِيثِ لِيُضِلَّ عَنْ سَبِيلِ ٱللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَيَتَّخِذَهَا هُزُواً

أُولَٰئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُهِينٌ﴾[1]: (من الناس فريق مؤمن بالقرآن إجمالاً وبرسالة محمد ﷺ ويعظمهما ويجلهما، فإذا قلت له: لم لا تقطع يد السارق، وتحد القاذف؟ ولم لا تحكّم القرآن في الحياة ونحن مؤمنون به؟ هز كتفيه وابتسم أو زاد إنها رجعية لا يحتملها تمدين العصر الحديث، أليس هذا استهزاء بالآيات واشتراء للباطل وضلالاً عن سبيل الله؟ هناك مقلدون للمذاهب في العقائد والأحكام إذا عرضت عليهم الآيات الدالة على فساد مذهبهم ولّوا عنها وإن كانوا لا يسخرون بها بل يسخرون بمن يعرضها، أليس هذا شراء للباطل وبيعاً للحق بغير علم؟).

وكان رحمه الله ـ يرى تجنيب القرآن للهزات التي استحدثها العلم الحديث بنظرياته، فلا ينبغي في نظره أن ينهج مفسر القرآن منهجاً يحمّل آيات القرآن الدلالة على نظرية علمية لتكون هذه النظرية هي بيان المعنى المقصود من الآية وذلك إذ يقول تحت عنوان «غرور المسلمين بالعقل والفلسفة»: (وجد خلاف بين المسلمين في العقائد والأحكام الفقهية، ووجد مرض آخر هو الغرور بالفلسفة وتأويل القرآن ليرجع إليها وتأويله لبعض النظريات العلمية التي لم يقر قرارها، وذلك خطر عظيم على الكتاب، فإن للفلاسفة أوهاماً لا تزيد على هذيان المصاب بالحمى والنظريات التي لم تستقر لا يصح أن يرد إليها كتاب الله».

ولكن يظهر أن الضعف البشري في جميع أفراد البشرية قد جعله الله تعالى برهاناً على تفرده بالكمال المطلق.

فالأستاذ المراغي ـ رحمه الله ـ إذ يقرر هذا يقرر في تفسير قوله تعالى: ﴿خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا وَأَلْقَىٰ فِي ٱلْأَرْضِ رَوَٰسِيَ

---

(١) سورة لقمان: الآية (٦).

﴿أَنْ تَمِيدَ بِكُمْ وَبَثَّ فِيهَا مِنْ كُلِّ دَابَّةٍ وَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَنْبَتْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ﴾[1]، أن الكتاب الكريم ـ القرآن ـ قرر أن الأرض كانت جزءاً من السموات وانفصلت عنها. . . وهذا الذي قرره الكتاب الكريم ـ القرآن ـ هو الذي دل عليه العلم، وقد قال العلماء: إن حادثاً كونياً جذب قطعة من الشمس وفصلها عنها، وأن هذه القطعة بعد أن مرت عليها أطوار تكسرت وصارت قطعاً كل قطعة منها صارت سياراً من السيارات. وهذه السيارات طافت حول الشمس وبقيت في قبضة جذبها والأرض واحد من هذه السيارات، فهي بنت الشمس، والشمس هي المركز لكل هذه السيارات، اهـ.

أما أن العلماء قالوا ذلك فلا حرج علينا أن ننظر فيما قالوا، بل يجب علينا أن ننظر فيه ونعلم علمه، ونعرف بقدر ما نستطيع مصادر وموارد ما يقوله العلماء.

وأما أن الكتاب الكريم ـ القرآن ـ قرر، هكذا بصيغة الجزم والإيمان فهذا ما كان ينبغي للأستاذ أن يتحرز من التصريح الجازم به، لأنه يناقض مبدأه في عدم تأويل القرآن ليرجع إلى بعض النظريات العلمية.

ثم قد يتساءل قارىء هذا الكلام، أين قرر القرآن أن الأرض كانت جزءاً من السموات وانفصلت عنها؟ والمفروض أن المعنى «قرر» أنه نص على ذلك نصاً لا يحتمل التأويل؟ وفي القرآن الحكيم آية واحدة هي التي يتشبث بها أصحاب هذه النظرية الانفصالية، تلك هي قوله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّ السَّمٰوَاتِ وَالْأَرْضَ كَانَتَا رَتْقاً فَفَتَقْنَاهُمَا وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ أَفَلَا يُؤْمِنُونَ﴾[2]، وهذه الآية قرأها المؤمنون من عهد رسول الله ﷺ وفهمها مَن فهمها قبل أن تظهر

---

(١) سورة لقمان: الآية (١٠).

(٢) سورة الأنبياء: الآية (٣٠).

هذه النظرية الانفصالية ومن لم يفهمها لم يسكت على جهله ولكنه سأل أهل الذكر، وفسرها الحبر ابن عباس في رواية صحيحه النقل عنه. روى أبو نعيم عن ابن عمر رضي الله عنهما أن رجلاً أتاه يسأله عن السموات والأرض كانتا رتقاً ففتقناهما؟ فقال له ابن عمر: اذهب إلى ابن عباس فاسأله، ثم تعال أخبرني، فذهب الرجل فسأل ابن عباس، فقال له ابن عباس: كانت السموات رتقاً لا تمطر، وكانت الأرض رتقاً لا تنبت، ففتق هذه بالمطر، وهذه بالنبات فرجع الرجل إلى ابن عمر فأخبره، فقال ابن عمر: قد كنت أقول ما يعجبني جراءة ابن عباس على تفسير القرآن، فالآن علمت أنه أوتي علماً.

فما الذي يدعو إلى عدم صحة هذا التفسير؟ وما الذي يدعو إلى استبعاد احتمال الآية له، إن لم يكن هو المعنى القريب الاحتمال؟ فلو أن الشيخ رحمه الله قرر أن أسلوب الآية صالح لفهم ما يقرره العلم الصحيح، مع صلاحيته لفهم ما قرره أئمتنا في معنى الآية لكان ذلك أنسب بمقامه العلمي بين أئمة المسلمين، ولكان أنسب برأيه الذي قرره صراحة في تجنيب القرآن التأويل الذي يعرضه للهزات التي استحدثها العلم.

فالقرآن لم يقرر أبداً النظرية الانفصالية بين الشمس والأرض، ولكنه وهو في أفقه الأعلى من براعة البيان المعجز تحدث عن السموات والأرض في صدد بيان جلال القدرة الإلهية حديثاً صبه في إطار لا يناقض علماً ثبت أو يثبت ثبوتاً لا يخالجه ريب، ولا تتوارد عليه الشبه والشكوك، على أن المتتبع لحديث القرآن عن السموات والأرض يراه يذكر الأرض في مقابلة السمٰوات بصورة قد تدل بفحواها ـ إن لم يكن بظاهرها ـ على استقلال الأرض في خلقها كوكباً تعيش عليه الحياة الخاصة به بمن عليه وما عليه وما فيه من الموجودات، بل إن القرآن ينفسح لأكثر من هذه في دلالة ظاهرة على استقلال خلق الأرض عن

السموات، فهو يقول في سورة «فصّلت»: ﴿قُلْ أَئِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِٱلَّذِي خَلَقَ ٱلْأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ وَتَجْعَلُونَ لَهُ أَنْدَاداً ذَٰلِكَ رَبُّ ٱلْعَالَمِينَ. وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ مِنْ فَوْقِهَا وَبَارَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَا أَقْوَاتَهَا فِي أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَآءً لِلسَّآئِلِينَ. ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ إِلَى ٱلسَّمَآءِ وَهِيَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ٱئْتِيَا طَوْعاً أَوْ كَرْهاً قَالَتَا أَتَيْنَا طَآئِعِينَ فَقَضَاهُنَّ سَبْعَ سَمَٰوَاتٍ فِي يَوْمَيْنِ وَأَوْحَىٰ فِي كُلِّ سَمَآءٍ أَمْرَهَا وَزَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ وَحِفْظاً ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ﴾[1].

فهذه الآيات الكريمة ظاهرة الدلالة على أن الأرض خلقت خلقاً مستقلاً عن السموات، وجعلت فيها الجبال الرواسي لحفظها أن تميد فتختل الحياة فوقها، وأن الله بارك فيها بما شاء من أنواع البركة في إعدادها وتهيئتها للحياة، وأنه قدر فيها أقواتها، وأنه سبحانه وتعالى حدد لذلك الخلق مع ما يتبعه مما ذكر ربنا تبارك وتعالى أوقاتاً خاصة معينة عنده مقربة لعقولنا بما نعرف ونألف.

ثم ذكر ربنا تبارك وتعالى السموات ذكراً مستقلاً بحرف يفيد عند أهل اللغة الوجود المتراخي لتقريب مراتب الخلق لعقول الخلق التي لا تدرك إلا ما عرفت وما ألفت وما يصح قياسه على المعروف لها المألوف ـ وشأن الله أعظم من مدركات العقول ـ وأخبرنا أن السمٰوات كانت دخاناً فخوطبت ـ كما شاء رب العالمين في خطابه لأصناف خلقه ـ هي والأرض معاً، ثم ذكر أنه أحكم خلق السموات وأكملها سبعاً من العنصر الذي أخبر أنها كانت عليه وهو الدخان وأنه خص السماء الدنيا التي هي أقرب السموات في ترتيبها الذي اقتضته إرادته ومشيئته بزينة المصابيح من اللوامع، وجعل فيها شهباً لحفظها، ثم أثنى على نفسه بما هو أنسب صفاته وأسمائه بهذا المقام فقال جل

---

(١) سورة فصلت: الآيات (٩ ـ ١٢).

شأنه: ﴿ذَٰلِكَ تَقۡدِيرُ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡعَلِيمِ﴾ وكلمة ﴿تَقۡدِيرُ﴾ في هذا المقام لا توجد كلمة تؤدي المقصود منها غيرها، والاسمان الكريمان ﴿ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡعَلِيمِ﴾ هما منبع الفيض بما اشتملت عليه الآيات من معان منزلة من خزائن القهر والجود.

على أنه لا ذكر في القرآن الكريم للشمس باعتبارها السماء التي انفصلت عنها الأرض ـ كما يقول العلم في نظريته ـ بل المذكور السموٰات بعنوانها ومفهومها الشرعي الذي لا يفهم منه إرادة الشمس إلا بضرب متعسف من التأويل، والشمس في القرآن الكريم تذكر مقابلة للقمر وقرينة له باعتبارهما كوكبين مغايرين للسموات بمفهومها الشرعي.

فنظرية انفصال الأرض عن الشمس لم يقررها القرآن الحكيم، فلا تصلح تفسيراً لآياته على أنه هو المعنى الذي يتحتم في فهم تعبير البيان القرآني.

ولو أن الناظرين في هداية القرآن أمعنوا النظر في مقاصد هذه الهداية لوجدوا أن تفسير رتق السموات والأرض وفتقهما بما روي عن ابن عباس رضي الله عنهما، وتلقاه الأئمة بالرضا والقبول، أقرب إلى تحقيق تلك المقاصد، لأنه المعنى الذي يفهمه كل من يتجه إليه بنظر الحس والعقل من عامة الناس وخاصتهم.

وتفسير آية رتق السموات والأرض بنظرية الانفصال الشمسي التي قال بها العلم المستحدث بعيد عن مقاصد الهداية القرآنية، لا يفهمه من أسلوب البيان القرآني إلا من قصده متأوّلاً، ولا يفهمه علمياً إلا أخص الخاصة من العلماء الكونيين، والقرآن لم ينزل بهدايته لهؤلاء العلمانيين وحدهم، وإنما نزل لهداية كافة البشرية على مستويات عقولهم وثقافاتهم.

* * *

(٣٨)
اعتراف بفضل الشيخ المراغي في منهجه التفسيري.

وقد استكمل الأستاذ الشيخ المراغي تفسير بعض السور، كسورة لقمان، وسورة الحجرات، وسورة الحديد، وسورة العصر، وفسر آيات متفرقات من سور متعددة، وكان من غير شك بعيد النظر فيما حاضر به عند إرادة إخراجه للناس كتباً ورسائل مطبوعة لتقرأ على مكث وتدبر فهي مأمونة الجانب أن تنالها السرعة فالآراء التي فيها محسوبة في مذهب الأستاذ في فهم القرآن الحكيم، وقد قرأنا له جميع ما وقع تحت يدنا مما طبع من رسائل تفسيره.

ولو أتيح للأستاذ الشيخ المراغي تفسير القرآن العظيم كله تفسيراً كاملاً على نهجه الذي سلكه لكان للناس اليوم منه تفسير يرضي الكثير من رغائبهم ويسد مكاناً من الفراغ الذي يشعر به المسلمون نحو تفسير كتابهم الكريم ودستور هدايتهم القرآن العظيم.

(٣٩)
مناقشة علمية لتفسير الشيخ محمد عبده لسورة «الفيل».

ولقد كان الأستاذ الشيخ محمد عبده حذراً في لباقة عندما عرض لمثل هذا التأويل العلمي في بعض آيات القرآن فنراه في تفسير سورة «الفيل» يجمل معنى آياتها في عبارة موجزة تصور ما في السورة من هداية وعظة، ثم يقول: وكان يمكننا أن نكتفي بذلك المعنى من الآيات، ولا نزيد عليه أدنى تفصيل، وهو كاف في الاعتبار والعظة. وليته فعل وسكت عند هذا، ولكنه تابع الكلام، وذكر ما قال إنه تواتر من الواقعة إلى أن قال: وفي اليوم الثاني ـ أي لخروج أهل مكة فزعين إلى شعف الجبال بعد ما بلغهم خبر جيش الفيل، فشا في جند الحبشي داء الجدري والحصبة وذكر رواية عكرمة في قوله: وهو أول جدري ظهر ببلاد العرب، ثم ذكر قول يعقوب بن عتبة إن أول ما رؤيت الحصبة والجدري ببلاد العرب ذلك العام.

ثم عقب على ذلك بقوله: هذا ما اتفقت عليه الروايات ويصح الاعتقاد به، وقد بينت لنا هذه السورة الكريمة أن ذلك الجدري، أو تلك الحصبة نشأت من حجارة يابسة سقطت على أفراد الجيش

بواسطة فرق عظيمة من الطير مما يرسله الله مع الريح. فيجوز لك أن تعتقد أن هذا الطير من جنس البعوض أو الذباب الذي يحمل جراثيم بعض الأمراض... وأن كثيراً من هذه الطيور الضعيفة يعد من أعظم جند الله في إهلاك من يريد إهلاكه من البشر، وأن هذا الحيوان الصغير الذي يسمونه الآن (بالمكروب) لا يخرج عنها، اهـ ملخصاً.

وحديث الجدري والحصبة في هذا المقام حديث مقحم متهافت، ما كان ينبغي أن يعول عليه مثل الشيخ في تفسير القرآن الحكيم في سورة يبدؤها الله بصيغة التعجيب والتعظيم لصنعه بما أنزله بهؤلاء الطغاة الجبابرة تقدمة لمبعث نبيه ﷺ.

وقد عرض بيان تهافت هذا الرأي ابن الأثير في تاريخه الكامل فقال: وقال كثير من أهل السير: إن الحصبة والجدري ما رؤيا في العرب بعد الفيل، وهذا مما لا ينبغي أن يعرج عليه... فإن هذه الأمراض... قبل الفيل مذ خلق الله العالم.

وقول الشيخ بعد أن ذكر حديث الجدري والحصبة: هذا ما انفقت عليه الروايات غريب في باب العلم، وعجيب في تفسير القرآن، لأن الروايات لم تتفق على هذا، بل ذكرت بعض الروايات أن هذه الطير كانت أشبه ما تكون بالطير المسمى بالخطاف، وهو طائر من طيور الليل، وبعض الروايات ذكر أنها أشبه بالوطاويط، وبعضها ذكر أنها أشبه باليعاسيب، وهي ذكور النحل وأمراؤها، وقد أقبلت من جهة البحر في جماعات إثر جماعات، تحمل في مناقيرها وأرجلها حجارة صغيرة في حجم الحمصة، أو حصى كحصى الخذف، فألقتها على الجيش الظالم فتساقط هلاكاً وفناء، فأي محال يترتب على تجويز ذلك، وبه تبقى السورة على ظاهرها، ويبقى الحادث على وضعه الإعجازي إرهاصاً للنبوة الخاتمة؟ وقد قال الحافظ ابن كثير في تفسيره بعد ذكر بعض الروايات: وهذه أسانيد صحيحة.

أو ليس هذا أقرب إلى الأسلوب العربي من حديث الجدري والحصبة والذباب والبعوض والمكروب؟ وهل في عرف اللغة العربية واستعمالاتها إطلاق لفظ (الطير) على الحيوان المسمى بـ «المكروب» وهل كان القوم المخاطبون في وقت المواجهة بالخطاب التعجيبي الذي افتتحت به السورة يعلمون شيئاً عن هذا الحيوان المسمى بـ «المكروب».

وقول الشيخ: وقد بينت السورة الكريمة أن ذلك الجدري وتلك الحصبة نشأت من حجارة يابسة، إغراق في الغربة عن العلم، وإيغال في العجب أن يكون في تفسير القرآن، وأين تعرضت السورة الكريمة لذكر الجدري والحصبة، بله بينت إنهما من حجارة يابسة، والسورة بين دفتي المصحف كاملة، كما أنزلت يتلوها الناس، ويقرؤها القرأة من حفظه القرآن وليس فيها إشارة من بعيد أو قريب إلى الجدري والحصبة.

وقد فرع الشيخ على ما فرضه واقعاً من حديث الجدري والحصبة أنه يجوز لمن يريد فهم معاني القرآن ليؤمن بها أن يعتقد أن هذا الطير الذي أرسله الله على أصحاب الفيل من جنس البعوض أو الذباب الذي يحمل جراثيم الأمراض، وأن هذا الحيوان الذي يسمى بـ «المكروب» من هذه الطير.

أليس هذا تحميلاً لآيات القرآن فوق طاقة أساليب العربية، وفوق طاقة أفهام من نزل القرآن لتعجيبهم من شأن هذه الحادثة المبدعة إرهاصاً لمقدم بعثة خاتم النبيين محمد ﷺ؟

لقد كان حديث الجدري والحصبة على تهافته أيسر أمراً من حديث «المكروب» وأنه من الطير الذي أرسله الله على جيش الفيل، وهو ضرب من التعسف في التأويل المتملق لنظريات العلم المستحدثة، وهو مذهب لكثير من المجددين في تفسير القرآن، والمتسورين على نبيين مفاهيم الإسلام الذين يرفضون قبول الخوارق المادية، سواء

(٤٠)
مثال آخر لتفسير الشيخ محمد عبده وتولجه مداخل التأويل ومناقشة ذلك.

أكانت إرهاصاً قبل النبوة أو معجزات بعد الرسالة.

والأستاذ الشيخ محمد عبده يسلك هذه الطريقة التي تبدأ ببيان الهداية القرآنية في الآيات بياناً لا يستطرد ولا يتعسف التأويل، ثم يبدو له أن يتولج إلى مداخل التأويل الذي يبعده عن اختياره لمذهب السلف، ولكنه لا يبقى به مع الخلف في الوصول إلى نتائج مذهبهم.

ويستبين ذلك بصورة واضحة في تفسيره ـ الذي نلخصه من تفسير تلميذه صاحب المنار، وقد أسنده إليه صراحة ـ لآيات قصة آدم، وجعله خليفة، وحوار الملائكة في هذه القصة، وأمرهم بالسجود لآدم، وإباء إبليس عن ذلك الأمر الإلٰهي استكباراً وعتواً.

فبعد أن ذكر الشيخ مذهب السلف والخلف في المتشابهات، وذكر أن آيات هذه القصة منها، ولا يمكن حملها على ظاهرها، وصرح بأنه على مذهب السلف في وجوب التسليم والتفويض فيما يتعلق بصفات الله تعالى وعالم الغيب، ذكر رأي السلف والخلف في حقيقة الملائكة بعبارة مبسوطة وافية. . إلى أن قال: الملائكة خلق غيبي، لا نعرف حقيقته، وإنما نؤمن بإخبار الله تعالى الذي نقف عنده ولا نزيد عليه، والقرآن ناطق بأن الملائكة أصناف، لكل صنف وظيفة وعمل، وأن إلهام الخير والوسوسة بالشر قد أسند إلى هذه العوالم الغيبية، وخواطر الخير التي تسمى إلهاماً وخواطر الشر التي تسمى وسوسة كل منهما محله الروح، فالملائكة والشياطين إذن أرواح تتصل بأرواح الناس.

وهذا ـ لو وقف عنده الشيخ ـ كان كافياً في بيان الهداية القرآنية التي تفسر الآيات في هذه القصة في ظلها، لكن الشيخ تابع السير، فقال: وذهب بعض المفسرين مذهباً آخر في فهم معنى الملائكة، وهو أن مجموع ما ورد في الملائكة في كونهم موكلين بالأعمال من إنماء ونبات وخلقة حيوان وحفظ إنسان وغير ذلك فيه إيماء إلى الخاصة

بما هو أدق من ظاهر العبارة، وهو أن هـذا النمو في النبـات لم يكن إلا بروح خـاص نفخـه الله في البـذرة فكـانت بـه هـذه الحيـاة النبـاتيـة المخصوصة، وكذلك يقـال في الحيوان والإنسـان، فكل أمـر كلي قائم بنظام مخصوص تمت به الحكمة الإلّهيـة في إيجاده فـإنما قـوامه بـروح إلّهي، سمي في لسان الشرع ملكاً، ومن لم يبال في التسمية بالتـوقيف يسمي هذه المعاني القوى الطبيعيـة إذا كان لا يعـرف من عالم الإمكـان إلا ما هو طبيعة أو قوة يظهر أثرها في الطبيعة. . .

إلى أن يقول الشيـخ: فإذا صـح الجري على هذا التفسير فلايستبعد أن تكون الإشارة في الآية إلى أن الله تعالى لما خلق الأرض ودبرها بما شاء من القوى الروحانية التي بها قوامها ونظامها، وجعـل كل صنف من القوى مخصوصاً بنوع من أنواع المخلوقات لا يتعداه ولا يتعدى ما حدد له من الأثر الذي خص به، خلق الإنسان وأعطاه قـوة يكون بهـا مستعداً للتصـرف بجميـع هذه القـوى وتسخيرهـا في عمارة الأرض. وعبـر عن تسخير هذه الـقـوى لـه بالسجود الذي يفيد معنى الخضوع والتسخيـر، وجعله بهـذا الاستعداد الـذي لا حد لـه والتصرف الـذي لم يعط لغيـره خليفة الله في أرضه، لأنه أكمل الموجودات في هـذه الأرض، واستثنى من هذه القوى قـوة واحدة عبـر عنها بـإبليس، وهي القوة التي لـزها الله بهـذا لعالم لـزاً، وهي التي تميـل بـالمستعـد للكمـال أو بـالكامـل إلى النقص، وتعارض مد الوجود لترده إلى العدم. . . ثم قـال الشيـخ: ولو أن نفسـاً مالت إلى قبـول هـذا التـأويـل لم تجـد في الـدين مـا يمنعهـا من ذلك.

وقـد أحس صاحب تفسيـر المنار بمـا في هذا الكلام من غموض وإبهـام وعـدول عن سنن السلف الـذي اختـاره الشيـخ مـذهبـاً لـه في المتشـابه من الآيـات وجعل منه آيات هـذه القصة فـأراد أن يعتـذر عن الشيـخ ويـذكر سببـاً لذلـك، وساق كـلاماً قـال: إن الشيـخ كتبه بنصـه

وحروفه، وهو كلام يزيد الغموض غموضاً والإبهام إبهاماً، وقد عقب عليه بقوله: هذا ما كتبه شيخنا في توضيح كلامه في تقريب ما يفهمه علماء الكائنات من لفظ القوى إلى ما يفهمه علماء الشرع من لفظ الملائكة، ولا يفقهه من هؤلاء إلا من له إلمام بما يقوله أولئك في القوى، وإسناد كل أحداث الكائنات وتطوراتها إليها مع اعترافهم بجهل كنهها... إلخ.

ونحن نتساءل: هل كان العرب الذين نزل القرآن بلسانهم يفهمون من أسلوبه وعباراته هذه المعاني التي ذهب إليها الشيخ في كلامه؟ وهل كان الصحابة رضوان الله عليهم يعلمون هذا العلم ونشروه على الناس في تبليغهم رسالة نبيهم ﷺ؟ أو كانوا يعلمونه وكتموه عنهم؟ أو كانوا لا يعلمونه ولا تلقوه من رسول الله ﷺ في بيانه للقرآن الكريم؟ وهل هذا الكلام يتفق مع ما ورد في السنّة الصحيحة من شأن الملائكة، وشأن آدم وقصته مع إبليس وشأن إبليس وذريته؟

إن الباطنية المحرفين لكلمات الله عن مواضعها لم يدخلوا إلى تأويلاتهم إلا من هذا الباب الذي يجعل من كل كلام يتعاصى فهمه على بعض العقول تمثيلاً لا حقيقة له، وإيماء إلى معان أدق من ظاهر العبارات.

وهل تسور المتحمسون لنظريات العلم المستحدثة في هذا العصر على آيات القرآن يحرفونها عن مقاصد الهداية إلى تحميلها مقاصد معان تخضعها لتطبيق تلك النظريات التي لا تزال في مهب الرياح إلا من طريق التعسف في التأويل؟

إن هذا القرآن العظيم أنزله الله تعالى على خاتم أنبيائه محمد ﷺ بلسان عربي مبين هدى للناس وبينات ورحمة، ولم ينزل بالإشارات والرموز، والإيحاء، وأنزل فيه ـ كما أخبر الله تعالى ـ آيات محكَمات هن معظمه وجماعه كما قال الطبري: أُحكِمت بالبيان

والتفصيل، وأثبتت حججهن وأدلتهن على ما جعلن أدلة عليه من حلال وحرام، ووعد ووعيد، وثواب وعقاب، وأمر وزجر، وخبر ومثل، وعظة وعبر.

كما أنزل فيه آيات متشابهات، وهي كل ما لا حاجة إلى العباد بمعرفته، لأنه مما استأثر الله بعلم حقيقته ووقته، وإنما أنزله الله امتحاناً لعبودية خلقه، وتمييزاً لأهل المعرفة بجلال الله الذين يسلمون وجوههم لله تعالى لائذين بساحة الإيمان يقولون معبرين عن تسليمهم: آمنا بالمحكم والمتشابه كل من عند ربنا، نعلم ما علمنا ونقف على سدة الأدب رادين علم ما لم نعلم إلى علّام الغيوب.

وإظهاراً لحقيقة من في قلوبهم زيغ وانحراف عن هداية القرآن الذين يتتبعون ما لا حاجة إليهم بمعرفته ليلبسوا على المؤمنين دينهم تضليلاً لهم وميلاً بهم عن مهيع الحق إلى طرائق الفتنة والتشكيك.

قال الطبري: إن جميع ما أنزل الله عز وجل من آي القرآن على رسوله ﷺ فإنما أنزله عليه بياناً له ولأمته وهدى للعالمين، وغير جائز أن يكون فيه ما لا حاجة بهم إليه، ولا أن يكون فيه ما بهم إليه الحاجة ثم لا يكون لهم إلى علم تأويله سبيل.

وآيات إخبار الله تعالى للملائكة بأنه جاعل في الأرض خليفة وما جرى فيها من الحديث وما تبعها من قصة إبليس لا تخرج عن أن تكون من محكم القرآن الذي يعلم العلماء ـ وفي طليعتهم أصحاب رسول الله ﷺ ـ تأويله ببيان الرسول لهم أو بما لهم من المعرفة بأسباب العلم بمعاني القرآن ولا بد أن يكونوا قد تأولوه إذا كان عندهم من محكم القرآن، ولا بد أن يكونوا قد بينوه للناس ونقله العلماء خلفاً عن سلف وعلمه من علمه وجهله من جهله. أو أن تكون من متشابهه الذي استأثر الله بعلمه، فلم يثيروه على الناس حتى لا يلبسوا عليهم دينهم ويوقعوهم في مزالق الفتن والضلال.

بيد أننا وجدنا أئمة الإسلام من السلف والخلف، تحدثوا في تأويل هذه الآيات وتفسيرها حديثاً يؤذن بأنها من المحكم الذي علم العلماء تأويله، وأنها جارية على ظاهر أسلوبها وعبارتها وأنها حقائق واقعة لا مدخل فيها للإشارات والرموز والإيحاء والتمثيل. قال أبو جعفر الطبري: قال بعض أهل العربية: قول الملائكة: ﴿أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا﴾، على غير وجه الإنكار منهم على ربهم، وإنما سألوه ليعلموا، وأخبروا عن أنفسهم أنهم يسبحون، قالوا ذلك لأنهم كرهوا أن يُعصَى الله.

ثم قال: وقال بعضهم: ذلك من الملائكة على وجه الاسترشاد عما لم يعلموا من ذلك، وكأنهم قالوا، يا رب خبرنا، مسألة استخبار منهم لله.

(٤١) تفسير آيات استخلاف آدم عليه السلام.

واختار هذا التأويل الطبري، وهذا الموضع من القصة هو مفتاحها، فالقصة واقع من واقع آيات القرآن التي لا تمثيل فيها ولا إشارات ولا إيماء إلى معان أدق من ظاهر العبارة. ونحن نلخص القول في عرضها كما فهمها أئمة العلماء من سلف الأمة وخلفها:

يقول الله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ ٱلدِّمَآءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ. وَعَلَّمَ آدَمَ ٱلْأَسْمَآءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى ٱلْمَلَائِكَةِ فَقَالَ أَنْبِئُونِي بِأَسْمَآءِ هَـٰؤُلَاءِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ. قَالُوا سُبْحَانَكَ لَا عِلْمَ لَنَا إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَا إِنَّكَ أَنْتَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ. قَالَ يَا آدَمُ أَنْبِئْهُمْ بِأَسْمَآئِهِمْ فَلَمَّا أَنْبَأَهُم بِأَسْمَآئِهِمْ قَالَ أَلَمْ أَقُلْ لَكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ غَيْبَ ٱلسَّمَٰوَاتِ وَٱلْأَرْضِ وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنْتُمْ تَكْتُمُونَ﴾[١].

---

(١) سورة البقرة: الآيات (٣٠ ـ ٣٣).

هـذا القـول من الله تعـالى للمـلائكـة إخبـار من الله لمـلائكتـه ـ بطريق الوحي، فلا هو حديث مشافهة ولا محاورة مشاورة، تعالى ربنا عما لا يليق بجلال عظمته ـ بأمر كائن في غيب العلم الإلٓهي حان وقت إبرازه إلى عالم الشهـود، وعيان الحس، إعـلاماً للمـلائكة بـأن الفيض الإلٓهي دائم الإسباغ لا ينقطـع ولا يغيض.

والمقتضي لهذا الإخبار ـ فيما يمكن أن تدركه العقول ـ هو:

أولاً: الإنعـام بترقي الكمـال الملائكي بـزيـادة علمهم بشـأن من شئـون الله الكـونيـة، والمـلأ الأعلى دائم الترقي في معـرفـة الجـلال الإلٓهي، بما يفيضه الله تعالى على طبائعهم الروحانية.

ثانياً: التعريف بمن يصطفيه الله لخلافتـه، وإظهار فضله وكـرامته على ربه، فلما سمع الملائكة أن هذا الكائن هـو خليفة الله في أرضـه استخبروا ربهم استخبار استرشاد وتفهم، عن شأن هذه الخلافة ليعلمـوا ما لم يكونوا يعلمون.

أرادوا أن يعرفوا من أمر الخلافة التي أخبروا أنها كائنة، أهي خير محض لا شر فيه، كمـا هو شـأن الملائكـة، تسبيـح وتقديس وتعبـد لله تعـالى؟ أم هي خير يشـوبه شـر؟ وإنما أفـردوا الاستخبـار صـراحـة عن جانب الشر الـذي لا تعرفـه طبائعهم الخيـرة بجِبِلّتها، لأن هـذا الجـانب هو الذي يخافون وجوده إعظاماً لمقام الألـوهية أن يعصى الله في أرضـه بنعمـة إبـداعـه وخلقـه ولـه عبـاد مكـرمـون، يسبحـونـه الليـل والنهـار لا يفترون، فأجيبوا عن استخبارهم بما وقفهم عند عبـوديتهم، وبما بين لهم أن علمهم مهمـا بلـغ شـأنـه فـإنـه لا يحيط بشيء من علم الله إلا بإذنه.

وخلافة هـذا الكائن في الأرض قـد أبانت الحكمـة الربـانية أنهـا كانت تقصد إلى عمـارة الحياة وسيـاسـة الخلق، وتنفيـذ أوامـر الله في شرائعه التي قدر سبحانه في غيب علمه أنها سيكون بيدها موازين الحق

والعدل بين كافة الخلق، وهذه الخلافة بهذا المعنى هي رسالة الكمَلة من البشر ممثلة في الأنبياء والمرسلين، ورثتهم من العلماء والحكماء والمصلحين، وقادة الأمم ممن ولاهم الله سياسة الشعوب. وهذه الرسالات لا تنقطع آثارها من الأرض ما دام الإنسان قائماً على ظهرها يؤدي حق الحياة.

وقد كتب الأستاذ الشيخ محمد حسنين محمد مخلوف الكبير في تعليقته على الجزء الرابع من موافقات الشاطبي مستمداً من كلام الألوسي فقال: (وسؤال الملائكة إنما وقع لاستكشاف الحكمة وإزالة الشبهة التي أثارها في نفوسهم ما فهموه من اسم (الخليفة) وما يقتضيه اختلاف طبائعه وتركيب أمزجته، وليس المقصود منه التعجب والتفاخر والاعتراض حتى يضر بعصمتهم ـ كما قيل ـ ولو كان كذلك لما كان الجواب بهذا التلطف والإقناع المفيد، قال تعالى: ﴿إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ أقرهم على ما فهموه من الاسم الشريف، وأرشدهم بقصور علمهم إلى ما انطوى تحت سره المنيف، وأظهر لهم من شأنه بتعليم آدم ما لم يعلموه ولن يعلموه فازادوا بذلك علماً ويقيناً، وفهموا أنه الصالح للخلافة دونهم، فإن خليفة الله في عمارة أرضه وسياسة خلقه وتكميل نفوسهم وتنفيذ أمره فيهم يجب أن يكون جامعاً بين التجرد والتعلق حافظاً للنسبتين، وذلك لا يكون ملكاً، وإنما يكون بشراً.

وفي تفسير الخلافة بهذا المعنى الذي فهمه الأئمة ما يقتضي الامتياز بخصيصة العلم التي من أجلها استحق الإنسان أن يكون خليفة الله في أرضه لأنه أوتي من العلم والمعرفة بحقائق الكون وأوتي من الاستعداد لتلقي وحي الله بشرائعه إليه في تدبير الحياة وسياسة الخلق ما لم يؤتَه مخلوق غيره، ولا الملائكة المكرمون، فكان له بذلك عليهم فضيلة الشرف في اختياره للخلافة مع أنهم المسبّحون المقدّسون

المستغرِقون أوقات الليل والنهار في التعبّد لله تعالى لا يفتُرون، ومع أن النوع الإنساني المختار للخلافة لا بد أن يقع من بعض أفراده انحراف عن سنن الله وصراطه المستقيم، لكن منزلة العلم والمعرفة التي لا حد لها هي الخصيصة التي امتاز بها، والتي رفعه الله بها فوق كل منزلة لكل مخلوق، وهي التي نيط بها مقام الاستخلاف.

ومن هنا جاء الجواب عن استخبار الملائكة ليعرفوا شأن هذه الخلافة في طاعة الله ومعصيته، لأنها بمقتضى وضعها وما يُفهِمه اسمها من مهمتها في الحياة تقوم على سياسة الخلق وتنفيذ أوامره بينهم وتوجيههم إلى إثارة ما في الكون من قوى الطبيعة تحقيقاً لنعمة التسخير الإلٰهي التي امتن الله بها على الإنسان في قوله: ﴿هُوَ ٱلَّذِي خَلَقَ لَكُمْ مَا فِي ٱلْأَرْضِ جَمِيعاً﴾ وهذه الآية جاءت في بلاغة النسق القرآني وترتيب معانيه بوقوعها قبل آية الخلافة مباشرة آية الإعجاز النسقي في ترتيب آي القرآن، وهو فن من فنون الإعجاز البياني في أسلوب القرآن ونظمه بعيد الغور، عميق القرار.

ولما علم الملائكة ما لم يكونوا يعلمون من فضل من اصطفاه الله لخلافته في الأرض قاموا على قدم العبودية مسبِّحين لله تعالى، رادين العلم المحيط إليه وحده، متبرئين أن يكون من صفاتهم العلية ادعاء ما لم يكن لهم من حق، مُثنِين على الله بما هو أهله من الحكمة البالغة والعلم المحيط ﴿قَالُوا سُبْحَانَكَ لَا عِلْمَ لَنَا إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَا إِنَّكَ أَنْتَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ﴾.

ومن آفاق أدب العبودية هبت عليهم نسمات الإنعام بتنزل الإذن لأنموذج الخلافة بتكميل الفضل عليهم كفضل الأستاذ على تلاميذه، وإعلامهم بما عرض عليهم حقائق كونية ليذكروا خواصها وصفاتها الذاتية وأسماءها المعبّرة عن تلك الخواص والصفات ليزدادوا علماً إلى علمهم ﴿قَالَ يَا آدَمُ أَنْبِئْهُمْ بِأَسْمَآئِهِمْ فَلَمَّا أَنْبَأَهُمْ بِأَسْمَآئِهِمْ قَالَ أَلَمْ أَقُلْ لَكُمْ

﴿إِنِّي أَعْلَمُ غَيْبَ ٱلسَّمَٰوَاتِ وَٱلْأَرْضِ وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ﴾ وهذا القول هو من قبيل الوحي بضرب من ضروبه كما قال تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَنْ يُكَلِّمَهُ ٱللَّهُ إِلَّا وَحْياً أَوْ مِنْ وَرَآءِ حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولاً فَيُوحِيَ بِإِذْنِهِ مَا يَشَآءُ إِنَّهُ عَلِيٌّ حَكِيمٌ﴾[1].

والمعنى أن الله تعالى أوحى إلى آدم أن يخبرهم بنعوت الأشياء التي عرضها عليهم واستنبأهم عنها فلم يخبروا عنها بشيء، فلما أنبأهم آدم بصفاتها الدالة على حقائقها بما أفاضه الله عليه من العلم والمعرفة الذي ظهر به شرفه وفضله، وقرت به عين الحقيقة في أنفس السائلين، قال الله جل شأنه بضرب من ضروب الوحي العام، أو بما جبل عليه الملائكة من المعرفة والفهم عن الله تعالى: ﴿أَلَمْ أَقُلْ لَكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ غَيْبَ ٱلسَّمَٰوَاتِ وَٱلْأَرْضِ﴾، فأعلم شأن من اصطفيته لخلافتي في أرضي، وأعلم ما تبدون من التطلع إلى معرفة الحقيقة باستخباركم عن أمر الخلافة في الأرض، وأعلم ما كنتم تكتمون من تخوفكم أن أُعصَى في أرضي بنعمتي حيثما أنبأتكم أني جاعل في الأرض خليفة يقوم على تنفيذ أحكامي وتحقيق حِكَمي وسنتي في الكون، لتزدادوا علماً بشئون الكون.

وقد اقتضت حكمة الله التي شرفت نموذج النوع الإنساني الأول في نشأته أن تجعل بإزائه في هذه الحياة نموذجاً للشر والإفساد في الأرض، فجعلت من إبليس هذا الأنموذج الشرير، وجعلت من ذريته وجنده سلائل للشر والإضلال، ليكون مقام خلافة الله في الأرض مقام جهاد تظهر فيه إرادة الإنسان في تحقيق سنن الله تعالى وتنفيذ أوامره والعمل بشرائعه.

وهذا في ظاهره قد يبدو في صورة المحنة، ولكنه في حقيقته منحة ونعمة وتشريف، ومن ثَم نجد القرآن الحكيم قد زاوج بين قصة

---

(١) سورة الشورى: الآية (٥٢).

النشأة الأولى للإنسان ممثلة في آدم أبي الإنسانية كلها ومنبعها الأول ونموذجها الأصيل، وبين قصة إبليس رأس الشياطين وذريته من نماذج الإضلال والإفساد.

على هذا النسق المحكَم، وفي هذا الأسلوب البياني المعجِز، وفي هذه الصورة البالغة ذروة الروعة والجمال، وفي هذه البراعة من النظم البياني البديع، ساق القرآن آيات إخبار الله تعالى ملائكته بأنه جاعل في الأرض خليفة يقوم بما أودعه فيه من كمالات فكرية وروحية، وقوة إرادية على تدبير أمر الحياة واستثارة الدلائل على بالغ حكمة الله وعظيم اقتداره وإحاطة علمه، وتعلم الملائكة من علم هذه الخلافة ما شاء الله أن يعلمهم، وإظهار نعمة الله عليهم في ثنائهم على الله تعالى شكراً لفضله: ﴿قَالُوا سُبْحَانَكَ لَا عِلْمَ لَنَا إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَا إِنَّكَ أَنْتَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ﴾.

* * *

(٤٢)
عودة إلى السؤال: هل فُسِّر القرآن؟!

وهنا بعد أن عرضنا الصورة الإجمالية لتفسير القرآن وتلمس هدايته وإعجازه في تلك التفاسير ـ نرى أن نعيد تساؤل المتسائلين: هل فُسِّر القرآن الحكيم باعتباره دستور الإسلام الذي تدين به الأمة الإسلامية وتدعو إليه الإنسانية كلها لتؤمن به وتعتنق مبادئه؟

وإذا كان أئمتنا من علماء الإسلام قد أخرجوا للإنسانية هذه الثروة الضخمة في تفسير القرآن، وهي ثروة جمعت ما عرف من علم ومعرفة وثقافة في عصورهم المختلفة فمن الجحود المنكر أن نقول إن القرآن لم يفسر، بل إنه فسر وفسر بصورة عظيمة لم يكن في إمكان العقل الإنساني، ولا في مأثور العلم أن يأتي بأعظم منها في عصورها ومجتمعاتها وبيئاتها بكل ما بلغته من محصول فكري عربي أو غير عربي، بل إن هذه التفاسير التي تحتويها فهارس المكتبات الإسلامية وغير الإسلامية لو أمكن جمعها في مكتبة واحدة وأريد إخراج تفسير

واحد منها يبين هداية القرآن بياناً عاماً يجمع ضروبها التي أشرنا إلى بعضها، والتي تتفتح عنها عقول العلماء لأخرج منها تفسير جامع لما تتطلع إليه البشرية في حاضرها بل أكاد أقول في مستقبلها، ولكن ذلك ليس في حيز الإمكان عملياً لأسباب لا تخفى.

إن الأمة الإسلامية في عصرنا الحاضر في حاجة شديدة إلى تفسير للقرآن الكريم يبرز هدايته ويقيم حجته على ما أقامها هو عليه من النظر في ملكوت الله وتعرف أسرار الكون والعمل على استخدام ظواهر الطبيعة والإفادة منها بأقصى وأبلغ ما يكون في دائرة الإمكان في سبيل ترقية الحياة وإسعاد البشرية في ظل هذا الكتاب العظيم.

والقرآن اشتمل على عقائد أقيمت على براهين اختص بها القرآن وربطها بآيات الله الكونية، وهذا النوع هو خلاصة الهداية التي أنزل بها ولها، كما أنه اشتمل على ضروب من العبادات لا يستكمل الإنسان تذوق هداية القرآن إلا في ظلها وهي في الإسلام دعامته الإيمانية بعد التوحيد، وقد بذل الأئمة والعلماء جهداً عظيماً في بيان أصولها وفروعها، واستكملوا بيان ما أجمله القرآن وتفريغ ما أصّلته السنّة النبوية من أحكامها.

ويشتمل القرآن على أصول أحكام المعاملات التي تحقق أو التي يجب أن تحقق مطالب الإنسانية وحاجاتها لتكون وسيلة لإسعادها في كل عصر وجيل، وهي بمعرض المرونة المتطورة مع مصالح الناس ومنافعهم، وباب الاجتهاد فيها مفتوح ولم يقفل ولن يقفل ما دام على أرض الإسلام عالم يستطيع أن ينظر ويبحث بعيداً عن جهالة الغرور وغرور الجهالة، مستكملاً لشرائط الاجتهاد العلمية والخلقية.

أما الآيات الكونية فقد أكثر القرآن منها جداً حتى قال بعض الباحثين إنها تبلغ أكثر من خمسمائة آية من آيات القرآن. هذا الجانب من القرآن هو الذي يحتاج إلى نظر جديد يقيم منار الهداية القرآنية على

دعائم فهم هذه الآيات فهماً علمياً يقنع العقول بصادق البرهان، ويملأ القلوب باليقين. ونحن لا نقصد بالفهم العلمي لآيات القرآن تفسيرها بنظريات العلم المستحدَثة في الأمور الكونية كما يصنع بعض المتحمسين من المعاصرين كالذي سلكه صاحب تفسير «الجواهر» في كتابه، وكالذي أنكرنا أن الكتاب الحكيم قرره من نظرية الانفصال الشمسي في تفسير آية ﴿أَوَلَمْ يَرَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّ ٱلسَّمَـٰوَاتِ وَٱلْأَرْضَ كَانَتَا رَتْقاً فَفَتَقْنَاهُمَا﴾، وكالذي أنكرناه من تجويز تفسير «الطير الأبابيل» في سورة الفيل بالذباب والبعوض والمكروب، وتفسير الملائكة بقوى الطبيعة الخيرة، وإبليس وذريته من الشياطين بقوى الطبيعة الشريرة المفسدة، وإسجاد الملائكة لآدم بتسخير القوى الكونية للإنسان.

(٤٣)
الإعجاز العلمي ومعناه في تفسير القرآن.

ولا نقصد بالفهم العلمي ما ذهب إليه بعض القدامى من المفسرين، كالذي يحكيه السيوطي في كتابه «الإتقان» عن أبي الفضل المرسي في تفسيره إذ يقول: جمع القرآن علوم الأولين والآخرين... وقد احتوى على علوم أخرى من علوم الأوائل مثل: الطب، والجدل، والهيئة، والهندسة، والجبر، والمقابلة، والنجامة، إلى أن يقول: وفيه ـ أي القرآن ـ أصول الصنائع، وأسماء الآلات... كالخياطة.. والحدادة.. والنجارة.. والغزل.. والنسج.. والفلاحة.. والصيد.. والغوص.. والصياغة.. والزجاجة.. والفخارة.. والملاحة.. والكتابة.. والخبز.. والطبخ.. والقصارة.. والجزارة.. والبيع والشراء.. والصبغ.. والحجارة.. والكيالة.. والوزن.. والرمي.. وفيه من أسماء الآلات ضروب والمأكولات والمشروبات.. وجميع ما وقع ويقع في الكائنات ما يحقق معنى قوله: ﴿مَا فَرَّطْنَا فِي ٱلْكِتَابِ مِن شَيْءٍ﴾.

وهذا منهج في التفسير غريب جداً عن مقصد القرآن وهدايته، لأن هذه العلوم والفنون، والصنائع والآلات التي عرض لذكرها

هذا المفسر وجعلها من العلوم التي احتواها القرآن، لم يكن المقصود من ورودها في القرآن وروداً عابراً اقتضاه المقام في ذكر قصة أو عظة وعبرة، أو الإشارة إليها في آيات القرآن، أنها علوم ومعارف وفنون أنزل القرآن بمسائلها وقضاياها وموضوعاتها لتبحث في تفسيره كما تبحث في مصانعها ومعاملها بآلاتها ووسائلها التجريبية الخاصة، لأن ذلك مما لا ينبغي أن يكون مما يعرض له القرآن، لأن القرآن لم ينزله الله كتاب فن وصناعة وإنما أنزل هدى للناس وبينات من الهدى والفرقان.

وقد سلك نحو هذا المسلك في الإشارة إلى جمع القرآن للعلوم مع اختلاف الأسلوب الإمام أبو حامد الغزالي، فذكر في كتابه «إحياء العلوم» أن القرآن يحوي سبعة وسبعين ألف علم، ومائتي علم، ثم فصل في كتاب «جواهر القرآن» ما أجمله في «الإحياء» فذكر من العلوم التي احتواها القرآن: علم الطب، والنجوم، وهيئة العالم، وهيئة بدن الحيوان، وتشريح أعضائه، وعلم السحر، وعلم الطلسمات... ثم ذكر بعض الآيات التي تشير إلى بعض الحقائق الكونية في صدد الاستدلال على عظمة ملك الله وباهر قدرته وبالغ حكمته، وبيّن أن فهمها، وبيان ما فيها من دلالة على مقصودها لا يقوم به إلا من فهم العلم الذي تشير إليه، فذكر الشفاء والمرض في قوله تعالى حكاية عن إبراهيم عليه السلام: ﴿وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ﴾، وقال: فهذا الفعل الواحد لا يعرفه إلا من عرف الطب بكماله، إذ لا معنى للطب إلا معرفة المرض بكماله وعلاماته، ومعرفة الشفاء وأسبابه، ثم قال: ومن معرفة الله تعالى تقدير معرفة الشمس والقمر ومنازلهما بحسبان، وقد قال تعالى: ﴿ٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ بِحُسْبَانٍ﴾، وقال تعالى: ﴿وَقَدَّرَهُ مَنَازِلَ لِتَعْلَمُوا عَدَدَ ٱلسِّنِينَ وَٱلْحِسَابَ﴾، وقال: ﴿وَخَسَفَ ٱلْقَمَرُ وَجُمِعَ ٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ﴾، وقال: ﴿يُولِجُ ٱلَّيْلَ فِي ٱلنَّهَارِ وَيُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِي ٱلَّيْلِ﴾، وقال: ﴿وَٱلشَّمْسُ تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ لَهَا ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ ٱلْعَزِيزِ

ٱلْعَلِيْمِ﴾. ولا يعرف حقيقة سير الشمس والقمر بحسبان وخسوفهما، وولوج الليل في النهار، وكيفية تكرر أحدهما على الآخر إلا من عرف هيئات تركيب السموات والأرض، وهو علم برأسه، ولا يعرف كمال معنى قوله: ﴿يَا أَيُّها ٱلْإِنْسَانُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ ٱلْكَرِيْمِ ٱلَّذِي خَلَقَكَ فَسَوَّاكَ فَعَدَلَكَ فِي أَيِّ صُورَةٍ مَّا شَآءَ رَكَّبَكَ﴾، إلا من عرف تشريح الأعضاء من الإنسان ظاهراً وباطناً، وعددها وأنواعها وحكمتها ومنافعها.

وهذا المسلك إذا نظر إليه في ضوء الهداية القرآنية ـ التي تستهدف بيان مقاصد القرآن في الكشف عن الحقائق الكونية لتتبين دلالتها على عظمة خالقها ووحدانيته، وباهر قدرته، وبالغ حكمته، ومحكَم تدبيره لملكوت ـ كان مسلكاً علمياً صحيحاً في تفسير القرآن، على معنى أن من يتعرض لتفسير القرآن يجب أن يكون متضلعاً من العلوم الشرعية أصولاً وفروعاً، ومن الفنون العربية بجميع ضروبها المختلفة، وأن يكون متشبعاً من العلوم الكونية، ملماً بحقائقها، ليستطيع في ظلها وظل العلوم الشرعية والعربية أن يتبين معالم الهداية القرآنية في إقامة الحجة على مقاصد القرآن، فسبيل هذه العلوم الكونية في تفسير القرآن سبيل غيرها من الوسائل التي تساعد على فهم النص القرآني فهماً يحقق الغرض منه.

وليس سبيلها أن تكون بنظرياتها تفسيراً للقرآن، ولا أن تكون مما يُعتقَد أن القرآن قصد إليها في آياته لتحمل عليها في تفسيرها، وهذا هو ما يظهر أنه مقصود الإمام الغزالي كما يدل عليه قوله تعقيباً على قوله تعالى: ﴿وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ﴾ وهذا لا يعرفه إلا من عرف الطب بكماله، وهكذا في تعقيباته على سائر ما ساقه من الآيات الكونية.

وقد جاء بعد الغزالي الإمام فخر الدين الرازي فحاول أن يطبق هذا المنهج العلمي في تفسيره، غير أنه بالغ في الإيمان بنظريات العلم الكوني الذي عرفه العقل البشري في عصره مبالغة طمست معالم

الهداية القرآنية، وصرفت الآيات عن مقاصدها في الهواية إلى التوغل في بحوث علمية جافة، ونظريات فلسفية معقدة.

فأنت تراه في تفسير قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِي جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ فِرَاشًا﴾ يذكر كلاماً، يؤمن به ويعتقده، في الدلالة على كون الأرض فراشاً للخلق لا تسلمه له النظريات المستحدثة، فهذه النظريات انتهت إلى بداهة أن الأرض متحركة بدورانها حول الشمس، فهو يقول: اعلم أن كون الأرض فراشاً مشروط بأمور، الشرط الأول كونها ساكنة، وذلك لأنها لو كانت متحركة لكانت حركتها إما بالاستقامة أو بالاستدارة، فإن كانت بالاستقامة لما كانت فراشاً لنا على الإطلاق، لأن من طفر من موضع عالٍ كان يجب أن لا يصل إلى الأرض، لأن الأرض هاوية، وذلك الإنسان هاوٍ، والأرض أثقل من الإنسان، والثقيلان إذا نزلا كان أثقلهما أسرعهما والأبطأ لا يلحق الأسرع، فكان يجب أن لا يصل الإنسان إلى الأرض، فثبت أنها لو كانت هاوية لما كانت فراشاً.

أما لو كانت حركتها بالاستدارة لم يكتمل انتفاعنا بها، لأن حركة الأرض مثلاً إذا كانت إلى المشرق، والإنسان يريد أن يتحرك إلى جانب المغرب، ولا شك أن حركة الأرض أسرع فكان يجب أن يبقى الإنسان على مكانه وأنه لا يمكنه الوصول إلى حيث يريد، فلما أمكنه ذلك علمنا أن الأرض غير متحركة لا بالاستقامة ولا بالاستدارة فهي ساكنة.

ثم ذهب يذكر سبب هذا السكون الذي زعم أنه قد تم له البرهنة عليه فأطال رشاء القول، وذهب فيه كل مذهب إلا مذهب الإبانة عن هداية القرآن في آيات الله الكونية.

ثم عاد الرازي إلى منهجه وأسلوبه في تطبيق النظريات العلمية في عصره على تفسير آيات القرآن فكتب في تفسير قوله تعالى: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَٱلْفُلْكِ ٱلَّتِي

تَجْرِي فِي ٱلْبَحْرِ بِمَا يَنْفَعُ ٱلنَّاسَ﴾، نحو خمس وعشرين صفحة من الحجم الكبير في فصول، الأول منها (في ترتيب الأفلاك) والثاني (في معرفة الأفلاك) والثالث (في مقادير الحركات) والرابع (في كيفية الاستدلال بهده الأحوال على وجود الصانع) وهذه الفصول في أحوال السموات فقط، وقد ذكر أنه كتب ذلك في الوجه المختصر الذي يليق بهذا الموضع، ثم رجع إلى الأرض وذكر في أحوالها فصلاً، وفي بيان دلالة هذه الأحوال على وجود الصانع فصلاً آخر. وهكذا أتخم الرازي كتابه بنظريات العلم الذي ملأ عصره وجعل هذه النظريات تفسيراً لكتاب الله تعالى، وقد نقض العلم نفسه تلك النظريات بنظريات أخرى قد ينقضها في المستقبل القريب أو البعيد.

هذا المنزع الذي نزع به طائفة من العلماء في تفسير القرآن بإدخال نظريات العلم التي هي نتاج تفكير بشري على مناهج التفسير، وتحكيم تلك النظريات في معاني القرآن حمل طائفة من العلماء القدامى والمحدثين على الوقوف في مقابلة أولئك، زاعمين أنه لا ينبغي مطلقاً أن تدخل نظريات العلم ساحة تفسير القرآن بل لا ينبغي أن يستعان بشيء من هذه النظريات على تبيين معاني القرآن.

(٤٤)
مناقشة علمية للإمام الشاطبي رحمه الله.

وأظهر من يمثل هذا الطرف الإمام الشاطبي صاحب كتاب «الموافقات» فإنه رحمه الله ذهب مذهباً عجيباً لا يلائم منصبه في العلم وحرية التفكير، ونباهة الذكر، يذهب الإمام الشاطبي إلى أن شريعة الإسلام شريعة أمية، لأن أهلها كذلك، وهذا أجرى وأوفق باعتبار المصالح التي يقصدها الشارع من التشريع. ثم راح «الشاطبي» يسوق الأدلة من الكتاب والسنّة على ما زعمه من أن الشريعة الإسلامية شريعة أمية، لا تقوم على العلم بأوسع معانيه، ولا على التفكير العقلي بأبلغ مراميه، وساق الآيات والأحاديث التي جاءت لإثبات أمية النبي ﷺ

وسلم تحقيقاً لمعجزة القرآن الكريم وإظهاراً لدلالته على صدق رسالة من أرسل به محمد خاتم النبيين، والتي جاءت للتنبيه على واقع الأمة العربية في أنها أمة أمية لم تكن تعرف العلم بالتعلم والمدارسة والكتابة والقراءة، وأنها اختبرت على وصفها هذا الحمل أعظم رسالة سماوية تؤاخي العقل وتظاهِر العلم، وتحمل أمانة خلافة الله في الأرض بإقامة معالم التفكير الإنساني ودفع العقل إلى مجالات الفتوحات العلمية في ميادين الوجود السماوية والأرضية، وذلك أثبت في إثبات معجزة القرآن وشريعته.

وموقف الشاطبي في هذه القضية متهافت لا يقوم على دعائم من الأصول القوية التي تسنده، إذ لا دخل أبداً لأمية النبي ﷺ التي فسرها العلماء بأنه ﷺ كان لا يكتب ولا يقرأ، وأنه لم يجلس إلى العلماء لمدارسة العلم عن الكتب والصحف، كما يشير إلى ذلك ما ساقه الشاطبي نفسُه في أدلته من نحو قوله تعالى: ﴿فَآمِنُوا بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِ ٱلنَّبِيِّ ٱلْأُمِّيِّ ٱلَّذِي يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَكَلِمَاتِهِ﴾[1]، وقوله تعالى: ﴿وَمَا كُنْتَ تَتْلُو مِنْ قَبْلِهِ مِنْ كِتَابٍ وَلَا تَخُطُّهُ بِيَمِينِكَ إِذاً لَٱرْتَابَ ٱلْمُبْطِلُونَ﴾[2].

ويسوق الشاطبي دليلاً عقلياً على مُدّعاه، وهذا الدليل عند التأمل عليه لا له، فيقول: إن الشريعة التي بعث بها النبي الأميّ ﷺ إلى العرب خصوصاً وإلى من سواهم عموماً إما أن تكون على نسبة ما هم عليه من وصف الأمية أو لا تكون كذلك، فإن كانت على نسبة ما هم عليه من الأمية فهو معنى كونها شريعة أمية، أي منسوبة إلى الأميين، وإن لم تكن على نسبة ما هم عليه من الأمية لزم أن تكون على غير ما عهدوا، فلم تكن لتنزل من أنفسهم منزلة ما تعهد، وذلك خلاف ما وضع عليه الأمر فيها، فلا بد أن تكون على ما يعهدون، والعرب لم تعهد إلا ما وصفها الله من الأمية فالشريعة إذاً أمية.

---

(١) سورة الأعراف: الآية (١٥٨).

(٢) سورة العنكبوت: الآية (٤٨).

ونحن حين نناقش هذا الدليل نعكسه على الشيخ الإمام الشاطبي، فنقول: إن الشريعة التي بعث بها النبي ﷺ إلى الناس كافة، وفيهم العرب الأميون إما أن تكون على نسبة ما كان وتكون عليه عامة الإنسانية كلها في أممها وشعوبها من العلم والمعرفة الحاصلة والمتجددة إلى يوم القيامة أو لا تكون كذلك، فإن كانت على نسبة ما عليه الإنسانية المبعوث إليها رسول الله ﷺ من حصائل الفكر الإنساني في العلم والمعرفة، وما يكون لها في مستقبل حياتها من التفكير العلمي المستكشف لحقائق الكون وأسرار الطبيعة وذلك هو معنى كونها شريعة علمية أي منسوبة إلى العلم والمعرفة، على معنى أن كتابها الذي هو دستورها الأعظم فتح للعقل الإنساني مجالات البحث والتفكير، وحث على العلم والمعرفة بما لم يبلغه كتاب سواه.

وإن لم تكن شريعة الإسلام على نسبة ما عليه الإنسانية وما يكون لها في مستقبل حياتها من العلم والمعرفة لزم أن تكون هذه الشريعة على غير ما تعهد الإنسانية وما تعرف من تاريخها العلمي وأطوارها الفكرية في المعرفة، فلم تكن لتنزل من أنفس الأمم والشعوب العالمة التي تعنى بالمعرفة وحصيلة الفكر الإنساني المتجددة منزلة ما عهدوا، وذلك خلاف ما جاءت به الشريعة ووضع عليه أمرها، فلا بد أن تكون على ما تعهد الإنسانية وتعرف من واقعها وتاريخها العلمي، فالشريعة إذاً علمية، لا تقف أبداً دون البحث العلمي، ولا تأبى أن تؤاخي العلم والمعرفة، وهي بهذا تنافي الأمية في طبيعتها وحقيقتها، وأمية نبيها ﷺ مفخرة لها ومعجزة لنبيها وكتابها، وأمية العرب واقع تاريخي تحدث عنه النبي ﷺ في صدد بيان حكم الشرعي يتعلق بعامة من كان في عصره مؤمناً برسالته، وهم جمهور العرب الذين كانوا أميين لا يقرؤون ولا يحسبون، ولم يكن الإسلام قد امتد إلى الأمم التي تقرأ وتحسب، وهي بلا شك لو وصلت إليها الدعوة لم يُحكَم عليها بالأمية التي هي

واقع العرب في وقت نزول الشريعة، والأحكام الشرعية تناط بأعم الوسائل المحققة عند كافة الخلق، لأن التشريع للكافة لا للخاصة.

ثم ذكر الإمام الشاطبي دليلاً آخر على أن القرآن نزل على ما يعهد العرب فقال: لو لم يكن ــ القرآن ــ على ما يعهدون لم يكن عندهم معجِزاً، ولكانوا يخرجون عن مقتضى التعجيز بقولهم: هذا على غير ما عهدنا إذ ليس لنا عهد بمثل هذا الكلام من حيث إن كلامنا معروف مفهوم عندنا، وهذا ليس بمفهوم ولا معروف فلم تقم الحجة عليهم به ولذلك قال سبحانه: ﴿وَلَوْ جَعَلْنَاهُ قُرْآناً أَعْجَمِيّاً لَقَالُوا لَوْلَا فُصِّلَتْ آيَاتُهُ ءَأَعْجَمِيٌّ وَعَرَبِيٌّ﴾ فجعل الحجة على فرض كون القرآن أعجمياً، ولما قالوا: ﴿إِنَّمَا يُعَلِّمُهُ بَشَرٌ﴾ رد الله عليهم بقوله: ﴿لِسَانُ ٱلَّذِي يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِيٌّ وَهَـٰذَا لِسَانٌ عَرَبِيٌّ مُبِينٌ﴾ لكنهم أذعنوا لظهور الحجة، فدل ذلك لعلمهم به وعهدهم بمثله مع العجز عن مماثلته.

وهذا الدليل أيضاً يُعكَس على الإمام الشاطبي، فلقائل أن يقول: لو لم يكن القرآن في هدايته العامة الشاملة لجميع ما يقوم بحاجة الإنسانية الفكرية والاجتماعية قياماً عاماً باقياً ببقاء رسالته على الأرض على ما تعهد الإنسانية كلها باعتبارها مدعوة للإيمان برسالة القرآن من العلم والمعرفة الشاملين لجميع فنونهما لم يكن عندهم معجزاً، ولكان كثير من الأمم والشعوب يخرجون عن مقتضى التعجيز بقولهم: هذا القرآن على غير ما عهدنا ونعهد، فأسلوبه وألفاظه وعبارته ليست من أسلوبنا وألفاظنا وعباراتنا، فليس لنا بأسلوبه وألفاظه وعباراته عهد ولا معرفة، ومعانيه وأفكاره قاصرة على ما يعهد الأميون من المعاني والأفكار المعهودة لهم، وليس فيه مما نعهد من المعاني الفكرية والأفكار العلمية شيء، فلا تلزمنا الحجة به.

وما ساقه الإمام الشاطبي من الآيات خاص بأسلوب القرآن

وعباراته وألفاظه، والمراد بها الاحتجاج على العرب بأن التحدي وقع بكتاب عربي مبين، فلو نزل بأسلوب وعبارات غير عربية لقالوا دفعاً لحجيته عليهم: لولا أنزل بلساننا وعباراتنا، فإذعانهم لحجيته إنما كان باعتبار الأسلوب والألفاظ والعبارة، لا باعتبار معانيه وفنون هدايته وأفكاره وعلومه ومعارفه، لأن كثيراً من هذه المعاني والأفكار لم يكن من معهود العرب ومعارفهم.

وللإمام الشاطبي بعض العذر في وقوفه في الطرف المقابل لخط القائلين بأن القرآن جمع علوم الأولين والآخرين فجاء فيه الطب والهندسة والجبر والمقابلة والنجامة والصنائع التي تتغير وتتطور بتغير التفكير وتطور الحياة، وكان هذا من غير شك إغراقاً في تحميل القرآن ما لم يقصد إليه، ولذلك نجد الشاطبي يصرح بذلك فيقول: إن كثيراً من الناس تجاوزوا في الدعوى على القرآن الحد، فأضافوا إليه كل علم يذكر للمتقدمين أو المتأخرين من علوم الطبيعيات والتعاليم والمنطق وعلم الحروف وجميع ما نظر فيه الناظرون من هذه الفنون وأشباهها.

* * *

(٤٥)

معنى الإعجاز العلمي في الإشارات القرآنية لكبرى الحقائق الكونية، وحث القرآن على البحث العلمي في الآفاق والأنفس.

وقضية موقف القرآن العظيم من العلم قديمِه وحديثه، ونظرياته وفنونه وأصوله وفروعه، وقضاياه ومسائله، يجب ألا ينظر إليها بهذه النظرة التي ذهب إليها المتحمسون الذين جعلوا القرآن كتاباً يحتوي على مسائل العلوم الطبيعية والنظريات التجريبية والحِرَف والصناعات مما ذكروه.

كما يجب ألا ينظر إليها بهذه النظرة التي تقف بالقرآن في هدايته ومعانيه عند معهود العرب الأميين، وإنما يجب أن يجرى النظر فيها على أساس أن القرآن كتاب هداية ودعوة إلى الله الواحد الأحد، الخالق المبدع، القادر الحكيم، الذي أحاط بكل شيء علماً، وأنه أنزل من عند الله بشريعة خاتمة للشرائع الإلّهية، قائمة على نظام شامل للحياة يعتمد على العدل والرحمة.

وقد اقتضت دعوة القرآن وهدايته أن تكون حجته عقلية، تقوم على النظر في الكون وآياته في الأنفس والآفاق، وبيان ما فيها من آثار اقتدار الله تعالى وحكمته وجلال كبريائه، ولا يمكن الوصول إلى إقامة هذه الحجة لتكون برهاناً يقنع غير الأميين من أبناء الإنسانية في أرجاء الأرض في حاضرها ومستقبلها إلا إذا اعتمدت على دعائم العلم والبحث.

والقرآن الكريم أعطى العلم من العناية والرعاية والحث والإغراء ما رفعه فوق جميع خصائص الإنسانية، وفتح باب البحث في جميع فنونه بصورة لم تعرفها الإنسانية لغيره من الكتب، وقد أوضحنا ذلك فيما سبق، ونزيده إيضاحاً فيما يأتي.



سُلطان العقل والآيات الكونيّة في القرآن

(١)
تكريم الإنسان بتسخير الكون له، لينتفع به، ويعتبر ويهتدي بذلك.

إن الله تعالى أمد الإنسان بسلطان العقل، وسخر له ما في السموات وما في الأرض، ودعاه إلى كشف أسرار الوجود ببذل أقصى الطاقة البشرية التي أودعها الله فيه، ليعرف جلال الله تعالى في عظمة ملكه، وعظيم قدرته في إبداع خلقه، وحكمته في بديع صنعه، ورحمته في لطيف تدبيره، فقال عز شأنه: ﴿هُوَ ٱلَّذِي خَلَقَ لَكُم مَّا فِي ٱلْأَرْضِ جَمِيعاً ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ إِلَى ٱلسَّمَآءِ فَسَوَّاهُنَّ سَبْعَ سَمَٰوَاتٍ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾[١]، وقال تبارك وتعالى: ﴿وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِي ٱلسَّمَٰوَاتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ جَمِيعاً مِّنْهُ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾[٢]، وقال سبحانه: ﴿أَلَمْ تَرَوْا أَنَّ ٱللَّهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِي ٱلسَّمَٰوَاتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُ ظَاهِرَةً وَبَاطِنَةً وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُجَادِلُ فِي ٱللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَابٍ مُّنِيرٍ﴾[٣].

وفي قوله تعالى: ﴿خَلَقَ لَكُم﴾ ﴿وَسَخَّرَ لَكُم﴾ نص لا يحتمل التأويل على أن الله تعالى ينبه العقل البشري في كافة أفراده بأن خلق هذا الكون بجميع آياته السماوية والأرضية، وتسخير ما فيه من عناصر الحياة ومظاهر النعم إنما كان لأجل الإنسان الذي كرمه الله تعالى

---

(١) سورة البقرة: الآية (٢٩).
(٢) الجاثية: الآية (١٣).
(٣) لقمان: الآية (٢٠).

بخصيصة العقل وفضله به على سائر ما حواه الوجود من مخلوقات لينتفع به، ولا شك أن الانتفاع بأي شيء من هذه المخلوقات لا يتم ولا يتحقق إلا بعد معرفة فائدة كل مخلوق من هذه المخلوقات التي امتن الله بخلقها وتسخيرها للإنسان، ومعرفة فائدة المخلوقات لا تتحقق إلا بعد معرفة حقائقها تفصيلاً، لأن معرفة الحقيقة يرشد إلى مواطن الانتفاع، وهذه مهمة تستنفد أعمار الأحياء في هذه الحياة، فالبحث عن حقائق الموجودات سماوية أو أرضية، هو في نظر القرآن، مهمة الإنسان ما دام على ظهر هذه الأرض لأنه وسيلته إلى استخلاص أكبر قسط من المنافع المادية والروحية التي يحيا بها الحياة طيبة يغمره فيها الإيمان بجلال الخلاق العظيم. قال الإمام الرازي في تفسير قوله تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِي خَلَقَ لَكُم مَّا فِي ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا﴾ وأما قوله: ﴿لَكُم﴾ فهو يدل على أن المذكور بعد قوله: ﴿خَلَقَ﴾ لأجل انتفاعنا في الدين والدنيا، أما في الدنيا فلنصلح أبداننا ولنتقوى به على الطاعات، وأما في الدين فللاستدلال بهذه الأشياء والاعتبار بها، وجمع بقوله: ﴿مَّا فِي ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا﴾ جميع المنافع، فمنها ما يتصل بالحيوان والنبات والمعادن والجبال، ومنها ما يتصل بضروب الحِرَف والأمور التي استنبطها العقلاء، وبيّن تعالى أن كل ذلك إنما خلقه لكي ننتفع به.

فهم الآيات الكونية خصيصة العلماء الراسخين

ومما يجري مجرى إيقاظ العقل الإنساني وتنبيهه إلى تعمق الوجود وكشف حقائقه وتعرف آيات الله في عناصر ذلك الوجود المفعم في كل ذرة من ذراته بالأسرار قوله تعالى: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ خَلْقُ ٱلسَّمَٰوَاتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَافُ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَانِكُمْ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّلْعَالِمِينَ﴾[1]. ولباب هذه الآية وخلاصة حكمتها تجمع ـ بعد نثره في مفرداتها وجملها ـ فكان في فاصلتها، لأن تخصيص «العالِمين» بالذكر في

(٢)
﴿إنما يخشى اللَّهَ من عباده العلماءُ﴾.

---

(١) سورة الروم: الآية (٢٢).

هذه الفاصلة توجيه لذوي العقول المستضيئة بنور العلم إلى البحث عن أسرار آيات الله الكونية في آفاق السموات وأرجاء الأرض لكشفها ورفع الحجب والأغطية عن حقائقها لتقع من الحياة موقعها، وينتفع بها الأحياء لأنها مخلوقة لأجلهم، حتى تظهر خصيصة العلم في العلماء ويمتازوا بها عن سائر العقلاء لانفرادهم بإدراك حقائق آيات الله الكونية التي نصبها الله حجة على وجوده وإحاطة سلطان قدرته وعلمه. وهذا كما قال تعالى: ﴿وَتِلْكَ ٱلْأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ وَمَا يَعْقِلُهَآ إِلَّا ٱلْعَالِمُونَ﴾[1]، تسجيلاً لامتياز العلماء القائمين بحجة الله على الخلق في الأرض، وبياناً لفوقهم على من باينهم في المعارف من سائر الناس بإدراكهم ما وراء حجب الحس المادي فهماً لمرامي إشارات الله تعالى في دلائله الآفاقية والأنفسية، وقد جاء التصريح ببعض مظاهر هذا الامتياز ـ الذي اختص به العلماء بالله لإدراكهم أسرار آياته الكونية ـ في سورة فاطر، حيث أثنى عليهم هذا الثناء الذي تتقطع له أعناق الربانيين فوصفهم باختصاصهم بخشيته فقال: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَآءُ﴾، وسياق هذه المدحة العظيمة بيّن جلي في أن المراد من العلماء المميزين بهذا المقام هم العلماء بالله الذين عرفوه بمعرفة آياته في خلقه معرفة تقوم على إدارك أسرار ظواهر ما خلق من أشياء، والمتأمل في موقع هذه المدحة مما سبقها يفهم من هم العلماء في هذا المقام. قال عز شأنه: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ ثَمَرَاتٍ مُّخْتَلِفاً أَلْوَانُهَا، وَمِنَ ٱلْجِبَالِ جُدَدٌ بِيضٌ وَحُمْرٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَانُهَا وَغَرَابِيبُ سُودٌ * وَمِنَ ٱلنَّاسِ وَٱلدَّوَآبِّ وَٱلْأَنْعَامِ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ كَذَٰلِكَ إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَآءُ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ﴾[2]،

---

(١) سورة العنكبوت: الآية (٤٣).

(٢) سورة فاطر: الآيتان (٢٧، ٢٨). وقد قدَّمنا نحو هذا الحديث في هذه الآية وسقناه هنا للمناسبة.

فالذين علموا ـ بعد البحث ـ حكمة الله في إنزاله الماء من السماء وكيفية تجمع هذا الماء في مكانه، والذين علموا بديع صنع الله تعالى في إحداث ما يحدث من تفاعلات العناصر الحية في باطن الأرض حتى تتكون فيها أجنة الثمرات المختلفة في طعومها وألوانها وإشكالها ومقاديرها فتخرج بإذن الله طيبة شهية نافعة كما قال تعالى: ﴿وَتَرَى ٱلْأَرْضَ هَامِدَةً فَإِذَا أَنزَلْنَا عَلَيْهَا ٱلْمَآءَ ٱهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وَأَنۢبَتَتْ مِن كُلِّ زَوْجٍۭ بَهِيجٍ﴾[1].

والذين علموا صنع الله وعظيم قدرته في خلقه، ونظروا نظرة تدبر إلى خلق الجبال وتلوينها من طرائق مختلفة وطبقات متنوعة الألوان والمنافع بين بيض وحمر وسود، والذي ينظر نظر تدبر في خلق الناس وتكوينهم وفي الدواب وخلقها واختلاف الألوان في الناس والدواب، هو الذي يصدق عليه وصف العالِم بالله الذي يعرفه بجلاله حق معرفته ويخشاه حق خشيته.

أسلوب الآيات الكونية في القرآن

(٣) حكمة عرض الآيات الكونية في أساليب مختلفة.

والقرآن الكريم أكثر جداً من الآيات الكونية، لكنه ساقها في أساليب مختلفة، وألوان شتى من التعبير، يفصّل مرة، ويجمل أخرى، ولكل مقام مقال، يذكر الشيء مع قرينه وصاحبه، ثم يفرده ليذكر حكمته المستقلة بوجوده، ودلالته، ثم يعود إلى صاحبه فيذكره بحكمة استقلاله في القيام بحق الحجة النيرة والبرهان المستقيم، يجمع مرة الآيات السماوية إلى الآيات الأرضية في إطار واحد، وأخرى يذكر الآيات الأرضية منفردة للتنبيه على عموم الاستدلال بها، لقربها من مشاهد الحس الممد للعقل العام عن طريق الحواس، والحواس هي النوافذ المادية التي يستطيع العقل أن يدرك بوساطتها ـ في أوائل

---

(١) سورة الحج: الآية (٥).

خطوه نحو الحقائق الكونية ـ الروابط العنصرية والوشائح الطبيعية بين ذرات الموجودات على تنوع أشكالها واختلاف أنواعها، فيحكم ويستنبط.

وقد يفرد الآيات السماوية بالذكر تنبيهاً لأهل الاختصاص من العلماء لينقلهم على سفائن الفكر من عوالم الأرض إلى آفاق السماء، لينظروا إلى ما أودع الله فيها من آيات أجلّ وأعظم مما أودع في الأرض، مع تيسير السبيل للعامة في النظر المتأمل الذي يحرك وجداناتهم ويوقظ أحساسهم لتتوثق عرى الإيمان القطعي في قلوبهم.

والمقام هنا لا يتسع لاستيعاب الآيات الكونية التي جاء بها القرآن الحكيم لكثرتها واختلاف مسافاتها، وهي مبثوثة فيه، تنساب في محيطه، وتتخلل سوره، فقلما تخلو سورة من سوره الكريمة من لون من ألوانها أو لفتة إلى ظاهرة من ظواهرها.

وحسبنا أن نشير على سبيل المثال والشاهد إلى قوله تبارك وتعالى في سورة البقرة: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَاتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَافِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَٱلْفُلْكِ ٱلَّتِي تَجْرِي فِي ٱلْبَحْرِ بِمَا يَنْفَعُ ٱلنَّاسَ وَمَا أَنْزَلَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مِنْ مَآءٍ فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِنْ كُلِّ دَآبَّةٍ وَتَصْرِيفِ ٱلرِّيَاحِ وَٱلسَّحَابِ ٱلْمُسَخَّرِ بَيْنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾[1]، وإلى قوله جل شأنه في سورة آل عمران: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَاتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَافِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ لَآيَاتٍ لِأُولِي ٱلْأَلْبَابِ﴾[2]، ففي الآية الأولى تفصيل بالتنصيص على آيات هي دلائل قاطعة على وجود الله وقدرته وحكمته، وهي أيضاً نعم من الله على عباده ينتفعون بها في معاشهم وذلك أنجع في البيان، كما سبقت الإشارة إليه.

---

(١) سورة البقرة: الآية (١٦٤).

(٢) آل عمران: الآية (١٢٠).

ومما يجري هذا المجرى قوله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَنْظُرُوا فِي مَلَكُوتِ ٱلسَّمَٰوَاتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا خَلَقَ ٱللَّهُ مِنْ شَيْءٍ﴾[1]، ففيه إرشاد إلى النظر التفصيلي بما اشتمل عليه من تعميم الجزئيات في قوله: ﴿وَمَا خَلَقَ ٱللَّهُ مِنْ شَيْءٍ﴾ وقد جاء هذا التعميم الكلي في قوله: ﴿مَلَكُوتِ ٱلسَّمَٰوَاتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ لبيان أن جملة الكون دليل قاهر على وجود الصانع الحكيم، وأن كل ذرة من ذراته برهان مستقبل في الدلالة عليه سبحانه، والإجمال يناسب العوام ومن كان على شاكلتهم في عدم الخوض في بحار الدلائل الكونية بالتفصيل.

وعلى ضوء هذا ننظر في قوله تعالى من سورة يونس: ﴿إِنَّ رَبَّكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَاتِ وَٱلْأَرْضَ﴾[2]، لنجد إجماله مفصلاً بعض التفصيل المنبِّه على مواطن الهداية والاستدلال بذكر آيات النعم، وبيان جهات المنافع في تسخيرها، وذلك في قوله تعالى من السورة نفسها: ﴿هُوَ ٱلَّذِي جَعَلَ ٱلشَّمْسَ ضِيَآءً وَٱلْقَمَرَ نُوراً وَقَدَّرَهُ مَنَازِلَ لِتَعْلَمُوا عَدَدَ ٱلسِّنِينَ وَٱلْحِسَابَ مَا خَلَقَ ٱللَّهُ ذَٰلِكَ إِلَّا بِٱلْحَقِّ يُفَصِّلُ ٱلْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾[3]، وتأمل قوله: ﴿جَعَلَ ٱلشَّمْسَ ضِيَآءً﴾ وقوله: ﴿وَٱلْقَمَرَ نُوراً﴾ وقوله: ﴿وَقَدَّرَهُ مَنَازِلَ لِتَعْلَمُوا عَدَدَ ٱلسِّنِينَ وَٱلْحِسَابَ﴾ أفيفرد القرآن الحكيم، وهو بصدد إقامة البرهان على عظمة ملك الله وجلال ملكوته، الشمسَ بخصيصة الضياء ويخص القمر بوصف النور لغير حكمة كونية ترجع إلى طبيعة كل من الكوكبين؟ وهل يتم الاستدلال بهما على الغرض الذي سيقا بوصفهما لإثباته دون معرفة العلة في هذه التفرقة؟ وإذا كان ذلك كذلك أفلا يكون من البداهة أن يُطلَب من القوّامين على فهم القرآن أن يحيطوا علماً بالظواهر العلمية الطبيعية التي تميز

(١) سورة الأعراف: الآية (١٨٥).

(٢) سورة يونس: الآية (٣).

(٣) سورة يونس: الآية (٥).

طبيعة المضياء عن طبيعة النور حتى يمكن فهم الآية على حقيقتها التي أنزلها الله في كتابه من أجلها؟ ثم ألا يكون من البداهة ـ لأجل فهم الآية فهماً مثمراً ـ أن يطلب من القوامين على دراسة القرآن أن يحيطوا علماً بقدر الطاقة البشرية ببعض الظواهر الطبيعية للشمس التي جعلها الله «ضياء» وببعض الظواهر الطبيعية للقمر الذي جعله الله «نوراً» حتى يتبين للدارسين ولمن ينقلون إليهم معاني القرآن في آياته الكونية موقع وصف كل من الكوكبين ـ بوصفه الملائم لطبيعة موقعه، ومن هنا تجيىء نتيجة البرهان على صدق الدعوى بتخصيص كل كوكب بوصفه المنبعث من طبيعته التي خلقه الله عليها بحكمته واختياره.

موقف علماء الإسلام من الآيات الكونية في القرآن

(٤)
علماؤنا أمعنوا النظر وأجالوا الفكر ـ حسبما وسعهم ـ في الاستدلال بالآيات الكونية لبيان هداية القرآن.

والعجب أن كثيراً من أئمتنا من حكماء الإسلام وعلمائه لم يغفلوا هذا النظر عند دراستهم لآيات القرآن الكونية باعتبارها دلائل أقامها الله تعالى على وجوده وباهر قدرته وجلال كبريائه، بل خاضوا بحاره، بقدر ما وسعه علمهم ومعارفهم، ووسائل الفكر والمعرفة في عصورهم، قال الإمام الفخر الرازي: (الاستدلال بأحوال الشمس والقمر على وجود الصانع المقدِّر هو أن يقال: الأجسام في ذواتها متماثلة، وفي ماهياتها متساوية، ومتى كان الأمر كذلك كان اختصاص جسم الشمس بضوئه الباهر وشعاعه القاهر، واختصاص جسم القمر بنوره المخصوص لأجل الفاعل المختار)، ثم بين تساوي الأجسام وماهياتها في الحجمية والتحيّز والجرمية، وقال: (وإذا ثبت أن الأجسام متماثلة في ذواتها، متساوية في ماهياتها، كانت متساوية في جميع لوازم الماهية فكل ما صح على بعضها وجب أن يصح على الباقي، فلما صح على جرم الشمس اختصاصه بالضوء القاهر الباهر، وجب أن يصح مثل ذلك الضوء القاهر على جرم القمر وبالعكس، وإذا كان كذلك وجب أن

يكون اختصاص جرم الشمس بضوئه القاهر، واختصاص القمر بنوره الضعيف بتخصيص مخصص، وإيجاد موجد، وتقدير مقدر، وذلك هو المطلوب فثبت بالدليل القاطع صحة قوله سبحانه وتعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِي جَعَلَ ٱلشَّمْسَ ضِيَآءً وَٱلْقَمَرَ نُوراً﴾.

ومعنى هذا في كلام الإمام وأسلوبه الاصطلاحي بأسلوب متقارب أن المادة في حقيقتها الأولى واحدة في ذاتها فإذا عرض لها اختصاص بطبيعة خاصة، تقبل بسببها بعض اللوازم والعوارض وتختص منها الشمس بالضوء ويختص القمر بالنور كان ذلك ترجيح مرجح، وتخصيص مخصص، وإيجاد موجد، وتقدير مقدر، وذلك المخصص والمرجح والموجد والمقدر هو الله تعالى، وهذا هو الغرض الذي سيقت الآية لإثباته وتحقيقه في البرهنة على قدرة الله ووراء ذلك معان كثيرة تتفجر من ينابيع الآية إذا فجرها العقل بالنظر في عناصر الموجودات وخصائصها لينتفع بها الإنسان فأنت ترى هذا الإمام الحكيم لم يقف مع الآية عند أسلوبها البلاغي المعجِز ببراعة بيانها ولكنه أدار البحث حول الآيات الكونية فيها، وفي كيفية دلالتها على الغرض المقصود منها حسب معارف عصره، وأسلوب العلم في ذلك العصر.

ثم ألا يكون من البداهة أن يطلب من القوّامين على فهم القرآن فهماً علمياً صحيحاً أن يحيطوا علماً بمنازل القمر وسيره في تلك المنازل وكيفية علم عدد السنين والحساب من معرفة تلك المنازل وسير القمر فيها؟ وهل للشمس سير ومنازل كسير القمر ومنازله، وهل لها دخل في علم عددالسنين والحساب؟ بلى، كل ذلك يجب أن يعلم، ولقد علم أسلافنا من ذلك ما بلغ إليه جهدهم، وبهذا العلم استعانوا على تفسير هذه الآيات وأمثالها.

ثم كيف يستطيع القوامون على دراسة القرآن الحكيم فهم قوله تعالى في ختام الآية: ﴿مَا خَلَقَ ٱللَّهُ ذَٰلِكَ إِلَّا بِٱلْحَقِّ يُفَصِّلُ ٱلْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾ فهماً يدعون به الناس ـ ولا سيما الماديون وعلماء الطبيعة والفلك ـ إلى عقيدة الإسلام المؤسسة على وجود الصانع، الخلاق العليم، الواحد الأحد القادر الحكيم، لو لم يكونوا على علم راسخ بخواص الأفلاك، وما أودع الله في أجرامها من القوى حتى يعرف الحق الذي خلقها الله به، ليقع تفصيل الآيات موقعه من العقول والقلوب لقوم يعلمون؟ يقول الرازي: (قال حكماء الإسلام: هذا يدل على أنه سبحانه أودع في أجرام الأفلاك والكواكب خواص معينة وقوى مخصوصة باعتبارها تنتظم مصالح هذا العالم السفلي، إذ لو لم يكن لها آثار وفوائد في هذا العالم لكان خلقها عبثاً وباطلاً وغير مفيد، وكونها كذلك ينافي هذه الآيات).

وإذا كان أسلافنا من أعلام العلماء، وحكماء الإسلام قد خاضوا بحار العلوم، ولجج المعارف واقتحموا حصون الأفكار في أزمانهم، ولم يتركوا منها مشرعاً إلا وردوه واتخذوا من كافة معارفهم وأفكارهم معيناً لفهم كتاب الله فهماً يقوم على حقائق العلم الصحيح لتبيين هدايته وإقامة حجته، فما موقفنا نحن من عصرنا ومعارفه ووسائله وأفكاره ومذاهبه؟ هل نقف من آيات الله عند مبلغ ما وصل إليه أسلافنا في أعصرهم، وهو نهاية أقدام العقول في بيئاتهم وأزمانهم ومجتمعهم؟ أو نتقدم في شجاعة كما تقدموا إلى البحث بوسائل عصرنا، ونخوض في بحار معارفه بعقولنا التي رباها القرآن الكريم بحكمته وحريته وبراعة أسلوبه، ولطف مدخله ودقة تصويره، وروائع تناوله لقضايا الحياة والكون، مع عنايته بتثبيت قواعد الإيمان في قلوب دارسيه من المؤمنين؟.

* * *

(٥)
الطريقة المثلى في تفسير الآيات الكونية في القرآن.

الجانب الكوني في القرآن لم يفسر

إن الجانب الكوني في آيات القرآن الحكيم ـ وهو جانب مهم جداً، لأنه عماد الدلائل الإلٓهية على وجود الله تعالى، وتوحيده، وباهر قدرته، وواسع علمه، ولطيف حكمته وسائر ما يجب له تعالى من الكمال ـ في حاجة ماسة إلى إعادة النظر فيه للتفسير والبيان بأسلوب علمي يبرز عن طريق ملاحظة الظواهر الكونية حجة الله على خلقه، ويكشف عما في الآيات من أسرار وحقائق ناط الله بها كثيراً من منافعنا ومصالحنا في الدين والدنيا، وقد أشار إليها القرآن في آياته ودلائله وبدأ العلم يكشف عنها الحجب، ولكن على شرط أن نحذر، فلا نخضع القرآن لنظريات لا تزال في مهب التجارب، وقد تعصف بها فتصبح من قبيل الأساطير فنقول إنها تفسير لآيات القرآن كما صنع ذلك بعض المتحمسين وبعض المخدوعين ببريق العلم التجريبي.

والقرآن كتاب الله الذي أُحكِمت أياته ثم فصّلت من لدنْ حكيم خبير، فهو لا يخضع لأسلوب حديث ولا أسلوب قديم، وإنما تفسره الحقائق والبراهين التي يحققها البحث العلمي المستنِد إلى الأصول الإسلامية، وقضايا العقول المستقيمة.

والنظر في تفسير الآيات الكونية يجب أن يقصد أولاً إلى تبيين هداية القرآن تبييناً علمياً، لا على أساس أن نجعل النظريات العلمية هي تفسير الآيات القرآنية ومعانيها التي قصدها القرآن الكريم، ولكن على أساس أن القرآن الكريم لا يصادم علماً ثبت بالبرهان القطعي ثبوتاً لا يحتمل الارتياب، وهذا يتطلب بإلحاح من علماء الإسلام أن يتسلحوا بالعلم والمعرفة بأوسع معانيهما بقدر ما تتسع له الطاقة البشرية.

والراسخون في العلم من المؤمنين تزيدهم النظريات العلمية في حقائق الكون وظواهر الطبيعة إيماناً بجلال الله وعظمة الخلاق العليم

لأنهم قرؤوافي لوح الوجود قول خالق الوجود: ﴿تَبَارَكَ ٱلَّذِي بِيَدِهِ ٱلْمُلْكُ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾[1]، وقوله: ﴿أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا فِي أَنفُسِهِمْ مَا خَلَقَ ٱللَّهُ ٱلسَّمَٰوَاتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَأَجَلٍ مُسَمًّى﴾[2]، وقوله: ﴿ٱلَّذِي أَحْسَنَ كُلَّ شَيْءٍ خَلَقَهُ وَبَدَأَ خَلْقَ ٱلْإِنسَانِ مِن طِينٍ، ثُمَّ جَعَلَ نَسْلَهُ مِن سُلَالَةٍ مِن مَاءٍ مَهِينٍ﴾[3]، وإذا احتملت قضية خلق الإنسان من طين الجدل والتأويل فإن قضية جعل الأنسال الإنسانية من سلالة من ماء مهين، لا يختلف فيها ملحد مع مؤمن ولا دارويني مع آدمي، لأنها أكبر وأدخل في الصدق الواقعي من أضخم قضاياهم التجريبية التي يؤمنون بها، بل هي أصدق في نظر التجربة المتكررة التي لم تشذ عنها المرة الواحدة في ملايين الملايين من السنين من أي قضية تدخل تحت البداهة المسلّمة.

والقرآن الحكيم ـ دستور الإسلام ـ هو الكتاب الذي أنزل على النبي الأمي يوجه العقل الإنساني بكل ما منحه الله من قوة وجبروت إلى النظر في ملكوت الله ليكشف حقائق الكون ويرفع الحجب عن أسراره ويفسر آياته في الأنفس وفي الآفاق، وكلما عظم شأن الكون عظم في نظر المؤمنين جلال المكوِّن الخلّاق العظيم وانفتحت مغاليق الإيمان الراسخ أمام العقلاء المتدبرين ﴿أَوَلَمْ يَنظُرُوا فِي مَلَكُوتِ ٱلسَّمَٰوَاتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا خَلَقَ ٱللَّهُ مِن شَيْءٍ﴾ ﴿قُلِ ٱنظُرُوا مَاذَا فِي ٱلسَّمَٰوَاتِ وَٱلْأَرْضِ﴾[4]. ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِي رَفَعَ ٱلسَّمَٰوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي لِأَجَلٍ مُسَمًّى يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ يُفَصِّلُ ٱلْآيَاتِ لَعَلَّكُم بِلِقَاءِ رَبِّكُمْ تُوقِنُونَ وَهُوَ ٱلَّذِي مَدَّ ٱلْأَرْضَ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنْهَاراً وَمِن كُلِّ ٱلثَّمَرَاتِ جَعَلَ فِيهَا

---

(١) أول سورة الملك.

(٢) سورة الروم: الآية (٨).

(٣) سورة السجدة: الآيتان (٧، ٨).

(٤) سورة يونس: الآية(١٠١).

زَوْجَيْنِ ٱثْنَيْنِ يُغْشِي ٱللَّيْلَ ٱلنَّهَارَ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ وَفِي ٱلْأَرْضِ قِطَعٌ مُتَجَاوِرَاتٌ وَجَنَّاتٌ مِنْ أَعْنَابٍ وَزَرْعٌ وَنَخِيلٌ صِنْوَانٌ وَغَيْرُ صِنْوَانٍ يُسْقَى بِمَاءٍ وَاحِدٍ وَنُفَضِّلُ بَعْضَهَا عَلَى بَعْضٍ فِي ٱلْأُكُلِ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾[1].

وإذا كان هذا شأن القرآن في آيات الله الكونية وتوجيه النظر إليها، فلن يضيق ذرعاً بكشف علمي يصل السماء بالأرض، لو قدر لذلك أن يكون، بله للسعي لكشف عن حقيقة بعض الكواكب ومعرفة عمارها وما فيها من ألوان الحياة والخلق والأشياء، وحسبنا هذا لكتابنا الكريم وديننا القويم، وسلامة عقيدتنا، ولا يجمل بنا أن نتطلب من القرآن شرح نظريات العلم والتحدث في تركيب الأشياء، وبيان جزئياتها وأشكالها وما يطرأ عليها من تغير كيماوي أو طبيعي كما تتحدث كتب الطبيعة والكيمياء والفلك وطبقات الأرض، لأن القرآن كتاب عقيدة وهداية، وعبر وتهذيب للنفوس، وتوجيه للعقول، وتطهير للأرواح والقلوب، فإذا عرض لشيء من الآيات الكونية ــ وكثر ما عرض لها ــ فإنما يعرض لها باعتبارها مصدر هداية إلى عظمة الكون لنصل على ضوئها إلى تعظيم الله خالق الكون، وما فيه من آيات وأسرار، لنستفيد بما فيها من منافع خلقها الله لأجلنا في ديننا ودنيانا.

* * *

---

(١) سورة الرعد: الآيات (٢ ، ٤).

مِنْ نماذِج التّفسِير

(مَعَ سُورة الحجّ)

سورة الحج هي السورة الثانية والعشرون في ترتيب المصحف الشريف، وقد بدأ الله تعالى هذه السورة الكريمة بنداء عام لأبناء الإنسانية أينما كانوا وكيما كانوا آمراً لهم أن يتقوا ربهم معتصمين بعواصم الإيمان حذراً من أهوال القيامة، ثم أتبع ذلك النداء بوصف القيامة وأهوالها التي تذهل المراضع عن رُضّعها وتلقي حمل الحوامل من بطونها وتذهب بألباب ذوي النهى والجلد حتى تتفلت منهم عقُل الأعصاب وتنحل روابطها فيحسبهم من يراهم من شدة ما عاينوا من المفظعات الفاجعات سكارى يتهافتون وما هم بسكارى ولكن عذاب الله شديد: ﴿يَا أَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُوا رَبَّكُمْ إِنَّ زَلْزَلَةَ ٱلسَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ يَوْمَ تَرَوْنَهَا تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّا أَرْضَعَتْ وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ حَمْلَهَا وَتَرَى ٱلنَّاسَ سُكَارَى وَمَا هُم بِسُكَارَى وَلَكِنَّ عَذَابَ ٱللَّهِ شَدِيدٌ﴾[1].

والذين تمرسوا بأسلوب القرآن، بكثرة ترداد النظر فيه وإدمان التفقه في أسراره، يدركون سر التعبير عن يوم القيامة وما يقع فيه من أهوال مذهلات للعقول بكلمة «الساعة» الدالّة على تقليل الزمن حتى لكأنه لحظة تضيق أن يقع فيها شيء ومع ذلك فقد جعلها الله العلي القدير ظرفاً يحوي بين جنباته هذه الأهوال بأحداثها التي أجملت إجمالاً في التصوير يغني ذوي الألباب عن كل تفصيل، وهذا لون من إعجاز القرآن في التعبير بالكلمة المفردة المصورة ذائع في رياضه اليانعة.

---

(١) أول سورة الحج.

البعث في أسلوب القرآن

ثم تتابعت الآيات البيّنات متحدثة عن البعث في هذا اليوم الموصوف مستدلة على إمكان وقوعه بما تقر به العقول السليمة: ﴿يَا أَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِنَ ٱلْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ مِنْ مُضْغَةٍ مُخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ لِنُبَيِّنَ لَكُمْ وَنُقِرُّ فِي ٱلْأَرْحَامِ مَا نَشَاءُ إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى ثُمَّ نُخْرِجُكُمْ طِفْلًا ثُمَّ لِتَبْلُغُوا أَشُدَّكُمْ وَمِنْكُمْ مَنْ يُتَوَفَّى وَمِنْكُمْ مَنْ يُرَدُّ إِلَى أَرْذَلِ ٱلْعُمُرِ لِكَيْلَا يَعْلَمَ مِنْ بَعْدِ عِلْمٍ شَيْئًا...﴾[1].

وهذا استدلال قطعي لا تعوزه أقيسة المناطقة وتعقيدات المتفلسفين، لأنه قائم على مقدمات صادقة تؤمن بها الفطر النقية، فالذي خلق الإنسان خلقاً بعد خلق وصوره طوراً بعد طور، بدأ خلقه تراباً، ثم نطفة، ثم علقة، ثم مضغة، ثم جنيناً يتحرك في قرار مكين، ثم أخرجه طفلاً يتنسم أنسام الحياة، ثم سواه شاباً سوياً، ورباه حتى جعله شخصاً قوياً، يعمّر منه من يعمّر حتى يبلغ أرذل العمر فيرتد عقله وتصوراته وعواطفه ومشاعره إلى خلُق الطفولية، ويجهل بعد علم، ويضعف بعد قوة، تقول الآية الكريمة مخاطبة الإنسان في عموم أفراده:

من كانت هذه قدرته في نشأتك الأولى وخلقك وأطوار حياتك المشاهدة لك لا يعجزه إحياؤك بعد موتك وإعادتك بعد فنائك ليوفيك جزاء عملك، فهو القادر على كل شيء وهو الخلّاق العظيم.

وقد تكرر هذا اللون الاستدلالي على البعث في القرآن الكريم بصور مختلفة في الإجمال والتفصيل ليقيم الله الحجة على أهل الإلحاد المعاندين وليوثق عري الإيمان في قلوب المؤمنين، وقد جاء في تعبير

---

(١) سورة الحج: الآية (٥).

مجمل رائع من سورة يسٓ: ﴿أَوَلَمْ يَرَ ٱلْإِنْسَانُ أَنَّا خَلَقْنَاهُ مِنْ نُطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُبِينٌ وَضَرَبَ لَنَا مَثَلاً وَنَسِيَ خَلْقَهُ قَالَ مَنْ يُحْيِي ٱلْعِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ قُلْ يُحْيِيهَا ٱلَّذِي أَنْشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ﴾[1]، وجاء في سورة «المؤمنون» وهي في الترتيب عاقبة لسورة الحج: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنْسَانَ مِنْ سُلَالَةٍ مِنْ طِينٍ ثُمَّ جَعَلْنَاهُ نُطْفَةً فِي قَرَارٍ مَكِينٍ ثُمَّ خَلَقْنَا ٱلنُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا ٱلْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا ٱلْمُضْغَةَ عِظَاماً فَكَسَوْنَا ٱلْعِظَامَ لَحْماً ثُمَّ أَنْشَأْنَاهُ خَلْقاً آخَرَ فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ أَحْسَنُ ٱلْخَالِقِينَ ثُمَّ إِنَّكُمْ بَعْدَ ذَلِكَ لَمَيِّتُونَ ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَامَةِ تُبْعَثُونَ﴾[2].

وسورة الحج تتبع هذا الاستدلال بلون آخر من الاستدلال العلمي ليكون لكل ذي نظر من الأنظار المختلفة في العلوم والمعارف الإنسانية حظه من طرائق الاستدلال القرآني، أداء لحق عموم الرسالة وخلودها بعموم خلود الفكر البشري: ﴿وَتَرَى ٱلْأَرْضَ هَامِدَةً فَإِذَا أَنْزَلْنَا عَلَيْهَا ٱلْمَآءَ ٱهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وَأَنْبَتَتْ مِنْ كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ﴾[3]، فهمود الأرض بيبسها وإقفارها من النبات بمنزلة الموت للأحياء، واهتزازها بتحرك موادها وتفاعلها وربوها بانتفاخ قشرتها إذا أنزل الله عليها الماء بمنزلة الحياة تسري في الموات فيشرق ويتبلج بالبهجة وجمال المنظر، وفي تعبير القرآن الكريم عن الحالة الأولى بالهمود وعن الحالة الثانية بالاهتزاز والربو، إعجاز لا يعرفه كلام البشر، لأنه واقع في اللفظة المفردة تحمل صورة كاملة لو أريد التعبير عنها في أسلوب بشري لتطلبت جملاً متعددة، وهذا باب يكثر في القرآن الكريم ويمتاز به، وهو خارج عن الإعجاز الأسلوبي الذي اعتبره البلاغيون ودندنوا حوله، وفي المقابلة بين الهمود والاهتزاز ضرب من اللطف الفني في إطار التعبير.

---

(١) سورة يسٓ: الآيات (٧٧ ــ ٧٩).

(٢) سورة المؤمنون: الآيات (١٢، ١٦).

(٣) خاتمة آية الحج السابقة.

ولما استوى الاستدلال، بشقيه التطوري في خلق الإنسان وفي خلق النبات، بما لا يدع مجالاً للتوقف في قبول النتيجة جاءت تلك النتيجة في صراحة ظافرة كأمر حتمي، لا يسع العقول السلمية من العناد إنكاره بعد استقامة المقدمات ووضوحها: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ وَأَنَّهُۥ يُحْيِي ٱلْمَوْتَىٰ وَأَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ ٱلسَّاعَةَ آتِيَةٌ لَّا رَيْبَ فِيهَا وَأَنَّ ٱللَّهَ يَبْعَثُ مَن فِي ٱلْقُبُورِ﴾[1]، والإشارة التي بدأت بها هذه النتيجة الحتمية تعود إلى ما تقدم من أطوار الخلق في الحيوان والجماد والنبات، وكأن الآيات تقول: كان الأمر على وصفنا من الأطوار في الخلق لأن الله تعالى الذي أحدث بقدرته هذه الأطوار هو وحده الحق الثابت وجوده فلا يتغير لأن وجوده بذاته لذاته ولا يكون وجود لغيره إلا مستمداً من وجوده وفيض جوده وتسخيره، ولما كان هذا الأصل في الإيمان بوجود الله هو الدعامة الأولى في المقصود من براهين القرآن الكريم أتبعه في الذكر بما يتبعه في الوجود، وهو خلق الحياة في الموات بطبعه أو بفقد الحياة بعد ظهورها فيه، وهذا هو قوله تعالى: ﴿وَأَنَّهُۥ يُحْيِي ٱلْمَوْتَىٰ﴾ ثم عقب ذلك بتعميم قهر القدرة الإلهية ببيان أن جميع الأشياء مقهورة بها وفي قبضتها وذلك هو قوله جل شأنه: ﴿وَأَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ ثم ختمت آيات النتيجة بتحقيق ما ارتاب فيه الجاهلون من الملاحدة والمعاندين بتأكيد أن ساعة الإحياء الثاني آتية لا ريب فيها يبعث الموتى من قبورهم أحياء كأكمل ما تكون الحياة ليلقى كل عامل جزاء عمله في دار لا يلحقها الدثور والفناء.

البعث في أسلوب المتكلمين

يقول الإمام الرازي في تفسيره: (ثم إنه سبحانه لما قرر هذين الدليلين رتب عليهما ما هو المطلوب والنتيجة وذكر أموراً خمسة.

---

(١) سورة الحج: الآيتان (٦، ٧).

أحدها: قوله: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ﴾ والحق الموجود الثابت، فكأنه سبحانه بين أن هذه الوجوه دالة على وجود الصانع، وحاصلها راجع إلى أن حدوث هذه الأغراض المتنافية وتواردها على الأجسام يدل على وجود الصانع.

وثانيها: قوله تعالى: ﴿وَأَنَّهُ يُحْيِي ٱلْمَوْتَىٰ﴾ فهذا تنبيه على أنه لما لم يستبعد من الإلٓه إيجاد هذه الأشياء فكيف يستبعد منه إعادة الأموات.

وثالثها: قوله: ﴿وَأَنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ يعني أن الذي يصح منه إيجاد هذه الأشياء لا بد وأن يكون واجب الاتصاف لذاته بالقدرة، ومن كان كذلك كان قادراً على جميع الممكنات ومن كان كذلك فإنه لا بد وأن يكون قادراً على الإعادة.

ورابعها: قوله: ﴿وَأَنَّ ٱلسَّاعَةَ آتِيَةٌ لَّا رَيْبَ فِيهَا وَأَنَّ ٱللَّهَ يَبْعَثُ مَن فِي ٱلْقُبُورِ﴾ والمعنى أنه لما أقام الدلائل على أن الإعادة في نفسها ممكنة وأنه سبحانه وتعالى قادر على الممكنات وجب القطع بكونه قادراً على الإعادة في نفسها، وإذا ثبت الإمكان والصادق أخبر عن وقوعه فلا بد من القطع بوقوعه.

واعلم أن تحرير هذه الدلالة على الوجه النظري أن يقال: الإعادة في نفسها ممكنة، والصادق أخبر عن وقوعها فلا بد من القطع بوقوعها.

أما بيان الإمكان فالدليل عليه أن هذه الأجسام بعد تفرقها قابلة لتلك الصفات التي كانت قائمة بها حال كونها حية عاقلة، والبارىء سبحانه عالم بكل المعلومات، قادر على كل المقدورات الممكنة وذلك يقتضي القطع بإمكان الإعادة لما قلنا أن تلك الأجسام بعد تفرقها قابلة لتلك الصفات، لأنها لو لم تكن قابلة لها في وقت لما كانت لها في شيء من الأوقات، لأن الأمور الذاتية لا تزول ولو لم تكن قابلة لها في

شيء من الأوقات لما كانت حية عاقلة في شيء من الأوقات، لكنها كانت حية عاقلة فوجب أن تكون قابلة أبداً لهذه الصفات.

وأما أن الباريء يمكنه تحصيل ذلك الممكن فلأنه سبحانه عالم بكل المعلومات فيكون عالماً بأجزاء كل واحد من المكلفين على التعيين، وقادراً على كل الممكنات فيكون قادراً على إيجاد تلك الصفات في تلك الذوات، فثبت أن الإعادة في نفسها ممكنة وأنه سبحانه يمكنه تحصيل ذلك الممكن، فثبت أن الإعادة ممكنة في نفسها، فإذا أخبر الصادق عن وقوعها فلا بد من القطع بوقوعها.

فإن قيل: فأي منفعة لذكر مراتب خلقة الحيوانات وخلقة النبات في هذه الدلالة؟ قلنا: إنها تدل على أنه سبحانه قادر على كل الممكنات، وعالم بكل المعلومات، ومتى صح ذلك فقد صح كون الإعادة ممكنة، فإن الخصم لا ينكر المعاد إلا بناء على إنكار أحد هذين الأصلين، ولذلك فإن الله تعالى حيث أقام الدلالة على البعث في كتابه ذكر معه كونه قادراً عالماً كقوله: ﴿قُلْ يُحْيِيهَا ٱلَّذِي أَنْشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ﴾ فقوله: ﴿قُلْ يُحْيِيهَا ٱلَّذِي أَنْشَأَهَا﴾ بيان للقدرة، وقوله: ﴿وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ﴾ بيان للعلم، اهـ كلام الرازي.
وإنما سقناه على طوله لأمور:

أولها: أن موضوع البعث والمعاد ـ وقد عرضنا له استطراداً لفكرة السورة الإجمالية ـ من الموضوعات الدينية التي تتعلق بأصل عقيدة الإيمان الصحيح، وهو بمعرض التشكيك من ملاحدة أغمار المثقفين بالثقافات المعاصرة غير الإسلامية الذين لم يعرفوا فيما عرفوا من قضايا الدين ومبادىء الإسلام ـ إن كانوا قد عرفوا منها شيئاً ـ إلا صورة شائهة محرفة.

وموضوع البعث والمعاد تتفاوت في الإيمان به وطرائق أدلته العقول، والطريق الذي سلكه الإمام الرازي على ضوء تفسيره للآية

الكريمة طريق علمي يقوم على دعائم العقل، بألفاظ اصطلاحية لا يدركها إلا طوائف مخصوصة من أهل العلم والمعرفة.

ثانيها: أننا عرضنا لطريق استدلال القرآن الكريم فوجدناه يسوق هذه المعاني الدقيقة الاصطلاحية المنطقية التي يعتمد عليها المتكلمون ـ والإمام الرازي أحد طلائعهم ـ في صورة تثير الوجدان وتوقظ المشاعر النفسية، وتدفع بالعقول إلى النظر دون ارتباط بهذه الاصطلاحات اللفظية والمعنوية التي لا يعرفها اليوم إلا القليل والذين يعرفونها لا يقفون معها في تفكيرهم.

فطريق القرآن الكريم في الاستدلال وتوجيه العقول والمشاعر لإدراك أعمق الحقائق أيسر وأشمل وأقوم، ونحن لا نقصد إلى شيء من الموازنة، فإنه من البداهة بمكان ألّا محل لموازنة بين أسلوب القرآن الحكيم وطرائقه وأي أسلوب آخر، ولكننا نقصد إلى توجيه الناظرين في القرآن الكريم والداعين إلى نشر قضاياه ومبادئه إلى أن يعملوا على إشاعة الأسلوب القرآني وتقريبه بما يرفع الحجب الاصطلاحية عن وجهه الجميل حتى لا تغرق معانيه في خضم الاصطلاحات الموضوعية في عصور تاريخية، كانت لها بها ألف مأنوس، وكانت لها دواعيها الخاصة في العصور التي نهدت بين جنباتها.

وهذه دعوة ننادي بها للعمل على إقامة صرح العلوم الإسلامية، ولا سيما علم التوحيد ودراسته العامة في مدارسنا ومعاهدنا وجامعاتنا على دعائم الأسلوب القرآني الحكيم، ولا نرى حرجاً من الإبقاء على هذه الطرائق الاصطلاحية في الدراسات التخصصية.

ثالثها: أنني أحب فيما أكتب من أفكار في محيط المسائل الدينية، وخاصة ما يتصل منها بالقرآن المبين لتنشر على الناس أن أستأنس بأفكار أئمتنا من أعلام الإسلام، فهم الذين سبقونا بالإيمان

والعلم والفضل ومهدوا لنا طرائق البحث واقتحموا غمرات المعارف، فأفاض الله عليهم من فضل جوده ما جعلهم أعلام الهداية في الأرض، فكانوا أحق بها وأهلها.

وقد هدتني تجاربي في البحث إلى أن الله تعالى جمع في أفكار هؤلاء الأئمة وتراثهم العلمي الموروث كثيراً مما خطر على قلوب المفكرين في دائرة الإسلام ومعارفه مما ظنوه مبتكراً، غير أن هذه الأفكار منثورة في خضم ما خلفوا من آثار في المكتبة الإسلامية العظمى في تاريخ الإسلام.

فعلى الذين يريدون أن ينهضوا بالبحث العلمي في ظل الأصول الإسلامية أن يقرؤا ويطلعوا ويدمنوا التفتيش في آثار المتقدمين فيما يقصدون إليه من تفكير، فهؤلاء الباحثون هنا وهناك الذين يزعمون لأنفسهم قدرة على الابتكار في التفكير الإسلامي عليهم أن يروضوا أنفسهم على تحمل مشقة البحث وعناء الاطلاع قبل أن يخرجوا على الناس بما يخرجون به من رأي، وسيجدون أنهم مسبوقون بما قالوا وما ارتأَوا، وإن في الكثير مما قيل من أفكار السلف خير من جديد هؤلاء.

ولسنا نقصد بهذا إلى أن نجمد أفكار المفكرين، أو نحجر على العقول، أو نزعم حبس المعارف على جبل من الناس، أو عصر من الأعصر، أو جماعة من الجماعات، أو فرد من بني الإنسان، لا نقصد إلى شيء من ذلك لأن الفكر الإنساني ينبوع يستمد فيضه من محيط كلمات الله التي لا تنفد، فلا نستطيع أن نغمط العقول حقها في الخلق والابتكار ولكنا نقصد إلى نهنهة الغرور عند مراهقي الباحثين، عساهم أن يعتصموا بحبل التواضع، ويعرفوا للمتقدمين من أسلافنا حقهم عن إيمان وبصيرة، ثم هم في حل وراء ذلك أن يطلقوا لعقولهم الأعنة، وقد يقع الحافر على الحافر ــ كما يقول أهل الأدب ــ فيكون للأول فضل السبق، ويكون للآخر فضل الكشف وكلاهما صاحب فكر ونظر.

نماذج المعاندين
في تصوير القرآن

هذا، وتمضي السورة الكريمة في وصف نماذج من أهل العناد والجهالة المتعالمة الذين يجحدون الحق بأواً واستكباراً في الأرض، وضعفاً وتهانفاً في تصاغر الأذلاء أمام المطامع والشهوات، يجادلون في آيات الله بغير علم تهدي إليه الفطر السلمية، ولا معرفة مكتسبة تنير لهم الطريق، ولا إيمان بوحي يرشدهم لأهدى سبيل، هؤلاء عاقبتهم في الدنيا الخزي والخذلان، ومآلهم في الآخرة عذاب الحريق بسبب ما قدمت أيديهم من العناد والضلال والإضلال.

ثم ذكرت السورة الكريمة لهؤلاء الجهلاء الجاحدين قرناء أخابث ماكرين يظهرون غير ما يبطنون، يقفون من الحياة في طرفها، لا يستمكنون استعداداً للفرار ساعة يجد الجد، ويدعو الحق أهله إلى الفداء والبذل في سبيل إعلاء كلمته، ودحض كلمة الباطل، فإن غنموا من سقط المتاع شيئاً وهم على حرف الحياة كشاردة الغنم تضاحكوا ملء أشداقهم اطمئناناً إلى ما أصابوا فهم كما وصفهم الله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يَتَرَبَّصُونَ بِكُمْ فَإِنْ كَانَ لَكُمْ فَتْحٌ مِنَ ٱللَّهِ قَالُوا أَلَمْ نَكُنْ مَعَكُمْ﴾، وإن صفرت أيديهم من لعاعات الدنيا ومطاعم البهم واهتزت الأرض من تحتهم، ومادت بهم مستقراتهم ارتدوا على أعقابهم ناكصين يقولون لإخوانهم الذين كفروا: ﴿أَلَمْ نَسْتَحْوِذْ عَلَيْكُمْ وَنَمْنَعْكُمْ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ بيد أنهم من تهانفهم: ﴿لَوْ يَجِدُونَ مَلْجَأً أَوْ مَغَارَاتٍ أَوْ مُدَّخَلاً لَوَلَّوْا إِلَيْهِ وَهُمْ يَجْمَحُونَ﴾.

هذا هو القصص الحق: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَنْ يُجَادِلُ فِي ٱللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَابٍ مُنِيرٍ ثَانِيَ عِطْفِهِ لِيُضِلَّ عَنْ سَبِيلِ ٱللَّهِ لَهُ فِي ٱلدُّنْيَا خِزْيٌ وَنُذِيقُهُ يَوْمَ ٱلْقِيَامَةِ عَذَابَ ٱلْحَرِيقِ ذَٰلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ يَدَاكَ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ. وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَنْ يَعْبُدُ ٱللَّهَ عَلَىٰ حَرْفٍ فَإِنْ

أَصَابَهُ خَيْرٌ ٱطْمَأَنَّ بِهِ وَإِنْ أَصَابَتْهُ فِتْنَةٌ ٱنْقَلَبَ عَلَىٰ وَجْهِهِ خَسِرَ ٱلدُّنْيَا وَٱلْآخِرَةَ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْخُسْرَانُ ٱلْمُبِينُ﴾[1] ، ومن عجائب الموافقات ـ إذا صح ـ ما يروى أن أئمة المفسرين يذكرون مثلاً لهذه النماذج الملحدة: النضر بن الحارث، فيقولون: إنها نزلت في شأنه، تصف حاله وموقفه من دعوة الحق وهو رجل تقول الرواية التاريخية إنه كان ممن رحل إلى بلاد فارس وأخذ من أساطير مجوسيتها، وعاد إلى بلده يتشادق بها متعالماً على قومه، فما أشبه ملاحدة اليوم بملاحدة الأمس في حديث القرآن وما أشبه الليلة بالبارحة في أحداث التاريخ لو لا صبغة البيئة والعصر والمجتمع.

ولما عرضت السورة بعد ذلك إلى ذكر حال المؤمنين وما أعده الله لهم من الجزاء الأبدي إجمالاً وبينت حال من يتردد في نصرة الحق، وأن إنطواءه على الكيد للحق وأهله لا يُذهب غيظه، لأن نصرهم آتٍ لا شك فيه، فلْيقتله الكمد والغيظ، وأشارت إلى طوائف أهل الملل بأوصافهم وأن الفصل بينهم يوم القيامة بقبول المؤمنين وإعزازهم وخذلان الكافرين وإذلالهم من شأن الله تعالى الذي شهد أفعالهم وأحصاها عليهم ـ عادت إلى ما بدأت به من الاستدلال على عموم القدرة الإلٓهية، غير أن الاستدلال هنا أخذ لوناً جديداً، فهو استدلال بتسخير الخلق كلهم علويِّهم وسفليِّهم لقهر القدرة الإلٓهية: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يَسْجُدُ لَهُ مَنْ فِي ٱلسَّمَٰوَاتِ وَمَنْ فِي ٱلْأَرْضِ وَٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ وَٱلنُّجُومُ وَٱلْجِبَالُ وَٱلشَّجَرُ وَٱلدَّوَابُّ وَكَثِيرٌ مِنَ ٱلنَّاسِ وَكَثِيرٌ حَقَّ عَلَيْهِ ٱلْعَذَابُ وَمَنْ يُهِنِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ مُكْرِمٍ إِنَّ ٱللَّهَ يَفْعَلُ مَا يَشَآءُ﴾[2].

وهنا وقفة للتأمل في أسلوب القرآن نلمحه في الفصل بين السُّجَّد

---

(١) سورة الحج: الآيات (٨ ـ ١١).

(٢) سورة الحج: الآية (١٨).

من الكائنات في عوالم الآفاق وغيرها وبين الساجدين من الناس، فسجود غير الأناسي عام شامل، لأنه سجود تسخير وتذليل لقهر القدرة الإلٓهية لا يخرج عنه شيء من الأشياء، وسجود العقلاء من الناس خاص لا يقع إلا من المؤمنين، لأنه سجود استجابة للتكليف بالطاعة، فعم في الأول وخص في الثاني، فلله ما أبدع هذا الكتاب الحكيم وما أروعه لو وجد من أهله ربانيين يفقهون حكمته ويقومون بنشرها في الناس هداية ورحمة لأولي الألباب.

الصراع بين الحق والباطل
في تصوير القرآن

ثم تابعت السورة الآيات في تصوير الصراع بين الحق والباطل وأهلهما وفي تبيين جزاء المستكبرين على قبول الحق بلون تصويري مفظع يوثب القلوب من مقارّها، ويذيب الأكباد في منازلها ﴿هَـٰذَانِ خَصْمَانِ ٱخْتَصَمُوا فِي رَبِّهِمْ فَٱلَّذِينَ كَفَرُوا قُطِّعَتْ لَهُمْ ثِيَابٌ مِنْ نَارٍ يُصَبُّ مِنْ فَوْقِ رُؤُوسِهِمُ ٱلْحَمِيمُ يُصْهَرُ بِهِ مَا فِي بُطُونِهِمْ وَٱلْجُلُودُ، وَلَهُمْ مَقَامِعُ مِنْ حَدِيدٍ كُلَّمَا أَرَادُوا أَنْ يَخْرُجُوا مِنْهَا مِنْ غَمٍّ أُعِيدُوا فِيهَا وَذُوقُوا عَذَابَ ٱلْحَرِيقِ﴾[1].

وعلى الذين يقشعر جلودهم من هول هذا العذاب يستعظمونه في صورته التي صوره بها القرآن في كل موضع جاء فيه ــ وإنه لعظيم ــ أن يتيحوا لعقولهم لحظات من الانطلاق فوق مستوى العواطف المائعة ويضعوا أمام أعينهم صورة هؤلاء المعاندين للحق المخاصمين لأهله الواقفين له ولهم بالمرصاد، يبغونه الغوائل، ويسيمونهم من سوء العذاب ألواناً، يكفرون بالله وقد خلقهم أطواراً ويجحدون نعمته وهم يتقلبون فيها، ويتخذون من أحط الغرائز مراكب لأهوائهم، لا يرعوون ولا

(١) سورة الحج: الآيات (١٩ ــ ٢٢).

يفيقون، سكارى بنشوة الإجرام والإفساد في الأرض، كلما أحدثوا شراً لاحقوه بشر منه، لم تكن لهم قلوب يفقهون بها، ولا عقول تحجزهم عن الفجور، أهدروا إنسانيتهم بفقدانهم خصائصها فلم يكونوا مستحقين لتكرمتها، وكانوا في ميزان الإنصاف أحقاء بهذا العذاب الغليظ، يخلدون فيه جزاء وفاقاً، ما داموا لم يفيئوا إلى ظل من التوبة والإنابة ولم يكشفوا عن عقولهم وأفئدتهم ران الجحود والبغي والضلال المبين، وفي كل سطر من كتاب تاريخ البشرية ــ منذ كانت، وكانت معها هداية الله بوحيها إلى أبنائها على ألسنة أنبيائه ورسله ويبينها لهم الصالحون من عباده، ومنذ كان فيها قابيل وهابيل ــ شاهد صدق على تحقيق عدل الله تعالى في شرعة هذا الجزاء المكافىء لجرم أولئك الفجار المعاندين.

وحسبك ما تقرأ في تاريخ غلاظ الرقاب من خراف بني إسرائيل وقتلهم الأنبياء والصالحين المصلحين من قومهم الذين يأمرونهم بالقسط من أحبارهم ورهبانهم، بغضاً للحق الذي يدعونهم إليه، وكفراً به وقد علموا أنه الحق من ربهم، وحسبك أن تقرأ بعد هذا الصحائف السود لتاريخ محاكم التفتيش للقضاء على الإسلام والمسلمين في الفردوس المفقود، وحسبك أيضاً أن تقرأ تاريخ غارات البرابرة والتتار على بلاد الإسلام وعاصمة الخلافة الإسلامية، وما سفكوا من دماء وهتكوا من محارم، وحسبك أن تقرأ وقائع الحروب الصليبية وما جرى فيها من أحداث تنادي بأن هؤلاء الصليبيين فقدوا بما ران على قلوبهم من أحقاد خبيثة كل معنى إنساني، وحسبك في هذا العصر أن تقرأ شيئاً عن كوارث الغاصبين في الشرق، ومآسي التفرقة العنصرية في الشرق والغرب، وإفناء أبناء الإسلام في ظل الشيوعية الملحدة، مما تنخلع لهوله الأفئدة وتتفتت الأكباد. أفيكون من العدل أن يستوي هؤلاء في الجزاء مع من يؤمن بالله وكتبه ورسله، ويهفو بالمعصية ثم يرجع

إلى ربه بالتوبة والندم؟ فما أعدل جزاء الله وما أحكم تقديره، وهو الحكيم الخبير.

وللقرآن الكريم طريقة في أسلوبه تعتمد على تلوين الخطاب وتلوين الأحداث وتلوين الأخبار، وتلوين الشخوص والمعالم، لتتلقاه العقول السليمة يقظة متدبرة وتتلقاه القلوب وجله راجية، فتراه يردف الترهيب بالترغيب، والوعد بالوعيد، تسكيناً لنفوس المؤمنين، ليطمئنوا إلى رضاء الله ورحمته، وإزعاجاً للملاحدة المعاندين ليثوبوا إلى عقولهم فيطرقوا أبواب النظر اتقاء عذاب الله وسخطه، فهو إذ يذكر المعاندين يُتبِعه بذكر جزاء المتقين، وترى بين الأسلوبين، أسلوب الترهيب والوعيد وأسلوب الوعد والترغيب، ما بين الجزاءين، فذاك أسلوب مجلجل مزعج يخلع القلوب، وهذا أسلوب هادىء هدوء الإيمان يسري في قلوب المؤمنين ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُدْخِلُ ٱلَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا ٱلصَّالِحَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَارُ يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِنْ ذَهَبٍ وَلُؤْلُؤاً وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ وَهُدُوا إِلَى ٱلطَّيِّبِ مِنَ ٱلْقَوْلِ وَهُدُوا إِلَى صِرَاطِ ٱلْحَمِيدِ﴾[1].

الصدّ عن سبيل الله

ثم أخذت السورة الكريمة في بيان ديدن المعاندين من أهل الزيغ والإلحاد في إقامة العقبات على طريق الحق وأهله، ليصدوا عن سبيل الله وخصت الآيات بالذكر الركن الجماعي من أركان الإسلام الذي سميت السورة باسمه وهو الحج إلى بيت الله الحرام، رمز الوحدة الإسلامية المقدسة بين أمة الإسلام في شتى أقطارهم، فهو قبلتهم الموحدة في صلاتهم أينما كانوا، وحيثما حلُّوا من أرض الله، لتتوحد قلوبهم وأهدافهم وآمالهم بعد توحد اتجاههم في أعظم ركن يتمحض

---

(١) الحج: الآيتان (٢٣، ٢٤).

فيه ذل العبودية لجلال الربوبية وهو الصلاة عماد الإسلام ﴿قَدْ نَرَىٰ تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي ٱلسَّمَآءِ فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَاهَا فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ وَحَيْثُ مَا كُنتُمْ فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ﴾(١).

والحج عبادة فيها امتحان لإخلاص العبودية لله بالتسليم لأحكامه والمسارعة إلى أداء ما تعلو حكمته على متناول العقول من العبادات، وهو أيضاً عبادة فيها امتحان لإخلاص الفرد للجماعة وامتزاجه فيها حتى كأنه عرق ينبض بدمها في جسمه، يحس بإحساسها ويشعر بشعورها، لا يخالف عليها ولا تخالف عليه، وهاتان الحكمتان هما سر شريعة الحج في الإسلام باعتباره ركنا عبادياً واجتماعياً من أركان هذا الدين القويم ولا يتم نسكه للمؤمن إلا إذا أخذ بحظه من كليهما. يسارع بالامتثال لما ثبت تشريعه من مناسكه دون توقف أو تساؤل لم هذا؟ ويتعاون مع إخوته المؤمنين، يشد أزرهم ويشدون أزره، يعرف عنهم ويعرفون عنه، ويأخذ منهم ويعطيهم، حتى كأنهم أعضاء جسم واحد يحيا بروح واحد.

ومن هنا كان الصد عن البيت الحرام بالوقوف في وجه قاصديه من المؤمنين، ووضع العقبات في سبيل اجتماع المسلمين حوله عظيمة من العظائم الإلحادية التي جعلها الله قرينة الكفر به، وسبباً في استحقاق عذابه المقيم وسخطه الدائم، ومثلا مجسماً لأبشع صور الصد عن سبيل الله.

ذلك أن البيت الحرام هو بيت الله الأخص الذي جعله لعامة المؤمنين وخاصتهم، يستوي فيه المقيم في بلده والطارىء عليه قاصداً لأداء نسكه والتعبد حوله. سواء أكان راعياً أو رعية، أميراً أو مأموراً، حاكماً أو محكوماً، لتوثيق عرى الوحدة الإيمانية فيما بينه وبين إخوانه من

---

(١) سورة البقرة: الآية (١٤٤).

كافة المؤمنين، فالصد عنه ظلم يجب دفعه بمقاتلة الصادِّين ومدافعتهم حتى يفيئوا إلى أمر الله، وهذا في الصد العام، أي صد الجماعة للجماعة، أما الصد الفردي فحسابه على الله، ويدخل في دائرة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، فمن قوي عليه من جماعة المسلمين وجب عليه القيام به. روي الغزالي في الإحياء: أن المهدي ـ الخليفة العباسي ـ قدم مكة فلبث بها ما شاء الله، فلما أخذ في الطواف نحى الناس عن البيت فوثب عبد الله بن مرزوق فلببه بردائه، ثم هزه وقال له: انظر ما تصنع؟ من جعلك بهذا البيت أحق ممن أتاه من البعد حتى إذا صار عنده حلت بينه وبينه وقد قال الله تعالى: ﴿سَوَآءً ٱلْعَاكِفُ فِيهِ وَٱلْبَادِ﴾ من جعل لك هذا؟ فنظر المهدي في وجهه، وكان يعرفه لأنه من مواليهم فقال: أعبد الله بن مرزوق؟ قال: نعم، فأخذ فجيء به إلى بغداد، فكره المهدي أن يعاقبه عقوبة يشنع بها عليه في العامة فجعله في اصطبل الدواب ليسوس الدواب، وضموا إليه فرساً عضوضاً سيء الخلق ليعقره الفرس، فليّن الله تعالى له الفرس، ثم صيروه إلى بيت وأغلق عليه وأخذ المهدي المفتاح عنده، فإذا هو قد خرج بعد ثلاث إلى البستان يأكل البقل، فأوذن به المهدي، فقال له: من أخرجك؟ فقال: الذي حبسني فضج المهدي وصاح، وقال له: ما تخاف أن أقتلك؟ فرفع عبد الله رأسه إليه يضحك وهو يقول: لو كنت تملك حياة أو موتاً!! فما زال محبوساً حتى مات المهدي ثم خلُّوا عنه فرجع إلى مكة.

وهذه الحادثة تفيد أن عالماً من علماء المسلمين رأى أن تنحية الناس عن البيت الحرام وإخلاءه لطواف فرد من الأفراد، ولو كان ذلك الفرد هو الخليفة نفسه صد عن البيت الحرام، يلحقه الزجر الذي تضمنته الآية الكريمة: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ ٱلَّذِي جَعَلْنَاهُ لِلنَّاسِ سَوَآءً ٱلْعَاكِفُ فِيهِ وَٱلْبَادِ وَمَن يُرِدْ

فِيهِ بِإِلْحَادٍ بِظُلْمٍ نُذِقْهُ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ﴾[1]، وهو من قبيل الصد الفردي الذي أهدر حق المؤمن في بيت ربه وقتاً من الأوقات، قال عبد الله بن وهب: سألت مالكاً عن قول الله تعالى: ﴿سَوَآءً ٱلْعَاكِفُ فِيهِ وَٱلْبَادِ﴾ فقال لي مالك: سواء في السعة والأمن والحق.

محاربة الصادّين عن سبيل الله

ولمّا كان الصد الجماعي عن البيت الحرام مفسدة من أعظم المفاسد وتعطيلاً لركن من أهم أركان الإسلام، وإقامة عقبات في سبيل الدعوة إلى الله بالقوة ونصب الحرب مما يجب على جميع المؤمنين مقاومته وإزالته لتأمين البيت لزواره وقصاده بيّن الله تعالى طريق إزالة هذه المفسدة وتأمين البيت وتمكين قصاده من أداء عباداتهم في حرية آمنة فقال مبشراً المؤمنين ليشد أزرهم ويقوي عزيمتهم: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُدَافِعُ عَنِ ٱلَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ خَوَّانٍ كَفُورٍ﴾[2].

والتعبير بالفعل المضارع بصيغة المفاعلة في القراءة المشهورة لإشعار المؤمنين بقوة عدوهم وأنه ذو عدد وعدة، وهذا شأنه في متعارف أهل الحرب شأن المدافعة والمداولة الذي لا يطمع في دفعه من أول جولة، فلا ينبغي معه التواكل وإهمال الاستعداد بالعدد والعدة، وعلى هذا النحو في إيقاظ قوى المدافعة في جيوش المؤمنين جاءت الآية الكريمة: ﴿وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا ٱسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ﴾ وإسناد المدافعة بصيغة المضارع الدالة على التجدد والاستمرار إلى الله تعالى تقدمة إلى المؤمنين ببشرى النصر والظفر بأعدائهم لتقوى روحهم ويشتد عزمهم، لأن الله تعالى وهو القوي القهار هو الذي يتولى الدفاع عن أوليائه المؤمنين، وهو الذي يقهر بهم أعداءه من كل خوان كفور، فالمفاعلة

---

(١) سورة الحج: الآية (٢٥).

(٢) سورة الحج: الآية (٣٨).

ليست في الواقع الخارجي على بابها من إفادة المشاركة في أصل الدفع، تعالى الله القاهر فوق عباده أن تقف قوة في الأرض أو في السماء أمام قهره وغلبه، ولكنها جاءت في الآية بصيغتها للحكمة التي ذكرناها، فقول بعض المفسرين: إن (يدافع) بمعنى (يدفع) معناه نفي المشاركة الواقعية في الخارج؛ وليس معناه استواء الفعلين في أداء معنى واحد، فأيهما وقع التعبير به أدى معنى صاحبه، لأن القرآن الكريم لا يستعمل كلمة بصيغة ويريد منها معنى صيغة أخرى دون أن يقصد إلى معنى الصيغة المستعملة.

أما قراءة ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَدْفَعُ﴾ وهي سبعية، قرأ بها أبو عمرو وابن كثير فهي لتمحيض البشارة من أول وهلة للمؤمنين الذين أوذوا ولم يتمكنوا من رد الاعتداء علانية لتسكن قلوبهم إلى وعد الله تعالى انتظاراً للإذن الصريح بالقتال في حينه عندما تكتمل أسبابه، فقد روي أن الأية نزلت بسبب المؤمنين لما كثروا بمكة وآذاهم الكفار، وهاجر من هاجر إلى أرض الحبشة أراد بعض مؤمني مكة أن يقتل من أمكنه من المعتدين احتيالاً وغدراً؛ فنزلت الآية تعدهم وتبشرهم وتنهاهم أشد النهي عن الغدر والخيانة، وصيغة ﴿خَوَّانٍ كَفُورٍ﴾ الدالة على المبالغة في كثرة وقوع الكفر وشدته وعتو الكافرين للإشعار بأن الخيانة وكفران النعمة وجحود الحق والتعالي عن البرهان استكباراً وعناداً ديدن الملحدين الكافرين، حتى لا يغتر مفتون بظاهر بعض أحوالهم فيما يزعمون لأنفسهم من استقامة السلوك، وقد فجروا على الله فهم على خلقه أفجر، فلا أمان لمن لا إيمان له، ولا استقامة لمن لم يستقم مع ربه وخالقه.

إعداد القوة لحماية الحق

ثم بيّن الله تعالى أتم بيان الطريقة التي ينصر بها أولياءه من المؤمنين على أعدائه من الكفرة الخونة الغادرين، حتى لا يظن أهل

البطالة والكسل من القعدة أحلاس الزوايا الذين أثاقلوا إلى الأرض ورضوا بالحياة الدنيا من الآخرة أن الله يدافع عنهم بإنزال نصره وهم قعود يتلاهثون. فقال مبيناً لوعده في قوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُدَافِعُ عَنِ ٱلَّذِينَ آمَنُوا﴾: ﴿أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَاتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا وَإِنَّ ٱللَّهَ عَلَى نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ، ٱلَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ بِغَيْرِ حَقٍّ إِلَّا أَنْ يَقُولُوا رَبُّنَا ٱللَّهُ﴾[1]، فطريق دفاع الله عن المؤمنين إنما هو إذنه لهم في قتال عدوهم ودفعه بسلاحه، بعد أن كانوا ممنوعين من الدفاع عن أنفسهم بالمقاتلة، مأمورين بالصبر واحتمال الأذى مدة إقامتهم بمكة، وهي ثلاث عشرة سنة، قال بعض السلف: هذه أول آية نزلت في الإذن بالقتال دفعاً للاعتداء.

الإسلام قوة وسلام
لا ضعف واستسلام

وقد علل الله تعالى الإذن للمؤمنين بقتال عدوهم بأنهم ظُلموا، فهم لا يقاتلون حباً في القتال، ولا تعطشاً لسفك الدماء ولا بغياً على أحد، ولكنهم يقاتلون دفاعاً عن أنفسهم، ورداً لاعتداء المعتدين، ومقاومة لظلم الظالمين، فالآية نص قاطع على أن الإسلام دين سلام ومسالمة، لا دين استسلام وتسليم فهو لا يخاف الحرب ولا يجبن عنها، فالحرب في حق لديه شريعة، بيد أنه لا يشعل ثقابها ابتداء، فإذا أوقدها أعداؤه تقبلها منتصراً للدفاع عن كيانه، ودفعاً لظلم الطغاة المتجبرين الذين يريدون العلو في الأرض والفساد في الخلق، يخادعون الأقوياء ويستبدون بالضعفاء، عندئذ يهيب الإسلام بأمته في صراحة لا تعرف اللف والدوران، ولا تتشدق بالسلام الزائف المزيف، ولا ينخدع بزخرف القول، ولكنه يطلب إلى جنده، وكل أمته جند الحق، أن يكونوا أشداء الوطأة على الطغاة المستبدين ﴿فَاقْتُلُوا ٱلْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ وَخُذُوهُمْ وَٱحْصُرُوهُمْ وَٱقْعُدُوا لَهُمْ كُلَّ

---

(١) سورة الحج: الآية (٣٩).

مَرْصَدٍ﴾(1)، ﴿فَإِذَا لَقِيتُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا فَضَرْبَ ٱلرِّقَابِ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَثْخَنتُمُوهُمْ فَشُدُّوا ٱلْوَثَاقَ﴾(2)، ﴿قَاتِلُوهُمْ يُعَذِّبْهُمُ ٱللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ وَيُخْزِهِمْ وَيَنصُرْكُمْ عَلَيْهِمْ وَيَشْفِ صُدُورَ قَوْمٍ مُّؤْمِنِينَ وَيُذْهِبْ غَيْظَ قُلُوبِهِمْ﴾(3)، ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا قَاتِلُوا ٱلَّذِينَ يَلُونَكُم مِّنَ ٱلْكُفَّارِ وَلْيَجِدُوا فِيكُمْ غِلْظَةً وَٱعْلَمُوٓا أَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلْمُتَّقِينَ﴾(4)، ﴿وَٱقْتُلُوهُمْ حَيْثُ ثَقِفْتُمُوهُمْ وَأَخْرِجُوهُم مِّنْ حَيْثُ أَخْرَجُوكُمْ وَٱلْفِتْنَةُ أَشَدُّ مِنَ ٱلْقَتْلِ﴾(5)، ﴿وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ ٱلدِّينُ لِلَّهِ﴾(6)، ﴿فَإِمَّا تَثْقَفَنَّهُمْ فِي ٱلْحَرْبِ فَشَرِّدْ بِهِم مَّنْ خَلْفَهُمْ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ﴾(7)، ﴿وَإِن نَّكَثُوٓا أَيْمَـٰنَهُم مِّنۢ بَعْدِ عَهْدِهِمْ وَطَعَنُوا فِي دِينِكُمْ فَقَـٰتِلُوٓا أَئِمَّةَ ٱلْكُفْرِ إِنَّهُمْ لَآ أَيْمَـٰنَ لَهُمْ لَعَلَّهُمْ يَنتَهُونَ﴾(8).

وهكذا نجد الإسلام وَدوداً في السلم: ﴿لَّا يَنْهَاكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ لَمْ يُقَـٰتِلُوكُمْ فِي ٱلدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَـٰرِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوٓا إِلَيْهِمْ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ﴾(9)، كما وجدناه صريحاً قوياً في الحرب، لا يخادع ولا يزيف، ولا يخون ولا يغدر. ﴿وَإِمَّا تَخَافَنَّ مِن قَوْمٍ خِيَانَةً فَٱنۢبِذْ إِلَيْهِمْ عَلَىٰ سَوَآءٍ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْخَآئِنِينَ﴾(10)، ﴿وَإِن

(1) سورة التوبة: الآية (٥).
(2) سورة محمد: الآية (٤).
(3) سورة التوبة: الآيتان (١٤، ١٥).
(4) سورة التوبة: الآية (١٢٣).
(5) سورة البقرة: الآية (١٩١).
(6) سورة البقرة: الآية (١٩٣).
(7) سورة الأنفال: الآية (٥٧).
(8) سورة التوبة: الآية (١٢).
(9) سورة الممتحنة: الآية (٨).
(10) سورة الأنفال: الآية (٥٨).

جَنَحُوا لِلسَّلْمِ فَٱجْنَحْ لَهَا وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ﴾[1]، دعائم من الوفاء والقوة، والرحمة والعدل.

سنّة الله في نَصْر المظلومين

ثم بيَّن الله تعالى أنه مع المظلومين بنصره، ولو قل عددهم وكثر عديد عدوهم، إذا استجاب المظلومون من أهل الإيمان لسنة الله، فأعدوا لمن ظلمهم واعتدى على حرمانهم سلاحاً مثل سلاحه، وواجهوه قوة موحدة، فقال: ﴿وَإِنَّ ٱللَّهَ عَلَى نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ﴾ وهذا وعد من الله تعالى لعباده المؤمنين، وقد صدق الله وعده، وأعز جنده، ونصر المؤمنين على قلتهم يوم أن واجهوا عدوهم أمة موحدة، لم تغرقها الأهواء والشهوات، نصرهم في غزوة بدر، ونصرهم في فتح مكة، ونصرهم على الأحزاب في غزوة الخندق، ونصرهم على تكتلات الباطل في حنين، ونصرهم في حروب الردة، ونصرهم في الفتوحات على جحافل فارس والروم، فاستولوا على مملكة الفرس، وطردوا الروم من الشام ومصر، وأعادوهما إلى حظيرة العروبة في ظل الإسلام، ونصرهم على جيوش التتار في عين جالوت، ونصرهم على تألبات الصليبيين في حطين، ونصرهم رأي أعيننا على تكتلات المعتدين علينا في معركة الحرية في بور سعيد.

في كل هذه الانتصارات التي حفظها التاريخ واضحة المعالم، كان عدد المسلمين أقل بمراحل واسعة من عدد عدوهم، وكانت عدتهم وسلاحهم ليست كعدة وسلاح عدوهم، ولكنهم انتصروا انتصاراً داوياً، لأنهم واجهوا عدوهم مجتمعة كلمتهم، مؤحدة قوتهم، فكانوا كما أمرهم الله أمة واحدة وجيشاً واحداً، يدافعون عن الحق، ويقاومون الفساد والظلم ويرفعون راية العدل.

---

(١) سورة الأنفال: الآية (٦١).

وقد تكرر هذا الوعد الحق في القرآن الكريم، قال تعالى: ﴿لَن يَضُرُّوكُمْ إِلَّا أَذًى وَإِن يُقَاتِلُوكُمْ يُوَلُّوكُمُ ٱلْأَدْبَارَ ثُمَّ لَا يُنصَرُونَ﴾(١)، وقال تعالى: ﴿وَلَوْ قَاتَلَكُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا لَوَلَّوُا ٱلْأَدْبَارَ ثُمَّ لَا يَجِدُونَ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا﴾(٢)، وفحوى الخطاب واضح في أن النصر معقود للأمة الإسلامية باعتبارها أمة واحدة تربطها وحدة الإيمان، يستنصرون الله فينصرهم بوحدتهم تحقيقاً لوعد الله تعالى: ﴿وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾.

أقبح مظاهر الظلم

ثم بيَّن الله تعالى أن أقبح صور الظلم وأبشع مظاهره التي توجب على المظلومين أن ينهضوا موحدين في جهودهم لقتال ظالمهيم من الطغاة المتجبرين، إنما هو تشريد الآمنين وإخراجهم من ديارهم ظلماً وعدواناً دون ذنب جنوه، أو إثم اقترفوه سوى تمسكهم بحرية العقيدة وإيمانهم بالواحد القهار، فقال: ﴿ٱلَّذِينَ أُخْرِجُوا مِن دِيَارِهِمْ بِغَيْرِ حَقٍّ إِلَّا أَن يَقُولُوا رَبُّنَا ٱللَّهُ﴾، ومعنى ذلك أن هؤلاء الظالمين الطغاة تجردوا من حقيقة إنسانيتهم، وعادوا غلاظ الأكباد قساة القلوب فاقدي الضمائر باعتدائهم على هؤلاء الآمنين، فأخرجوهم من ديارهم، وشردوهم عن أوطانهم، معرضين لشتى صنوف الآلام تتعاورهم، هكذا بغياً وعدواً بغير جريرة سوى تمسكهم بحق الإيمان وقولهم: ربنا الله.

التدافع ميزان الكون

ثم ذكر الله تعالى أن إذنه للمظلومين في قتال الظالمين سنة من سننه الكونية التي أقام عليها دعائم العمران والاستقرار في الوجود كله، في كل جيل وأمة وعصر، يدفع بسنّة التدافع بين أهل الخير والصلاح

---

(١) سورة آل عمران: الآية (١١١).

(٢) سورة الفتح: الآية (٢٢).

وأهل الشر والفساد شر الظالمين وفساد المفسدين: ﴿وَلَوْلَا دَفْعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّهُدِّمَتْ صَوَٰمِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَٰتٌ وَمَسَٰجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا ٱسْمُ ٱللَّهِ كَثِيرًا﴾[1]، أي: ولولا إذن الله تعالى للمظلومين في قتال الظالمين ومدافعتهم بالقوة لاستشرى الفساد في الأرض وانتُهكت الحرمات وضاعت معالم الخير، بضراوة أهل الظلم والطغيان، فتهديم مواضع العبادة في الأمم والأجيال التي لعبادتها أصل إلّهي، وتخريبها، عنوان على أقبح صور الإفساد في الأرض، لأنه هتك لسياج الحرمات الفردية والجماعية في أقدس مقدساتها.

وإذن الله تعالى للمظلومين أن يردوا العدوان بمثل قوته وسلاحه، ويثأروا لأنفسهم من ظالميهم بقتالهم لحماية الحق والخير عنوان على أرفع صور الإصلاح في الأرض.

أسلوب بيان الآية لسنّة الله

وهذا المعنى واضح بين من نص أسلوب الآية حتى لكأنها لا تحتمل غيره ويؤكده تأكيداً قوياً ورود الآية عقيب آية الإذن للمظلومين في قتال الظالمين قال الإمام الرازي: (فإن قيل: ما المراد بهذا الدفاع الذي أضافه الله تعالى إلى نفسه ـ يعني الدفاع في قوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُدَٰفِعُ﴾ الذي جاء قوله تعالى: ﴿وَلَوْلَا دَفْعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ﴾ كالبيان له ـ؟ والجواب أن المراد بهذا الدفاع هو إذنه لأهل دينه بمجاهدة الكفار فكأنه قال تعالى: ولولا دفاع الله أهل الشرك بالمؤمنين من حيث يأذن لهم في جهادهم وينصرهم على أعدائهم لاستولى أهل الشرك على أهل الأديان، وعطلوا ما يبنونه من مواضع العبادة، ولكنه دفع عن هؤلاء بأن أمر بقتال أعداء الدين ليتفرغ أهل الدين للعبادة.

---

(١) سورة الحج: الآية (٤٠).

وقال القرطبي في قوله: ﴿أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَاتَلُونَ...﴾: (هذا بيان قوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُدَافِعُ عَنِ ٱلَّذِينَ آمَنُوا﴾ أي: يدفع عنهم غوائل الكفار بأن يبيح لهم القتال وينصرهم)، ثم قال في قوله: ﴿وَلَوْلَا دَفْعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَهُدِّمَتْ صَوامِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَاتٌ وَمَسَاجِدُ﴾: (أي: لولا ما شرعه الله تعالى للأنبياء والمؤمنين من قتال الأعداء لاستولى أهل الشرك وعطلوا ما يبنيه أهل الديانات من مواضع العبادات، ولكنه دفع بأن أوجب القتال ليتفرغ أهل الدين للعبادة، فالجهاد أمر متقدم في الأمم وبه صلحت الشرائع واجتمعت المتعبدات، فكأنه قال: أذن في القتال فليقاتل المؤمنون، ثم قوى هذا الأمر في القتال بقوله: ﴿وَلَوْلَا دَفْعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ...﴾ الآية. أي: لولا القتال والجهاد لتغلب الباطل على الحق في كل أمة).

هذا المعنى المحكَم هو عينه المعنى الذي جاء في سورة البقرة بلفظ النص سواء، قال الله تعالى: ﴿وَلَوْلَا دَفْعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَفَسَدَتِ ٱلْأَرْضُ﴾ وكما جاءت آية الحج عقيب إذن الله تعالى للمؤمنين في قتال الكفرة الظالمين فكانت مؤكِّدة لشرعية القتال لدفع الظلم وتأمين الحياة في أقدس مظاهرها جاءت آية البقرة عقيب قصة جالوت وجنوده من نماذج الظلم والطغيان بجند طالوت من أهل الخير والإيمان، وهذا كالصريح في أن المراد بدفع الله الناس بعضهم ببعض تسليط أهل الصلاح والبر على أهل الفساد والفجور لينتصفوا منهم، ويقيموا عليهم ميزان الحق والعدل، ويأمن أهل الأديان على قداسة حرياتهم.

آية الدفع في البقرة رضيعة آية الحج

وفي آية البقرة يقول الإمام الرازي: (اعلم أنه تعالى لما بيّن أن الفساد الواقع بجالوت وجنوده زال بما كان من طالوت وجنوده وبما كان من قتل داود جالوت بيّن عقيب ذلك جملة تشتمل كل تفصيل في

هذا الباب، وهو أنه تعالى يدفع الناس بعضهم ببعض لكي لا تفسد الأرض فقال: ﴿وَلَوْلَا دَفْعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّفَسَدَتِ ٱلْأَرْضُ﴾ وهذا كلام يتسق تمام الاتساق مع كلامه الذي أشرنا إليه في آية الحج، فالآيتان من واد واحد هو وادي الجهاد، ودفع الظالمين ورد اعتداء المعتدين. بيد أن آية البقرة أجملت نتيجة عدم دفع الله الناس بعضهم ببعض باستسلام أهل الخير والصلاح لأهل الشر والفساد، فجعلتها فساد الأرض ومعناه شيوع الهرج والمرج وإثاره الفتن واستطالة الظالمين، وذيوع الكفر والإلحاد واستحواذ القلق والاضطراب والفزع على قلوب الضعفاء المظلومين فلا يستطيع متعبِّد لله أن يتعبد، ولا يأمن مؤمن أن يظهر إيمانه، ولا يتمكن مسلوب الحق مهدر الكرامة أن يجأر بشكواه، وإذا اجترأ فجأر بها فلن يجد سميعاً، ومن ثَم تتلف أعصاب الناس وتكثر فيهم الأمراض الفتاكة التي يولدها الكبت والخوف ويفسد المجتمع الإنساني فساداً لا صلاح معه، وهذا المعنى هو الذي ذكرته آية الحج في نتيجتها بعنوان تهديم وتخريب مواضع العبادات عند سائر الأمم كأنموذج لأبشع أنواع الفساد التي تترتب على كف أيدي المؤمنين عن الطغاة الظالمين، واستكانتهم لهم واستسلامهم لغوائلهم.

القرآن وتنازُع البقاء

وقد ذكرنا أن آية المدافعة تقرر سنة من سنن الله الكونية في المجتمع الإنساني، تلك هي سنة التدافع المركوز في طبيعة البشر لتنازع البقاء في الحياة، وأن الحروب ضرورة من ضرورات الاجتماع البشري على ظهر الأرض لاختلاف مطالب الأفراد والجماعات، وتشابك مصالحهم، وما طبعت عليه أنفسهم من الحرص وحب الذات ــ وهذا واقع يصدقه تاريخ الحياة ــ وأن أهل الإيمان والخير والصلاح يجب عليهم أن يدفعوا أهل الكفر والنفاق والشر والفساد، ليقللوا من

شرورهم وفسادهم في الأرض، ليبقي الوجود متوازن القوى، عامراً بهذا التدافع الذي يتيح للخير والخيِّرين البقاء في نماذج متلاحقة، تحقيقاً لسنّة الله الكونية في البقاء في هذه الحياة للصالحين أعمالاً.

وقد وعد الله المؤمنين ـ ليربط على قلوبهم ويثبت أقدامهم ـ بنصره إياهم، بالإشارة والعبارة، أما الإشارة ففي إسناد المدافعة عنهم إلى نفسه، وأنه جل شأنه هو الذي يتولى الدفاع عنهم، وفي ذكرهم بوصف الإيمان المتضمن لأنواع الخير والإصلاح: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُدَٰفِعُ عَنِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا﴾ وفي مقابَلتهم بذكر الخوّان الكَفور بعنوان الكراهية والسخط ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ خَوَّانٍ كَفُورٍ﴾ وفي إذنه للمؤمنين في قتال الظالمين وتذكيرهم بقدرته على نصرهم على آكد أسلوب ﴿وَإِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ﴾ وفي تعليل هذا الإذن في القتال بأفحش صور الظلم والطغيان ﴿ٱلَّذِينَ أُخْرِجُوا مِن دِيَٰرِهِم بِغَيْرِ حَقٍّ إِلَّآ أَن يَقُولُوا رَبُّنَا ٱللَّهُ﴾.

وأما وعده إياهم النصر بالعبارة الصريحة، ففي تقفيته لذكر سنة التدافع وما يترتب على إهمال هذه السنّة ـ والتقاعد عن إقامتها والاستعداد لها من قِبَل المؤمنين الصالحين المصلحين من تعطيل مظاهر الإيمان والإصلاح بتخريب مواضع العبادة، وإهدار أقدس الحريات ـ بإخباره صراحة بنصره لأهل الصلاح من المؤمنين، وعنونته عنهم بأنهم نصراء الله بإقامة أعلام الحق ودفع الظالمين، وبإتباع ذلك بما يخلع قلوب المفسدين، ويثلج أفئدة المصلحين الصالحين ﴿وَلَيَنصُرَنَّ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥٓ إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾ وهو نصر مؤكد، صدّره الله بأعظم أنواع التأكيد، وهو القسم المدلول عليه بأداته، وفي ذلك تنبيه على أن نصر الله للمؤمنين إنما يكون إذا استقاموا له على ما وصفهم به من الإيمان والأمانة، وحب الخير لعامة الناس وخاصتهم، وأخذ الأهبة للدفاع عن الحق والخير، ونصر الله بنصر دينه، وهذا كما قال تعالى في سورة محمد: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا إِن تَنصُرُوا ٱللَّهَ يَنصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ﴾.

دعائم نَصْر الله للمؤمنين

في القرآن الحكيم

وقد بيّن الله تعالى الأمور التي يحقق بها المؤمنون نصرهم لله تعالى ليستجلبوا نصره إياهم، ويستديموه حليفاً لهم فقال مبيناً خصائص وأوصاف الذين أذن لهم في القتال انتصافاً لأنفسهم من ظالميهم، ودفاعاً عن الحق، وتوطيداً لدعائم الإصلاح ممتناً عليهم بنعمة التمكين في الأرض: ﴿ٱلَّذِينَ إِنْ مَكَّنَّاهُمْ فِي ٱلْأَرْضِ﴾ أي: جعلنا لهم سلطاناً نافذاً، وآتيناهم قوة يدفعون بها عن الحق قوى الباطل ويستطيعون بها رد الاعتداد وردع الظالمين، وأوليناهم نعمة التأييد والرعاية، فلن يُغلَبوا ما داموا معتصمين بالحق والعدل، وهذا كما قال تعالى: ﴿وَنُرِيدُ أَنْ نَمُنَّ عَلَى ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوا فِي ٱلْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ ٱلْوَارِثِينَ وَنُمَكِّنَ لَهُمْ فِي ٱلْأَرْضِ...﴾، وآية الحج مسوقة لبيان الامتنان العام على الأمة كلها، حكاماً ومحكومين ورعاة ورعية، وولاة ومولى عليهم، لأن التمكين الممتن به كان للأمة باعتبارها جماعة أهل الحق الذين ظلموا من الطغاة المتجبرين، وهذا الظلم إنما وقع عليهم بوصفهم الشامل لهم كأمة ممثلة في أفرادها الذين لحقهم الظلم بضروب الأذى، وكأمة ممثلة في مبادئها التي هي دعائم الحق والخير والإصلاح، لا باعتبار ولاتها الحاكمين فقط، روي أن عمر بن عبد العزيز رحمه الله تعالى خطب الناس يوماً فذكر هذه الآية: ﴿ٱلَّذِينَ إِنْ مَكَّنَّاهُمْ فِي ٱلْأَرْضِ﴾ فقال: ألا إنها ليست على الوالي وحده، ولكنها على الوالي والمولى عليه، ألا أنبئكم بما لكم على الوالي من ذلكم، وبما للوالي عليكم منه؟ إن لكم على الوالي من ذلكم أن يأخذكم بحقوق الله عليكم، وأن يأخذ لبعضكم من بعض، وأن يهديكم التي هي أقوم ما استطاع، وإن له عليكم من ذلكم الطاعة التي لا يخالف سرها علانيتها:

ثم أثني الله عليهم بما جعله شرطاً في تحقيق نصره واستدامته، فقال: ﴿ٱلَّذِينَ إِنْ مَكَّنَّاهُمْ فِي ٱلْأَرْضِ أَقَامُوا ٱلصَّلَاةَ وَآتَوُا ٱلزَّكَاةَ وَأَمَرُوا بِٱلْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا عَنِ ٱلْمُنْكَرِ﴾، فخص بالذكر ثلاثة أمور من أركان الإسلام وشرائعه، وجعل تحقيقها شرطاً لتحقيق نصر الله لهم.

الدعامة الأولى: الصلاة

أولاً: الصلاة، وهي أرفع مظاهر الشكر للخالق المنعِم بما في هيئتها من خضوع وتذلل وخشوع، وبما اشتملت عليه من أسمى مراتب العبودية لله الواحد الأحد، وبما تضمنته من تفريده بالتوجه إليه بما لا ينبغي لسواه، وهي أجلّ دعائم الإيمان بما فيها من الانقطاع بالاشتغال بها عن كل ما سوى الله تعالى، فهي عماد الدين، من أقامها كاملة بحقيقتها الروحية فقد أقام الدين كله، ومن هنا قال النبي ﷺ: «وجعلت قرة عيني في الصلاة»، وكان ﷺ إذا حزبه أمر فزع إلى الصلاة، ولهذا اختصت من بين أركان التعبد بأنها تنهى عن الفحشاء والمنكر، وإلى هذه المعاني أشار عمر بن الخطاب رضي الله عنه بقوله فيها: (من حفظها وحافظ عليها حفظ دينه، ومن ضيعها فهو لما سواها أضيع)، فهي ميزان كمال الإيمان ونقصانه، ولا دين لتاركها تهاوناً بحقها، واستهانة بحرمتها، ولا أمانة لمن لا دين له.

وحديث المخدوعين من الأغرار عن الضمير والأخلاق بغير دين تقام أركانه ويحافظ على شعائره في سلوك الإنسان، هراء سخيف، بل هو شعبة من أخبث شعب الإلحاد والضلال.

الدعامة الثانية: الزَّكاة

ثانياً: الزكاة، وهي أخت الصلاة وصاحبتها الملازمة لها في القرآن، وهي ركن المال الذي شرعه الله ليكون وسيلة من أهم وسائل التكافل الاجتماعي بين أفراد الأمة، تربط قلوبهم برباط المودة

والمؤاساة والتعاطف، وتطهر القلوب من الأحقاد: ﴿خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِم بِهَا﴾ فتسود المحبة والإخاء بين عامة الأمة وخاصتهم، ويكونون يداً على من سواهم.

والزكاة ليست إحساناً مذِلًا، ولكنها حق واجب، أوجب الله أخذها من مانعيها قسراً، ولو أدى ذلك إلى قتالهم، وقد أنزل أبو بكر الصديق رضي الله عنه مانعي الزكاة ـ علانية بتألب وتجمع ـ منزلة المرتدين، وقاتلهم قتالهم سواء بسواء، وقال فيهم كلمته المشهورة: (والله لو منعوني عقالاً كانوا يؤدونه لرسول الله ﷺ لقاتلتهم عليه) ووافقه على ذلك جميع من حضره من أصحاب رسول الله ﷺ.

الدعامة الثالثة: الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر

ثالثاً: الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وهما أمران متلازمان في التعبير القرآني، فما ورد أحدهما في آية من آيات الكتاب الحكيم إلا كان معه صاحبه، وهما متلازمان على ألسنة الناس، وفي مقالاتهم ومداد أقلامهم، ومتلازمان في واقع الحياة، فما من معروف يؤمر به أو يقع موقعه في الوجود الواقعي بين الأحياء إلا كان في ضمنه منكر ينهى عنه، أو تفقده الحياة وهي قريرة العين بفقده، وهذه الحقيقة المزدوجة بالإيجاب والسلب، والإثبات والمحو، هي خصيصة الأمة الإسلامية التي كانت بها خير أمة أخرجت للناس، يقول الله تعالى: ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ﴾.

الإيمان بالله عماد كل خير

وقد يبدو غريباً ـ لأول النظر في التعبير القرآني ـ في هذه الآية المفضِّلة للأمة الإسلامية على سائر الناس تقديم الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر على الإيمان بالله في الذكر والترتيب اللفظي، مع أن

الإيمان هو العماد لاعتبار جميع ما يصدر عن الإنسان من خير وبر.

ولكن الأمر عند التأمل يكشف عن براعة التعبير القرآني، ودقة ترتيبه الأمور على وفق الغرض الذي سقيت لأدائه في التعبير. ذلك أن هذه الآية سيقت لبيان أن هذه الأمة المحمدية ادخرها الله في ضمير الغيب حتى أخرجها آخر الأمم، تحمل في قلبها وروحها خاتمة الهدايات الإلَهية وأكملها لتخرج بها الناس من الظلمات إلى النور، فتكون بذلك خير الناس للناس، ومدار هذه الخيرية يجب أن يتمثل في اختصاصها بنعوت وحقائق من الأوصاف امتازت بها عن غيرها من الأمم، ولا يصح أن يكون غيرها مثلها في تلك الحقائق والنعوت، والإيمان بالله حقيقة لا تتفاوت في صحة تحقيقها ووجودها، فهو حقيقة واحدة، أينما وجدت فهي عينها، وهذه الحقيقة الإيمانية الواحدة كما هي وصف متحقق في الأمة الإسلامية فقد كانت كذلك وصفاً لغيرها من الأمم السابقة، فلا اختصاص للأمة الإسلامية بهذه الحقيقة الإيمانية بالنسبة للمؤمنين من قبلها، ولا امتياز لها فيها، فلا تكون بمجردها خير الناس للناس.

خصيصة امتياز الأمة الإسلامية

وإنما اختصاص الأمة الإسلامية الذي فضلت به على غيرها، والذي أخرجت من ضمير الغيب ليكون هدفها، هو بذلها المهج والأرواح في دعوتها الناس إلى الخير، بالترغيب في فعل ما ينبغي من البر والخير والعمل الصالح القائم على العلم والمعرفة والعزة والكرامة، وهو المعبَّر عنه بالأمر بالمعروف، أو الترغيب في ترك ما لا ينبغي من الكفر بالله والكنود والشر والجهل بأسرار الكون، وإهدار البحث على مقتضى خصيصة العقل الإنساني، والرضا بالعبودية للمخلوق، وهو المعبَّر عنه بالنهي عن المنكر، وإلى ذلك يشير قول الله تعالى في الآية الآمرة أمراً تكافلياً ﴿وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى ٱلْخَيْرِ

وَيَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنْكَرِ وَأُولَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾ وتأويله عند علمائنا: كونوا أمة داعية إلى الخير فعلاً وتركاً.

والمتمرسون بالأسلوب العربي يعلمون من طرائقه أنه يجري على تقديم ما هو الأصل أو كالأصل في القصد والعناية لتحقيق الغرض المسوق له الكلام على تقديم ما هو الأصل في الوقوع الخارجي، فالإيمان بالله تعالى أصل في اعتبار وقوع الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر موقعهما، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر أصل في اختصاص الأمة الإسلامية بكمال أدائهما باعتبارهما الوسيلة الإصلاحية العظمى، فهي الأمة الوحيدة التي ترى القتال وبذل الأرواح والمهج شريعةً لتحقيق الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر في أعلى صورهما من الدعوة إلى توحيد الله والنهي عن الشرك والإلحاد ومقاومة الظلم إذا لم يتحققا بغير الجهاد والقتال، وهذا هو الذي أوجب خيرية الأمة الإسلامية على سائر الأمم لذلك قدمهما التعبير القرآني في الذكر وأخر عنهما الإيمان بالله في هذه الآية الكريمة.

والاكتفاء في الآية بذكر الإيمان بالله دون قرنه بذكر الإيمان بالنبوة وغيرها من أشطر الإيمان المعتبر إنما هو لاستلزامه لها وعدم اعتباره بدونها وهو الأصل المتضمن لها. قال الإمام فخر الدين الرازي: (الإيمان بالله يستلزم الإيمان بالنبوة، لأن الإيمان بالله لا يحصل إلا إذا حصل الإيمان بكون الله تعالى صادقاً في جميع ما أخبر به، والإيمان بهذا الصدق لا يحصل إلا إذا كان الذي أظهر المعجز على وفق دعواه صادقاً، لأن المعجز قائم مقام التصديق بالقول، فلما شاهدنا ظهور المعجز على وفق دعوى محمد ﷺ كان من ضرورة الإيمان بالله الإيمان بنبوة محمد ﷺ، فكان الاقتصار على ذكر الإيمان بالله تنبيهاً على هذه الدقيقة) انتهى كلام الرازي.

ونحن ننبه المؤمنين من أهل العلم ومن يستمعون إلى القرآن

ويشتغلون بـه قـراءة ودرسـاً إلى أن هـذا الأسـاس العلمي المنـطقي الواضـح في فهم هذه الآية الكريمـة هو الـذي يجب أن تفهم على مثله آيات القرآن التي أفردت الإيمان بالله تعالى بالذكر ولم تقرن بـه الإيمان بالنبوة من نحو قولـه تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّـذِينَ آمَنُوا وَٱلَّـذِينَ هَادُوا وَٱلنَّصَـارَى وَٱلصَّابِئِينَ مَنْ آمَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ وَعَمِـلَ صَالِحـاً فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْـدَ رَبِّهِمْ وَلَا خَـوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْـزَنُـونَ﴾[1]، لا كمـا يحـرفهـا بعض الملاحدة وتابعهم بعض الأغمار من الجاهلين المغرورين، وزعمـوا أن الإيمـان بالنبـوة ليس شرطـاً في اعتبار الإيمـان المنجي من عذاب الله، وهذا إلحاد في آيات الله أو جهل بـأصول الـدين، لأن الإيمان بـالله من غير أن يقرن به الإيمان برسوله لا وزن له ولا اعتبار عند الله لأنه مصادم لتصديق الله لرسوله في تأييده بالمعجز على وفق دعواه والمصادمـة لهذا التصديق رد على الله بالتكذيب، وليس فوق ذلـك كفر وإلحـاد، وهؤلاء وأضرابهم هم الذين يقـول الله فيهم: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُلْحِـدُونَ فِي آيَاتِنَـا لَا يَخْفَوْنَ عَلَيْنَا أَفَمَنْ يُلْقَى فِي ٱلنَّارِ خَيْرٌ أَمْ مَنْ يَأْتِي آمِناً يَوْمَ ٱلْقِيَامَةِ ٱعْمَلُوا مَـا شِئْتُمْ إِنَّهُ بِمَـا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾[2]، ويقـول سبحـانـه: ﴿وَلَا يَحْـزُنْـكَ ٱلَّذِينَ يُسَارِعُونَ فِي ٱلْكُفْرِ إِنَّهُمْ لَنْ يَضُرُّوا ٱللَّهَ شَيْئاً يُرِيدُ ٱللَّهُ أَلَّا يَجْعَـلَ لَهُمْ حَظّاً فِي ٱلْآخِرَةِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾[3]، وليتـأمل هؤلاء الملتـاثون في عقـولهم، إن كانـوا يؤمنون بـالكتاب كله، قـول الله تعـالى: ﴿فَـلَا وَرَبِّـكَ لَا يُؤْمِنُـونَ حَتَّى يُحَكِّمُـوكَ فِيمَـا شَجَـرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِـدُوا فِي أَنْفُسِهِـمْ حَـرَجـاً مِمَّـا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُـوا تَسْلِيمـاً﴾[4]، فـإن الله تعـالى لم يـرض منهم بالإيمـان حتى يُحكِّموا رسـوله وتسلم نفـوسهم من الحرج والضيق بحكمه ويسلموا له تسليماً.

(١) سورة البقرة: الآية (٦٢).
(٢) سورة فصلت: الآية (٤٠).
(٣) سورة آل عمران: الآية (١٧٦).
(٤) سورة النساء: الآية (٦٥).

ويقول عز شأنه: ﴿وَمَنْ يُطِعِ ٱلرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ ٱللَّهَ﴾[1]، فقد جعل طاعة رسوله طاعة له.

الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر
أساس الإصلاح في الإسلام

والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر هما أساس دعائم الإسلام التي قام عليها بناؤه الإصلاحي في جميع أدواره التاريخية، بل هما في الحقيقة لباب الدعوة الإسلامية من أول سطر في كتاب تاريخها، فهما عماد إصلاح الأفراد والجماعات، بل هما عماد إصلاح العالم لو استطاع الناس أن يقيموا ميزانهما بالحق والعدل.

وليس الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر كما يفهم العامة وكثير من الخاصة كلاماً وعظياً يلقي هنا وهناك، وإنما الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ـ كما أقامهما الإسلام في شريعته ـ جهاد في سبيل الحق والخير والعدل والإيمان والأمن، باليد واللسان والقلب.

مراتب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر

وعلماؤنا يرَون الأمر في المراتب الثلاث المذكورة في الحديث الصحيح «من رأى منكم منكراً فليغيره بيده، فإن لم يستطيع فلبسانه، فإن لم يستطيع فبقلبه وذلك أضعف الإيمان» على التوزيع، فمرتبة اليد إنما تجب على السلطان وصاحب التنفيذ الشرعي، لأنه هو المكلف إقامة الحدود وله حق التعزيز، ومرتبة اللسان إنما تكون للعلماء لأنهم هم الذين يميزون المعروف فيأمرون به، ويعرفون المنكر فينهون عنه، ويتخذون لكل حالة أسلوبها من اللين والشدة ويقدرون الوقائع ويعرفون اختلاف المجتهدين فيها وفي أحكامها، وهم الذين يمكنهم حملها على محاملها الصحيحة. ومرتبة الإنكار بالقلب حظ

(١) سورة النساء: الآية (٨٠).

العامة من الناس، قال الإمام القرطبي: (قال العلماء: الأمر بالمعروف باليد على الأمراء وولاة الأمور، وباللسان على العلماء، وبالقلب على عوام الناس).

وإذا كان واجب ذوي السلطان وولاة أمور المسلمين وحكامهم ممن مكنهم الله في الأرض عظيماً ومسؤوليتهم عند الله خطيرة، فإن واجب العلماء أعظم ومسؤوليتهم أخطر، لأن الله تعالى أخذ عليهم الميثاق أن يبينوا للناس دين الله في غير مداهنة، وأن يعلموهم شرائعه كما أنزلها بعيدة عن الإفراط والتفريط، وأن يكونوا في سمعتهم وسلوكهم قدوة في أخذ أنفسهم بالعمل بما يقولون من حق وهدى، قال الله تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَاقَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا ٱلْكِتَابَ لَتُبَيِّنُنَّهُ لِلنَّاسِ وَلَا تَكْتُمُونَهُ﴾[1]، قال الحسن وقتادة: هي في كل من أوتي علم شيء من الكتاب، فمن علم شيئاً فليعلمه؟ وإياكم وكتمان العلم فإنه هلكة.

وقال تعالى: ﴿أَتَأْمُرُونَ ٱلنَّاسَ بِٱلْبِرِّ وَتَنْسَوْنَ أَنْفُسَكُمْ وَأَنْتُمْ تَتْلُونَ ٱلْكِتَابَ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾[2]، وقال جل شأنه: ﴿فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ أَنْجَيْنَا ٱلَّذِينَ يَنْهَوْنَ عَنِ ٱلسُّوءِ وَأَخَذْنَا ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا بِعَذَابٍ بَئِيسٍ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ﴾[3]، وقال عز اسمه في النعي على علماء اليهود وأحبارهم مسجلاً عليهم الإثم بتركهم نهي العامة عن المنكر: ﴿لَوْلَا يَنْهَاهُمُ ٱلرَّبَّانِيُّونَ وَٱلْأَحْبَارُ عَنْ قَوْلِهِمُ ٱلْإِثْمَ وَأَكْلِهِمُ ٱلسُّحْتَ لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَصْنَعُونَ﴾[4]، ويجري مجرى هذه الآية في مقام أعم وأشمل قوله تعالى: ﴿فَلَوْلَا كَانَ مِنَ ٱلْقُرُونِ مِنْ قَبْلِكُمْ أُولُوا بَقِيَّةٍ يَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْفَسَادِ فِي ٱلْأَرْضِ إِلَّا قَلِيلًا مِمَّنْ أَنْجَيْنَا مِنْهُمْ﴾[5]، والمعنى أننا أهلكنا

---

(١) سورة آل عمران: الآية (١٨٧).

(٢) سورة البقرة: الآية (٤٤).

(٣) سورة الأعراف: الآية (١٦٥).

(٤) المائدة: الآية (٦٣).

(٥) سورة هود: الآية (١١٦).

من كان قبلكم بصب العذاب عليهم واستأصلنا شأفتهم لأنهم فقدوا من ينهاهم عن الفساد إلا قليلاً كانوا يقومون بهذا الواجب الاجتماعي فأنجيناهم.

الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر
مظهر للتكافل الاجتماعي في الإسلام

وللشريعة الإسلامية مسلك عجيب في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، ذلك أنها أقامته مظهراً للتكافل الاجتماعي الذي تخاطب به الأمة كلها خطاب تكليف، فإذا قام به أهل الكفاية منها كانت لها خلافة الله في الأرض وكانت أعز أمة أخرجت للناس، وإذا أهملته وقصرت في القيام به فقد حقت عليها كلمة الله، وقد قص الله علينا في كتابه الكريم نبأ قوم أقروا المنكر فيما بينهم فلم يتناهوا عنه فلعنهم الله وغضب عليهم وأحل بهم نقمته وبأسه، قال تعالى: ﴿لُعِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ بَنِي إِسْرَآئِيلَ عَلَى لِسَانِ دَاوُودَ وَعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ* كَانُوا لَا يَتَنَاهَوْنَ عَنْ مُنْكَرٍ فَعَلُوهُ لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ﴾[1]. وفي حديث ابن مسعود أن النبي ﷺ قال في تفسير هذه الآية: «كلا والله لتأمرن بالمعروف ولتنهون عن المنكر ولتأخذن علي يَدَي الظالم ولتأْطُرُنَّه على الحق أطراً، ولتقصرنه على الحق قصراً، أو ليضربن الله بقلوب بعضكم على بعض وليلعننكم كما لعنهم». وعند الترمذي من حديث حذيفة أن النبي ﷺ قال: «والذي نفسي بيده لتأمرن بالمعروف ولتنهون عن المنكر أو ليوشكن الله تعالى أن يبعث عليكم عقاباً من عنده ثم لتدعُنَّه فلا يستجيب لكم». وأخرج الإمام أحمد من طريق عدي ابن عميرة، قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إن الله لا يعذب العامة بعمل الخاصة حتى يرَوا المنكر بين ظهرانيهم وهم قادرون على أن

---

(١) سورة المائدة: الآيتان (٧٨، ٧٩).

ينكـروه فلا ينكـرونه، فـإذا فعلوا ذلك عـذب الله الخـاصـة والعـامـة».

وتصديق ذلك من القرآن الكريم في قوله تعالى: ﴿وَٱتَّقُوا فِتْنَةً لَا تُصِيبَنَّ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا مِنكُمْ خَآصَّةً﴾ قـال ابن عبـاس في تفسيرهـا: (أمـر الله المؤمنين ألا يقروا المنكر بين أظهـرهم فيعمهم العذاب). وفي صحيـح البخـاري عن النعمان بن بشيـر، أن النبـي ﷺ قال: «مَثـل القـائم على حـدود الله والواقـع فيهـا كمثـل استهمـوا على سفينـة فـأصـاب بعضهم أعلاها، وبعضهم أسفلها، فكان الذين في أسفلها إذا استقَوا الماء مروا على مَن فوقهم، فقالوا: لو أنا خرقنا في نصيبنا خرقاً ولم نؤذ مَن فوقنا، فـإن يتركـوهم وما أرادوا هلكـوا جميعاً، وإن أخـذوا على أيديهم نجَـوا ونجَوا جميعاً».

قال العلماء: في هذا الحديث استحقاق الأمة كلهـا العقوبـة بترك الأمر بالمعـروف والنهي عن المنكر، والفتنـة إذا وقعت هلك الجميـع، وذلك عند ظهور المعاصي وانتشار المنكر وعدم التغيـير من القادرين.

* * *



النموذج الثاني

(مع سورة فصّلت)

يقول الله تعالى في آخر سورة فصلت: ﴿سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي ٱلْآفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ﴾[1].

وسورة فصّلت هي السورة الثانية من الحواميم السبع والحادية والأربعون من سور القرآن في ترتيب المصحف الإمام، والناظر في هذه السورة بعين التأمل يرى أنها سورة كونية في أغلب آياتها، فهي قد بدأت بأن القرآن تنزيل من الرحمن الرحيم، ووصف الرحمة المستمدة من هذين الاسمين الكريمين في مفتتح السورة فيه إشعار إلى أن ما جاء في هذا الكتاب المبين عامة وفي هذه السورة خاصة من وعد ووعيد، وترغيب وتهديد، وتوجيه نظر إلى دلائل القدرة الإلٓهية في آيات الكون الآفاقية والأنفسية إنما هو رحمة من الله تعالى بعباده يدعوهم بها لينقذهم من الضلالة، ويرفعهم عن حضيض الجهالة.

ثم بينت السورة أن هذا القرآن فُصِّلت آياتُه بأسلوب عربي مبين، يبشر وينذر، وتتحدث عن فريق من الناس صموا آذانهم عن سماع الحق، وأغلقوا دون قلوبهم أبواب الهداية عناداً واستكباراً وظلوا في طغيانهم يعمهون، فلم تتألفهم البشارة، ولم يردعهم الإنذار، وتخاطبهم الآيات بأسلوب تعجيبي إنكاري يوجه العقل إلى النظر في الآيات الأرضية أولاً لأنها أقرب إلى حسهم وشعورهم ثم إلى الآيات السماوية

---

(١) سورة فصّلت: الآية (٥٣).

ثانياً لظهورها لأبصارهم وحاجتها إلى التأمل الصادق ببصائرهم ﴿قُلْ أَئِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِٱلَّذِي خَلَقَ ٱلْأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ، وَتَجْعَلُونَ لَهُ أَندَاداً ذَٰلِكَ رَبُّ ٱلْعَالَمِينَ، وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ مِن فَوْقِهَا وَبَارَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَا أَقْوَاتَهَا فِي أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَآءً لِلسَّآئِلِينَ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ إِلَى ٱلسَّمَآءِ وَهِيَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ٱئْتِيَا طَوْعاً أَوْ كَرْهاً قَالَتَا أَتَيْنَا طَآئِعِينَ فَقَضَاهُنَّ سَبْعَ سَمَٰوَاتٍ فِي يَوْمَيْنِ وَأَوْحَىٰ فِي كُلِّ سَمَآءٍ أَمْرَهَا وَزَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ وَحِفْظاً ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ﴾(١).

وليست الأيام المذكورة هنا في الآية هي أيام حياتنا التي نحياها، ولكنها تقدير إلّهي يقرب به إلى العقول تصوير تسخير القوى الكونية للقدرة الإلّهية القاهرة بما تأنس به وتألفه في متعارفها.

أخرج أبو عبيد عن طريق ابن أبي مليكة، قال: سأل رجل ابن عباس عن ﴿يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ أَلْفَ سَنَةٍ﴾ فقال له ابن عباس: (فما ﴿يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ﴾؟) فقال الرجل: إنما سألتك لتحدثني، فقال ابن عباس: (هما يومان ذكرهما الله في كتابه الله أعلم بهما.).

وإذ لم يبق لهؤلاء الطغاة المعاندين بعد النظر حجة أو عذر جاءهم الوعيد يجلجل بالتهديد ﴿فَإِنْ أَعْرَضُوا فَقُلْ أَنذَرْتُكُمْ صَاعِقَةً مِثْلَ صَاعِقَةِ عَادٍ وَثَمُودَ﴾(٢)، في تفصيل مرعب مخيف لقصة ما حل بالسالفين المتمردين، والعرب كانوا أقوم الناس بفهم القرآن وأعرفهم بمراميه وحقائقه لأنه بلغهتم ومجاري كلامهم نزل، ولأمر ما اختار سيدنا رسول الله ﷺ هذه السورة ليرد بها على محاوره عتبة بن ربيعة رسول قريش إليه، فكان لها أثرها العميق في نفس عتبة، وقد ينقدح في تفكير بعض الناظرين أنها اختيرت لهذا الموقف لكثرة ما فيها من الآيات

---

(١) سورة فصّلت: الآيات (٩ ــ ١٢).

(٢) سورة فصّلت: الآية (١٣).

الكونية التي إذا أعطيت حقها من النظر الصادق كـانت أفعل في نفـوس سامعيها، ولما فيها من قصص المعاندين من الخـوالي وما حـل بهم من أليم العذاب في الدنيا ولعذاب الآخرة أشد وأتقى.

روى أصحاب السيرة النبوية أن أبا جهل قال في ملأ من قـريش: التبس علينـا أمـر محمـد، فلو التمستم رجـلاً عـالمـاً بـالشعـر والسحـر والكهانة فكلمه، ثم أتانا ببيان عن أمره، فقال عتبة بن ربيعة: والله لقـد سمعت الشعر والسحر والكهانة وعلمت من ذلك علماً ومـا يخفى علي، فـأتاه فقـال: يا محمـد أنت خير أم هـاشم؟ أنت خير أم عبـد المطلب؟ أنت خير أم عبد الله؟ لم تشتم آلهتنا وتضللنا؟ فـإن كنت تريـد الريـاسة عقـدنا لـك اللواء فكنت رئيسنا، وإن تكن تـريد الـزواج زوجنـاك عشـر نسوة، أي بنات من شئت من قريش، وإن كنت تريـد المال جمعنـا لك ما تستغني به حتى تكون أكثرنا مالاً، ورسول الله ﷺ ساكت، فلمـا فرغ عتبة قال له النبـي ﷺ: «قد فـرغت يا أبـا الوليـد؟» فقال: نعم، قـال: «فاسمـع مني، قال: يا ابن أخي قل أسمـع، فقال النبـي ﷺ: بسم الله الرحمـن الرحيم، ﴿حمٓ تَنْزِيلٌ مِنَ ٱلرَّحْمَـٰنِ ٱلرَّحِيمِ كِتَابٌ فُصِّلَتْ آيَاتُهُ قُرْآنَاً عَرَبِيَّاً لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾، حتى بلـغ قوله تعالى: ﴿فَإِنْ أَعْرَضُوا فَقُـلْ أَنْذَرْتُكُمْ صَاعِقَةً مِثْلَ صَاعِقَةِ عَادٍ وَثَمُودَ﴾» فوثب عتبة ووضـع يـده على فم النبـي ﷺ، وناشده الرحم ليسكتن، ورجـع إلى بيته ولم يخـرج منه إلى قريش، فلما احتبس عنهم قالوا: صبأ عتبة، فـانطلقوا إليه، وقـالوا له: ما حبسك عنا إلا أنك قد صبأت، فقال لهم: لقـد كلمته فـأجابنـي بشيء ما هو بشعر ولا سحر ولا كهانة، فلما بلـغ مثل صاعقة عـاد وثمود أمسكت بفيه وناشدته الرحم، ولقد علمتم أن محمداً لا يكذب، إذا قال شيئاً وقـع كما قال، فخفت أن ينزل بكم العذاب.

ثم تابعت السورة هذا التهديـد الدنيـوي بتهديـد أخروي، فصلت فيه بعض مايحيق بالمعاندين الظالمين يـوم القيامـة من الفضوح وكشف

الأستار بشهادة أعضائهم وحواسهم وأردفت السورة ذلك كله ـ جرياً على سنة القرآن في تعقيب الوعيد بالوعد ـ بذكر ما أعده الله لأهل الاستقامة من ضروب الكرامة في دار النعيم، ثم عادت إلى تتميم ما بدأت به من ذكر الآيات الكونية في لون آخر ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ ٱللَّيْلُ وَٱلنَّهَارُ وَٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ لَا تَسْجُدُوا لِلشَّمْسِ وَلَا لِلْقَمَرِ وَٱسْجُدُوا لِلَّهِ ٱلَّذِي خَلَقَهُنَّ﴾[1]، ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَنَّكَ تَرَى ٱلْأَرْضَ خَاشِعَةً﴾ أي: مقفرة يابسة ﴿فَإِذَا أَنْزَلْنَا عَلَيْهَا ٱلْمَآءَ ٱهْتَزَّتْ وَرَبَتْ﴾[2]، أي: انبعثت فيها الحياة بعد موتها، ثم التفتت إلى الملحدين في آيات الله بتحريفها عن مواضعها أو بإهمال النظر فيها وتعطيلها، بأن الله عليم بهم لا يخفى عليه مكانهم ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي آيَاتِنَا لَا يَخْفَوْنَ عَلَيْنَا﴾[3]، ثم ختمت ذلك بقانون عام يقوم على أساسه نظام الحياة في الجزاء والعمل ﴿مَنْ عَمِلَ صَالِحاً فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ أَسَآءَ فَعَلَيْهَا وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ﴾[4].

ثم عرضت السورة نموذجاً للإنسان في أثَرته وحبه لذاته، وبطره بالنعمة، ويأسه عند حلول النقمة، فإن وجد عنده قوة تكبر وطغى، وإن ضعف ذل وتصاغر، وهو في حاليه معرض عن الحق إعراض سفه وجهالة ﴿لَا يَسْأَمُ ٱلْإِنْسَانُ مِنْ دُعَآءِ ٱلْخَيْرِ وَإِنْ مَسَّهُ ٱلشَّرُّ فَيَؤُسٌ قَنُوطٌ﴾[5]، ﴿وَإِذَا أَنْعَمْنَا عَلَى ٱلْإِنْسَانِ أَعْرَضَ وَنَأَى بِجَانِبِهِ وَإِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ فَذُو دُعَآءٍ عَرِيضٍ﴾[6]، ومن هنا خوطب الإنسان في نماذجه الضالّة بقوله تعالى: ﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كَانَ مِنْ عِنْدِ ٱللَّهِ ثُمَّ كَفَرْتُمْ بِهِ مَنْ أَضَلُّ

---

(١) سورة فصّلت: الآية (٣٧).
(٢) سورة فصّلت: الآية (٣٩).
(٣) سورة فصّلت: الآية (٤٠).
(٤) سورة فصّلت: الآية (٤٦).
(٥) سورة فصّلت: الآية (٤٩).
(٦) سورة فصّلت: الآية (٥١).

مِمَّنْ هُوَ فِي شِقَاقٍ بَعِيدٍ﴾[1]، قال الإمام الرازي في تفسيره: (وتقرير هذا الكلام أنكم ـ أيها المخاطبون المعاندون ـ كلما سمعتم هذا القرآن أعرضتم عنه، ولم تنظروا فيه، وبالغتم في النفرة عنه، حتى قلتم: قلوبنا في أكنة مما تدعونا إليه وفي آذاننا وقر. ومن المعلوم بداهة أن العلم بكون القرآن باطلاً ـ كما زعمتم ـ ليس علماً بديهياً، فقبل ذكر الدليل والتأمل فيه يحتمل أن يكون صحيحاً وبتقدير ذلك يكون إصراركم على دفعه وعدم قبوله من أعظم موجبات العقاب لأن العقل يوجب النظر في الدليل لمعرفة الحق).

نماذج للعقل المستنير

ولمّا استكملت السورة وجوه الدلائل القاطعة في السماوات والأرضين على وجود الله ووحدانيته وعظيم قدرته وظهر أن هؤلاء المعاندين كانوا نماذج للفطرة الفاسدة والجهالة الجاهلة وأنهم لم يستفيدوا من كتاب الكون الذي عرضه عليهم القرآن نبهت السورة في خاتمتها أن الله تعالى سيجعل من سلائل الإنسانية نماذج أخر يضيء عقولهم فيكشف لهم بها عن آياته في آفاق الحياة وجوانبها العلوية والسفلية، وفي أنفسهم وما انطوت عليه بنيتهم من أسرار التركيب وبديع الخلق، وذلك هو قول الله تعالى: ﴿سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي ٱلْآفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ﴾[2]. والمراد بآيات الأفاق: الآيات الفلكية والكوكبية، وآيات الليل والنهار، وآيات الأضواء والظلمات، وآيات عالم العناصر، وآيات المواليد، وقد أكثر من ذكرها في القرآن، والمراد بآيات الأنفس ما فيها من لطيف الصنعة وبديع الحكمة، قال الرازي: (والعجائب التي أودعها الله هذه الأشياء مما لا نهاية لها، فهو تعالى يطلع عباده

---

(١) سورة فصّلت: الآية (٥٢).

(٢) سورة فصّلت: الآية (٥٣).

على تلك العجائب زماناً فزماناً وحالاً بعد حال).

وهذا كلام صريح في فهم علماء الإسلام من آيات القرآن الحكيم أن الله أودع في مخلوقاته العلوية والسفلية أسراراً وعجائب، كشف العقل البشري عن بعضها بقدر ما كان لديه من وسائل علمية، وأدوات تجريبية، ويبقى كثير منها محجباً في ضمير الغيب، ولكن الله تعالى وعد بالكشف عنها عن طريق هذا العقل كلما استقامت له وسائل علمية جديدة، وهذه العجائب والآيات الموعود بالكشف عنها في مستقبل زمن الخطاب المباشر بالقرآن يجب أن تكون غير الآيات المشهورة لأولئك المخاطبين كالليل والنهار والشمس والقمر، والنجوم والسماء والأرض، فهي إما خصائص في هذه الآيات المشهورة لم تصل إليها عقول الماضين، أو آيات في عوالم أخرى يخلقها الله ويكشف عنها العلم.

نتائج العقول السليمة لا تصادم القرآن

فإذا حاول العقل الإنساني القيام بمهمته في تبيين عجائب آيات الله، وحاول أن يكشف عن أسرار هذه الكائنات بوسائله العلمية وآلاته التجريبية كان محققاً لوعد الله تعالى في قوله: ﴿سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي ٱلْآفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ﴾ حتى يظهر للعقلاء أن القرآن حق من عند الله وأن الرسول الأمي الذي نزل عليه صادق مؤيد من الله الذي أرسله للعالمين، وإذا وصل العقل في محاولته إلى حقيقة من الحقائق الكونية الصادقة فلا يمكن أن يصادم شيئاً من نصوص القرآن الحكيم الذي وكل إليه البحث عن هذه الآيات، وناط ببحثه الكشف عن أسرارها، وحينئذ يكون كشفه لشيء منها تفسيراً لقوله تعالى في سورة النحل: ﴿وَيَخْلُقُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾. وعلماء الإسلام منذ صدره الأول فقهوا عن الله ما رمز إليه من جلال ملكه وعظمة ملكوته، وذكروا في تفسير آية النحل عجائب لو ذكرت قبل أن يبلغ العقل البشري رشده، ويكشف عن آثار

غوصه في آيات الله لقال عنها الجاهلون ـ كما قال أسلافهم ـ: إنها أساطير الأولين.

بل إن علماء الإسلام منذ عصر الصحابة والتابعين فهموا أن هذا الكوكب الأرضي الذي نعيش فيه ما هو إلا واحد من سبعة كواكب أرضية كلها معمورة بخلق من خلق الله تعالى، يقول الألوسي في تفسير قوله تعالى: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ وَمِنَ ٱلْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ﴾: (قال الجمهور: مثلية الأرض هنا في كونها طباقاً بعضها فوق بعض، بين كل أرض وأرض مسافة كما بين السماء والأرض، وفي كل أرض سكان من خلق الله عز وجل، لا يعلم حقيقتهم إلا الله تعالى. قال العلماء: وهذا تأويل ما ورد في صحيح البخاري من قول النبي ﷺ في دعائه: «اللهم رب السموات السبع، وما أَظْلَلْن ورب الأرضين السبع وما أَقْلَلْن»).

ثم قال رحمه الله: (وحيث كان من أصولنا ـ نحن المسلمين ـ أنه متى عارض الدليل العقلي، أو الواقع القطعي القائم على التجربة والمشاهدة التي لا تحتمل الشك، الدليل السمعي، وجب تأويل الدليل السمعي، لأجل مطابقة الدليل العقلي في مقتضاه، لأن الدليل العقلي أصل الدليل السمعي، ولو أبطل الدليل العقلي بالدليل السمعي لزم بطلان الدليل السمعي نفسه، وباب التأويل أوسع من فلك الثوابت، ولا أرى بأساً في ارتكاب تأويل بعض ظواهر النصوص المستبعدة بما لا يستبعد، وإن لم يصل الاستبعاد بالمعنى الذي دل عليه ظاهر النص إلى حد الامتناع، إذا تضمن ذلك مصلحة دينية، ولم يستلزم مصادرة معلوم من الدين بالضرورة، وقد يستلزم الإبقاء على الظاهر، وتفويض الأمر إلى قدرة الله تعالى التي لا يتعاصاها شيء، رعاية لأذهان العوام المقيدين بالظواهر، الذين يعدون الخروج عنها لا سيما إلى ما يوافق الحكمة الجديدة (العلم الحديث) ضلالاً محضاً، وكفراً صرفاً،

وبالجملة: من صدق بسعة ملك الله تعالى، وعظيم قدرته عز وجل ينبغي أن لا يتوقف في وجود سبع أرضين على الوجه الذي قدمناه وليس في ذلك ما يصادف ضرورياً من الدين، أو يخالف قطعياً من أدلة المسلمين)، اهـ. والحرص على صيانة عقائد العوام وعدم الإلقاء بهم في لجج الحيرة بإسماعهم ما يتعاصى على عقولهم فهمه، وعدم تعريضهم للفتنة في عقائدهم السليمة هو الذي استهدفه حديث البخاري عن علي كرم الله وجهه: (حدثوا الناس بما يفهمون، أتريدون أن يُكذَّب الله ورسوله).

والناس في عقولهم الفطرية المكتسبة درجات متفاوتون، فمنهم الذكي العليم الذي يطلب الحق ويحرص على البحث عنه، لأنه حق، يرغب فيه لذاته، ومنهم الجدلي المنحرف عن الجادة الذي لا يطلب حقاً، ولا يقصد إلى هدف، ومنهم العامي الساذج الذي تحركه الرغبة والرهبة، وتتملكه العواطف الفوارة، حظه من العقل الفطري حظ عامة الأحياء، ولا حظ له في عقل مكتسب.

وقد جعل الله تعالى لكل صنف من هؤلاء لوناً من الخطاب يليق به وذلك في رأي حكماء العلماء هو تأويل قوله تعالى: ﴿ٱدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلْحِكْمَةِ وَٱلْمَوْعِظَةِ ٱلْحَسَنَةِ وَجَٰدِلْهُم بِٱلَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾[1]، فجعل الدعوة إلى سبيل الله، وهو الحق والخير، والبر والإحسان، والعدل والرحمة، على ثلاثة أوجه:

الوجه الأول: الدعوة بالحكمة، وهي خصيصة العلماء الراسخين الذين يلتمسون الحق للحق، فالحق في ذاته غايتهم وهدفهم.

الوجه الثاني: الدعوة بالموعظة الحسنة، وهذه وسيلة العامة الذين يسكنون إلى الوعد طمعاً في الجزاء ورغبة في الثواب، ويفيئون إلى الوعيد خوفاً من الآلام ورهبة من العقاب.

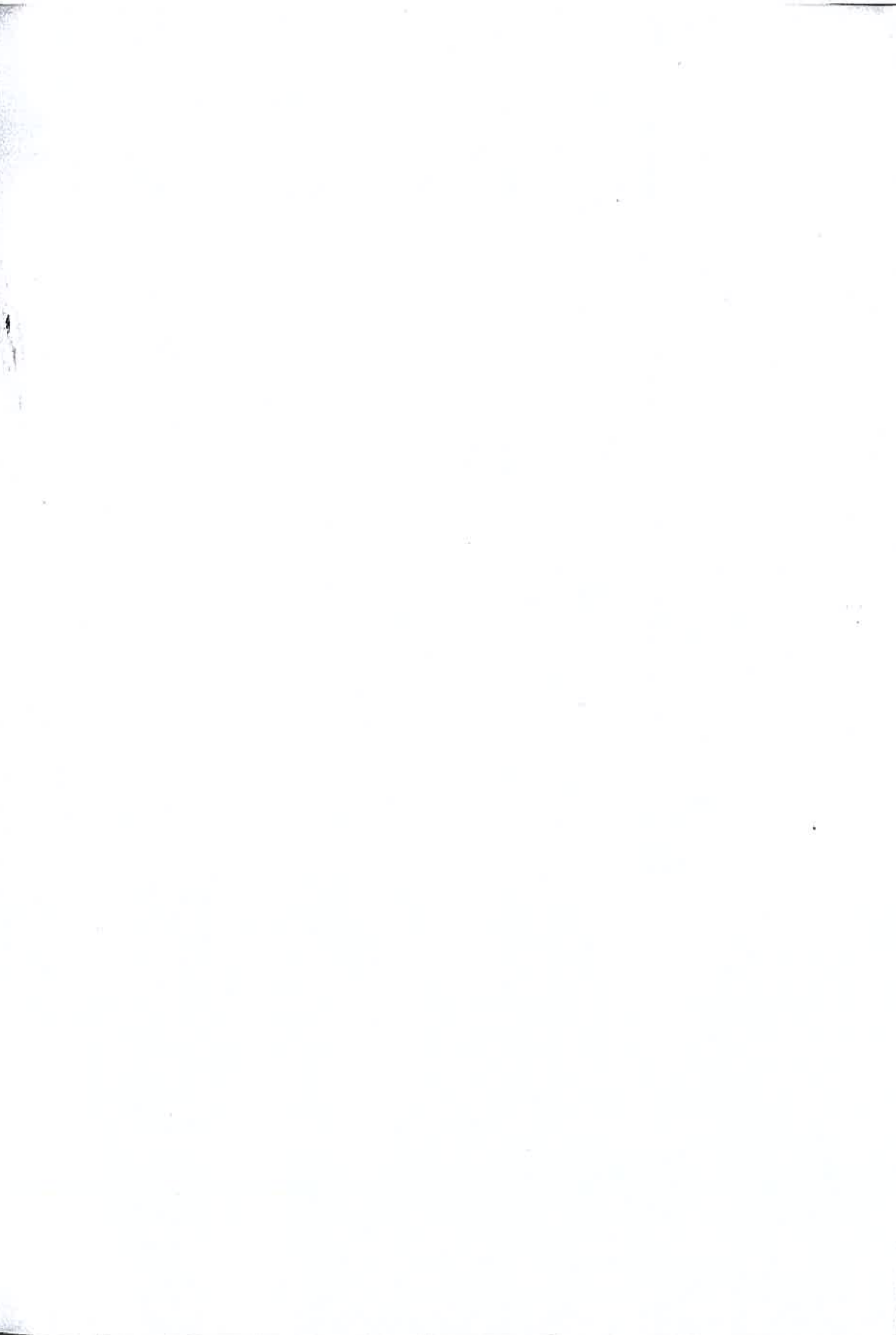
---

(١) سورة النحل: الآية (١٢٥).

الوجه الثالث: المجادلة بالتي هي أحسن، وهذه خصيصة العقول التي لا تقصد إلى شيء ولكنها تجادل للجدل فحسب، وقد أوصى القرآن الحكيم بأن يكون الحديث والحوار مع هؤلاء ـ تلطفاً معهم ـ بالطريقة التي هي أحسن الطرق وأمثلها أدباً وعلماً ورحمة، لتجذبهم إلى جانب الحق ﴿إِنَّ هَذَا ٱلْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ وَيُبَشِّرُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْراً كَبِيراً﴾[1].

* * *

(١) سورة الإسراء: الآية (٩).



القرآن كتاب هداية ومعجزة نبوة

فالقرآن دستور هداية موجِّه يرسم للإنسانية طرائق حياتها ويربي أفرادها وجماعاتها، وهو قانون يشرع لها أحكام الوقائع والأحداث لتحقيق كافة مصالحها التي تقع بين طرفي العدل والرحمة، وكتاب مؤسِّس لعقيدتها ونظام تعبّدها، وقائد يسوسها بتعاليمه، أنزله الله للهداية وإقامة دعائم العدل والرحمة والمحبة، فإذا تحدث عن آيات الله في الآفاق والأنفس فهو لا يقصد إلى تحقيق نظريات علمية قائمة على التحليل المادي أو الاختبار التجريبي، أو قياس المسافات ومعرفة أقدار الأجرام عرضاً وطولاً وسمكاً، أو تأليف العناصر وتحديد ما ينشأ عن امتزاجها وتركيبها من مواد جديدة، أو حساب درجة سير الكواكب ومقادير الفضاء بينها وما في هذا الفضاء من مخلوقات جزئية، إلى نحو ذلك من أبحاث علمية يقوم بها العلماء في معاملهم ومدارسهم بوسائلهم الخاصة مما لا يمكن القطع بصحة جميع قضاياه ونظرياته، ولا يمكن التشكيك في آثاره المشهودة.

وإنما يقصد القرآن من ذكر آيات الله في الكون وأسرار الوجود إلى إيقاظ العقول لتنهض بواجبها في كشف الحقائق الكونية لتصل أولاً وقبل كل شيء إلى معرفة الخالق العظيم وإلى معرفة عظمة ملكه وسعة سلطانه، وصدق أنبيائه ورسله، وتتحرر من التعبّد للمخلوقين، لتفرد الخالق بالتقديس، وتستخدم هذه الكشوف التي تصل إليها في إنهاض الإنسانية ونفعها وترقيتها في مدارج الكمال البشري حتى تحقق رسالتها

في الحياة.

ومن هنا نرى أنه لا ينبغي أبداً أن يعرض القرآن في تفسير آياته الكريمة للهزات التجريبية فتحمل على نظريات العلم الحديث وكشوفه على أنها المعنى المراد من الآية فيقال: إن النظرية «كذا» أو اختراع كذا أو كشف كذا مذكور في القرآن، وإن القرآن أراده عينه في آية من آياته كما يفعل بعض المتحمسين في حسن نية وقصد بريء.

والذي يجب أن يقال: إن القرآن الحكيم في جميع ما تحدث عنه من تشريع وأدب وأخلاق وسياسة واجتماع وبرهنة على العقيدة وعرض لجمال الكون وآياته الباهرة، لا يمكن على مدى الدهور والأزمان مهما اتسعت دائرة العلم والاختراع واستبحرت الحضارات المستقيمة أن تصادم آياته الكريمة علماً مقطوعاً بحقيقته، ولا كشفاً عُرفت مباديه ونهاياته، وسائر ظروفه التي أحاطت بوجوده، ضرورة أن القرآن دستور شريعة إلٓهية عامة خالدة، خاتمة للشرائع السماوية فهو حق من عند الله، والحق لا يضاد الحق، فإن جاءت هذه المصادمة عمدنا إلى قانون التأويل العربي الصحيح على ما سبق في كلام الألوسي. ويقول الحكيم ابن رشد: (وإذ كانت هذه الشريعة الإسلامية حقاً وداعية إلى النظر المؤدي إلى معرفة الحق، فإنا معشر المسلمين نعلم على القطع أنه لا يؤدي النظر البرهاني إلى مخالفة ما ورد به الشرع، فإن الحق لا يضاد الحق، بل يوافقه ويشهد له، ونحن نقطع قطعاً أن كل ما أدى إليه البرهان القطعي وخالفه ظاهر الشرع أن ذلك الظاهر يقبل التأويل على قانون التأويل العربي، وهذه القضية لا يشك فيها مسلم).

وفي هذا الإطار عرض بعض العلماء والمفسرين لتفسير الآيات الكونية من آيات القرآن الحكيم، فقد رأى هذا البعض في تلك الآيات مجالاً للاحتمال، فأشار إلى سعة دائرة المعنى فيها، وأنها قد تقبل

التفسير في إطار بعض النظريات العلمية، ولكنهم لم يقولوا أبداً إن هذه النظريات هي المعنى المراد من الآية، واتساع دائرة المعنى في آيات القرآن لون من ألوان إعجازه الذي يعنون خلوده وعموم رسالته.

والعقل الإنساني ـ في نظر علماء الإسلام ـ هو صاحب السلطان الأول في الكشف عن حقيقة معنى آيات الله الكونية في الأنفس والآفاق في حدود طاقته، والقرآن العظيم موجه للعقل ومرشد، يأخذ بيده إلى أول الطريق، ويدفعه دفعاً إلى النظر والبحث، وعلى هذا السنن سلك علماء الإسلام في حياتهم العلمية الرائعة الغامرة، يوم أن كانت الأمة الإسلامية حرة موحدة قوية، تملي على الحياة إرادتها، وترفع فوق الآفاق رايتها، والعلم لا يعيش إلا في مجال الحرية، وفي ظل هذه الحرية الفكرية نهض علماء الإسلام، فلم يقفوا دون علم من العلوم إلا اقتحموا لُجّته، ولا فن من فنون المعرفة إلا خاضوا بحره بشغف بالغ وحب للعلم وتقديس للعقل بأسلوب واقعي، يجمع بين نظر العقل والمشاهدة دون أن يفتحوا على عقولهم وقلوبهم أبواب التأويل المحرف لحقائق المعاني القرآنية، فآتاهم الله من فضله ما بلغوا به ذروة الفضل في العلوم والمعارف في حدود طاقاتهم، وحدود ما كان لديهم من وسائل التفكير والتدوين، فجزاهم الله عن كتابه ودينه خير ما يجزي به المجاهدين المخلصين، وسلك بنا طريقهم في الجهاد والإخلاص، وفتح لنا عيون منابع التفقه في دينه والتفكير في كتابه: القرآن العظيم.

• • •

ومختتم الحديث ما ألهم الله من محامد في مبتدئه، فاللهم لك الحمد بجميع المحامد، ولك الحمد حمداً يوافي نعمك ويكافىء مزيدك، ولك الحمد كما ينبغي لجلال وجهك وعظيم سلطانك، ولك الحمد كما حمدت نفسك، ولك الحمد كما أنت أهله، واللهم إني

أسألك بعز ربوبيتك أن تطرحني بين يديك على أبواب ذل عبوديتي لـك وحـدك، وأن تغنيني بالافتقـار إليك عن الحـاجة إلى أحـد من خلقك، وأن تصلي وتسلم على سيـدنـا ومـولانـا حبيبـك ومجتبـاك سيـد الأولين والآخرين محمد خاتم النبـيين وسيد المرسلين وآله وأصحابه وأهـل وده من أوليائك المخلصين.

* * *

فهرست الكتاب

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة

وسبحان الله، والحمد لله، ولا إلَـه إلا الله، والله أكبر،
ولا حول ولا قوَّة إلاّ بالله العليّ العظيم

* * *